رواية

على هامش السيرة الذاتية

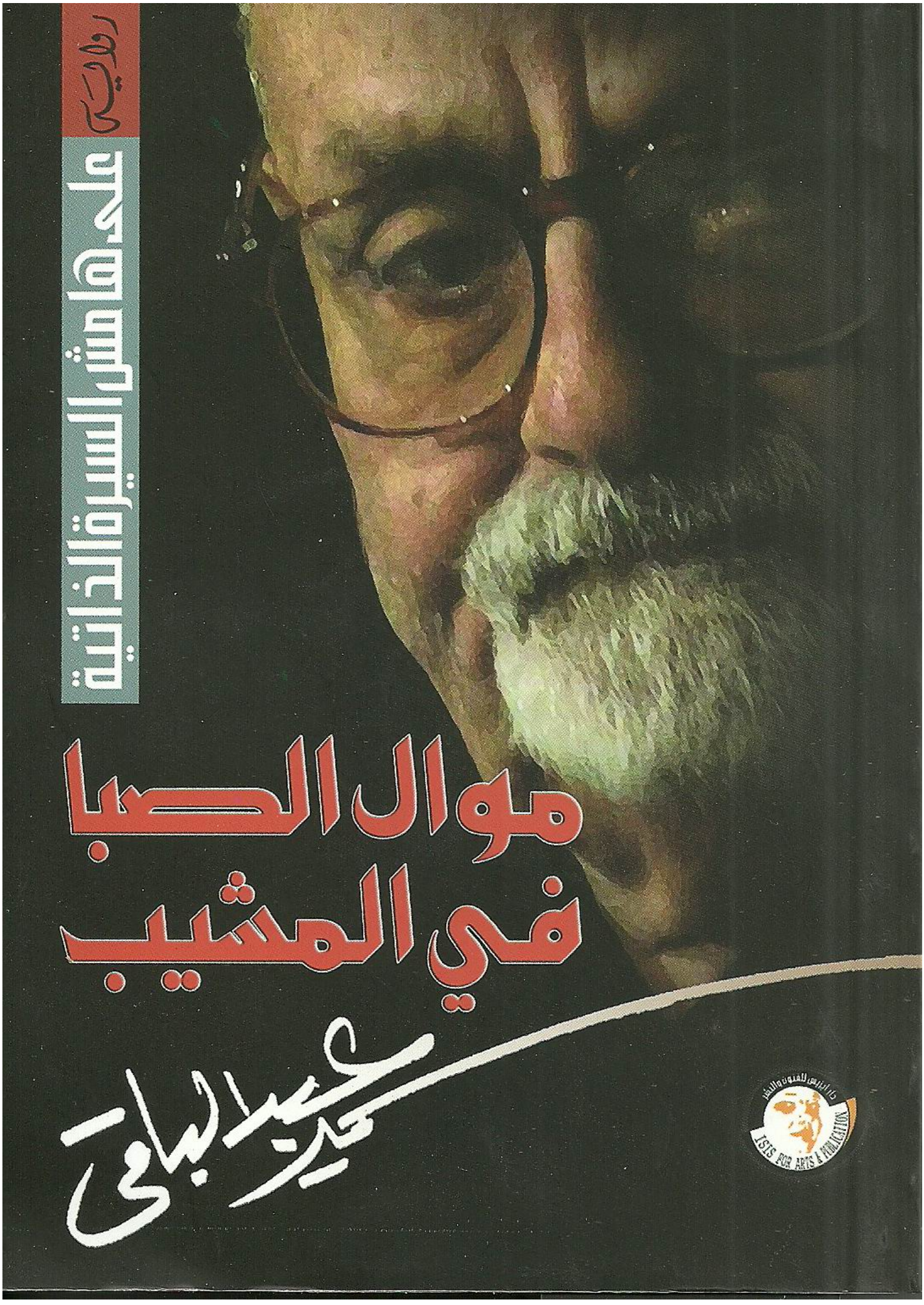

موال الصبا في المشيب

سعيد الباهي

دار ايزيس للفنون والنشر
ISIS FOR ARTS & PUBLICATION

موَّال الصِّبا في المشيب

رواية قد تكتمل .. غدًا

على هامش السيرة الذاتية

موَّال الصِّبا في المشيب

رواية قد تكتمل .. غدًا

سمير عبد الباقي

دار إيزيس للفنون والنشر

موَّال الصِّبا في المشيب

رواية قد تكتمل .. غدًا

سمير عبد الباقي

دار إيزيس للفنون والنشر

الناشر: دار إيزيس للفنون والنشر

العنوان: ٢ أ شارع طه حسين – الزمالك القاهرة.

هاتف : ٢٧٣٦١٣٦١(٠٢)

محمول : ٠١١٢٦٩٥١٩٥

بريد الكتروني : dar¬isis@yahoo.com

صورة الغلاف:

تصوير : وسام الدويك

تصميم الغلاف :

اهداء من الفنان محمد كامل (كامل جرافيك)

التصميم الداخلي:

صالح عبدالعزيز

المدير العام :

سوزان التميمي

رقم الإيداع : ٢٠١٣/٣٠٢٦

الترقيم الدولي: I.S.B.N : 978–977–6367–53–1

جميع الحقوق محفوظة ©

الطبعة الأولى – ٢٠١٣

عبدالباقى ، سمير
موال الصبا في المشيب: رواية قد
تكتمل .. غدا / سمير عبدالباقى :- ط١.-
دار إيزيس للفنون والنشر، ٢٠١٣
٣٩٠ص ؛ ٢٠سم
تدمك ١ ٥٣ ٦٣٦٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١- القصص العربيه
أ- العنوان
٨١٣
رقم الإيداع: ٣٠٢٦/ ٢٠١٣ التاريخ: ٢٠١٣/١/١٦

حين يصير المراهق طفلاً
يجلس الشيخ بينهما ويبكي
عائدا إلى صباه
لكنني لا أتذكر غير صورة الطفل
وقد فاجأه الجني
بضحكته المجلجلة ..
ومصباحه
الذي لم يكن غير لعبة قديمة !

(عبد الكريم قاصد)

وما أنزِل من قَبلِك

○ قلقا متوتراً كان يراقب حالته النفسية والجسدية منذ فترة.. أصبح يتوقع في كل لحظة أن تداهمه فجأة رغبته الحارقة في الإعتراف بخطاياه الخفية .. وكتابة تقريره الأخير والضروري ، شاملا فاضحا . طلبا للعفو والسماح .. والفهم..

ينتابه الرعب ويزلزل طمأنينته الهشة، كلما ظن أن اللحظة قد أزفت، يقوم بتجهيز الأوراق الكافية والمناسبة ، وسرعان ما يطفئ لهيب رعبْه بتمزيقها بيضاء من غير سوء.

في كل مرة يشتري ما يكفي من أقلام الرصاص، يبريها بنفس طريقته الخاصة، التي تعلمها في طفولته المبكره.. وفي كل مرة ينساها.. فتستخدم في أغراض أخرى ولا تعود تصلح للكتابة .. يؤرقه على الدوام إحساس عميق قاس بأن ما يكتبه تمت قراءته من قبل وسيكون عديم الفائده

وبلا أي أهمية تقريبا .. فما قيمة تقرير آخر كتب مثله – بل وأفضل وأعمق منه – عشرات المرات من قبل ..

هو نفسه كتب كثيرا .. كتب طويلا .. و لم تظهر علامات الاهتمام عند أحد ما – بكل هذا الزمن المسفوح على الأوراق – على أوراقه هو – قصائده وأفكاره.. وحكايات ومسرحيات.

كان أصدقاؤه عادة مايبتسمون في عطف بارد وهم يتظاهرون بمباركة ما يكتب دون قراءة .. وتظل إفرازاته على الورق صامته لا يفكر أحد منهم في جدية أو جدة ما يكتبه أو حتى جدواه . إذ تعودوا على الثقة في خصوعه لهم إلى درجة يعتبرون معها كل ما يكتبه وما يفعله صالح بالضرورة، متطابقا مع خطهم السياسي والدعائي بشكل أو بآخر..

لقد تعودوه لا يشكل أي خطر مضاد أو مقلق ، فهو ملتزم التزاما (بيوريتانيا) ولا ينوي التمرد على حدود التزامه – حتى لو خطر له ذلك – على أية صورة ولأي سبب، لذلك فكل ممارساته العملية .. أو إبداعاته الفنية تكون أو تكاد تكون متوقعة، في العادة، واضحة وجليه لديهم كخرائط مصلحة المساحة لا تثير كثيرا من الشك أو الدهشة.

ردود فعلهم تكون بالضبط كرد فعل أمه الطيبة المنهمكة في توزيع وجبة العشاء على دواجنها عندما – في فرح ودهشة – يلفت نظرها لكل هذا الجمال الذي يغمر أفق السماء الغربي، فوق سطح بيتهم فتمصمص شفتيها في إبتسامة منهكة مجاملة له ، وهي تقول دون أن تنظر إلى حيث يشير في انفعال:

– سبحانه يا ابني.. قادر على كل شيء..

ثم تعاود الانهماك في نثر الحبوب أو عجن الردة في السمك المسلوق:

فيسقط قلبه الصبي المنفعل في جب عميق، معصورا في قبضة ألم غامض مثقلا بحزن مجهول، يمزق الأبيات التى خطها على هامش كراسة الجغرافيا، أو الرسوم التي ملأ بها المساحات البيضاء في كتاب (المنتخب من أدب العرب) .

أما أعداؤه فقد رموا طوبته من زمن بعيد ، وأحاطوا اسمه بما يكفي من أوامر إدارية وأمنية تشكل حائطا صعب الأختراق من أشواك وخوف وحبر أسود، ثم شطبوا عليه وأسقطوه في مربع النسيان..

وهكذا بين مصلحة المساحة التي يديرها أصدقاؤه وصحراء التجاهل التي يحرسها أعداؤه .. تناثرت ، قصصه وحكاياته وأحداث أيامه الطويلة وعلاقاته في كتب ودفاتر مختلفة الأشكال والألوان لا تجد فرصه حقيقية لتقدير قيمتها أو حصرها .. أو أكتشاف أي قيمة لها .. فأصبح هو نفسه عاجزا عن حصر أعدادها أو إحتمال تأمل صفوفها مرصوصة مجلدة على الرفوف حوله .. وتجنب مع الأيام الرغبة في إحصائها خشية أن يفاجئه الموت وهو مشغول بالأرقام، التي عاش يكرهها طول حياته..

–ما العمل إذن يا صديقى؟ .. أحتاج أن تأخذ بيدي يا رفيق العمر.. أجرني.. الحلقة تضيق حول عنقي والحصار يشتد .. لم تعد بيوت الصحاب تستقبل خطواتي المرحة، ولا تنتظرها .. ولا تواجهني إلا وجوه القدامى منهم ترتدي أقنعة تخفى خلف بسمتها ما تكلس على أديم بعضها من كراهية وخوف.. وتناءت عبر العقود بينها المسافات.. واختفت ابتسامات الحنان وشاب الزمان وتفرق الخلان..

طفرت دموع مالحة من عينيه حرقت أجفانه ، وامتلأ برغبة معاكسة حارقة متحدية مشاعر اليأس.. تطالبه أن يعيد نثر ملامح سنوات عمره

على الأوراق من جديد ، للمرة الأخيرة – حروفا وكلمات .. وليكن ما يكون . لم يعد الوقت متاحا للإنتظار أكثر من ذلك .. إن أراد تحرير روحه مما يثقلها .. ما دام قرر ألا يتحمل وزر جريمة أخرى.. لن يبحث عن منهج فني بعينه ، فهو ليس روائياً محترفاً.. سيكتب كل ما يعن له ويذكره بالطريقة التي يتذكره بها وعلى الصورة التي يتخلق عليها دون تعمد.. لن يكتب إلا عما يعرفه جيدا وخبره لمس اليد ورؤيا العين وحس القلب . بكل الصدق والحرية الكافييْن لجعل الحروف والكلمات والصور تتجسد في تلقائية . ولا تكون إلا هي ، لا زائدة ولا ناقصة عما كانت عليه الأحداث والناس..

صادقة طاهرة كقطرات الطل التي يخلقها جدل الليل والنهار على ورق الأشجار .. ولن يسمح أن يربت الأصدقاء على كتفه في تشجيع كاذب فلن يستطيع أن يغضب منهم أكثر من ذلك .. وسيرفض بشدة أن يتجاهله أعداؤه أو يمزقون صورته شامتين، فلن يجد وقتا كي يحتقرهم – بعدم الاهتمام لهم – أقل مما فعل حتى الآن..

كل ما سيسعى إليه الآن هو أن يضع حدا لهذا القلق القاتل.. وهذا الرعب الهائل الذي يزلزله كلما فكر في كل ما جرى منه وما جرى له.. وما جرى عليه .. فليس هناك سبيل آخر للخروج من نفق الالتزام القاسي الذي تخبط في قيوده طوال هذه السنين ، ولا للتخلص من براثن العذاب الفادح الذي تحمّل جراج أظافره منذ الصبا المبكر .. سوى الإنتحار .. أوالكتابة دون أن يقصد بذلك أي مبالغة أدبية أو تركيبة ميلودرامية لإثارة أهتمام القارئ .. فهو ممن ينتمون لتيار الواقعية وأن وقف على ضفافها محتميا بالمشاعر الإنسانية في صورها البدائية الفجّة.. الساحرة البكر.

كان هذا ما ينتابه في الحقيقة من مشاعر وما يملأ قلبه من رعب وخوف .. وأنا أعرف كثيرين لهم ملامحه .. عاشوا حياة مثل حياته وعانوا من ظروف مشابهة .. لكنهم لا يتعذبون عذابه.. وإذا ما فكروا في تقيّؤ سنوات عمرهم على الورق.. يلجأون للكثير من المبالغة بحجة أو بأخرى.. أو لغرض أو آخر .. وفي الكتابة يصبح (الغرض مرض) أيضاً .. لكنهم لا يترددون ، فلهم من طوالع السعد ما يكفي ليجعل المطابع على اختلاف أساليب إدارتها (عامة أو خاصة) وبمختلف أشكال ملكيتها .. تنتظر ما يكتبونه في لهفة متعمدةً .. لتنشره على الرصفان كتبا ومراجع.. ولتمتلئ الأعمدة الفارغة على صفحات كل الصحف وعلى اختلاف مشارب ومذاهب كتابها وأغراضهم ...بمظاهرات الترحيب الفج بها .. والإشادة بقيمتها .. وأعرف غيرهم لا يكفون ولا يملون من إثارة أكبر ضجة ممكنة يملأون بها الدنيا صخبا أمام الميكروفونات وعلى الشاشات.. ووراء المنصات للترويج لما تبولوه على الورق .. ويجدون الجرأة للقتال من أجل الحصول على الجوائز التي رصدها الأعداء لشرائهم.

وقد حيّرته هذه الظاهرة وأعتقد أنها هي التي جعلته يشك في قيمة ما يكتب بل وقرر أكثر من مرة الكف عن ارتكاب جريمة الكتابة، وأن يبحث لنفسه عن عمل أكثر ملاءمة لقدراته الحقيقية ومهاراته .. فهو يستخدم أدوات النجارة بحرفنة متوسطة.. وعنده فكرة لا بأس بها عن طرق زراعة البصل البعلي والتين الشوكي .. والبرسيم الحجازي .. كما كانت له محاولات في شبابه لدق الوشم في الموالد.. وكثيرا ما قام بأعمال السباكة الصحية في بيته وفي بيوت أصدقائه.. أحيانا على سبيل التفكه ولكنها كانت ناجحة بما يكفي للحديث عنها بفخر.. وكلها مهن شريفة

يمكن أن تضمن له رغيفا حلالا.. وكافيا يضمن الستر بعيدا عن وجع الدماغ...

إلى أن وصلت حيرته في تفسير تردده في اتخاذ هذا القرار ذات مرة إلى قناعة عميقة أنه يمارس الكتابة عمدا.. إمعاناً في التمتع المريض بشعور الاضطهاد والقهر..

وقد حيره أكثر من عجزه المستمر عن تنفيذ قراره بالكف عن الكتابة ، اكتشافه أن متعته في ممارسة الشعور بالإضطهاد لن تساوي على الاطلاق عذابه الممتع اللذيذ تحت وطأة الرعب من الوحدة الذي يحاصره كلما بدأ في الكتابة.. ولا ذلك ا لحزن النبيل الذي يجتاحه كلما فكر في الطريقة التي يستقبل بها أصدقاؤه وأعداؤه كتاباة – التي لا يمكن حصرها أو حصارها .. وانهماك الجميع في الاستعداد لحبسها في جدران مصلحة المساحة.. أو لنفيها على الفور إلى صحراء التجاهل..

أرأيتم؟ .. يخالجني شعور مؤكد إزاء إعترافه هذا ، أنه مستعد لأن يمارس في متعة بالغة ذلك الشعور الأليف من القلق والرعب، لأنه في هذه المرة مصمم على تحويل عذاباته وأفراحه وأحباطاته وأحلامه المجهضة وأحداث حياته – ما خفي منها وما ظهر ولمرة واحدة وأخيرة.. إلى شيء ما على الورق .. وأن يقدمها بكل جرأة للجميع أعداء وأصدقاء.. معلنا لأصدقائه مسبقا، رفضه النهائى لذلك التعالي الأبوي البغيض ومنذرا أعداءه بأنه لن يهتم لغلهم المقيت، ولن يحاول أن يكون موضع رضاهم – كما كان دائما..

مؤكدا لنفسه في ذات الوقت ، وبثقة، يخلقها احتضان الأصابع للقلم وشوق الحروف للتخلق على الورق، أنه رغم كل القلق المشروع

والرعب العادي والحزن النبيل ، الذي يعانيه ، متأكد تماما ، أنّ يوما سوف يأتي يتبجّج فيه كثير من هؤلاء وأولئك ، على الملأ – و(أنا) على رأسهم– صديقه ورفيق عمره وتوأم روحه اللدود، الذي كان (جبريله) و(فيرجيله) و(خِضْره) – أننا كنا قريبين منه أكثر مما ظن هو بنا.

وأن كثيرين منا سيندمون بشدة لأنهم لم يبصروه جيدا .. وبعضنا سوف يعتذر – لأن صداقتهم له كانت أكثر نذالة مما يجب وآخرون – لأن عداوتهم كانت أقل شرفا مما هو ضروري .. لذلك ، أتوقع منه الآن أن يعلنها واضحة صارخة على أول ناصية أو ميدان مزدحم يقابله، غير مبال بنظرات الرعب أو الإشفاق الي ستحيط به وتتربص بدمائه على الورق قائلا:

–ليفهم الجميع .. وأنت بالذات يا صديقي التوأم – الآن أموت، لأتحول على الورق إلى حروف وصور تبدو خيالية أو غير حقيقية كما ألفتها .. لكن أنا راض تماما عن نفسي بقدر ما أنا راض عنها وعنك .. وممتن لكل ما مر بي بإرادتي أو بإيحاء منك – رضا أو غصبا – من أحداث وبشر .. وراض تماما عن تقريري هذا الذي أتمنى أن يكون كما أريده، على درجة مفزعة من الصدق والصراحة .. بالقدر الذي يليق برحل يواجه الموت الحقيقي (الرباني) لأول مرة، بحق – بعد حياة أرادها أو أجبر عليها – واجه فيها الموت ألف مرة.. واختار كل ما يحبه فيها وكل ما كرهه، بمحض إرادته الحرة وأرادتك المتعسفة .. لكنه أرادها للنهاية كما هي بالرغم من حد سيفك المشهر على رقبته ، يحرض عليه الأصدقاء والأعداء على حد سواء..

حاصرته عقب صراخة نظرات الدهشة المشفقة، ومشاعر التعاطف الساخر .. لكنها سرعان ما اختفت وتبخرت كشبورة في صباح شتوي دافئ.. وانصرف عنه كل من سمعه ، على اختلاف درجات تأثرهم واهتمامهم ومضوا كل إلى حال سبيله مقتنعاً أن الحياة أصبحت أصعب وأعقد ، من أن يضيع لحظة منها في الاهتمام بما قاله أو ما سيقوله أو يكتبه هذا أو ذاك من هراء حتى لو كان شديد الصدق إلى حد الكذب..

اندفعوا متفرقين كلهم ، وضاعوا في الزحام الذي يصنعونه بدأب كل يوم .. مصمصت بعض السيدات شفاههن متحسرات على حاله، وهن يجذبن صغارهن الضاحكين عليه في حدة.. أو وهّن يغمزن جنوب أزواجهن العابسين القلقين ليبتعدن بهم عنه .. بينما صمت هو فجأة مثلما صرخ فجأة .. وتلاشى مثلهم في زحامهم وعاد كل شيء إلى سيرته المألوفه كأن شيئا لم يكن..

وحدك مرة أخرى – والبحر..

بحر آخر .. لكنه نفس البحر بالتأكيد .. شاطئ آخر، لأرض أخرى ليست نفس الأرض التي تعرفها .. وإن كانت مثلها تنبت الخيار والفوم والقثاء والبندورة والبطيخ – والقرع– وهي أيضا تقتل ابناءها . لكن تحت شروط أخرى وبوسائل مختلفة، لأنهم يتكاثرون بنفس السرعة حتى لا ينقرش سلسالهم اللعين ولا يكف فيض مائهم المهين..

محاصر أنت مازلت على شاطئ المتوسط مثلما كنت أيام رعب (الفهكاني) و(الروشة) و(المدينة الرياضية) و(ابن عساكر) و (باب توما) و (بيروت ستار) . لكن الحصار هذه المرة ليس الحصار نفسه، ولا على نفس الدرجة التى يبدو لك فيها مثل غيره..

أيها المراوغ يعاودك رعبك خلسة، يتجمد الدم في عروقك كلما تذكرت كيف كان يعتريك ، وأنت عائد وحدك في ساعة متأخرة من عمل أو اجتماع ما ، عبر (كاركاس) – وسط صفوف السيارات الصامتة – التي لا بد أن إحداها مفخخة بالتأكيد ، قد تنفجر فجأة سواء عند مرورك أو بعد عبورك.. يكتم أنفاسك خوف جاف يلتصق معه جلد حلقك . وتحرق جفونك دموع أثرية .. تدور حولك بعيونك مقيما حوائط من حذر غير مرئي، تحت جلد أنفك الذي تحرقه رائحة دخان أكوام الزبالة.. المحترقة . بالضبط كما تداعبك (الآن) روائح (جبل النرجس).. أو كما كانت نسمة العصر أمام (صخرة العاشقين) أو في (مقهي عروس البحر) الصامت. تلوك في تعب ذكريات أشعارك ونغمات عود (عدلي فخري) وتصفيق الآلاف في العيد (الخمسين للحزب الشيوعي) حول جبل (أميون) وتمثال (فرج الله الحلو) الشامخ فوق القمة ، تغطيه حلقات وأطواق الزهر حتى الرأس .. أزهار من (الصين) و(موسكو) و(جنوب أفريقيا) .. و(كوبا) .. يااااه .. حتى (اليمن) .. و(فلسطين).. وكنت أنت نجما أمميّا بامتياز .

وحدك الآن والحصار..

(بلطيم) ليست رأس (بيروت) يا ابن (ميت سلسيل) ، البحر هناك لا صوت له.. لكن له رائحة الدم المتخثر الذي لا يكاد يسمح لصوت (فيروز) أن يصل إليك إلا مجهدا .. وسط ضجيج (لا تهزي كبوش التوتة) يستحلفك بكل عزيز لديك ألا تسمح لمؤامرات وحيل صديقك اللدود أن تفسد عليك حياتك أكثر مما فعلت .. أوتعطيك صورة عن العالم اسوأ مما هو عليه ..

لكنك لست (أخيل) يا ولد ولا (أبو زيد) .. ولا يمكن أن تنسى أنك سليل النجارين الذين هرسهم قطار الزمن، منذ دمار (تانيس) وخلفهم ضحايا لأطماعهم الصغيرة وصرعى لقلة الحيلة وغباء الضعف المنافق اللزج الذي يخلقه الصبر الأعمى والهروب الدائم أمام جيوش الغزاة والتجار الجائلين والتكنولوجيا الحديثة .. ولست (عنترة) يا حفيد الفلاحين الذين انتزعوا الأرض شبرا شبرا من براثن هذا البحر المالح.. وصارعوا دون جدوى كي يكون لهم ما للأسماك من حقوق.

وحين فشلوا أن يقنعوا الجباة والولاة والمشايخ بقدرتهم على التحمل ، هربوا للصحراء ليموتوا عطشا في برية سيناء وتهامة أو ليصبحوا خدما في (السعودية) أو رعيان غنم في (الأردن) .. أو جثثا في (العراق) .. خلفوك وحدك بلا حصان خشبي تخترق به أسوار مدنك المحاصرة، وكفورك الأسيرة وحصونك المدمرة.. تائها في أحراش نفسك المستباحة لتلحق بالجنازات الأخيرة. التي سلبت أهلك قدرتهم على الحلم، وأرهقت قراك المهزومة المنتهكة بشكل دوري كأوجه القمر ودورات الفصول ومواعيد الزرع والحصاد .. كلما حل (بؤونة) في كل عام مهما تغير اسمه بتغير رسالات السماء ورايات المغتصبين..

وكأن كل السهام كانت – من كل الجهات – موجهة إليك .. وحدك – من الذين ظنوا في خطورتك المزعومة ما يدعو للتربص بك.. سواء من الذين تأكدوا أنه لا لك في العير ولا في النفير – العارفين مواطن ضعفك .. أو الخائفين عواقب صمودك، أعداؤك المنتصرون الذين اعترفوا يهزيمتهم أمامك.. أو من أصدقائك التوّاقين كل صباح لتحقيق انتصار رخيص عليك ليقدموك وأمثالك من الحالمين السذج والحمقى – من أنصاف الشطار والموهوبين الذين لا ظهر لهم ولا بطن – قرابين لآلهة الكذب والحقد والكره التي يتعبد في محاريبها أهل السياسة..

–دعني أوضح عنك ما يلتبس – في ظنك – علينا بكلامك هذا .. فمن الطبيعي أن يدخل حلبة السياسة من يشاء طمعا في السلطة بعيدة المنال رغبة في التسلط والتحكم في رقاب البسطاء من خلق الله ، مستخدما كل الاقنعة .. وكل الأحلام وجميع الوسائل.

أو مَن يمارسها طمعا في عدل مستحيل .. رغبة في التحقق الإنساني.. مدفوعا بإلهام غامض . أن غدا لابد أن يكون أجمل .. ووهم جميل أن البشر سيتغيرون إلى الأفضل .. أن عاشوا بطريقة أفضل..

أعرف أنك كنت من أولئك الرومانتكيين .. كثيرون كنتم – لكنكم عشتم نشازا يفسد اللحن الثوري – معوقين لمسيرة النضال الذي لا يساوم.. فضوليين تريدون معرفة كل شيء (وهذا ضد (الانضباط) اللازم .. تثيرون أسئلة أكثر من الضروري حول كل شيء .. حتى تلك التي لا (إجابة لها) تفتحون الأبواب المحظورة فتبدو السوءات التي تدمر اليقين .. وتفوح رائحة العفونة التي تبعث القرف .. فلا تعودون كما ذهبتم .. لا تدركون حقيقة الاندحار العظيم في (يونيو) .. ولا تحسون روعة الانهيار العظيم والهزيمة المروعة ف العام التسعين .. ولا تفهمون ما في ذلك السقوط الهائل لأبنية (ستالين) السبعة المحيطة (لموسكو) و(الكريملين) من روعة وأبهة.. تؤكد نبل الحلم بالعدالة .. وبراءته من دم الصغار وغباء الزعماء..!!

هل أوضحت عنك بما يكفي .. أم ستسفهني كعادتك؟

الآن.. وحدك دون جيلك تجاوزن السبعين وهي ميزة ليس لأصدقائك فضل فيها .. بل يبدو أنها حدثتً على غير رغبتهم . ورغم أنوفهم بعد أن عجزوا عن النيل منك ، برحيلهم واحدا بعد الآخر وهم في الخمسين أو أكبر قليلاً..، لكنك – بدرجة ما من الغباء أو الخوف – تظن

أن كثيرا من الإحباطات منذ الآن ستهاجمك وأن أسبابها الخفية الحقيقية موصولة بالأقربين إليك منهم ..

ألست بذلك تظهر شيئا من نكران الجميل؟

–لا لست ناكراً لأي جميل .. وهم لن يغضبوا مني، فالموتى لا يغضبون أحدا لأنهم عاجزون.. أنا متأكد أن كل من تكبد بسببي ذرة من عناء أو قدر خردلة من عنت سوف لا يغفر لي، وسيقتص مني في الوقت والزمن المناسب – ومن يدينني منهم بمثقال ، لن يسامحني فيه .. وسيطالبني به أضعافا مضاعفة .. فطمئنهم وأصرخ بقوة وأبلغهم عني.. أعلنها في وجوههم في الأسواق ولا تبالي بنظرات الغضب ولا همهمات الشماته التي سيحاصرونني بها ..

–أنا اقولها بكل ثقة.. اطمئنوا يا غجر .. أني لن أهرب من دين، ولن أتهرب من ذنب أو جرم جنيت أو ارتكبت . لقد ذهب أكثركم والأقنعة على الوجوه لم تمس ودفن بعضكم أسرار خيانته معه .. فاختلطت جثث المجرمين بالضحايا .. وامتزجت أشلاء الجانين بالأبرياء.. ليبتهج من بقى من الجناة والكذبة على قيد الحياة حتى صدور هذا التقرير.. فأنا لن أطالب من يدينون لي – حتى بحياتهم .. وما أكثرهم ..

ولن أمن على من قدمت لهم عمري..بمحض إرادتي زادا وضياء.. وما أغدرهم . ولن أعاير من وهبتهم بعضا قل أو كثر من موهبتي أو عمري من شعري أو من صحتي– فما افقرهم .

أنا يا أصدقاء . ويا من لستم كذلك .. ممتن حتى لأولئك الذين أجهدوا أنفسهم من عرقلتي أو في تضليلي .. أو في (الوزّ) علي .. ولأولئك الذين اجتهدوا بثمن أو بدون أجر ليزرعوا الأشواك في طريقي.. ممتن لهم بنفس القدر الذي أنا به شامت ، أسخر بكل جوارحي

من الذين بذلوا ما استطاعوا من جهد وعناء مضن ونميمة ، لإلقائي ونفيي إلى صحراء التجاهل .. فقد ذهبت جهودهم عبثا.. فها أنذا رغم كل هذا الوقت والجهد الضائع.. أتجاوز السبعين رغما عن أنوفهم .. وابدأ الكتابة من جديد كأنني قمر وليد أو برعم يتفتح في موسمه..!

* *

مضى في زحامهم معتدا بنفسه غير مهتم بالعيون الشامته أو المندهشة التي تحاصره .. إبتسم راضيا بقدر كاف عن نفسه وأخذ نفسا عميقا ليخفي خُجله .. نعم كان خجله يحاول أن يخفف من غلوائه دافعا به إلى غابة الندم وأشواكه.. لكن الحزن النبيل الذي ملأ قلبه .. حماه من الابتئاس.. كان في أعماقه مبتهجا سعيدا .. لم تكن تبدو عليه الفرحة، لكنه كان يحس بالسعادة التي يملأ قلبه بها وعيه بتلك السنوات الطويلة الحافلة التي عاشها .. حيا .. لا عاجزاً ولا بليداً .. فله ابن وابنة وأحفاد وبيت ، وكانت له زوجة أحبته وكان عنده قط جميل رائع وبضع أشجار زرعها بنفسه .. ومازالت أحلام السفر تداعبه .. وأمامه في صفحة السماء قمر وأصدقاء قليلين .. له محبين ومريدين كحبات المطر.. وفي قلبه انتماء عميق، لقرية وشاطئ وجدران أقامها بنفسه ومعه خلق كثيرون وقراء ومعارف، صنع لهم ، أو معهم ، حلما من بعض أيامه.. ومن بعض دمه ، ومن الكثير من العرق والدموع ومن أيام السجن. سفنا وأفقا باتساع المدى .. وبيوتا بسيطة لها شمخة قدّحة الزيت في مغارب القرى المتعبة. ويمتلك قصيدة وأغنية طويلة لا تموت.. أفلتت بأعجوبة من الحصار.. وعلى لسانه حكايات للأطفال بلا نهاية.. لا تكف عن بعث وخلق البسمة الصعبة على وجوههم الجميلة المدهشة .. ولديه ساحة تضج بالصراعات وبالدراما وبالبشر!!

• • •

ولكن أنفسهم يظلمون . .

○ قوم .. فزّ اعترف .. حُق نفسك للأفراح الأولى ولأحزان الصبا.. لهدهد (سيدي مجاهد) وجميزة غيط السباخ ومراجيح (أحمد همام) .. لمشنة جرجير خلت (خضرة أم بيومي) .. استغفر خطاياك الأولى– منديل (مديحة) بنت (أم نمر) أول بوسة تحت (خيمة الياسمين) . طرحة خلْت (مقبولة) وعينيها القديمة – يوم اتهمتها بالكَذب لانها كانت ترتديها عندما رأتك تسرق الفول الحراتي ، ورأت صاحبك (فاروق) ملقح في الترعة مرعوب . وصاحب الفول يصر على أن يطاردك أنت يا من وجدت لك عين جديدة .. تغمضها ، مقسما بكل عزيز أنك لم تذهب إلى غيط (العوايضة) من سنين .. اعتذر عن تلصصك

على بلكونة البنت (مايسة) ذات الياسمينة الطارحة ، واللبلابة السارحة ..وعلى زينه الخضرجية التى كانت وراء نافذتها الحديدية تنتظر زوجها عارية لينفذ فيها حق الله الشرعى.

أنت يا من فتحت عيون البنت (نجاة) على حزن وبؤس أبيها ، حين حرم منها ومن أمها ليدخلوه مستشفى المجانين.. لا لشيء إلا لأنه (يمتلك بندقية "لي انفيلد" من بقايا الحرب العالمية الأولى) ، ويحب (هتلر الذي سينصر الإسلام ويدمر أمة الإنجليز) .. ملّست شعرها المبلول لأول مرة في حياتها . وبشفايفك مسحت دموعها حتى اتفطرت من السعادة ..

ظلمت (رسمية) بنت خالتك بحسن نية ، حملتها أكثر من طاقتها حين كنت تتعمد إيقاظ شهوات (نرجس) الغافية أمامها عمدا دون مراعاة لمشاعر حرمانها .. حتى ماتت وحيدة لا أم ولا أب ولا إخوات مع إنكو كتير تسدوا عين الشمس . و لم تجد من يغلق عينيها لآخر مرة وينطقها الشهادتين ..

شعبطت أختك الكبيرة في حبال الهوا الدايبة . صدقت وآمنت بقوانين الجدل والصراع الطبقى . فبكت أمام صليب (سبارتاكوس) . وحلمت أن أحدًا (يومًا ما) سيذكر فضلها على الثورة العالمية من أول (هوشي منه ـ لجيفارا) .. إذ كلهم انتصروا، بفضل قروش وبرايز درج ماكينة الخياطة الذي لم يغلق في وجه كل التنظيمات (الثورية) ، من (الهند) لغاية (دكرنس) يدفع ثمن حبر المنشورات الزفر وأجرة المواصلات وثمن عجينة البالوظه ورسوم البرقيات التي سجنت بسببها .. مع أنها لم تفهم كيف تدفن (الاشتراكية) بلاد النوبة .. ولا كيف يموت (شعبان حافظ) بعد كل هذا السن في غربة الواحات .. ويموت (شهدي) بضربة شومة مصرية ، ولا كيف يصبح (رفعت السعيد) بعد كل العذاب هذا محافظ بنك

التمويل الأممي ، ومدير عام إدارة عموم تصفية اليسار كما (ادعيت عليه أنت عيني عينك) .. فتضطر أن تعلن استسلامها ويأسها من رجوعك .

إستسمحها وحِبّ على إيديها ، يمكن تغفر لك آهات مشاوير السكك الكعابي فيَ عز نقرة الشمس إلى طلمبات السرو وعزبة أكالة العيش.. وصداع المناقشات اللي مش جايبة فى المندرة التى تحملت كل ماعن لمزاج والدك المتقلب من تغيرات واضطرت أن تشارك فى الخناقات الخايبة .. حول من سوف يدفع ثمن العمر المسروق .. وعيش الغربة المحروق ، ومصاريف عيال عقلهم زى حلقهم مفتوح وأحلامهم بوسع الوطن ..

أعترف وقل مثلما قالت أمك .. (خايب بلاده خايب بلاد الناس) .. و اللي سرق عيني عينك من تحت لتحت .. أكيد يسمح لنفسه يخطف الكحل من عيون الأيتام . عيني عينك أيضًا – لكن من فوق لفوق .. بعد ما انكتبت أسامينا في كشوف العملاء ، واتفرَّق دمِّنا بين (البنتاجون) و(الكريملين) ونفينا (ميت سلسيل) من التاريخ ، وبعنا (بولاق) و(دقهلة) لحساب بورصة (مجموعة روما) وتجار ورق الدشت الأممي !!

فسر لهم لماذا مضت بك وبهم الحياة فى اصرار محسوب فى مسارها المحتم واللى كان مكتوب ومقدر حتمي معه أن يتحول (كفاح الشعب المصري) والطبقة العاملة – اسم الله عليك وعليها – لمطبعة مسروقة ، وحزب معفن وفيللا في الهضبة الوسطي ، وقصر ف (مارينا) وعزب ومزارع حديثة في الأرض البكر على امتداد الخط الثوري من (سينا) (لوادي النطرون) تشرب آخر نقطة في عرق أبوك (سليّم) ، وآخر ضي في نن عيونه .. من أجل أن يرحمه زمانه فلا يرى ابناء الزعماء يعملون لحساب الشركات المتعدية الجنسية ويقبضون بالعملة الصعبة ولا يقرأ الكتب الكدابة ، التي تؤكد أن الشيخ (أبو صبح) الأعمى كان أشطر

منكم بكثير ، عندما أعلن أن المغرب أقرب من الفجر .. وان الشيطان هو اللي طبخ الطبخة من يوم ما نفضك ضهر أبوك في بطن أمك ، فوقف يتحدى على سطح (سيدي مجاهد) عريان ملط كاشفا وقابضا على عورته الضامرة ليراه الجميع – نسوان ورجال – على رأسهم ضابط الأمن الكبير ابن شيخ البلد .. ليشهدوا معه أنه ليس شيوعيًّا .. وأنه لم يعاشر أخته في الحرام ولا في الحلال ، ولا عاشر حتى زوجته و لم يظلمها .. لأنه لا يمتلك أصلاً أي إمكانية لإسعادها.. وأنه عندما هتف من قلبه (لعبد الناصر) والخلق تبكي أولادها الذين دُفنوا في هجير سيناء ، لم يكن يقصد أي احتجاج ولا (تقليس) فقد عاش عمره جنب الحيط ، يا دوب يدق على الطبلة في السحور ويؤذن المغرب عند الإفطار ولا يقرأ غيرهما سورة (أهل الكهف) و (عبس وتولى).

قوم .. فزّ .. استغفر الكل واستسمحهم ، يمكن تلحق نصيب في أحزانهم ويعذروك .. ويسامحوك في حقهم عليك ، وذنبك يغفروه . لأنك صدقت تخاريف (الشيخ الخشان) وأحلام (ابن عبد ربه) و(فؤاد حداد) و(أبوك سليّم) .. اللي دهستها بوابير الحرت التي بعث بها (الزعيم المؤمن) لتستولي على أرض (الدومين) وتدفن (طيور ابو الخضير) تحت عواميد أسمنت كوبري (القناة الجديد) ، وجمرك (بورسعيد الحرة !!) ، محبة لليهود تنفيذًا لاتفاقية الكامب .. ويقيم على أحدث طرق الديمقراطية، التلات منابر العجيبة اللي ح تنقذ (مصر) من مصير العالم التالت ، مرهونة بشيكات صندوق النقد الدولي.. اللي مكنتُه فى لحظة صفا أن يستجيب لطلب خدمه من الكتاب المخبرين أن يضاعَف منح تفرغ الأدباء والفنانين ويعفيهم من ضرايب الكتب من أجل بناء مصر العصرية!

• • •

مرج البحرين . .

○ ليتني أستطيع أن أخمن يا صاحبي متى التقينا بالضبط ، ولو أنني أعتقد أن ذلك لا يهم أحدًا سوانا ، فنحن فى الحقيقة أصدقاء منذ ما قبل الولادة وأصحاب عبر أيام الطفولة والصبا الخضراء في تلك القرية التي تمتد بين البحر القديم وجسر قطار وجه بحرى (الفرنساوى) كالكذبة الجميلة .. ورفاق خلال أيام الشباب والكهولة وحيث كان الحلم يُخفف عنا عذابات الزنازين فى كل هذه المدن الظالمة المحترقة التي عبرنا أمجادها المدمَّرة وهزائمها النبيلة – ظلاً وصاحبه.

كنتُ (أنا) أيام الطفولة والصبا فراشة تجوب الحقول .. ترتع حرة بين جسور الفول الحراتي وأسوار التين الشوكي وشوالي الحليب في خزانات الطين القديمة التي لا أقفال لها ..

وكنتَ (أنت) فأرًا بريًّا يتسلل عبر السطوح إلى الأحواش والمناور والأفران وقاعات الخزين وأركان حموم النساء السرية يتلصص ويداعب ويسرق ويعانق ويغازل .

لم تحمل همًّا ، فهناك دائما من كان يتولى عنك حل كل مشاكلك ويضمن لك كل مطالبك ، مع أنك لم تكن تجرؤ على الحديث مع ابيك ، أو الجلوس على حجره مثلما يفعل كل الأطفال . لم تعرف جوعًا أو حاجة فالقرش يجري بين يديك من يديه ، حتى عندما يجف نهر المقاولات وتفتر حمَّى الصراعات . لم تقهرك حاجة ، فبيوت العائلة الكثيرة والكبيرة مفتوحة لك وإن صكَّت وجهك بعض أبوابها .. وغلَّقت دونك بعض قلوبها حسدًا أو قرفًا . لكن الطين لم يلوث كفيك إلا حين كنت تكوِّره لتحفظ داخله ديدان الأرض عندما تخرج للَّهو بصيد السمك من (المسرف) أو عند (الهدار) . الذي يقوم على آخر زمام أرضكم التي لا تعرف و لم تهتم أن تعرف يومًا حدودها – إلا بعد أن تسرب معظمها بفعل الزمن والديون والتناسل الذي لا يتحكم فيه شيء – فأنت مشغول طول الوقت بما يشتعل داخلك من لهب (الجمر) الخفي للتمرد الذي يجعلك كطير بري جوَّاب فوق سطوح القرية وفي دهاليز الحواري والسراديب الخفية .. لتمارس كل ما لا يخطر على بال من في سنك من حماقات ونزوات.

في عز الظهر وبعد الخروج من ماء البحر الصغير إلى ظل صفصاف (المغذي) تجمع الأجساد العارية حولك وأنت تمارس بالطين الناعم اللزج العادة السرية ، جهارًا نهارًا فتدفع الصبيان المبهورين ، بممارستك لجرأتك علانية ، لمحاولة تقليدك. ولكن هيهات وهم لا يملكون مثل هذا (الفرع) الداكن الذي لا يناسب لونه بياض بشرتك وكأنه عضو مضاف لجسدك

النحيل . منتزع من جثة رجل لها صورة أخرى .. ليعقد لك الزعامة عليهم ويجعلهم يخضعون لسلطانك ويستمعون شغوفين لحكاياتك عن البنات والنساء والحيوانات ودور النوم مع الحمير في زيادة حجم آلتك .. عن بنت (غانم) التي تتلوى وتتمرغ عارية تحت أقدامك في عشة فراخ أمها الشلق ، التي تجلس على راس الحارة تخانق طوب الأرض وتبيع بقايا خيرات الحقول .. بينما ابنتها تمارس الجنس معك في خزانة الحبوب .. وعن زوجة ابن جاركم الصبية التي تحتضنك لاهثة فيما بين البرميل والزير في الركن متحصنة من اللوم بحنان أمومي كاذب لا يخفي زيفه القميص الشفاف المبلول ، لتعوض بحرارتك برودة ليال طويلة من الحرمان الشرعي !

وعن ذلك الأسطى الفتوَّة ذي الشارب المبروم والصوت العالي ، الذي يتحكم في ميدان المحطة والسوق كله ، بكلمة لا ترد وهو ملقى تحتك فوق كوم التبن القذر يتأوه ككلبة لائدة .

الكل يتبعونك فجأة عندما ترتدي ملابسك وتعود جريًا إلى القرية ، كأنما ضربتك نزوة مفاجئة ليتابعوا في شغف يدك الساحرة وهي ترسم على الأوراق بالقلم ، وبالألوان الطباشير على الحيطان القليلة المبيَّضة بالجير ، أشكالاً تكاد تكون حقيقية لحمير وبط وبشر.. أو تشكل من طين الصلصال أشكالاً على هيئة الطير والحيوانات، تطلقها فتكاد تمشي أو تخور مرددة اسمك أو كلماتك الملحنة الملحونة .. التي تعطيها أنغامًا من فمك نرددها خلفك مسحورين .

وعند (خرنفشة) عيوشة في الليل تستحضرجنياتك وعفاريتك تبعث في قلوبنا الساذجة الرعب الذي يضخمه في ليالي الشتاء رعد السماء وخيالات ظلمة الأرض . وأنت تحاصرنا بحكايات (فريحة) وزوجها

(فرج) وتحول الجن في حجرهما من أرانب لأحذية قديمة ..

وحكاياتك أنت مع المارد الذي لقيته مع (حسن العربي) أمام بيت (الشهايبة) جحشًا مسالمًا أحقر من جحشة (ظاظا) يدعوك للركوب بلسان فصيح .. وبينما فرَّ (حسن) ركبت أنت . وحين فاجأك الجحش بالارتفاع أعلى من نخلة (ياسين) ، أنقذتك نصاحتك ومعرفتك اللا محدودة بأمور العفاريت ، التي تدفعك للاحتفاظ بالمسلة جاهزة دائمًا في جيبك ، تخرجها بسرعة البرق وتنخسه بقوة .. (فنخَّ وفقد ارتفاعه وسار بك طائعًا كأي جحش أليف تدور به في حواري القرية !)

(تبصر من شرَّاعات نوافذها وفتحات مقاعدها ، خلفيات الرجال العارية وهي منكفئة على أجساد النسوة العلوق وهن يتأوهن ويتأودن). لكل امرأة طعم نحسه ، وصوت نسمع همسه ، لكل واحدة نغمة تختلف عن الأخرى (وجيدة) غير (بهية) و(زينب) المسَلْوعة غير (زكية) ذات الجسم الضخم التي يبلغ حجم فردة ثديها حجم طفل صغير سمين ، والتي (تأخذ زوجها النحيل كالسحلية بين فخديها الهائلين لينزلق فوق بطنها القبة متقافزًا في هوس فوق تضاريسها كالبرغوت اللاسع)، لكنه قادر دائمًا أن يحكمها ويشكمها . فتصدر آهاتها المسرسعة الملتوية التي يضحكنا من القلب تقليدك لها .. وكلهن غير(ام بهلول) التي تبوح بأغنية خاصة لكل رجل يركبها . فهي (ترتل) كالشيخة (آمنة) عندما تكون في حضن زوجها الكهل .. و(تلعلع) مثل بنت (دعبس) في الأفراح و(تئن) تحت وطأة عنفوان الواد (بكير) العربجي صديق ابنها .. و(تنفخ) محمومة مثل ناقة (الصحصاح) في أنفاس طويلة ملتذة مع الرجل الساهي ؛ جارها المدرس الذي من عشر سنوات يؤجل زواجه من بنت الشيخ (ابو حامد)

البكرية هربًا من سطوة أمها الشعنونة التى تتلذذ بعقابه على نجاحه في امتلاك قلب بنتها الحلوة التي تعشقه لإتقانه غناء أغنية (صالح عبد الحي) (ليه يا بنفسج) بصوت ساحر مغر ومثير .

كل حكايات النساء عندك ملونة ملحنة حية . تجعلنا نعيش حالة شجن وانبهار تجعلنا . نحس نعومة ملمس الحصر والبطاطين، وخشونة القش المهروس تحت وطأة الأجساد المحمومة .. ونشم رائحة العرق بل ورائحة المنيّ ونحن نخوض الليل الدامس عند خرنفشة (عيوشة) أو نخلة (ياسين) أو نعبر خلفك في تحدٍّ مقبرة (علي ابو حسن) .. أو نتلاصق في فتحات مقابر (أبو خشبة) الخالية إلا من بقايا عظام الجدود المتحلِّلين لتراب ناعم ، نكبشه في انفعال ونرش به بعضنا البعض، حين تحتدم الحكايا وتحركنا نعومة الألحفة الحريرية على سراير العرائس.. أو تخمشنا خشونة العباءات على الأفران وتلسعنا سخونة الانفعال وليونة الانحناءات وحدَّة الآهات . وأنت تلقي حولنا بعفاريتك الصغيرة . تحيط بنا همساتها الشيطانية فتتجسد لنا ولا يراها إلا أنت . ونسمعها ولا يفهمها إلا أنت .. فتملكنا أسرى الرغبة في استمرار حديثك إلى الأبد .. نترجَّاك لو سكتَّ ، نحايلك لو صمتَّ .. ونترضاك لو غضبت .. نسلم زمامنا لك .. مسلوبي الإرادة .. فتقودنا لغزو (توتة عبد الجليل) .. تعلمنا صيد الأسماك الكبيرة التي لا تأبه بصنانيرنا الهايفة . أو تسوقنا لسرقة صندوق نذور (سيدي مجاهد) أو(سيدى االبهلول) وللإغارة على بستان (على ابو حسن) المليء كالجنة بما لذ وطاب من فاكهة وأعناب .. تدربنا عند قدوم المساء على حرب الوطاويط التي تنطلق مع ضجة المساء من مرابضها في سكون النهار ، تملأ سماء القرية طائرة بين البيوت

كذباب ضخم . نسقطها بالجريد والغاب ونظل نطاردها حتى يحول بيننا وبينها الظلام الحالك . وتحرضنا في أوقات الفراغ على صيد الدبابير أو الرعاشات تثقب بطونها وتدخل خيوطًا طويلة فيها .. لتطير وهي مربوطة لأيدينا فنغزوا بها حواري القرية صائحين بأصواتها لنفزع أطفال كتَّاب الشيخ (محمد الأزرق) .. الذي يطاردنا ويمد الولد الذي يطوله منا في الفلكة ، فنعود ونحاول تحريره بالطوب .. ويغضب أبي دائمًا عندما تصله (الشكاوى) وكأننى وحدى الذى يفعل كل ذلك يكون غضبه أكبر لأنه يراني أتبعك كالمريد وأجري وراءك كالمسحور فيثور ، وتوَرم الخرزانة مؤخرتي ولا أتوب !

فأنت .. كنت الساحر المدهش الخلاق .. وأنا في جلبابك تحت جلدك أحاول اللحاق بك مثقلاً بمواعظ خالي (السعيد) مرعوبًا من قرصاته لأذني .. محملاً بنصائح أمي بنت (يوسف) أرزح تحت أكوام كتب بليدة ومسائل حساب معقدة وكلمات أجنبية سخيفة . بينما أنت الذي تخففت منها ، تخفف عني .. وتدفعني لتجاهلها أو تحديها والانتصار عليها .

تصعد بي نخل (الشهايبة) لآكل من عسل بلحه النادر ، تعبر بي البحر الصغير في نفَس واحد .. فوق الماء وتحت الماء لنتربص بطيور (ابو الخضير) التي تحفر بيوتها في سباخ التلول المالح .. نطارد الغربان التي تبني أعشاشها فوق كافورة (الشيخ علي) العملاقة ونواجه زعيقها بنعيق أشد وأقوى ، فتفر من أمامنا كالغربان .

وأنت الذي علمتني تلك العادة السحرية المفعمة باللذة الغامضة حتى قبل أن أفلح في التعرّف على ذلك السائل المدهش، الذي لم يكن

قد تكوَّن بعد ، ليضعني على أعتاب الشباب . والذي يوم تدفق فجأة وأنا أحلم اننى أنام فى أحضان (زهزهان). فأرعبني وأثار دهشة لم تنطفئ قشعريرتها حتى الآن ..

كيف يمكن إذن أن أنفضك عن كاهلي يا صديقي وأن أنزع أقنعتك عن وجهي ، دون أن أذكر كل التفاصيل .. كل الحكايات بالضبط . مثلما يطرد كهنة البدائيين الجن من أجساد الممسوسين بدقات الطبول البدائية، أو تلاوة كلمات الذكر الحكيم وأدعية الإيمان القدسية .. أو بذكر لفظ الجلالة وأسمائه السرية والتعوذ بها من الشياطين ، مثلما يفسد سحرة القبائل سحر الأعمال السرية بكشف شفرات رموزها وقراءتها صراحة ، وفضح معنى حروفها الغريبة وكلماتها التي بلا معنى ظاهر .. فتنفك عُقد الألسنة وتُهتك أستار صانعيها ، فتصبح عادية لا قوة لها .. لا تضر بعد ولا تنفع . فأملك قوة للتطاول عليك .. أطاول بهامتي هامتك . وتقوي قبضتي لأتخلص من قبضتك .. أنظر في عيونك دون خوف وأتحرر من جبروتك الذي ملكني حتى الآن منذ أطلعتني على أول كتاب انتهك براءة مخي .. وحشاه بخيالات ورسوم وبشر وآلهة عجيبة تشبه مخلوقاتها ، وعمالقة صارمين لا يعرفون الرحمة يطلقون سهام صواعقهم على خيول نارية لعربة تعبر بالشمس من قصر الآلهة (شرق الهند) إلى حيث تنام فيما وراء قبة (سيدي مجاهد) بعد أن يجهدها جلد أجساد بشر لهم رؤوس ثيران في متاهات لا فكاك منها . وحقول مجدبة لا تكف عن إنجاب بشر يتناسلون . ولا يموتون بضربات خناجر مسمومة ولا ينزفون دماء تحت طعنات الرماح والسيوف ، لكنهم يستطيعون الصعود للسماء كلما شاءوا يقاتلون الشياطين والآلهة وهم يرتدون ملابس من ريش . عندما يريدون التحول إلى طيور . أو يحتمون بقرون صلبة لغزلان برية عندما يطلبون

النجاة من الأسر .. يغطسون في عيون ماء لها روائح تسكر العشاق .. يعبرون في يُسْر مياه الأنهار ، ويطأون النار غير عابئين بلهب الجمرات ولا رمال الأشواك .. تحيط بهم نغمات موسيقى إلاهية سحرية تعزفها آلات خفية تملأ بروعتها المسافة بين ظلام القاعات الفقيرة الوهمي ونور الشاشات الملون .

حتى أصل معك ومعهم ، حين انتقلنا إلى (المنصورة) . إلى ذلك الكشك العجيب الساحر المزدحم بالكتب القديمة في شارع (سيدي عبد القادر) . تسكرني رائحة الأوراق حيث يبهرك أن الكتاب تمتلكه بخمسة مليمات ليحملك عبر بوابات الخيال إلى مدن لا تنام ولصوص لا يموتون .. ولا تصد إراداتهم أبواب أو جدران ، بصحبة فرسان لا يكفون عن إنقاذ النساء وممارسة الحب والغرام فوق الشرفات أو تحت ظلال الأشجار، وحيث فى كرم يدعونك لمشاركتهم تعرية النساء في أسرَّتهن الشرعية التي يمتلكها أزواج كريهين متسلطين بلهاء ذوو كروش وعروش ، ولهم نفوذ وسلطات غاشمة تقهر الناس وتعجز عن قهر القلوب..

بشر لا يكفون عن ممارسة الحب وهم يقاتلون .. وقراصنة أفذاذ لهم هالات مقدسة ، يدمرون الممالك الفاسدة ويغرقون سفن الملوك والحكام الجشعين الذين في قتلهم بلا رحمة خلاص العبيد والمساكين والفقراء وسعادة العشاق الذين شاركتهم الرقص والقتال والغناء .

فنستطيع بفضلهم أن نكتب أغنيات ذات إيقاع ونغم يبعث على الحزن والألم اكثر مما يشي بالسرور .. تدفعنا معًا إلى عشق البنت (عزيزة) بنت (عباس) .. التي ربطتنا كثورين مسالمين إلى عربتها ننقل لها الطمي للتتريب تحت البهائم في الزريبة .. كي تصنع من عجينته المخلوطة ببول

الثور والبقرة سمادًا يُكسب أرض النيل خصوبتها على الدوام ، نغسل لها جاموستها في البحر الصغير ، ونحن نتقافز كالضفادع حولها وفوقها نتحسّس أعضاءها لنثير شهوة البنت الجالسة دون تحفظ وقد كشفت أشياءها المحتقنة على الشاطئ . تضاحكنا لنرشها بالماء .. وننقل لها التبن للزريبة – خزين الموسم كله ونحش لعنزاتها البرسيم ..

وفي وقت راحتنا نخطفها لنقبلها (شركة) في مخزن الدريس والعليق ، وسط رائحة الرَّوَث النفاذة .. تعطي نهدًا لكل منَّا فنرضع كأطفال النيل .. ثم أنشغل بالغناء . بينما تستحوذ أنت على معظم أرض المعركة ، فأحاول لملمة فلول جيوشي متعثرًا عند الأطراف في الكلمات المنظومة . وأغار منك يغيظني تماديك حتى الغضب ، فنظل نتضارب تحت المطر في الضحى الوحشي الشتوي .. وسط الحقل الخالي الذي أنهينا (حش برسيمه) إرضاء لها..

لا أحد قريب يخلص أحدنا من الآخر . ولا أحد عابر نحتكم إليه ، حتى يهدَّنا الصراع والتضارب ، فنرتمي إلى جوار بعضنا في القناة الغارقة في المياه نلهث ونبكي ثيابنا المدرسية التي تلطخت بالطمي والخضرة إلى أن نرتاح فنعاود الاشتباك ضربًا ورفسًا وعضًّا ككلبين اشتبكا دون أمل في الخلاص .و انفجر باكيًا حين كفَّ المطر .. وتصرخ بي نادمًا (أنت السبب) لأنني قلت لها كلامًا منغمًا يغيظك ، ولأنني أعرف أسماء بلدان أكثر منك .. لتصالحنى وتمسح دموعي في حنان ..

يومها صالحتني وتنازلت لي عنها . بعد أن ساعدتني في غسل ملابسي ونشرها على غصون شجرة الجميز .. وبقينا نرتعش بجوار جدار الزريبة القبلي نستجدي الشمس حتى جاءت ضاحكة وأشعلت لنا راكية نار هائلة ..

تعانقنا نحن الثلاثة مرة أخرى حتى جفت ملابسنا .. وضحكنا من القلب عندما اعترفت لنا أنها كانت تراقبنا سعيدة ونحن ننهش بعضنا. و لم تتدخل . كتمنا ضحكتنا مذهولين ثم اندفعنا نحوها دون اتفاق غاضبين ، فارتعبت . و لم نتركها إلا بعد أن أشبعناها ضربًا .. ثم ركلتَها أنت ركلة ألقتها صامتة مذهولة في القناة حيث كنا.. ومضينا دون أن ننظر إليها و لم نبادلها كلمة واحدة و لم يقترب أحدنا منها بعد ذلك ..

وكأنما هو مقدر لنا الا تختفى شمس البنات من حياتى بغيابها الدرامى المؤسف ظهرت (عزيزة) أخرى فجأة لتطلب مني طلبًا غريبًا – (عزيزة) بنت (رزق) تلك التي وقعتُ دونك في غرامها واشترطت لكي تمشي معي (مشي الناس اللي هُمَّه) أن أحضر لها زجاجة بنج صغيرة ، لأنها كانت حامل وتريد إسقاط الجنين تجنبًا للفضيحة.. والداية طلبت منها ذلك البنج لتقوم بالمهمة دون أخطار .

وسرقتَ لي زجاجة البنج من المستشفى . أعطيتها لي في كرم وإيثار ، أخذتُها إليها وأنا أكاد أموت من الحزن والرعب .. لأنك بخبرتك حذرتني (أن الحكاية ستكون مصيبة لو جرى للبنت حاجة وماتت أثناء العملية) ، واعترفت بمن أحضر لها البنج . لكن الله سلم ونجت (عزيزة) . فسخرتَ مني فى البداية لأنها لم تنفذ وعدها لي .. لكنك أجبرتها أن تعود إليَّ غصبًا . بعد أن سحبتها إلى غابة (الساحل) لقاء حبتين طماطم وبيضة ورغيف أبيض . وعندما ظهرت أنا – ظلت ترفضني خوفًا من الفضيحة لأنني عيَل وكثير الكلام .. ورغم إحباطي ، أعطيتها خمسة قروش كاملة جعلتها تشهق وترتمي على ظهرها ، وحين تركتنا أنت لنأخذ حريتنا .. لم أفعل شيئًا، سوى أن سترتها وجلست إلى جانبها أتكلم كلاما كثيرا اعتذر لها وأواسيها وأنا أبكي بدموع حقيقية ، فقبلتني ومضت..

أنت لم تصدقني أبدا وتحجَّجت بأنك لا تذكر شيئا من تلك التفاهات .. فأنت كما تقول (لك دماغ واحد وذاكرة عادية وإن كنت بألف يد وألف عين.) لك حق .. كيف يذكر مثلك هذه التفاصيل التافهة الصغيرة التي تحدث لعامة البشر ، فأنت ربيت أسواق ، جوَّاب آفاق ، غرَّاس أشجار وفتوَّة.. وحفَّار ترع وصانع ومحطم أقفال ، وشراشر وفؤوس .

أنت المغنِّي ، عازف الربابة . سحبتني خلفك إلى بلاد وعزب وكفور تسهر حتى الصباح في الليالي الباردة والأمسيات المقمرة .. على ضوء كلوبَّات الجاز تأسرنا سهارى حتى الفجر نحارب مع (أبو زيد) ونأسى (لدياب) ونتنافس على عشق (الجازية) . كنت وحدك من يحفظ كل هذه الكلمات التي بلا نهاية والتي تضج بأحداث الحروب والقتال والمبارزات والمجاعات التي تضطر الجوعى للهجرة والغربة.

كنت تخترع وتقول في وسط هذه الموالد ما يدهشنا ويأخذ بقلوبنا . تعزفها على أوتار الربابة أو تلوح بها على طرف عصا الموال ، المزوَّقة بالورق الملون وأنت تخترع صورًا مدهشة ضاحكة .. لا تتوقف الكلمات الفاضحة على لسانك :

عجبي على حداد بيضرب في مرازبه

سهران طول الليل وعينه على مرازبه

لا ينام ولا يهدا إلا وفى المرة.....!

تنفجر السهرة بآاهات الساهرين وترتفع صيحة (الله اكبر) .. إعجابا بهذا الإعجاز .. أنت الذي لم يقرأ ولم يفكّ الخط مثلي في المدارس . ولم تعرف الجغرافيا ولا الإنجليزي ، تتلقي إعجاب الجميع بينما أنا الذي يكتب كلامًا منغمًا – أغضَبك ذات يوم وجعلك تضربني أمام (عزيزة) –

أجلس فاغرًا فمي أرفرف حول حبال خيالك . أذوب عشقًا في كلماتك وأحفظها . أنت الساحر الذي يستطيع أن يضمَّ العالم في كفِّه ليفرده أمامى . خلفك أجوب الأفراح والموالد ، متيَّم أنا بتراتيلك وشعرك .. مجذوب بالخيط السحري الذي لضمنا معًا في كيان واحد . أسير لا تفكُّ المسافات أسري فيك .. ولا يقطعه الرحيل إلى المدن البعيدة .. أحملك تحت جلدي إلى بلاد تفصل بينها وبين أرض (عزيزة بنت عباس) و(عزيزة بنت رزق) و(مديحة بنت ام نمر) و(نجاة بنت حمادة المصري) وعزيزات كثر أخر وصحاري وبحار وأهواء صغيرة . تحول بينها وبيننا أحداث مهولة وهزائم أكبر حجمًا من قدرات كينونتك التي لا تكف عن التواؤم والتوالد والإبداع . لتشكل ملامح كينونتي . وتعطيني ملامحي ، ولكنها تكبل روحي لفلكك الذي لم يكف أبدًا حتى في عتمة الزنازين الانفرادية ، عن الدوران حول المركز ، الذي تمرَّغنا معًا في طميه النيلى المقدس الممزوج بخضرة برسيمه الرطب ، ذات نهار شتوي ممطر على مرمى بصر (عزيزة بنت عباس) .

• • •

بعضهم لبعض . .

○ لا أحد من أهالي (ميت سلسيل) المعاصرين إهتم أن يعرف سر هذه التسمية ولا معناها .. لا أحد يريد . فالأقدار هي التي تختار لنا في أي أرض نولد وعلى أي أرض نموت .. وما الفائدة وراء أسئلة لن تغير من الأمر شيئًا . وماذا يفيدنا أن تكون (ميت) هذه كلمة فرعونية تعنى (طريق) أو أن (ميت سلسيل) تعني مكان الطرب واللهو .. أطلقه المماليك الذين كانوا يروِّحون عن أنفسهم على شاطئ البحيرة .. فما علاقتنا بالفراعين أو المماليك .. والخلق تدور في طاحونة الرزق الضيق.

سيشوح لك أي فلاح بذراعه في ضيق إذا ما ذكرت له شيئًا من ذلك مثلما فعل (حلمي) ابن عمتك (فرحة)حين قال لك :

– الفراعنة ؟!.. كان فرعون جبار كافر والعياذ بالله..

وينزل بالفاس على رأس الجسر ليحوِّل المياة إلى أرض الطير ويضحك من قلبه لأن أحدًا لم ير المماليك يرقصون ويعربدون ..

– نسوان وخمرة ؟! .. حلو قوي ، إحنا بقى ما شفناش إلا النسوان أمات عراقيب تدبح الأرنب والمشّ ابو دوده .. يا عمي اترك الملك للمالك.

يقولها ويمضي ، وكأنه يخزي العين .. فقد تزوج بامرأة ذات جمال ملحوظ !

أجيال .. وراء أجيال استهلكوا أجيالاً بعد أجيال من تلك البيوت الطينية ، واستهلكتهم . وهي تتراكم طبقات من الأنقاض فوق بعضها وفوقهم .. عضم ولحم طوب وطمى . ليتشكل ذلك الارتفاع الملحوظ لوسط البلد ، حيث يقع الجامع الكبير ذو المئذنة الفارهة ، التي بُنيت لتباهي القرية بها القرى المجاورة .. منتصبة في منتصف شارع السوق ، الذي يمتد مخترقًا القرية من غربها لشرقها ، منحنيًا يتلوَّى كثعبان أسطوري طويل الذيل .. لا رأس له .. تنحدر منه الحواري والشوارع شمالاً نحو شط البحر القديم ، الذي يندفع جنوبًا من (المغذي) عابرًا (الهدَّار) منحنيًا عند جنينة (علي ابو حسن) التي تفصله عن تل (أبو خشبة) الذي تراكمت عليه المقابر القديمة فاصلةً غرب البلد عن مقام (سيدي مجاهد أبو عبد الوهاب) حامي حمى القرية ، وحارسها وجدّ عائلة (الشرفا) ليمضى بعد تلك الانحناءة الفجائية مستقيما نحو الشرق حتى ترعة الجوابر حيث (هرْى) ساقية العفاريت الممتد ككهف مظلم طويل تحت جسره قاطعا المساحة الغامضة شرق (بيت احمد ابو قصبى) حتى الساقية المهجورة التى تحيطها غابة من أشجار الجميز تصنع معها مكانا سحريا يليق أن

يختاره ليعمره المسحور وجنياته ويتخذه معهن سكنا و ملاذا ومكمنا للهو والعربدة طول أيام الفيضان ، تفور المياه فيه و تعلو وكأنها تغلى محدثة أكبر ضجة تليق بالعفاريت ، دافعة فيض المياه الى (البركة) التى تفصل بين شريط السكة الحديد وبيوت واطى البلد (البركة) . التى ميزت (ميت سلسيل) لسنوات واحتفظت باسمها رغم تحولها بعد جفافها لجرن شاسع يستوعب محاصيل الدراس طوال العام بعد انقطاع مياه الفيضان وهرب الجنيات إلى الأبد

وكان اهل ميت سلسيل يعتقدون فى غالبيتهم و يتمسكون بنَسبهم (لأبو خشبة) ولي الله الصالح ، الذي مات وهو يقاتل الصليبيين – الذين هدموا (تانيس) – بخشبة طول صاري المركب ، فشتت شملهم قبل أن يستشهد ويدفن على شاطئ (ترعة السلطان) التي تحد القرية من الغرب.. وتقع على شاطئها الغربي سراية (عبد ربه) وفيلات أبنائه التى سوف تشيد فى قادم الأيام على الطرز الحديثة .. وحيث أمامها مباشرة تقع (عزبة السلطان) تفصلهما عن جسم القرية مساحات من خضرة الأرض الخصبة حول جرن (دار أحمد) المرتفع ، الذي يظهر معلنًا عن نفسه كساحة للمولد ، وملعب شتوي للصبيان والشباب العاطل والطلبة .. ومكانًا لدرس المحاصيل في المواسم ، حيث يكاد غبار وتبن المداري يردم (المسرف) الذي يحيط به مندفعًا نحو الجنوب ، عابرًا السكة الحديد الفرنساوي ، مارًّا بمكنة (البداوية) ليفصل عزبة الغجر إلى الجنوب الغربى الأقصى ، بعد أن يلازم الزراعية لمسافة طويلة ، ثم يتركها ليمتد في استقامة إلى الشرق ، كساق مستقيم لشجرة سرو . تبدو القرية على جانبه اليسار كعش (فرس النبي) أو كورم ، أو طلوع في رقبة بني آدم مثل الذي يبرز

نافرًا تحت طربوش (عبد اللطيف افندي) الذي يكتب شعرًا منظومًا مقفًّى منذ كان على حجر أمه في كل مناسبات القرية وأعيادها وجنائزها ..

بذلت جهودًا كبيرة – لا أدري لها سببًا أو هدفًا سوى أنك أغويتنى – لمعرفة سر هذا الاسم ومعناه .. قبل أن أكتشف ذكره في بعض الكتب القديمة والخطط وآثار البلدان ..

سمعت وسجلت كلامًا كثيرًا من رجال ونساء عجائز .. صيِّتة وفقيهات وخلابيص وكوديات سودانيات وغجر وحلبيات عمَّر بعضهم أو بعضهن حتى صاروا من الأعاجيب وأصبحت أقوالهم حكمًا أو الغازًا .. وحواديت .. كتبًا حية من لحم ودم ، مفتوحة الصفحات بلا حواجز لمن يريد أن يقرأ خطوط الزمن ، على جلد وجوههم وخشونة أيديهم وصفحات عظامهم البالية ، يؤكدون ما تطرحه القراءة من تخمينات . وما تدحضه من أدلَّة أو ما تؤكده من حقائق .. يشكلون – وهم لا يدرون – ذلك الجسر الغامض الواصل بين رؤى الحلم وحقائق الطين .

الجسر الذي بدونه لم يكن من السهل أن تستحوذ على قلبي وروحي أحاديث خالتي (السيدة)، التي تأسر لي الخيال الجامح الفذ وتضعه واقعًا ملموسًا في قبضة يدي الصغيرة وقلبي البكر . فأوقن أن ذلك التعلب الماكر (أبو الحصين) الذي قُدِّر له أن يحرس جثث الموتى من الذئاب بأمر (فرعون) من بداية الزمان هو نفسه الذي استدرج الذئب (سرحان) وجرَّه من شهوة جشعه عابرًا به جرن دار (أحمد) والمسرف إلى غيط (السباخ) حيث دوار (اولاد الوصيف) الذي تبيت فيه أغنام (زكي الزروطي) بعد أن أقنعه بواسطة قطعة من الورق قال له أنها دعوة ملكية لهما لأول مرَّة في التاريخ كي يلتهما ما يشاء لهما جوعهما ونهمهما من جديان وخرفان

أوزى بلا مقابل أو تعب احتفالاً بسلام مزعوم بين الكلاب والذئاب .

وأن ذلك الرجل القليل الجرم المحني الظهر .. الذي يسكن بجوار الجامع الكبير كان بالأمس البعيد عترة وأبهة .. وأن زوجته (زقمانة) هي نفسها المرأة التي اشترت اسم (فاطمة النبوية) بثمن الجاموسة اليتيمة التي يملكانها .. وهو الذي فُجع حين حدث ذلك ؛ وإن صعبت عليه غباوتها وحلاوتها فلم يطلقها لأنه كان يحبها .. لكنه قرر أن يطفش ويسيح في الدنيا ، فإن وجد من هو (أعبط) منها عاد إليها .. وغفر لها لكنه يقع – لمشيئة ربنا – على زوجة الطبيب (حبيب) قاطن ذلك البيت الذي يلوح منفصلاً عن قرية (الجمالية) في تعالٍ وأنفة .. فتعطيه مالاً وطعامًا لأبيها المتوفى حين أقنعها لما سألته عن احواله عن الدار الآخره أنه رآه بعينيه يسوق القطار الذي يزوِّد (جهنم) بالفحم اللازم لإشعال نارها العظيمة ، التي وقودها الناس والحجارة ..

فيتبادر إلىَ أن هذا هو بعض المكتوب والمسجل على حجارة الشيخ (المسَيد) ، بحروف تشبه نبش الفراخ – التي هي في الحقيقة كتابات سريانية كما خمَنت . يستطيع أن يقرأها العارفون والواصلون من مريديه الذين يؤكدون في كل مناسبة ، أنه جاء طائرًا من أرض الرسول ليرابط ، وليحمي قريتنا من الصليبيين الغزاة هو (وابن سلام) و(القعقاع) وباقي الأولياء الأربعين ، الذين يحيطون المنطقة ويحمون شواطئ البحيرة التي رابطوا عليها وليفرضوا نفوذهم وحمايتهم على كل أرض (السبخاية) و(التلول) و(الهيش) المحيط بالأرض حتى بحر الظلمات . حيث مَرَج البحرين يلتقيان ، وحيث كانت تقع (تانيس) التي كانوا يعبرون إليها في (الصوالي) المقطرنة المسحوبة الأطراف التي تشبه ما يستخدمه صيَّادو

اليوم في (بحر ماهر) و(الخطرية) ، عبر المساحات الشاسعة من المياه الضحلة التي تغطيها غابات (البوص) و(الديس) و(البشنين) والتى كانت قديمًا مغطاة بأصداف (اللؤلؤ) و(المرجان) ، تغسلها المياه الهادئة العذبة التي لم تفسدها بعد ملوحة البحر الذي يحيط من الأربع جهات تلك المدينة البائدة المدمرة . والتي (كلام في سرك) هي نفسها على ما كنت اعتقد (مدينة النحاس) المذكورة في الكتب القديمة . وكان حولها سور عال إذا ما صعد فوقه العشاق المساكين وأبصروا ما بداخلها .. لا يجدون مفرًّا من إلقاء أنفسهم من الحسرة .. رغبة في الحصول على بعض ما بها من نعم وعجائب تفتن العابد .. بساتين وأرائك مصفوفة وزرابى مبثوثة تحت كروم العنب والفواكه، والنساء الحور العاريات البكارى كالجواري الساحرات . قادرات على أن يتحولن إلى طيور .. وأن يحولن الرجال الأشرار إلى خراف أو كلاب أو حجارة . كلٌّ وقدرُه المكتوب حسب عمله ونيته .. ومن يذهب لا يعود ..

وهل يرجع من الجنة سوى أهبل أو مجنون .

يفرط كيف ؟ فيما يهبنه مع حبهن من قوة تكسبه القدرة على تحريك الجماد .. و سخط الأحياء إلى حجارة لو شاء .. إذ يكشفن له أسرار (السيميا والكيميا) وعلم (الروكا) والشفاء بالصلاة على النبي وقراءة القرآن . والسحر الذي لا يدركه سوى الموعودين .

كنت متأكدًا ، بل مؤمنًا أن خالتي – (وإن أنكرت) – واحدة ممن يمتلكون بعض هذه القدرات السحرية والمزايا الخفية . فهى ترى بصعوبة شديدة في النهار ، الشمس تغشي عينيها ولكنها في الليل ترى لمسافات طويلة مثلها مثل القطط والثعالب وغيرها (من طواطم أجداد أجدادها

الغابرين) . أو على الأقل هي من المكشوف عنهم الحجاب . فما تصنعه من العجائب – أقلها قدرتها على قراءة اللغة السريانية .. فحين أحضرت لها بعضًا من حروفها المنقوشة على ذلك الحجر من بقايا (المسيد) قرأتْها وفسَّرتْ لي معانيها ، لكنها عندما عرفت كيف ومن أين جئت بها ، في منتصف ليلة كحل مظلمة – فزعت واستعاذت بالله ورقتني وبخَّرتني . وظلت طوال الليل تتلو تعاويذ غامضة ورُقى ، لكي تمنع العفاريت من التمكُّن من جتِّتي ، وقد فعلتها .. نعم كانت تستطيع ذلك .. هذا مؤكد ، هي تعرف كل ذلك .. وإلا من أين عرفت أخبار كل هؤلاء الذين تحكي عنهم .. أولئك الذين تأكد لي معاشرتها لهم ، وقربها الحميم منهم لدرجة أنها رأتهم رأي العين ولمستهم .. وصاحبتهم وهم يركبون الريح ويصعدون إلى السماء ليسترقوا السمع لتسبيح الملائكة – مع أنهم كفرة لا يعرفون الله ولا يركعونها ..

لذا ترميهم الملائكة بالشهب ليسقطوا محترقين . لكنهم يعاودون . فقد كُتب عليهم ألا يفلتوا أبدًا من هذه اللعنة الربانية، فلا يكفُّون عن محاولة الصعود ، بأجنحة خفية تنبت لهم كلَّما حرق الملائكة ريش أجنحتهم القديمة ..

نعم هي منهم وتعرف سر تحكمهم في طاقات السر الأعظم وحق (كن فيكون) .. وإلا ما سمعتها تحدث النساء الخفيات ، اللائي يظهرن فقط لمن يحببن . ويختفين عمن يردن سلب عقله منهم ، بعد إشعال مواجد القلوب ، فيتركون الدنيا وما فيها ويهيمون على وجوههم ينشدون الشعر زاهدين في مُتع الجسد .. أو ملتجئين إلي حماية الأولياء . هائمين في مدح أهل (بيت النبي) اعتذارًا وتوبة وذوبانًا في حب الرسول يحكون على

الربابة أو الأراغيل مواجدهم ومواجعهم ، عبرة لمن يريد أن يعتبر .

هي قرأت لي ما جاء في الكتب : أن الله أراد خيرًا بأهل هذه القرى التي تواجه (تانيس) بعد إسلامهم .. فأعاد الخصوبة إلى الأرض المالحة التي حرقها غضبًا عليها في الماضي .. فعادت أكثر عطاء وأوفر ثمارًا مما كانت .. وأعطاها من وسَع ، فزوَّد عقول أهلها بالعلم وأيديهم بالمهارة .. فصار تجَّارُهم أشطر التجار وفلاحوهم أمهر الفلاحين ، وأسطواتهم أحرف من يصنع السفن والمراكب . ونفخ في صور طلاب العلم من أولادها فصاروا من أذكى خلق الله .. (مثل خالك إبراهيم) .

لكنه لحكمة لا يعرفها إلا هو – ترك بعض هذه القرى من قديم الزمن مستمرة على كفرها.. تأبى الخضوع لسلطان أو ملك .. وهي القرى الهالك أهلها ، التي كانت تمد (تانيس) بالطعام والمياه .. ولكن ذلك كان إلى حين . إذ عاد فسلط عليها من خرب مصدر قوتهم وافترائهم .. وحوَّلها إلى أنقاض وسبخ لتكون عبرة لمن يعتبر .. ولا أحد يعتبر ..

كان الخليفة بنفسه ، ينزل إليها من (بغداد) متخفيًا في زي التجار . أو في ثياب الهائمين في حب الله – ليعرف أحوال الرعية ويمنع ظلم عمَّاله القساة ، الذين امتصوا دمها على مدار السنين ، وليرفع عن الغلابة المساكين الظلم ويقيم العدل .. خوفًا أن يصبَّ الله عليها غضبه مرَّة أخرى كما حدث .. لبني (سلسيل) نعم .. (سلسيل) هذا كان ملكًا عظيمًا .. ماردًا .. (كالفرعون) رأسه يطول السحاب .. وقدمه حافية أكبر من الجاموسة ، وكان عنده أبناء كثيرون لسانهم طويل .. ما شاء الله مثلك ،ومُلك لا مُلك مثله .. كانت بلدكم هذه تسمى (منية بني سلسيل) أرأيت .. ؟ سميت باسم أبنائه ما شاء الله .. ولكن كان له ابنان هما المقدَّمان لديه دون إخوتهم أجمعين .

كان لكل منهما (جنة) . فيها ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر .. كانت الأولى اسمها .. (منية بدر بن سلسيل) والتانية (منية مرجا بن سلسيل) ومازالت حتى الآن اسمها (ميت مرجا سلسيل) . أما (منية بدر) فقد حرقتها لعنة الله .. نعم .. مذكور ذلك في القرآن (جنتان عن يمين وشمال) .. مثل جنة ربنا الأولى . هكذا شاءت إرادته .. نعم .. (إذ قال لصاحبه وهو يحاوره) ! .. وارجع بنفسك إلى المصحف الشريف تعرف كل شيء .. كان (بدر) يمشي مختالاً .. وكأنه هو الذي خضَّر وأثمر .. فتخطى حدوده . وسأل في كبر وتجبر أرأيت مثل هذا؟ .. قيل له لو قلت (ما شاء الله) لكنه ضحك وسخر منه .. وربُّك لا يقبل السخرية.. صبح لقاها بلقع .!

– ندم .. ولكن هل ينفع الندم ؟ .. كل ده مكتوب .. ومسجل في الكتب .. واسأل خالك (إبراهيم) .. والكتاب أهه..

أشارت لي . فألقت بي في خضم صاخب من الصفحات والحكايات .. تكاد كل منها أن تتجسد أمامي وحولي واقعًا ماديًّا كدت ألمسه في الجدران والشجر والحجر .. بيوت وأماكن لا تموت ..و كأنما عاينت بنفسي (تانيس) القديمة تتحدث إليَّ بلسانهم .. تبعث لي بإشارات وصور .. رأيتهم مثلها – رأي العين – نعم .. فأنا لا يمكن أن أخمِّن متى وُلد هذا الشيخ الذي يقولون إنه وعي على البلد وهي أعشاش . ولا يدخل أحد بيته ولا يرى مخلوق أهله .. ولا ينظر أحد أخته الساحرة (زهزهان) التي ليست من دمه كما يدعي ، فهي لا تشبهه بل ولا تشبه أحدًا من الإنس

.. هو مجرد حارس عليها فقط . نعم ، خالتي أكدت أنها (جنِّيَّة) ورقتني وعوَّذتني بالله من شر سحرها .. فهي من سلالة الذين تزوَّجوا جنيَّات البحيرة .. وتعلموا على أيديهن صناعة الحرير الذي اشتُهرت به (تانيس) .

مثلُه كذلك ، (نعيمة العامية) التي كُشف عنها الحجاب فكانت ترى (عزرائيل) .. وتبصره حين يحوم حول القرية في نصاص الليالي ، ليقبض أرواح الصبايا العذارى فتصرخ محذرة .. ليسود القرية صمت غامض . تنشلُّ معه حركة العذارى البكارى في فراشهن . إلا تلك التي وقع عليها الاختيار .. تتسلل خارجة إلى الخلاء خفية ، ليجدوها في الصباح جثة هامدة في البحر غريقة ، أو على التل مذبوحة أو محروقة صعدت منها الروح إلى السماء لحكمة لا يعلمها إلا علام الغيوب !!

زهقت من الإلحاح على كل من لهم في تواريخ البلدان والقرى .. لكن أحدًا لم يؤكد كلام خالتي ولا وافق على ما تقول كتب خالي .. فلا أحد يذكر بالضبط متى بدأت هذه الخرافة . ويدَّعون أنه لا أحد يذكرها إلا أنا .. لغرض في نفسي .

الشيخ (علي أبو دسوقي) حذرني أن أخوض فيما لا أعرف ، فأكفر .. أكثر مما أنا فيه.. وطلب أن أنتبه لدروسي أحسن وأفضل .. اترك الخلق للخالق .. فالناس ما خُلقت إلا لتعبد الله وتتأمل في عظمة خلقه لا أن تسأل عما وراء الحجب وتخوض بلا علم فيما لا قبَل للبشر بفهمه.. (الجدل يفتح الباب لموت القلب) .. والدنيا على ما هي عليه منذ أرسى رواسيها ملك الملوك ، على هذه الأرض . (وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون) فكن في حالك واتق الله . لكنني لم أرعو . وكنت أجادله وأصر

على أنني قرأت أنها (إلا ليعرفون) وبعضهم تجاهل ذلك لغرض في نفس يعقوب .

ولأني عشقت هذه الأرض ودفعني عشقي أن أبحث عن خرافاتها وتاريخ أهلها الطويل ؛ حيث ظلت الأجيال تنجب الأجيال من الفلاحين والصيادين ورعاة الغنم والنجَّارين وصانعي الفؤوس والشباك والعبيد والمساخيط والمجاذيب والجواري وأصحاب الحرف من القزازين ناسجى القماش والزعابيط والبشوت والعبى والفواخرية من صانعى القلل والدوارق والمحالب والقدور والبلاليص والمناقد و صانعى القفف والمقاطف والفرد والأطباق والابراش والزنابيل والمرجونات والاسمطة من الخوص والحلفا والسمار .وغيرهم من حلاقين ونجارين وسروجية وقصَّاصين الحمير وغيرهم من عطَّارين وقبَّانية وفعَلة وبنَّايين وحمَّارين وخيَّاطين وفوَّالين وصُنَّاع طشوط وحلل النحاس إلى جانب المشايخ والفقهاء وأصحاب العاهات والفقراء والمُلاَّك والغفر والدايات وأبناء السبيل وأقرانهم من الجنِّيَّات والعفاريت .

وإن كنا لم نشاهد جنيات ولا شياطين .. فذلك لأنه لا أحد من العقلاء يخوض في مثل هذا أو يحكي عنه حتى لو كان قد حدث .. لأن من اؤتمن على السر لا يبوح به .. والله أعلم ..

أجيال تركب ضهر أجيال .. كما ركبت البيوت أنقاض ما هُدم منها .. كل جيل يلعن سلسفيل الجيل الذي رماه عن ظهره .. ومن دفَنه في التراب لأنهم لم يورِّثوه إلا الغُلب .. والفقر والنكد .. والالتصاق بالطين الرطب في الحقول أو في هذه الدروب والحارات الشعرية التي تتفرع وتنقسم وتتوالد وتستدق وتستعرض ، بين كتل البيوت الطينية بلا

نظام ولا وعي حتى تتلاشى في تلك الساحة أمام الجامع . أو تندفع هابطة كمجاري مياه المطر نحو الأطراف الأربعة للقرية كشرايين باهته تضج بالأولاد والحمير والبنات والكلاب ..تترك فيما بينها بلا نظام وسعايات وخربات كالأورام تختلف مساحتها حسب حاجات أصحاب الدور حولها لتكوم فيها بقايا روث المواشى وما يطرح تحتها من تراب أرض النيل عندما تترك لتجف ثم تنتقل إلى الأرض متخمرة بين حين وحين حسب حاجة المحاصيل والمواسم .

تتجمع وتتفرق هذه الشوارع والحوارى والخرابات حول (سيدي مجاهد) ومكنة (البداوية) وجرن دار (أحمد) والشادر و(عزبة الغجر) و(ابو خشبة) و(المسيد) أو عبر ساحة (ابو الرايات) ومَنزَل كتاب (ابو عبد الله) وحارة (الصياغ) والسبيل ودكان (زينب) ومصطبة (خضرة) وقهوة (أحمد النادي) ودكان (شطا) .. ودار (حبيب) و(زنئور الصليبة) و(البركة) ومدرسة (الشيخة) و(الجامع الصغير) وبيوت (القدادحة) (والطاحونة) والشيخ (البهلول) وحارة (الجعطَّة) و(ابو قصبي) في شبكة عنكبوتية خرافية ، لعنكبوت عجوز . جفَّت عروقه ونبتت حولها – بالصدفة أو قصدًا – بيوت لا عدد لها ولا حصر ولا شكل . يفتح بعضها على بعض ، ويركب بعضها فوق بعض . ويتكالب بعضها ليسد منافذ النور على البعض . فيتحجر القلب والسطح والعتبة وتنشرخ الحيطان والدهاليز بفعل الرطوبة والقهر .

ويكفُّ الجميع عن التململ ، تعبًا من جهد أزلي لا تبدو له نهاية ولا طائل وراءه .. توالى على بذله السابقون من البشر لحكمة ربانية .. تصر على أن يولد الخلق كالضفادع – من الماء المهين – مهيَّأين للتآلف مع

المياه الراكدة ، متعايشين مع ضحالتها وأسانتها .. لا يعرف الواحد منهم أبعد مما يراه منها .. ولا تعي ذاكرته أكثر مما مر به ؛ دون محاولة تفسير سر تخثر حبها في عروقه . ولا يلفت نظره تكأكؤها المريب فوق بعضها هلعًا ورعبًا من المجهول والمعروف ، ولا يعرف الضرورة الحتمية .. لتكالبها وتزاحمها على تلك البقعة الرطبة من الأرض القديمة البالية الممتدة من باط (البحر القديم) حتى (ترعة الجوابر) ؛ حيث ينبعج مجراه ويتسع فاتحًا شطه لذيول الفئران الملتوية على هيئة حواري بين البيوت . تصبُّ فيه أناسًا ونفايات وحيوانات نافقة وأطفالاً عراة ونسوة كاشفات السيقان ..

ليندفع بعد (مدرسة الشيخة) القديمة محرومًا من أنس البشر وحسهم، وسط غابة من البوص الصامت المريب . وأكمات من أشجار شعر البنت والنخيل غير المقضب ، وأشجار الصفصاف القزمية والبرنوف والحلفا، تتشابك قممها فوق المجرى الضيق المحصور بين شاطئين كثيفين غامضين يحجبان الرؤية عما يجري في الليل والنهار فوق سطح مياهه العكرة الملوَّثة المزدحمة بالجنِّيَّات وبنات المسحور ..

مثيرًا في قلوبنا الغضة آلاف الأسئلة .. بلا إجابة تشفي الغليل وتريح القلوب البكر من قهر تحذيرات (الشيخ عليٍ أبو دقن) التي لا تترك في قلوبنا أو فوق رموشنا غير مخلفات حيرتنا وشكنا ، في ماهية الجهة الخفية التي يسيل إليها الماء المندفع شرقًا خارج قريتنا بعد أن غسلنا فيه أجسادنا وأجساد الحيوانات والبهائم وحلل الطبيخ ودسوت الأرز المفلفل ، وصواني الموالد وقدور الفول النابت وخشب نعوش الجنازات وخرق الرضع والعرق والصدأ والبراز وجثث الحمير بعد موتها لأسباب مجهولة..

بينما نحن مازال يؤرقنا جهلنا بمصدرها . ولماذا تظل تأتي إلينا الجثث

رِمًا مع التيار في كل المواسم ما بين نوبات الري والتحاريق ، تخنقنا روائحها الكريهة .. ويلسعنا ذبابها الأزرق المخلوق من أرواح الأطفال الموتى والصبايا العذارى المغتالات .. يطنّ ويزنّ ولا يكفّ عن نهش لحمها البنفسجي المائل للسواد .. يجبرنا غيظنا منه أن نرجمها بالحجارة ونحن نتشهد كما علمونا في الكتّاب . ونستعيذ – كما أوصانا آباؤنا – دون حقد جدي . ونحن نسد أنوفنا مفتعلين التقزز والقرف .. دون رغبة حقيقية أو أمل في انقطاع ورودها المقدَّر .. حتى لا تلحق بنا لعنتها ، إن أثرنا غيظ أو غضب من يرسلها كالمصائب على رؤوسنا بإصرار، يليق بإصرار الأحياء ، على مواصلة رحلة التعب والنكد والكدح وراء لقمة العيش ، وهدّ الحيل المهدود ..

جيل يسلم جيلاً – منذ كانت أعشاشًا في خدمة (تانيس) المخروبة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .. حتى وإن ظلت تؤرقها وتؤرقهم كما أرقتنا شهوة التساؤل عن سر هذا التناكب والتكالب والتناكح والتوالد والعذاب . منذ صرخة المولود الأولى حتى آهة طلوع الروح والنفس الأخير .. دون إجابة .. إلا أن (الحكيم العلي القدير) يدفعنا إلى ذلك دفعًا ويجبرنا عليه قهرًا ، كي نظل نتكاثر ونتناسل لنسدَّ عين الشمس ، ونملأ وجه الأرض، إلى أن يحين نفخ الصور يوم قيام الجثث ، كي يباهي سيدنا ومولانا رسول الله بنا الأمم – كافة – يوم القيامة !!

• • •

إنّا أعطيناك . .

○ شككت أمي في تاريخ ميلادي ، عندما أخبرتني – في وقت لاحق – أنني ولدت ضعيف البنية لدرجة أنهم لم يتوقعوا لي أن أعيش .. لذلك أجَّل والدي قيدي في دفتر المواليد عدة أسابيع.. مفضلاً الانتظار ليتأكد من إرادة السماء .. خاصة وأن الدنيا كانت (شاتية) والطريق إلى المنزلة (مزبّطة) وشبه مقطوعة بسبب المطر !

طبقًا لهذه الرواية التي يؤكدها (زَبط) الشتا وانقطاع الطريق إلى المركز ، فأنا لست من مواليد ١٥ مارس كما أدعى ..

وإنما أصبح في هذه الحالة من مواليد أحد أيام شهر فبراير ، وهذا يلقي ظلالاً من الشك كبيرة على ما قرأته أو سمعته عن البرج والبخت وحظك اليوم – هذا لو صح كلام أمي. أبي نفى هذه الواقعة تمامًا

– في غضب حقيقي – فكيف يؤجل ليوم واحد قيد ابنه البكري . الذي جاءه بعد البنت الأولى (أختي آمال) حتى لو كانت الدنيا بترخّ زلط !

ثم إنه كانت هناك علاوة ، تُمنح للمستخدمين في الحكومة أو في مجالس المديريات ، للمواليد . وكان حريصًا على الحصول عليها .. خاصة والدنيا كانت نار والحرب على وشك أن تقوم .. إن لم تكن قد قامت فعلاً .. منذ بدأت جيوش (هلتر) في اجتياح أوروبا وقضم الأراضي من حوله دولة وراء الأخرى ..

أصبحت البيضة بتعريفة بعد ما كانت العشرين بيضة تعني (نص تعريفة) وهي قطعة نقود مسدسة كانت تساوي مليمين ونص .. لذا كان من الضروري قيدي فورًا حتى ولو كان الموت يهددني .. فالأمل في الحصول على العلاوة .. أكثر أهمية بالطبع من انقطاع الطريق بسبب (الزبط) الذي لا يمنع سير الحمير إن استحال على العجل !!

لست أعير هذا الأمر كبير أهمية .. بالعكس . إنه شيء طبيعي ، فكل (العظماء) ليس لهم تاريخ ميلاد محدد بالضبط . وراجع سيرة حياة أي عظيم يطرأ اسمه على بالك .. ستجد ذلك شيئًا عاديًّا .. فلـ(محمد نجيب) ثلاثة تواريخ ميلاد .. وأيضًا (نابليون) هناك شك كبير حول تاريخ ميلاده بالضبط ..

وسيدنا (محمد) (ص) نفسه لو وضعنا في حساباتنا الفروق بين التقويمات المختلفة بين الميلادي (بكل حساباته) والهجري (بما حول بداياته من شكوك) .. فما بالك بالتاريخ والتقويم (القذافي) الحديث..!!

السيد المسيح كذلك .. حسب المذهب الذي كنت سأكون من رعاياه لو ظلت مصر مسيحية !

وبالمناسبة .. عندما عاد بعد قيد اسمي (سمير) احتجَّ بعض زملائه

وأصدقائة من مدرسي (الإلز) – (وكان الإخوان المسلمين فى صعود)– قائلين إن اسمًا كهذا سيشكك في ديانته ، سيظنه الكثيرون قبطيًا .. واقتنع أبي وقرر العودة في اليوم التالي ، ولكن ربك سلم .. ذلك لأن تغيير الاسم إلى (محمد سمير) كان سيتكلف على الأقل ثلاثه جنيهات ؛ ضع في حسابك حكاية (الزبط) والحمير .. وهكذا أنقذت من مشاكل الاسم المركب رغم إيحاءاته الأرستقراطية المؤكدة!

لكن أمي تعود لتؤكد روايتها . بدليل أن خالتي (السيدة) هي التي تولت رعايتي في السنوات الأولى منذ البداية . لأن أمى كانت (نِفسة) وليس عندها خبرة برعاية الأطفال المعلولين !

لكن هذه الشكوك كلها لم تغير من الأمر شيئًا .. فأنا مقتنع أنني ولدت في (١٥ مارس) . وأكتب ذلك على صفحات كل كتبي وأقوله في كل أحاديثي الصحفية والإذاعية . وأصر على أنني من مواليد برج (الحوت) فلست أميل كثيرًا لحكاية (الدلو) هذه التي تعني بفجاجة (جردل)!

ملامح (الحوت) أكثر احترامًا وأبهة .. ويحمل مواليده الكثير من ملامح ذاتي وصفاتي.. التي أفخر بها على العالمين ! ثم إن (١٥ مارس) حدث فيه حدث من أهم الأحداث الدرامية والتاريخية .. ألم يقل (شيكسبير) على لسان الرجل (بتاع ربنا) الذي قابل (قيصر) .

وصرخ فيه بدون مناسبة أو متنبئًا – الله أعلم .

– حذار من منتصف (مارس) !!

فلم يعره انتباهًا .. وكان أن ذُبح (وهو أهم (قيصر) متسلط في التاريخ) ، في ذات نفس يوم ميلادي !!

لذا يبدو الأمر لي غامضًا وغائمًا كلما أوغلت في الذاكرة؛ بحثًا عن

ملامح طفولتي .. والظروف التي أحاطت بنشأتي الأولى .. يقولون إن هذا مهم جدًّا وضروري للحكم عليَّ وعلى حياتي ، وضرورى لتقييم هذه الرحلة الطويلة .. إذ يؤكد البعض أنَّ شيخوخة المرء هي بعض من طفولته الأولى .. وبدون الإلمام بها .. لا يمكن تفسير إحباطاته وطموحاته .. أو تبرير نزواته .. وشطحاته ، أو اكتشاف نوع ودرجة جنونه أو حكمته ..

لكني لم أكتب أبدًا مذكرات ، ولا احتفظت بكراسات أو أجندات .. ناهيك أن ذلك لم يكن متاحًا .. كل ما أذكره بشدة هو أن هوامش كتبي كانت تمتلئ مع نهاية كل سنة .. بأشكال وصور لرسوم غير سيئة .. وجوه وبيوت وأشجار وحيوانات ، أرانب وحمير .. ومؤخرات جواميس تحت شجر جميز وطيور وأزهار . وكان هذا يسبب لي مشاكل كثيرة مع المدرسين ، الذين كان بعضهم يصر على نظافة الكتب من هذه الخزعبلات .

كان (محمد أفندي شاكر) .. يضربني بحرف المسطرة على ظهر كفي، إذا ما شردت مني الحروف خارج هامش الصفحة الأحمر .. ولم تتسع للكلمات (الثماني) التي كان لابد أن (تنحشر) بدقة وحرفنة بين الهامشين .. كان الأمر عنده مقدسًا ، يصل لمرتبة الكفر والإيمان.. فالخروج على الهامش فوضى ، وعدم قدرة على الفهم وعجز عن الاستيعاب ، إنه شيء هام جدًّا ، أشد أهمية من أخطاء الإملاء والهمزات ، وتواتر الحروف الملغزة في الكلمات المهولة، التي تظهر المهارة من الخيبة – كاللؤلؤ والسموءل والسجنجل وغيرها – والتي تعتبر كتابتها صحيحة من دلائل التفوق والمقدرة والعبقرية المبكرة ..

كنت أيامها أدرس مع أختي (البكرية) (آمال) في مدرسة (الشيخة) /

بنات .. لم أكن قد بلغت سن الالزام بعد ، لكن أبي كان مدرسا بها .. وهي مدرسة تقع في الطرف الآخر (الشرقي) من بلدتنا بجوار ساقية العفاريت أي في (واطي البلد ..) بينما تقع مدرسة البنين في (علوها) .. وألحقني أبي مع أختي بفصل (شاكر أفندي) وليس بفصله هو .. كان يقول إن ذلك أجدى .. حتى لا نتدلع عليه.. لكنني أظن أنه فضل ألا نحكم على كفاءاته وهو أمر – أقصد الحكم على (شطارة) المدرسين – كان موضوع حديثنا المفضل . وكثيرًا ما تشاجرت بسببه مع بنات طويلات اللسان كن لا يقدرن أبي حق قدره .

لكننا جميعًا – بنات فصل (شاكر أفندي) وبنات فصل أبي وأنا – كنا نحسد بنات فصل (محمود أفندي سالم) .. ذلك الأستاذ السكّرة المليء الجسم ، ذو الوجه المدوَّر الذي يضاهي وجه (ست أم حسني) زوجته بياضًا وجمالاً .. علاوة على طيبة قلبه وحنانه . الذي يجعل البنات يتقافزن حوله وعلى حجره وكتفيه طول الوقت حتى فيما بين الحصص ؛ وهو يوزع ابتسامته الحنون على الجميع ..

كم طلبنا وألححنا أنا وأختي أن يلحقنا أبي بفصل (محمود أفندي) لكنه رفض بشدة .. فقد كان صديقًا له وكانت (ست أم سمير) صديقة وحبيبة زوجته (ست أم حسني) وبالتالي هناك أسباب منطقية لرفض ذلك، أقوى بكثير من أسباب رفض إلحاقنا بفصله هو .. وكان رأيه أن الذي يريد أن يتعلم بجد لابد أن يكون في فصل (شاكر أفندي) !

كان لابد من فعل شيء .. فأنا لست تلميذًا رسميًّا .. إنني أدرس بالمجاملة كنوع من الأبهة أو الاستعجال ، إذ كنت مازلت صغيرًا على وجع الدماغ هذا .. ومع ذلك كان لابد من الاحتجاج .. فقد ورمت

يدي من الضرب .. وضاقت نفسي بالدنيا وما فيها .. حتى إنني اقترحت أن أذهب للكتّاب أفضل .. لكنه قرص ودني ، ورفض الاستماع إليَّ بل وأوصى (شاكر أفندي) أن (يتوصى بي) شوية لأنني لعبي .. !

وحدث .. كانت حصة إملاء . وكان الموضوع هو (شجرة القطن وشجرة البرتقال) وهو موضوع سخيف عن المفاضلة بين الشجرتين . واحدة تتباهى بجمالها والأخرى بقيمتها للأوطان ! وكان لابد أن نلتزم بالهامشين وبعدد الكلمات في السطر الواحد.. وكانت الواقعة، لم نكن نكتب بالرصاص .. ولم نكن قد عرفنا بعد الأقلام الجافة .. ولا حتى أقلام الحبر الأبنوس . كنا نكتب بالحبر السائل ، بالسن المركب على عود من الخشب ، كنا نسميه الريشة .. ولاستعمال الريشة والدواية أصول . كيف تغمس الريشة في الدواية، وكيف تحتفظ بالدواية المليئة بالحبر على (قمطر) ضيق ، يكاد يتسع للكراس . ومن كان حظه جيدًا ، كان لقمطره ثقب ، تسقط فيه دواة خاصة ، تشبه فنجانًا له حافة مستديرة ، تحتفظ به في مستوى سطح (القمطر) .. أما من كان حظه نيلة زي حالاتي .. وزائد عن العدد ؛ ولد وسط عشرات البنات . كان لي (قمطر) لا يتمتع بهذه الميزة . ولذا كان عليَّ أن أسير على الحبل ، موازنًا بين المساحة التي تحتلها الكراسة – مع وضع حركتها العصبية تحت يدي في الاعتبار– وبين الركن الضيق الذي تكاد الدواية الزجاجية العادية تحتله .. بالمللي !!

أخذ الأستاذ (شاكر أفندي) يملي علينا ، وهو رائح غادٍ يلوِّح بالعصا الخيزران ، مزيحًا طربوشه إلى الوراء تارة .. وإلى الأمام تارة .. فيضيف إلى المحاذير المتعلقة بالهامش ، وعدد الكلمات ، وتوازن المسافات فوق القمطر محظورًا آخر شديد الوطأة ، وهو أن تمنع نفسك من الضحك .. خاصة عندما يعجبه رنين صوته وسط الصمت الفادح الذي نكتم به

الأنفاس ، فيؤكد مخارج الحروف بحركات وإيقاعات كوميدية .. صحيح أن الرعب كان كفيلاً بإلزامنا حدود الجد والجهامة .. لكن المحظور كان لابد أن يقعَ .. فقد فشلت في حشر الكلمات الثماني على السطر ، قبل الوصول للهامش الأخير .. ونسيت فأخذت أمسح .. والحبر لا يمسح بسهولة .. فكشطت الورقة وأنا مرعوب ، أراقب حذرًا أن يراني ..

في نفس الوقت كان عليَّ أن ألاحقه حتى لا تفوتني الكلمات ، إذ أن له هو الآخر إيقاعه المحسوب بكل دقة .. التفت نحوي كأنما جذبه صوت اضطرابي .. فانفجرت باكيًا رغم رغبتي الشديدة في الضحك لأنه التفت في صورة مفاجئة والطربوش فوق حاجبيه تمامًا كطرطور (شكوكو) .. وما أن حملق فيَّ حتى أسرعت ووقفت منطورًا فسقطت الدواية .. مطرطشة الحبر على كل شيء .. هاجت الدنيا .. ما أن شاهد الصفحة المكشوطة حتى لطشني قلمًا جعلني أصرخ بشكل مبالغ فيه ، ففوجئ بصراخي وأسرع يمسك بي ، محاولاً إسكاتي .. صرخت أعلى فصرخت (آمال) وبعض الفتيات . واندفعت التلميذات على الصراخ من الفصول الأخرى .. ووجد (شاكر أفندي) نفسه في مواجهة أبي ، الذي جاء مسرعًا وقد تعرف على الصرخة .. ليشاهد الكراريس الملقاة على الأرض والحبر المطرطش وخدي المحمر ، فلم يتمالك نفسه ولم ينتظر شرح (شاكر أفندي) الهائج .. واشتبك الاثنان معًا .. (شاكر أفندي) محاولاً الشرح، وأبي مندفعًا للدفاع عن فلذة كبده .. وكانت موقعة تاريخية .. ظلت لها نتائجها السلبية والإيجابية على علاقات كل الأطراف المعنية لعقود طويلة لاحقة !

نُقلت أنا وأختي طبعًا إلى فصل (محمود أفندي سالم) .. الحنون الجميل . ولكن إلى حين .. فقد كان لابد أن يتصالحا – (شاكر أفندي) و(أبي) – وأن تتضح أبعاد الموقف فعادت (أختي) إلى فصله ولكني

رفضت بكل شدة .. واستعنت (بأمي) وبالست (أم حسني) . خاصة وقد تحول الكف الذي رزعه لي – حسب روايتي وتأكيدات (أختي) التي كانت تطمع في عدم العودة – إلى عشرات الكفوف شمال ويمين ورفص ورزع في الحائط .. كنت أصور (شاكر أفندي) في صورة الوحش عديم القلب والرحمة ، يكرهني لأنه يكره أبي .. وأنني كدت أموت في يده .. وأشهد أنني كنت كذابًا ، لكنني لم أرد أن أهزَم ، أو أعود صاغرًا بعد أن أدى اكتشافي لموهبتي في التمثيل والمبالغة دوره .. وعلى كل حال لم أكن تلميذًا (رسميًّا) مقيَّدًا بالمدرسة .. لكنني خسرت (شاكر أفندي الدغيدي) إلى الأبد . وهو صاحب الفضل الأول في جمال خطي ، وقدرتي على وضع كل همزة في موقعها الصحيح على الواو أو الياء أو على الأرض !!

بعدها بقليل فقدت أول بنت خفق لها قلبي .. وأنا الآن أعطي لمشاعري اسمًا . لكن أيامها لم أكن أعرف معنى لما يحدث لي عندما أكون معها .. كانت عينيَّ ويديَّ ورجليَّ تتوتر جميعها متعلقة بها . تنتظر إشارة من يدها ، أو لفتة من عينها أو همسة من شفتيها ، لأنفذ لها أية نزوة ، وأحقق لها أية رغبة .. ونحن معًا نلعب ألعاب البنات .. (الأولى) أو (الطظّة) أو لعبة الفرح ؛ حيث كنت العريس الأوحد دائمًا .. لم نكن وحدنا طبعًا بل كان معنا بنات أخريات منهن (أختي آمال) التي كانت في سنها وفصلها .. وكانت صديقة لها كما كانت (أمي) صديقة لأمها .. و(أبي) صديقًا لأبيها (أبو نضارة) وهو اسم أطلقناه عليه نحن الصغار. وتبناه كل أهل البلد ، لأنه كان يرتدي نظارة سميكة مميزة جدًّا ، لا تفارق وجهه المستدير المليء ، وتستقر في أبهة وثبات فوق أنفه الشديد الحضور .. كنت أعتقد أنه لا يخلعها أبدًا .. حتى وقت النوم .

كان (أبي) صديقًا له ولأخيه (ياسين أفندي) صاحب النخلة الشهيرة التي ذكرتها في أشعاري فيما بعد كثيرًا .. وعندما ساءت العلاقة بين الأخوين ، فترت الصداقة بينه وبين (أبي) ، وانتهت إلى ما يشبه حربًا باردة تحكّمت فيها الزوجتان (أمي) وأم حبيبتي بما عُرف عنهما من حكمة وحنكة في مسارها السري ومؤامراتها الهادئة ، ولم يشع خبرها بين أهل البلد كما حدث لمعركة أبي مع الشيخ (محمد ابو نبراوي) التي انقلبت – بسبب خادمة شبه عبيطة من عزبة (النصاصرة) أغرت أمى أمها أن تلحقها بخدمة خالى (فتوح افندى) فى المنصورة حيث تعيش فى البندر بدلا من بهدلتها فى (زريبة) أبو نبراوي وأغرى أبى أباها بإهدائه منبه ساعة ذات جرسين كان تحفة نادرة فى أوانها وكان ذلك كافيا لأعلان حرب بين العائلتين تحولت إلى صراع طويل دام .. كانت وقائعه وحوادثه ونوادره حديث القرية كلها . وبالطبع سنذكره بالتفصيل في حينه لأهميته التاريخية .

المهم أن ثلاثتهم (أبي وأبو نضارة وأبو نبراوي) كانوا أعضاء وزملاء في مجلس إدارة جمعية (ميت سلسيل) الزراعية الذي انتخب مع تأسيسها الأول قبل الحرب . برئاسة (حسين بك عاشور) أغنى رجل في قريتنا ، والذي كان يملك عزبة خارج زمام القرية تبلغ حوالي مائتي فدان قطعة واحدة .. ولم يسقط ذلك المجلس إلا عندما جاء (الوفد) إلى الحكم عام ١٩٥٠ . وإن كان (أبي) والشيخ (محمد أبو نبراوي) قد أُخرجا منه مع بقية الأعضاء الوفديين المنتمين إلى (علو البلد) ، عندما تولى النقراشي الوزارة بعد الحرب ؛ حيث اقتصرت العضوية على الأعضاء من (واطي البلد) .. وكان (أبو نضارة) هو الوحيد من (علو البلد) الذي ظل كاتبا أو

سكرتيرًا له بالمجلس لولائه الشديد (لحسين بك) وبسبب العلاقة الخفية والمتينة بينهما ، استطاعا احتكار إدارة الجمعية لحساب (حسين بك) طبعًا ، وهو بدوره أطلق يد (أبو نضارة) في الشئون الإدارية والمالية دون حسيب أو رقيب (ولهذا حديث طويل آت عندما تنشب المعركة التاريخية الكبرى بسبب الجمعية في منتصف الخمسينيات والتي سيظل فشل القرية فى كسبها لصالح الفلاحين علامة فارقة على فشل المسار الديمقراطي للثورة المصرية) المباركة !!

• • •

وإصبر نفسك . .

○ ليس هذا حديث خرافة .. ولست أبالغ .. لا .. هذا حديث جد الجد .. أووه .. أخذتنا السياسة بعيدًا . وكاد الكلام الضخم عن سخافات الكبار يطمس الحديث الجميل الساحر الرقيق عن أول قصة (حب .. وفقدان) تحدث لي ، وأنا في ذلك السن الرهيف الغض ، والتي كسرت قلبي لأول مرة . وهو الأمر الذي تكرر كثيرًا حتى آمنت أخيرًا أن الفقدان كان دائمًا قدري ..

لست أستجدي دموع الضعفاء . فأنا لا أحكي قصة رومانسية ، ولكني أحكي عن قرية ووطن .. عفوًا .. اسمحوا لي أن أتماسك وأكمل.. لأتحدث عن حبيبتي الأولى وأنا لم أدخل بعد المدرسة الابتدائية و لم يصل عمري إلى سن الإلزام.

لا أستطيع الآن أن أصف وجهها .. لا لأنني لا أجد الكلمات بعد هذا العمر الطويل .. فما أسهل أن أخترع لأرسم صورة مثالية تبهر السامعين . لكن الحقيقة سوف تبقى أجمل . وأنا لا أستطيع أن أغامر . كانت مختلفة .. نظيفة لا أثر لغبار القرية على وجهها أو ملابسها أو شعرها ، كبقية البنات. كانت قطعة من ضوء الشمس مغسولة بالحليب .. نموذج مصغر من أمها الرائعة الجمال ، الرائقة البشرة التي يحسد أهل القرية (أبو نضارة) عليها.. ويلوكون سيرته حقدًا لأنه يحوز كل هذا الجمال الصافي..

كانت أمها من (طنطا) .. كيف عثر عليها (أبو نضارة) وكيف تزوجته من دون رجال الدنيا .. لغز ليس عندي له حل .. ولكني كنت أحبه وأحب زوجته .. لأنها ابنتهما .. كانت عيني تظل شاخصة مسحورة بحركة ضفيرتها الوحيدة ، التي تتفنن أمها في غزلها مع الشريط الأصفر ، تتراقص على ظهر المعطف الأحمر الذي كان يميزها عن سائر البنات .. (أمي) أصرت على أن يشتري (أبي) (لأختي) معطفًا مثله تمامًا لكن لونه كان مختلفًا – كان أخضر.

كنا أنا وأختي نذهب كل صباح – أختي في معطفها الأخضر ، وأنا في بنطلون يصل إلى تحت صابونة ركبتي مصنوع من قماش بدلة قديمة لأبي ، وقميص في لون مرايل البنات ومن نفس القماش – لنصحبها إلى المدرسة التي تقع في أقصى الشرق من (ميت سلسيل) . وفي الطريق يلحق بنا أو نلحق ببعض البنات . كانت (هي) وأختي تتميزان بالمعطفين، وتتميزان بنظافة خاصة ، بسبب تنافس الأمهات (البندريات) . وكنت أسير خلفهما وعيناي معلقتان بالشريط والضفيرة .. في انتظار أن أظهر مهاراتي لها .. وأن أكون عند أول بادرة في خدمتها .

كنا نسلك في كل مرة طريقًا مختلفًا .. نخترق القرية عبر الشارع الرئيسي ، أو نلف من طريق المحطة ، نتقافز فوق شريط السكة الحديد الفرنساوي .. وكان هذا يعرضنا للتقريع واللوم، فكنت أسارع بتحمل الوزر قبل أن يتطور الأمر ، أو كنت أصحبهن عبر البحر .. ليس (بحرًا بالضبط) ولكننا كنا نطلق عليه البحر ؛ ما دام يتفرع من البحر الصغير أو الجديد.

وما أكثر ما كنت أقترح أن نذهب عبر الشاطئ الآخر الذي كان يمر أمام عزبة (الدقون) ، خلال غابة من أشجار التوت ؛ لأنني كنت حينئذ أظهر لها مهاراتي الموسمية وألبّي رغبتها .. مبالغًا في الحصول لها على ألذ ثمار التوت ، من فوق أعلى الأغصان .. وكان هذا يثير غيرة وغضب أختي أحيانًا .. ويسن ألسنة الأخريات عليَّ .. ولكنها كانت تبتسم .. فتشرق شمس بين أضلعي .. تجعلني أسامح الجميع ..

حينئذ ، كنا نعبر إلى المدرسة فوق جذع نخلة ممدود بين الشاطئين.. كلهن كن يعبرن كالأرانب أو العنزات الجامحات ، حتى أختي كانت تفعل ذلك بكل خفة وبساطة .. إلا هي .. وحدها كان ينتابها الرعب.. فتكون فرصتي ، التي خططت لها دون أى قصد سئ عندما أغريتهن بسلوك ذلك الطريق .. فلم تكن تعبر دون مساعدتي .. هل يمكن أن يتصور أي إنسان ، حتى ولو كان قد تخطى سن الستين ، ماهية المشاعر التي تفور في عروقي ساعتها .. وأنا أمسك بكفها كعصفور مرتعش بين يدي .. وأشجعها بكل ما في عيوني من حنان على أن تنقل أقدامها خطوة خطوة .. حتى نهاية جذع النخلة فأتلقاها – في قمة إحساسها بالتوتر وقد امتلأت عيناها بنشوة الانتصار على الخوف ، لتقفز الخطوة الأخيرة – بين أحضاني ، وسط خليط من مشاعر الخوف والفرح والغيرة تضج صاخبة في تعليقات وتصرفات البنات .

كنت أفعل كل ما يرسم طيف ابتسامة عل ثغرها .. قلبي يقفز إلى حلقي .. حتى لأكاد أختنق كلما ابتسمتْ ، حين أحل لها المسائل الصعبة . أو أكتب لها واجب الأستاذ (شاكر) .. الذي كثيرًا ما تشكك في قدرتها على ذلك .. وكيف كنت أتفادي نظراته المتهمة حتى لا أنهار، فأبكي وأعترف .. كان رأيه أن مخها (كالجزمة) ، وأنها لا تفهم لأنها مشغولة بتضفير ضفيرتها أكثر من انشغالها بالورقة والقلم ..

حزنت عندما نُقلتْ لفصل الأستاذ (محمود سالم) بناء على تدخل والدها .. فقد حرمت من تأملها طول اليوم .. ولكن ذلك كان أفضل لأتمادى في خدمتها دون خوف من عقاب .. كنت أعتقد وقتها أنها الدنيا وما فيها .. وكانت (أختي) تراقبني في غيظ . ولولا أنها تحبها هي الأخرى وتعتبرها أهم صديقة لها .. لما سامحتني . ولكن ذلك لم يمنعها أن تلقح بكلام في البيت عنها . وعن تصرفاتي ؛ مما جعلني هدفًا لسخرية (أمي)، خاصة عندما أتردد في تلبية طلب لها .. كإنجاز مشوار إلى البقال .. أو الصعود إلى السطح لإحضار بعض المخلل والمش من البلاليص المخصصة لذلك ، والتي أتقن التعامل معها في حرص وحرفنة .. !

حتى كان ذلك الصيف اللعين .. الذي اشتدت فيه الحرارة . فكادت تحرق الحقول التي لم يصل إليها لهيب الحرب .

يومها عدنا من المدرسة محتمين بظلال البيوت هاربين من الشمس قدر الإمكان .. كان وجهها أشد احمرارًا وعيناها الفيروزيتان تلمعان أكثر مما تعودت عليه .. وكنت أحرص كلما فاجأنا لسان من لهب الشمس أن أرفع كراستي لأظللها .. حتى وصلنا إلى بيتها .. وعدنا إلى بيوتنا .. وأختي تنخسني بالقلم الرصاص وهي تسخر من اهتمامي

الزائد، وتخرج لي لسانها غضبًا أحيانًا ، وأحيانًا على سبيل الإغاظة ، وتعايرني لقلة اعتزازي بكرامتي قدام البنات ..

بعد ساعات شقت الصرخة الملتاعة قلب القرية . صرخة حادة طويلة باكية مستغيثة ، تدق باب الرب محتجة ، تمزق الصمت الذي خلفته الشمس الحارقة في الحواري فقطع الأرجل ، وأجبر الخلق على التكوُّم في حلوق الأحواش وفي نتف الضل والزوايا الرطبة ..

هرع الخلق ملهوفين مذعورين كأن حريقًا شبَّ في رؤوس البيوت التي حمصتها الحرارة..

حملت الإجابة حسرةً وحزنًا وألمًا هد حيل الجميع .. وأنا خنقتني الدموع وشحتفتني شهقات حارقة وانخرطت في بكاء حقيقي لا يليق بسني – ليس وقتها ولكن الآن – وأنا أحاول أن أتذكر ، وأن أجد الكلمات لأكتب عما حدث .. نعم بكيت (الآن) لأول مرة عليها .. يومها لم أبك .. و لم أصدق .. وشتمت الخالة (خضرة) التي اندفعت إلى بيتنا منكوشة الشعر ملهوفة تشلشل بطرحتها الكالحة . وهي تتعثر منكفئة ملهية تخمش وجهها ، وتضع على رأسها تراب الأرض المحروقة ..

شتمتها و لم أصدق وهي تقول إنها ماتت .

– مش ممكن .. إزَّاي ؟ . العيال ما بيموتوش كده . انتي قصدك تغيظيني ..

لماذا هي وماذا حدث ؟ .. نزل عليَّ سهم الله ، بينما ولولت (أمي) وبكت (آمال) وهي تندفع صارخة متعلقة بأذيال (خضرة) التي اندفعت.. تعدو نحو بيت (أبو نضارة) .

أنا خرست .. مرعوبًا تكومت في ركن بسطة السلم بلا حركة .

أحدق في الفراغ .. قالوا إنني لم أحس لهب الشمس التي كانت تكوي بلاط السلم ..

حين انتبهت (أمي) لحالي حملتني جثة سائبة المفاصل إلى الكنبة ، تحت شباك البلكونة البحرية .. وقد انتابها رعب شديد أن يكون شيء رهيب قد حدث لي . رشَّتْ وجهي بالماء وأخذت تقرأ القرآن وهي تحتضنني في جنون .. وهي تتأكد من تردد أنفاسي ، ثم تعاود تأمل حالي وتصرخ فيَّ أن أرد عليها .. ولمَّا لم يحدث زعقت ..

– يا (عبد الباقي) .. إلحقني .. إلحق (سمير) !

وصحا أبي من قيلولته مذعورًا على الصرخة ، متصورًا أنني وقعت من على السطح ، أو دهستني جاموسة .. فلم تكن لجسدي أي استجابة..

– إيه اللي حصل ؟

– وقع من طوله أول ما سمع الخبر ..

– خبر إيه ؟

– ماتت .. (منيرة) بنت (ابو نضارة) بيقولوا ماتت ..

كاد أبي أن يسقط إلى جانبي .. لولا أن تناول القلة الباردة من الصينية – كما قالوا لي فيما بعد – وصبها على رأسه ..

– إزَّاي ؟ .. دي كانت النهاردة في المدرسة زي الوردة .. لما خدت شهادة نجاحها .

صمت لحظة وقد اتسعت عيناه رعبًا ..

– كانت مزرودة .. ووشَّها زي الكبدة ح يبك منه الدم .. الحر .. أنا كنت حاسس ان النهارده يوم ماهوش فايت .

– أهي ماتت .. كانت بنت موت . ربنا يرحم أمها . بيقولوا كانت بتلعب مع بنات (الزفتاوي) ودخلت على أمها عايزه تشرب .. شربت من هنا .. ووقعت من هنا.

– لا حول ولا قوة إلا بالله .. ليه ؟ .. طب وده بقى إيه اللي جرى له؟ شرب ميه ؟!

هزَّني بعنف متصورًا أنَّ ما حدث لها يتكرر معي .

– حلمك ع الواد .. احنا ناقصين ؟ الواد ما استحملش الخبر .. مش كانت صاحبته .

– هاتي كده امَّا افوَّقه ..

حمتني أمي من عصبية أبي واحتضنتني ، ثم حملتني إلى السرير في الأوضة البحرية وفتحت الشباك على وسعه .. واطمأنت عندما رمشت عيوني لأول مرة .. وسمعتني أحرك شفتي وأهمس عندما لطشتني النسمة..

– لأ .. ما ماتتش !!

لم يستطيع أحد من القرية كبارًا وصغارًا ، ونساء ورجالاً أن يمنع نفسه من البكاء .. المرأة التي حسدتها النساء ، وبسببها حسد الرجال زوجها .. كانت تصعب على الكافر ، وهي تمرِّغ نفسها في التراب ، وتلقي بنفسها كالمجنونة على السلالم ، وتنخبط بين الجدران وقد أحاطت بها أذرع النسوة محاولات تهدئتها .. لكنها كانت تستجمع عافيتها بقوة عشرة وتبعثرهن وتجهدهن ، فيعاودن حصارها وإجبارها على الجلوس ، فلا تلبث أن تدفعهن وتبعثرهن لتعاود القفز والمهابرة محتجة على السماء لاعنة الأرض ومن عليها .. رافضة أن تعترف بموت ابنتها الوحيدة .. محاولة في كل مرة الوصول إليها كأنها ستعيد إليها الحياة ..

كتلة الفتنة الجميلة التي كانت تثير حسد وجشع الجميع نساء ورجالاً .. تبعثرت على الأرض وتمرغت في التراب .. الحسرة شلت الأحاسيس الشبقة الخفية فماتت .. قتلها الحزن الطافح من عيون الرجال ، حتى

عندما كانت أسرار تلك الفتنة وسحرها الخفي ينكشف من ثغرات ثوبها الذي تمزق خلال صراعها مع النساء الحزانى الباكيات .

– لا حول ولا قوة إلا بالله ..

لم يتم أي شيء في هدوء .. كل شيء تم رغم أنفها ..الدنيا حر .. وإكرام الميتة دفنها بسرعة .. فلا يمكن في ظل هذه الشمس القاسية الانتظار..

(أبو نضارة) .. انهار . بهتت عيناه تحت نظارته السميكة ، و لم يبد عليه أنه فهم ما حدث.. كل ما كان يتمتم به .. ذاهلاً ..

– ليه ؟ ..

والكل يجيبه ..

– أمر الله .. إنت مؤمن..

– ليه ؟ .. ده كفر .. ليه ؟ ..

– لا حول ولا قوة إلا بالله ..

يسمعها فتخرج من صدره وحلقه آهة خشنة كخوار ثور مذبوح .. ثم يصمت كحجر .. غسَّلتها زوجة الحانوتي وكفَّنتها بعيدًا عن أنظار أمها الهائجة .. ودون أن يراها أبوها المذبوح .. كانت الشمس تسوقهم بسياط لهبها ليصلّوا عليها بسرعة .. وخرجت البلد كلها وراءها إلى القبور.. حتى ستات البيوت والمكسحين والعجزة إلا من يشلون حركة أمها .. ومن عجزوا عن القيام من حول أبيها المذهول الذي لا ينطق إلا خوارًا خشنًا عميقًا مجروحًا في آهة طويلة ، تعلو وتصمت فجأة ..

حتى الأطفال والبنات وأختي ذهبوا إلى المقابر .. إلا أنا .. تحرسني أمي عاجزًا عن الحركة أو التصديق أو الفهم ..

لشهور طويلة بعد ذلك ، ومنذ الليلة الأولى ، كانت الأم تهب

فزعة في منتصف الليل . وتخرج صارخة عارية الرأس حافية القدمين ، يلاحقها زوجها في الظلام محاولاً سترها بشال أو ملاءة .. كانت تسمع ابنتها تستغيث بها ، أن تخرجها من القبر .. ولا يستطيع أيا كان أن يمنعها من الوصول إلى المقابر أو نبش الأرض حتى يقوض لها الله من يقرأ على رأسها آيات الله البينات .. فتهدأ وتستقر عيونها الزائغة المدماة .. لتعود بها النساء اللائي تعوَّد بعضهن بعد ذلك القيام بما كان يعجز (أبو نضارة) عنه وقد ازداد ضعفًا ووهنًا ..

(خضرة أم بيومي) (فاطمة أم دغيدي) وأرملة أخرى لا أذكر اسمها.. كن ينتظرنها كل ليلة .. ليصحبنها إلى المقابر في انصاص الليالي .. شيئًا فشيئًا كانت الرحلة الليلية تصبح أهدأ . وشيئًا فشيئًا .. أصبحت هي أضعف .. أصبحت تتحدث فى هدوء عن ابنتها التي مازالت في القبر صاحية ترجوها أن تخرج لها .. لم تعد تخمش أو تنبش . كانت مستسلمة. تجلس أمام القبر تحدثها في ود وحنان .. كانت تأخذ معها فاكهة وفطائر . وذات ليلة أخذت معها البالطو الأحمر .. والمشط والشريط لكي تضفر لها ضفيرتها قبل الذهاب للمدرسة ..

كانت (خضرة) تحكي لأمي الباكية .. و لم أكن أصدقها .. لأنني لم أصدق أصلاً أنها ماتت .. وأنهم دفنوها حية ..

للآن .. لم يستطيع المشايخ أو الأطباء أن يعرفوا سر صراخي في نصاص الليالي لفترة طويلة وأنا نائم ..و سر انتفاضي المذعور مرعوبًا مما يحدث تحت الأرض .. وأنا أصف لهم ما أقابله هناك من عفاريت وبغال لها قرون وكلاب متوحشة .. ومردة بعين واحدة ..

كانوا يتصورون أن ذلك بسبب سهري في الخرابة ، وعفرتتي طول الليل مع الأولاد في الحواري الضلمة .. أحد المشايخ أكد أنني ممسوس. وعمل أبي لأهل الله ليلة ولسيدي (مجاهد) عدة ليال .. وزار(السيد البدوي) بناء على نصيحة أحدهم .. وخالي (السعيد) العاقل قاس لي الأتر، أما خالي (إبراهيم) .. فقال ..

–هذا الولد مكتوب ألا تهدأ له حركة . طول الليل والنهار كالنحلة لا يكف عن الدوران . وما يحدث له بسبب أن عقله لا يستوعب ولا يتحمل عنف جسده . هذه هلاوس التعب.. ارحموه من نفسه .. اشغلوه بالدراسة .

وقرر أبي أن يلحقني بالمدرسة الابتدائية وإن لم أبلغ سن الإلزام ، مع أنك لم تكن ظهرت ياصديقى بهذه الحدة في حياتي و لم أكن وقعت بعد تحت تأثيرك وسيطرتك . و لم يصدق أحد أنني كنت أنزل لها تحت الأرض.. لكني متأكد أن الدنيا لم تعد كما كانت .. ثم تأكدت أنها ماتت بالفعل ، لأن شيئًا ما في داخلي كان يصارع كى لا يموت

• • •

قل : أعوذ . .

○ كانت أمي تقول لنا ووجهها يضحك بعد كل أكلة :

– يستغفر الإناء للاعقه

وهو قول يكاد يرتقي لديها إلى درجة الحديث القدسي الشريف .. وان لم تقل لنا أبدًا من هو قائله أو ناقله .. تركتنا نفهم إن مثل هذا القول الناصح الفصيح ، لابد أن تكون له علاقة ما بالقيم النبيلة .

تعلمنا – كلنا بنات وأولاد – الحرص على عدم إلقاء بقايا الطعام أو إهمالها .. لم يكن بخلاً أو حرصًا ولكن إحترامًا وتقديرًا للنعمة وللقيمة.. قيمة العمل الإنساني المتجسد في اللقمة والكسرة ، وقيمة الشكر الضروري للسماء ولعبد الباقى على الرزق الحلال .. كانت تجعلنا – وتدفعنا لأن نجمع

كسر الخبز من الصينية أو من على الطبلية .. تفعل ذلك ضاحكة :

– اللي يلم سبع لقمات ، يبقي له في الجنة قيراط ..

لم أكن أعرف عمن أخذت هذا النشيد العالي الهدف .. المحكم الإيقاع .. زمان .. كانت بنت النجارين التي جاءت لتعمر المقعدين الحديثين فوق الدار القديمة تغني :

– أنا المقعدين وأمك وسط الدار ..

أصبحت لا تكف لحظة عن عمل شيء يحتاج البيت له.. فهي تكنس وتغسل وتطبخ .. وترفو وترقع وتطبق وتنظم وتنقي الغلة وتسفح الرز وترتق القطوع والتمزقات وما أكثرها في ثياب من لا يكفون عن الحركة . وتروق الماء .. لكنها لم تخرج لتجلبة فهي ست البيت يأتي إليها دائما من يساعدها .. إذا ما أحتاج الأمر . كانت تعتبر البيت مملكتها ، لذلك نشأنا أنا وإخوتي الصبيان قبل البنات نقدس البيت . وندفع من أرواحنا وأنفسنا وأمزجتنا بل وحتى طموحاتنا ونزواتنا في سبيل تدعيم أسس البيوت التي صنعناها بإراداتنا الحرة .. أو بإرادتنا المهتزة المضطرة – تحت ضغط ظروف أو عواطف أو تطورات جبرية في مسارات حياتنا القدرية .

– شوف يا ابني أنا اللي عملته بإرادتي ، لا يمكن اتنكر له أو أرجع عنه.. وعشان كده اطمن فيه حاجتين مستحيل لو على رقبتي أرجع عنهم.. أنا خلفتكو بعد ما اتجوزت أمك بإرادتي الحرة .. وما حدش جندني للشيوعية .. أنا رحت لها برجليه أو هي اللي اتعرفت فيّ على راجلها .. عشان كده ما تقلقش ده قدر ومصير .

كنت أقول هذا على طريقة أمي الساخرة الضاحكة .. حتى لو كانت المناسبة لا ساخرة ولا ضاحكة !!

ما الذي جاء بهذا السياق ليقطع حديثي عن (الفقدان) .. ؟

بألامس أغرتني شوربة الأرنب أن أصنع ملوخية .. فتحججت لنفسي بأخذ التلفزيون المعطل إلى (الضبعة) وكان يوم السوق .. وعدت ومعي بطيخة وعرق ملوخية خضرا .. قطفت وغسلت ونشرت وخرطت وفصصت توم وطشيت الملوخية .. وأنا أتذكر طول الوقت أمي .. وأكلت، وأنا أستحضر ذكراها وفضلها على قدرتي صنع ألذ طبق ملوخية – بلا فخر .

هي التي علمتني ما جعلني أحتمل الغربة والسجن والوحدة ، وأستخدم يدي في مهارة في صنع عشرات الأشياء . لأستطيع وأطيق الحياة لمدة تلاتين شهرًا في زنزانة انفرادية . وقدهم وسط زحمة الآخرين . لكي أستطيع أن أقيم أودي وأعتمد على نفسي .. ولا أحتاج أحدا وأن أعطيت معظم وقتي وقوتي وقوتي للآخرين ..

دخلنا في الأنا .. آسف ، لكن طرأ على ذهني فجأة نوع من المقارنة .

الشاعر (فلان) ما كانش يعرف بنته ف سنة إيه !

الشاعر الكبير اللي (على الحجِر) من صغره ، عمره ما غسل مواعين. حتى في السجن كان بيتخانق للهرب منها .

لذلك أحمدها واشكر فضلها (الست أم يوسف) فقد ربتني فأحسنت تربيتي . عندما أعود من الخارج وأكون قد أكلت مع أصحابي..

– يا ابني كل .. (قوت البيوت ما يقوت)

أو تتضاحك ظنا منها أنني أعاف الأكل .. دلعا أو بطرا :

– يا (قيس) كل ممّا .. الأم يا (قيس) .. لا تطبخ السُّما ..

فأجاملها وآكل على شبعٍ وأمري لله ..

كانت ست مدبرة أو (دِبأة) تدبّأ وتدبر .. البيت لا يخلو من (حِوان)

أبدا .. الكُشُك مرصوصة فيه بطرمانات وبلاليص وزلع المش والجبنة والزيتون الأخضر واللفت كلٍّ في موسمة ..

– طبق مخلل ياست (أم سمير) ..

لم يكن ينقطع العطاء . وكنت أعرف أن طبق المخلل هذا قد يكون الغذاء الوحيد المتاح للعائلة التي أرسلت رسولها (لأم سمير) .. وأحيانًا لم يكن الأمر بحاجة إلى رسول أو مرسال .. فكم أرسلتنا أنا أو إخوتي .. بأطباق مغطاة مستورة بقطع القماش إلى بيوت عديدة كلما كان القلب عمران والإيد طايلة والخير فايض ..

وأنا أو أي من أخواتي .. كلهم يشهدون وكلهن يشهدن .. أننا في ظل (علية) و (عبد الباقي) أو (عبده أفندي) لم نشعر بالحاجة للأشياء المادية على الإطلاق . فقد كان أبي رغم محدودية الحال .. قادرًا على توفير كل ما هو ضروري ، بل واكثر بفضل (أم يوسف) وتدبيرها الذي جعلنا جميعا نبحث عن حاجات أخري غير ضرورات الحياة .. حاجات أكثر روحية . جعلتنا أحرارًا لنا أحلام اسمي قليلا من الواقع المر المادي – كنا بسببها مختلفين ، غير محبوسين في مطالبنا أو احتياجاتنا المادية الذاتية ..

كنا نحس وكأننا مسئولين عن الدنيا وما فيها . وهو شعور يعرف عذاباته كل من أحب الإنسان في تجلياته . أو اهتم بهموم الآخرين ..

لم يكن أبي يدخل البيت وإيده فاضية على الاطلاق .. حتى لو كان ما يحمله مجرد حزمة فجل أو كرات ..

عودنا أن نأكل الخضار الطازج مع كل طعام ، صبحا وظهرا ومساء .. عودنا أن نأكل معا أو هي عودتنا .. أخضعت الظروف لكي تنتظم طقوس اجتماعنا معا على الأكل .. كانت تري لذلك أهمية الحياة نفسها..

ولن أدخل في تفاصيل .. الخبيز والخزين والطبيخ والحموم والغسيل..
ولكن الأهم أن نتعود على ذلك الطقس الدوري وهو يوم (الشُّرَب)

كان أبي يجبرنا ، وعلى فترات شبه منتظمة . أن نتناول جميعنا (شربة الزيت) أو (الخروع) .. الكل بلا استثناء .. و لم أعرف قيمة هذا إلا بعد أن كبرت وتأكدت أن – المعدة بيت الداء ..

أما الطقس السنوي الروتيني كل صيف .. لدرجة أصبح معها أحد هموم الإجازة . هو (تحليل المستشفي) .. لتناول شربة (الكربون) لمن يثبت أن عنده ديدان – وحقن (الطرطير) القاسية لمن تظهر لديه آثار البلهارسيا ..

لماذا كان يفعل ذلك ؟ .. وبإصرار وانتظام .. سؤال ؟ .. لم أكن أطرحه وقتها طلبًا للإجابة ولكن لأحتج عليه ولكن الفعل استقر في القلب . وغفرت له بسببه أنه لم يقل لي – أو لأي منا مرة .. واحدة ..
(أنا بحبك) !!

كان على الدوام جهمًا جادًّا .. رغم أنه لا يملك أي من مقومات الجـهامة أو القسوة .. لهلبني أحيانًا بعصا رفيعة لأنه ضبطني أستحم في الترعة – وكان هذا مزاجي الملح والدائم .. لدرجة كان يوقع توقيعه المعقد، باسمه فوق فخذي بالكوبيا ، ليعرف إن كنت قد قعلتها أم لا .. وطبعًا كم تحايلت وابتكرت من الوسائل ما يحفظ التوقيع سليما . لكي أمارس هوايتي الصيفية .. وإن لم تسلم الجرة في كل مرة ..

ولكن البلهارسيا وغيرها لم تستطيع أن تنكد علينا مستقبلنا ، كما تفعل عادة للمصريين الذين عاشوا في القري ، و لم يتح لهم أب وأم (كعبده أفندي) والست (أم سمير).

لم تكن أي حجة أو وسيلة للهرب أو التمنع بقادرة على إفلات

أحدنا من شرب الشَّربَة . كان بعضنا يختفي في الكشك العلوي أو تحت السرير أو يحتج بحاجة عند فلان أو ترتان .. لكن الحذر لم يكن يمنع القدر.. كانت شربة زيت الخروع أو السلفات (الملح الإنجليزي) قدرا لا مفر منه.. لصحة الأبدان ..

في نفس الوقت الذي كان البرميل المزفت جيدًا ، يرتفع فوق بيتنا معلنًا أنه يوجد هنا أسلوب حياة مختلف ، وثقافة غير الثقافة السائدة ..

كان (عبده أفندي) حريصًا على أن يهيئ لبنت (المعلم يوسف) ولنفسه حياة حديثة .. فمن البرميل تمتد ماسورة مدهونة بالسليقون إلى الحمام .. ويملأ (ظاظا) أو (حمادة المصري) البرميل بانتظام من الترعة وكنت عندما أذهب لبيوت أعمامي أو أدخل بيوت بعض زملائي .. فأراهم على الصبح وهم يطسون وجوههم بكوز ميه من البلاص . أو يمارسون حياتهم معنا دون غسل وجوهم .. تاركين للذباب فرصة دائمة للخلاص من المجاعة التي تسببها النظافة – عادي !!

ولكن غير العادي هو أن هذه المميزات كانت تشعرني أنني أقل من الآخرين .. فلم يكن بالي يستريح إلا أن أعود كل يوم آخر النهار ممزق الجلباب أو مطين البيجامة أو مضيع الحذاء .. في مكان ما .. مخموشا مجروحا .. كأي طفل (لا تهدأ له حركة) لأواجه قرصات أمي ، وهي تعيد صياغة هيئتي وتعاتب الزمن على بختها فيَّ ..

كنت أفضّل عتابها وعقابها علي أن يعرف أبي شيئا .. لذا كنت أعمل على تجنب لقائه قدر الإمكان . فإن كان لا يزال في البيت ، أخرت عودتي حتى ينام أو يخرج لسهرته المعتادة أمام دكان (محمود شطا) .. فإن جاء وأنا في الداخل ، سرعان ما أتعجل النوم وأتظاهر بالاستغراق فيه . كانت أمي – في الغالب – تساعدني على الإسراع إلى الفراش، عندما تسمع ما ينبئ بعودة أبي .. وكم كان هذا يؤثر فيَّ ويسعدني .. فهي سوف توقظني بعد قليل .. فأقوم ، متظاهرًا بالغرق في النوم كي أشاركهم طعام

العشاء .. وأتحمل الزغرة أو الشخطة المؤكدة أو الوعيد المنتظر ، عقابًا على شيء ما ممنوع مؤكد إنني فعلته، أو ذنب ارتكبته . وأبلغ عنه أحد (أولاد الحلال) .. وكان والدي غالبًا ما يؤجل ما تؤجله أمي من عقاب .. لينسى بعدها أو ليتناسى التنكيد عليَّ أو التنكيل بي .. فالأكل له حرمة ولا يجوز الضرب على الطعام .. وكان لهذا في قلبي عرفان كبير لفضل تعاليم السماء التي تطبقها أمي ، والتي تميل إلى جانب الرحمة لا العذاب !

وتفضّل الغفران على العقاب !!

تلك السماحة ، بالتأكيد ، هي التي كانت وراء جرأتي يوم ضحكت من أعماق قلبي عندما قال خالي الشيخ (إبراهيم) (إن الله أمر سيدنا (نوح) أن يبني سفينته في الصحراء لا على شاطئ البحر !)..

قلت ببراءة :

– هل لهذا سموا الجمل سفينة الصحراء !

قرصتني أمي قرصة موجعة .. بينما زغرت خالتي (سميرة) زغرة حادة بعينها الوحيدة ، وهي تكاد تبتسم . فبدت مضحكة، ولكني كتمت ضحكتي لأن الشيخ (إبراهيم) على عكسهم ابتسم في وجهي بسمة حانية وملس على شعري الناعم بيده المرتعشة وهو يقول :

– ما شاء الله .. طول عمرك مسحوب من لسانك .. على كل حال لقد سخر منه قومه مثلك ، وقالوا (هل ستجعلها تعوم في بحر الرمال يا نوح) لكن نوح طبعًا كان يعرف ما أوحى به الله إليه . ويعرف أن سيبلغ بها البحر عندما يريد الله ..

– كيف خمَّن نوح أمر الله ..

– الله أوحى به إليه .. الأنبياء لا يخمنون يا شقي ..

– كيف ؟ ألم نسميهم أنبياء لأنهم يتنبأون .. يخمنون !!

– الله أرسل الوحي وحدثه بما سيكون ، ولذا أمره ببناء السفينة ليلجأ إليها مع المؤمنين ، عندما يكون الطوفان ويحل غضب الله..

– وهل كان الوحي ينزل للناس .. ويكلمهم هكذا عيني عينك .

– يتحدث للأنبياء والرسل فقط يا ثرثار .

– وكيف يعرفون أن هذا كلام الله .. وليس وَزّة شيطان .. هل الأنبياء يعرفون أنهم أنبياء..؟

– الأنبياء يعرفون عندما تحدثهم أنفسهم بما أوحى به الله إليها ..

– وكيف أعرف أنا أن ما تحدثني به نفسي وزة شيطان . وليس كلامًا من عند الله .؟

– قالت خالتي ..

– نفسك لا تحدثك إلا بكل شر . ولذلك تملأ قلبك وسوسات الشياطين .. إسكت خلينا نسمع ونتعظ .

– ليس كل ما تحدثني به نفسي شر ياخالتي . أنت بالذات تعرفين أنني عملت خير كثير يجعلك تدعين لي بأن يخليني ربنا .. ويحميني من كل شيطان

توتر الجو ، وتبادلت خالاتي النظر المتوجس . فلساني على ما بدا سوف يفلت كالعادة ، وستسوء العاقبة بالتأكيد .. ولكن ضحكات الخال الشيخ غطت على كل الوساوس .. عندما أخذني في حضنه .. وهو يتمتم ويتلو وقال :

– يا إبني وسوسوة الشيطان لا تكون إلا بالشر .. ووحي الله لا ينزل إلا على الأنبياء والرسل والمصطفين ..

– إذن أنا (مصطفى) يا خال ..

شهقت خالاتي في وقت واحد رعبًا ..

خالي الشيخ نظر إليَّ في دهشة ، ألحقها ببسمة حانية غمرتني بالأمان فقلت :

– أنا أسمع الله يأمرني كثيرًا أن أفعل أشياء كثيرة . أحس أنه يكلمني ويوصيني بفعل أشياء لا أعرف هل هي طيبة أو شريرة ..

ساد الصمت يأسًا من إيقافي عن الكلام دون تعكير صفو القعدة ..

خالتي (سميرة) قالت :

– سأقوم لأرى ما على النار .

وظلت خالتي (بدر) تنظر في عيني مباشرة في حدة وعتاب راجية مني الصمت حتي لا أتورط في مناطق محرمة لكنني كنت مدفوعا كمن تجبره قوة قاهرة على الكلام ..

– لقد أمرني أن أطيب خاطر (زهزهان) وأمسح دموعها بشفتي ، عندما ضربها أخوها أمس بالكرباج وبهدلها ..

فوجئوا . فسكتوا جميعًا مشدوهين .. وأنا أواصل كأن أحدًا غيري يتحدث بلساني ..

– أنا رأيته . كان يشدها من شعرها .. ويسحبها على الأرض. كانت تتلوي بين يديه الناشفة كطفلة صغيرة . مع أنها كجنيات الحواديت . كانت ترجوه أن يتركها دون جدوي.. وهو يلعنها ويركلها ، ويصرخ فيها لأنها خالفت أمره ووقفت خلْف الباب الموارب ، كعادتها تنظر إلى الشارع . هذه المرة فاجأها ، فلم تجد فرصة للهرب أو لإغلاق الباب .. جرها على طول أرض الحوش حتى عراها . وكشف نصفها الأسفل كله . وهو يضرب ويزغد ثم ينحني ليوقفها ويعود يدفعها لتنكفئ على وجهها..

أخذت أبكي . وأنا أشاهده من بعيد . كوحش هائج تناول الكرباج الذي يعلقه على الجدار . والذي لا يجرؤ أحد على لمسه حتى في غيابه . هو فقط ، عندما يريد أن يؤكد سلطانه .. كان الشيطان ساعتها يوزّني أن

أقذفه بالطوب وألعن أبـوه أو أقتله .. ولكني لم أستجب للشيطان فلو تنبه لي لقتلني هو .

أخذت أبكي وقلبي يتقطع حزنًا عليها ، وحسرة على ضعفي وجبني . عندما تعب من ضربها .. تركها لاعنا .. وهو يصرخ مهددا أنه سيعود لها . فأذان العصر قد حان وعليه أن يسرع ليمتطي مئذنة الجامع لكي يؤذن ويؤم الناس للصلاة .. سوف يفعل ذلك بأسرع ما يمكن ، ليطين عيشتها ويضلم مساها ويسّود ليلها ..

كاد يبصرني عندما استدار ، لكنه انهمك في إعادة الكرباج إلى الجدار . فأبتعدت عن مدي بصره واختبأت خلف إشولة الرز الشعير التي يجمعها لقاء خدماته للجامع .. إلى أن خرج ..

أصبحت الحكاية سيدة الموقف .. صمتوا ، حتى خالتي التي عادت بعد أن اطمأنت على أحوال ما على النار .. بطرف عيني لمحتها واقفة تنصت لما أقول في شغف ، وقد نسيت خوفها من أن تؤدي ثرثرتي إلى كشف بعض ما بيني وبينها من أمور وأسرار . ولما تأكدت أن حكايتي عن واحدة أخرى اطمأنت قليلاً .. بينما استمر خالي يتمتم وهو يحرك حبات المسبحة في عصبية ..

– (لا حول ولا قوة إلا بالله .. الله لا إله إلا هو)

– ولما أخوها خرج وأغلق الباب بالمفتاح علينا .. تسللت إليها . كانت مكومة في ركن الحوش الداخلي المظلم لدرجة أنني لم اتبين ضياء جسدها المكشوف في الظلام الذي شمل المكان . فركت عيني وأنا أناديها .. فأرتعبت .. غطت فخذيها المرمر ولما لم يفلح الممزق في سترها لمت قبة قميصها المشقوق بين كفيها وصرخت

(مين ؟..) وكأنها تسال (إنس والاَّ جن ؟) .. طمنتها أنه أنا..

فانفجرت في البكاء .. بينما جسمها يتنفض من الألم والحزي .. مددت يدي خائفا مبهورا أربت عليها . شعرت بقشعريرة تغمرني عندما أحسست ارتعاش جسدها تحت يدي. أخذت أبكي وأنا أقول لها .. (ما تزعليش .. حقك عليَّ أنا .. ما اقدرتش أحوشه) كانت دموعها تسيل على خديها الوردتين في صمت ، وهي تنظر لي في دهشة .. ربنا قال لي، إن أتقدم منها وأحضنها ، ثم أشرب دموعها كطفل يرضع حليب الأم لأول مرة .. ووجدتني أفعلها وأعتذر لها وأنا ألهث ، كأنني أنا الذي ضربها .. غمرتني عيونها بنظرة حنان وعرفان حزينة . ثم مالت برأسها عليَّ واستكانت في حجري . وهي تستعيد أنفاسها اللاهثة وتهدأ كطفلة صغيرة . ثم بدأت تهدئ حزني وتواسيني .. وهي تقول ..

– شفت شفت بيعمل فيَّ إيه ؟

وأنا أقول لها ..

– حقك عليَّ .. حقك عليَّ .. أنا ح اقتله ..

وأخذت أهننها كطفلة وأهدهدها حتى نامت .. أي والله العظيم ، نامت على صدري ، و لم أجرؤ على إيقاظها .. صعبت عليَّ .. كنت مسحورًا مأخوذًا ولما شممت لشعرها رائحة العنبر بكيت . وخفت أن يطلع على العفريت ، ويفاجئني معها فيقتلني دفاعا عن شرفه .. وماذا سيفعل أخوها لو أنه عاد فجأة الآن من صلاته ليجدها نائمة شبه عارية في حجري.. وهو الذي جلدها لأنها بصت من فرجة الباب .

ولما تعبت من التفكير والخوف نمت أنا الآخر محتضنا جسدها و لم أدر شيئًا .. ولا أعرف حتى الآن كيف نجاني الله من هذا الموقف .. لكنه فعل فهو قادر كل شيء .. هو بالتأكيد الذي أمرني أن أمسح دموعها بشفتي .. وأمرني أن أخرج في الوقت المناسب .. نعم .! لابد أن الله أوحي لي ودلني على سبيل للخروج ، ووجد طريقة لانقاذي !

قال الشيخ إبراهيم فزعًا :

– هذا الولد ممسوس .. وعلينا أن نرقيه باسم الله الأعظم ..

بسرعة أحضرت خالاتي – وكانتا صديقتين حميمتين لزهزهان – البخور . وذهبت التي تراقب ما على النار فأحضرت المنقد ، وبه جمر من خشب التوت المتوهج .. ألقى خالي ببخور مبروك لديه ففاحت رائحة ساحرة ، وغامت الحجرة بالدخان .. وهو يتمتم ويربت ويمسح على رأسي وجسدي باسم الله الأعظم .. حتى نمت وسندتني خالتي الكبرى ، وأرقدتني في الفراش .. وهي تبتسم لأنني لم أحك حكايات أخرى كانت هي طرفًا فيها . وسمعت صدى صوتها من بعيد ، كأنه يسري بين جدران كهف سحيق تدعو الله أن يسترها معي – دنيا وآخرة ..

• • •

في عين حَمِئَة . .

○ في الغرب من (ميت سلسيل) وإذا يممّت وجهك شطر مغرب الشمس ، لابد أن تمر على تل (أبو مجاهد) هناك كانت تنمو على سفحه أدغال كثيفة من البوص ، على امتداد البحر القديم ، أطلق عليها اسم (غابة أبو مجاهد) حيث تنحدر الأرض انحدارًا شديدًا نحو الماء الضحل ، فلا تترك فرصة للعابرين سوي (مدق) رصفته آلاف الأقدام العارية المشققة والمرتدية البُلغ القديمة ، والأحذية. وحوافر حمير السباخ والبقر وجواميس الحرث ..

يخيل للطفل السائر وسط الغابة إذا رفع رأسه للسماء من بين شواشي البوص العالية ، التي تشبه ذيول ثعالب تعابثها الريح .. أن بقايا جدران المقبرة القديمة المهدمة ، التي يسكنها شيخ مجهول النسب من الأولياء القدماء ، تشاركة فيها جنيات وعفاريت

من مختلف الأجناس ، ستنقض فوق رأسه ما بين لحظة وأخري .. هذا أن لم يخرج عليه بعضهم فجأة يرشقه بالحصي .. أو يملأ عينيه بتراب النار الحامي .. فيسرع الخطو ويقرأ في سره آيه (الكرسي) ، لو كان لا يزال يتذكرها أو يكتفي بالبسملة .. ولا يفتح عينيه إلا عندما يعبر تلك الكثافة المحسوسة .. التي ينفتح المدى بعدها حتى الأفق ، مطلقًا الأعين المحروقة من بلل الخوف إلى رحابة الأمان عبر الجرن الكبير الذي يمتد شمالاً على يمينه حتى كرمة العنب البز المتبقية من بستان العز القديم الذي خربته الأيام .. كرمة عجوز مستندة في وهن إلى جدار وحيد تبقي من الدوار ، مصلوب معها على بضعة أشجار كافور عالية . وشجرة توت حبش وحيدة اتخذتها قبائل لا حصر لها من الحدادي والغربان وعصافير الدوري الثرثارة مرتعًا .. فلم تترك لأحد من الأطفال فرصة أن يتأكد إن كانت تلك الكرمة الهائلة المسيجة يمكن أن تثمر حبة عنب واحدة ..

وبعيد مقام الشيخ القديم المنهار والدوار ، ينتهي الدغل مباشرة . وينقطع عرق الخوف ، لتملأ العين على طول الأفق الغربي وفيما وراء التل ، بحيرة الخضرة النضرة تشكل كتلة هائلة من اللون الفضي والأخضر بكل ألوانه ، ومن الظل الطري الغامض الذي يأسر العين .. يدفع المنحدر من التل للإندفاع عبر معبر ومدار ساقية (زيدان) في مرح ، ليغرق نفسه في الأحضان الغضة لعشرات من شجرات التوت الأسود والحبشي وذكورها الضخمة وعدد من أشجار الجميز الهائلة والصفصاف شعر البنت المتدلي على الماء ، تتخللها أشجار النخيل الباسقة من (حيّاني) و (بنت عيش) تكون في مجموعها .. ما كان يعرفه الطفل في تلك الأيام الخوالي (بغيط السباخ) ..

هناك ينحني البحر القديم في اكثر أجزائه اتساعا ، نحو بستان

الفاكهة الذي تيقي من ثلاثة بساتين كانت قائمة ، تشكل سمة هذه المنطقة التي تعرف (بالزنئورة) التي كان اعتقاده المؤكد – عندما يصعد فوق سطوح بيتهم قبيل المغرب في رمضان – أن صوت (حماده) حين يرتفع بالآذان ، كان يصرح للشمس أن تغطس في هذا المكان بالضبط ، ويباركها .. ويحميها من (المسحور) ، الذي يسكن المنطقة هو وزوجته (جنيّة البلح الأحمر) التي طالما شاهد طيفها المراوغ أثناء بحثه عن ثمار الجوافة المتساقطة في الليل بين أعواد الملوخية والحندقوق ..

تلك الجنية التي كان ينتظرها بالساعات أيام الفيضان – كي تظهر له أصابعها المصبوغة بالدم الأحمر كالبلح على سطح الماء لتغريه بوهم الحصول عليها ، ثم تشده معها إلى القرار العميق . وتأخذه إلى قصرها تحت الماء – دون جدوي .

كانوا يخدعوننا بقولهم أنها غاصت إلى الأبد في بئر الطنبوشة التي تروي أرض الطير ، ولم تعد تظهر إلا للموعود .. ثم قالوا .. لا إنها لم تعد تأتي بسبب السدود والكباري الأسمنتية التي حبستها .. ولذا لم تعد تظهر في أي مكان ..

لكنني كنت أحلم أنها ستنجح في أن تخدعني .. وسأنزل إليها بكل إرادتي حين أبصرها ، رغم أنني متأكد أن تلك الأصابع ليست بلحا .. سأذهب إليها وأجعلها تشدني لأغوص إلى حيث تشاء .. سيقولون خطفته الجنية . وسأكون أنا الذي حرضتها ، وسيبكي أبي ، وقد تموت أمي حزنا علي.. ولكني ، بعد أن أعيش سعيدًا معها متمرغا في العز والحرير ، بين أحضان بنات الحور والجنيّات، سأعود بالتأكيد ، ومعي كنوز الملك (الشمردل) ساعتها يكفكف أبي دموعه .. ويعود إليه بصره .. وتزغرد أمي وهي تقرش ليمونة المحاياة التي أحضرتها معي .. وابني لها قصرا

(طوبه فضة وطوبه دهب) .. أما (ميت سلسيل) نفسها .. فسوف آمر خدم الخاتم ببنائها وغرسها كما الجنة الأولى ، التي كانت بها قبل أن يتبطر أحد (الأخوين) ويكفر بالنعمة فلا يقول (ما شاء الله لا إله إلا الله) وهو يدخل جنته فخسف الله بها الأرض .. كما ورد في الكتب عن سالف الأزمان . سأعيدها .. نعم ! ولن أنسي أن اتعوذ وأسمّي باسم الله لتظل جنة كلها ورد وتوت .. وكمثري .. وسوف تكون عَمْلة كبيرة جدًا .. يضطرون لكتابتها باسمي في كتب المدارس ..!

يسخر الاولاد مني كلما حكيت ذلك .. ولكنهم لا يملون السماع لي بلهفة وشغف .. إلى أن أنفعل بسبب غيرتهم وجهلهم بالتاريخ وبالأساطير التى تملأ الكتب التى درست وقرأت .. ويتغير صوتي وأنا أصف لهم ما رأيته تحت الماء من أسماك ملونة .. وحيتان تتحدث بلغات البشر .. وقصور من المرجان الملون فيرشني (حسن العربي) بالطين الروَبة .. وتدفعني (أنعام) ناحية الغرق وهي تضغط بكل ثقلها على أكتافي لتغطس بي تحت الماء .. لكنهم بعدها كانوا – في كثير من الأحوال – يطلبون مني الاستمرار في الحكاية .. أو يملون . فنخرج عراة نجري ، إلى حيث مربضنا وملابسنا في ظل جدار دوار الغنم الغربي ، فنرتديها بعد أن نجفف أنفسنا في الشمس . ونتفرق جائعين تحت النخيل ، (حسن العربي) و (صلاح) يتسللان إلى البستان في غموض و(أنعام) تراقب الطريق لهما ولنا .. أتسلل أنا و (أوطان) لنسرق علنا كيزان الذرة الخضراء من حقلنا .. بينما ينهمك بقية الاولاد والبنات في جمع البلح المتساقط على الجسور وفي بطن المراوي ..

نقفز في مهارة القرود والشياطين عبر الجدار ، إلى دوار الغنم الخالي

الآن تماما ، حتى ساعة الغروب موعد عودة الرعاة بالقطيع . هناك نضمن الأمان الكامل لنفعل ما نشاء دون تدخل أي من الكبار .. حتي لو غلبنا النوم ونحن نلعب عرسان وعرايس . لأنهم حين يعودون فسوف ننتبه لهم، ونستيقظ على ضجة علب الصفيح والأجراس المعلقة في رقاب الماعز .. أو على هوهوة الكلاب المتعبة من المطاردة فنهرب في لحظات عبر نفس الجدار ..

جمعنا حصيلة السطو والتعب ..

أفرغ (حسن العربي) عبه المنتفخ ، حبتان ناضجتان من الرمان العسل .. عشر حبات جوافة من ذوات القلب الأحمر ثمرة كمثري نية خضراء . (عزيزة) أخرجت ست كيزان دره . حين قشرتها فرحنا وصحنا ، لأنها كانت ناضجة مرصوصة فيها صفوف الحبات في انتظام معجز .. طرية وعز الطلب . وعلى ورقة موز خضراء أحضرها (عبد السلام) ، أفرغ الباقون ما في جيوبهم وحجورهم من البلح ..

كانت حصيلة هائلة ..

تخاطفنا الثمار حتى تدخلت (أوطان) ونهرتنا ، وهي تقسمها بالعدل .. أكلنا بشهية ولهفة .. تعفرنا بتراب الدوار المختلط بزبل الغنم ذي الرائحة النفاذة ، حين تصارعنا حول قطعة من الجوافة تبقت مع أحدنا .. ومازلنا جائعين ، أحضرت (نوال) حزمة من حطب القطن القديم من فوق عريشة البهائم . وأخرج (حسن العربي) كبريته الذي لا يفارقه كمدخن (أراري) . أشعل حزمة من القش الجاف ، دقت النار فأخذنا نهوي عليها حتي صهرجت واستوت واختلطت طقطقتها بكركرة ضحكاتنا ، وتأوهاتنا من لسع الشرر والدخان .. رصت (عزيزة) بحرفنة

الكيزان على النار الناضجة .. وأشتركنا جميعا في تقليبها مستمتعين بلسع النار لأطراف أصابعنا ونحن نتبادل الوحوحوة والتأوه ..

حين اقتربت الكيزان من النضج زغرت (عزيزة) لنا وحذرتنا ، وهي ترفع عصا يحترق طرفها ويتوهج ، مهددة بضرب كل من تسول له نفسه خطف أي منها .. سوف توزع الذرة بالقسطاس.. (بعدل ربنا ..) فهي التي بقيت لنسد بها جوعنا المتزايد . وافقنا ورضينا جميعًا .. لكن رائحة وصوت نضجها ، كاد يغرينا بتحمل لسوعة العصا الملتهبة لولا أن (حسن العربي) انحاز لرأيها.. وحذرنا وهو يدعونا نحن (الرجال) للصبر وانتحى جانبًا فأسرعنا معه تاركين البنات لاستكمال إعداد الغذاء ..

أخرج (حسن) كيسًا به عدة أوراق بفرة وأخذ ، بحرفنة ، يلف سجائره بالدخان المصنوع من شواشي كيزان الذرة الجافة ، التي كان يتقن لفها وتدخينها بحذق ومهارة نحسده عليها .. رغم أنها قتلته فيما بعد مبكرًا بداء السل ..

كنا نراقبه بإعجاب وانبهار . وهو يشعل طرف السيجارة المبروم ، ويشد الأنفاس باقتدار مطلقًا سحبًا كثيفة من الدخان .. يصنع حلقات منه في إعجاز .. بينما نحن نسعل ونكح ونكاد نفطس من أول شفطة وتحمر وجوهنا وتزرد وتسيل دموعنا .. ندوخ ونفشل في تكرارها .. بينما هو يعايرنا ويسخر منا ، نحن الذين نستند في ضعف إلى الجدار غائبين عن الوعى أو نكاد

تأتي (عزيزة) في غيامة الدخان والدموع توزع علينا نصيبنا من

الدرة ، بعد أن قسمت الكيزان بالعدل والقسطاس ، لنجترها على مهل .. ثم ننام دائخين حيث نحن ، فوق بقايا الغنم الرطبة سكارى بطراوة النسيم في الظلال الغائمة !

• • •

ونفس وما سوَّاها . .

○ سامحني يا توأم روحي أن تذرعت بالكتابة عنك .. أخاف أن أكتفى بنفسي فأكذب أو أجمَل تلك السنين العجيبة والأفعال الغريبة والحوادث ذات الأوجة المريبة التي مرت بنا معًا منذ صرخت أمي ولفظتني إلى هذا الوجود الذي لم أفهم حتى الآن جدواه مع كل المحاولات الدؤوبة والفاشلة لفهم معناه ..

الحديث عنك سيسهل الأمر عليَّ كثيرًا فأنا أراك أكثر مما أرى نفسي ، وهذا سيجعل الأمر أكثر صدقًا وواقعية . سأختفي خلف قناعك كما تعودت أن أفعل دائمًا لأحسن التصرف ولأكون أكثر جرأة

في التعامل مع الآخرين محتميًا بظلك ، مقتفيًا آثارك ، تشجعني كلما ترددت ، وتنصحني إن اسأت التصرف أو أخطات .. وتدفعني للأمام كلما رغبت في النكوص ، وتنطقني إذا ما فكرت في الصمت .. أحيانًا بإرادتي وأحيانًا رغم أنفي . وفي كل الأحوال ، لم يكن تخطر لي مطلقًا في وجودك فكرة الاعتراض ..

لا تسخر مني . فقد تحملت الحرمان ؛ لأنك علمتني بلسان أمي (أن الغني هو القادر دائمًا على الاستغناء) ، وصمدت في السجن ؛ لأنك أقنعتني بقدرة الإنسان الأسطورية على تحمل صفاقة الآخرين وصلابة الجدران .. وقسوة الانتظار ، كنت تؤكد لي بصوت (فؤاد حداد) (أن أصغر ما في الدنيا هو أكبر ما فيها .. البذرة إذا ما رويتها بالعرق) .. فتتفجر خضرة وأزهارًا وثمارًا وزودتني بحكمة ثوري لم تذكر لي اسمه أبدًا (أن أجمل ما في الحلم هو الإيمان بإمكانية تحقيقه (حتى لو كان مستحيلاً) ؛ رغم أنني سمعتها كثيرًا صرخة ملتاعة متحدية يطلقها سجناء كثيرون في ليل سجن المنصورة (يبلى الحديد واحنا البشر لم بلينا) ..ساعتها كنت دائمًا أستحضر صوتك ووجهك خاصة كلما كانوا يجهزونني للصلب على العروسة.. أو يلقون بي في الزنزانة الانفرادية .. كنت أرتدي جلدك فلا أحس تمزيق السياط لجلدي .. وكأن المجلود شخص آخر يمتلك صلابة بلا حدود ..

أستحضرك فتؤنس وحدة الزنزانة . وأتذكر وأنا أتمثل ابتسامتك الواثقة عندما تتطاير روحي هلعًا من طول الليل وبطء الوقت .. أنت الذي أخذت بيدي إلى عالم الأساطير فعرفت (أخيل) و(أبوللو) وطرت بعربة الشمس ، وغصت في بحار الجنيات .. أنت الذي دفعتني إلى سرقة مفتاح ذلك الدولاب البوريه الغامض المصنوع من خشب الصندل الذي كان

الشيء الخشبي الجميل الوحيد ذي القيمة في منزل جدي نجار السواقي .. حيث يحتفظ خالي (إبراهيم) بكتبه العجيبة وأوراقه السرية الخاصة . أوحيت لي أن هناك مفتاحًا ، بعد محاولاتي الكثيرة لفتحه عنوة .. وأن المفتاح يخفيه تحت مخدة أخته الكبيرة التي لا تعرف القراءة والتي تساعده على الانتقال من مكان لمكان وتساعده على النوم وعلى الوضوء وعلى الأكل منذ سقط مشلولاً ..

حرضتني على تجاوز كتب خالي ، إلى تلك الكراسة السرية التي تحتوي على مذكراته القليلة .. والتي يعادل ما بها كل ما في هذه الكتب من حكايات وأساطير .. لأن فيها كشف المستور عن السر الغامض وراء عودته مشلولاً مع أخيه الكبير الذي كان قد سافر للعودة به فخورًا بنجاحه الساحق وحصوله على شهادة العالمية بتفوق ؛ معلنا أن زمن الفقر والحاجة قد ولَّى . ذلك الزمن الذي داهم الأسرة كلها بعد موت الجد المسرف المتلاف ، عاشق النسوان (بالحلال) والذي ترك في كل مديرية امرأة وأولادًا لم نعرف معظمهم .. وفترت علاقتنا بمن نعرفهم بعد ضياع الشادر ومغلق الخشب كله سدادًا للديون ..

كانت سعادة الأخ الكبير في الأجازات تفوق كل سعادة .. فها هو شقيقه يتشكل شيخًا جليلاً من العلماء تفاخر به الأسرة البلد كلها وتباهي به العائلات التي لهفت ما عليها من ديون بلا وثائق .. فَنْجَر بها الجد في ثقة على الجميع فكشفت بعد موته عن حديدة عريضة جلس عليها الجميع . فكانت بعرض أقفيتهم جميعًا .. رجالاً ونساء وأطفالاً قادمين ..

وما كان أشد تعاسته وهو ينزل به من القطار ، حاملاً إياه على كتفه كطفل صغير صريع المرض .. وقد تهدمت كل قصور الوهم على رأسه (هو) بالذات . فالكل معلَّق في رقبته (هو) . ولا خلاص يبدو في

المستقبل القريب بعد اليوم من مصير طابور البنات والعوانس والعجائز بكل أرصدتهم من الأمراض والقهر ..

أصبح الحزن والفقر – مثلك – واحدًا من الأسرة ، له حضور مر على كل الشفاه .. خاصة تلك التي لم تذق طعم القبلات إلا خلسة .

إذ هدم الشلل حائط الدفاع الأخير .. وأصبح الاستسلام للمرض هو المخرج الوحيد للهروب من عاصفة اللوم ، والفرار من قسوة نظرات العتاب والتجريم ..

فكيف للولي الطاهر حافظ كلام ربنا ، والذي كانت البلدة تبكي هلعًا وخشية من غضب الله عندما كان يأتي في الأجازات ليخطب ، مجربًا قدراته البلاغية والعقلية وليعود للبيت في موكب من الراغبين في الوصول والتوبة ، كيف له أن يعشق امرأة تكشف عن بياض كتفيها ولا تخشى أن تستقبل الأخ الكبير وهي تلوك اللبان وهي تفتح له الباب ، تفاجئه دون أن يرفَّ لها جفن ، بل وتجادله بالعين والحاجب وتسأله دون خجل :

عايز مين يا حضرة ..؟

أهذه حجرة الشيخ إبراهيم ..؟

طبعًا .. وسيد المشايخ كمان .

أكدت له وهي تحاول إذابة جليد عينيه وجحيم نظرته المندهشة .. أنه لا أحد غريب وأن لها على أخيه الشيخ حقوقًا لا ترد بالغضب ولا بالقمصة .. ففي حضنها ذوَّب سني الغربة وكروب الفلس والحرمان .. نزعت عنه ثياب الوحدة ونقعتها في الصابون الفنيك ..

مصر يا معلم (مسعد)، وانت راجل حدق ومجرب، لا تحب الغرباء .. خاصة المفلسين.. تكرههم .. وتدوسهم بنعال من قسوة الجوع والليالي الطويلة الساهرة التي لا تنام .

هي حمته من الوحوش وهو الأمير الطيب . أطعمته وغسلت همومه وهدومه وبالحلال يا معلم .. لم تقد قميصه من دبر .. ولكنها كسته بالحرير . القديس كان بحاجة للدخول في تجربة ، وهي منحته الفرصة كي (يتدقدق) ويتفوق .. الولي الشاطر الذي كنت تعده كي يحمل سلسلة مفاتيح أبواب الجنة لأهل (الكَفر) البسطاء .. وجد بابًا وحيدًا دافئًا أخضر العتبات ، فدخل ..

ما أن طالع الوجه الصبوح ل (زليخا) عطفة (أبو جبة) حتى انهار وطار للسما السابعة على نغمات نفس هذه الضحكة التي جعلتك يا معلم (مسعد) ترتعش .. وهي ترد عليك حين سألتها أول مرَّة عنه ، وردَّت هي عليك بصوت كسلاسل الذهب من خلف بابه – بنت الشيطان الجميلة الساحرة .. والمكشوفة الكتفين والذراعين على الآخر .. والتي لم تسلم من مقارنة عابرة بينها وبين عروسك العانس المسكينة التي لا يبدو لعرسها أفق في المستقبل المنظور .. انقبض قلبك يا معلم وتفتت هلعًا ورعبًا حين انهار بين يديك نبيك الجميل النبيل، حتى قبل أن ينطق كلمة تطفئ لهيب غضبك أو تبدد غمام شكك الثقيل أو تفسر كل الذي حدث مما ليس له أي تفسير ..

كدت أظن – بعد أن قرأت المذكرات التي تحكي عن الفترة السابقة من حياته في الغربة .. وانطباعاته عندما داخ السبع دوخات ليجد لنفسه مكانًا رخيصًا وقريبًا من الأزهر . وكيف دلَّه أولاد الحلال على المصير الذي لم يكن منه مفر .. وكيف شافها لأول مرة .. وكيف كان يظل ساهرًا طول الليل يقرأ آية الكرسي مئات المرات ليطرد صوتها .. وكيف بكى بين يدي شيخه طالبًا النصح . وكيف لم ينتصح أبدًا .. وظل يستعذب رؤيتها

والسهر متبتِّلا لطرد شبحها من فوق صفحة جفونه .. مأساة حقيقية يا صديقي عندما يحب ولي من أولياء الله السُّذَّج بنتًا من بنات الشيطان العالمات بكوامن النفس المطهرة وخباياها ..

كدت أظن يا صديقي – وأنا أقرأ الكراسة التي حرَّضْتني للحصول عليها – أنك أنت الذي قدته إلى هذه العطفة وهذا البيت وتلك الحجرة .. أنت أستاذ في ترتيب المصائر . وأيضًا لأنني وجدت تشابهًا كبيرًا بين هذه وأحداث أخرى سيأتي ذكرها ، يكاد ترتيبك للأمور فيها يقترب من هذا الترتيب الذي انتهى بمأساة ..

الأسرة كلها قالت (أمر الله) الذي لا يمكن كشف أسرار حكمته أو الوصول إلى غاياته .. ويصبح الاستسلام له في صبر وإيمان هو سبيل الأمان الوحيد ..

زاد عدد المعلَّقين في رقبتك يا خال (مسعد) واحدًا .. لكنه ليس بواحد عادي .. إن الأجر والثواب فيه سيكون مضاعفًا .. فهو حامل لكتاب الله ولعلومه . ولله حكمة أن يحفظها في قلبه ولا يبددها مع خلق لا قيمة لهم ولا هم يفقهون .. فقط (بنت حيدر) التي طال صبرها والتي تذبل في بيت أبيها يومًا بعد يوم والتي ترفض أن تنتقل لبيتك المزدحم بطابور العوانس من الأخوات وبالأم التي لا تتحرك .. وكل من تحملهم على ضهرك الجمل – الذين ستضمن بهم قصرًا في الجنة – يتململون .

هذا ما قاله لي الولي – في مذكراته. إذ كانت في معظمها عنه .. وعن أحقيته عند الله في نعيم الخلود، الذي أُعد للمؤمنين الصابرين من أمثاله المحصَّنين من الخطايا ..

كان يكتب هذه السطور الأخيرة بخط صعب القراءة .. كانت كفُّه

ترتعش .. وهو يتحدث عن فظاعة ذنبه الرهيب الذي يخفيه عن الجميع وهو يعرف أن أمثاله ممن يعدهم أهلهم ليحملوا الأمانة.. وحمل مفاتيح أبواب الغفران للتعساء بحمل القرآن ، مبشرين بقصور النعيم في الآخرة .. لا يحق لهم إطلاقًا أن يرشفوا قطرة واحدة من عسل الدنيا الزائف .. ولا يجوز لهم لحظة سقوط واحدة في أسْر أي سحر لذيذ أو جمال شيطاني ..

لم يكن من حقِّي أن أطَّلع على هذا . ولكنك أنت الذي دفعتني لذلك .. لأقتنع بضرورة الدفاع عن حقه وحق خالي (مسعد) وحق العوانس والأرامل من اخواته وبنات اخواته ، وكل أهل الكفر وخاصة (بنت حيدر) التعيسة، حقهم في السقوط ، ولو لمرة كي يتذوقوا فاكهة الدنيا دون الإحساس بالذنب ، ودون تأجيل ..

دفعتني لسرقة مفتاح الدولاب فعرفت فداحة المدى الذي أغويتني بارتياده ، وأتعستني بفك سر الحروف لأشاهد مصير الرجل الوحيد الذي تجرأ فوطأت قدماه جنة حقيقية لوهلة قصيرة جدًّا ، قادته لجحيم دائم لا خروج ولا فكاك منه .. لم يستطع أن يسترخطيئتة حين هبت الريح صدفة فأطفأت جذوة شمعته وأقعدته مشلولاً حتى الموت ، لأنه فشل أن يخفي عورته عن أخيه الكبير ، الذي قيل عنه فيما قيل إنه ولد بالمقلوب ..

صرخت الداية يومها ..

أنا ما شفتش كده ف حياتي !

ولكن الأمر تم بحمد الله ورضا الأولياء الصالحين من (أبو خشبة) حتى (ابن سلام) وبالذات رضا (سيدي مجاهد ابو عبد الوهاب) .. ومنذ ذلك الحين ، وكل ما فعله في حياته تم بحمد الله وقوة الأولياء – ولكن بالمقلوب ..

لم يبتسم الحظ له أبدًا . فعندما مات المعلم الكبير وتبددت الثروة التي كانت تسترهم وتجعلهم مسئولين عن سواقي الكفر والمركز بل والمديرية غير سواقي في الشرقية والغربية .. طارت نقودهم عند الناس و لم يرحمهم من لهم نقود طرف المرحوم .. وتعلق برقبته جيش العوانس وطابور اليتامى ..

الليل فوق الكفر ليل ككل ليل فوق كل قرى خلق الله حتى سابع مديرية . ولكنه رأى في صفحة السماء نجومًا وعفاريت لم يرها أحد غيره من خلق الله ..

الكفر مثل غيره .. (أحمد) شبه (ازدحمد) محطة وسوق وساحة ومزلقان ودبان وروث وتراب أكوام أكوام وورم واستسقاء ، وحمير عنيدة تسير ذليلة كالبشر ، أو تبرطع كالمجانين منهم . وكان نصيبه فتق مزمن لا علاج له إلا بذلك الحزام العجيب الذي سافر لإحضاره من مصر خصيصًا وكانت أول مرة يذهب للقاهرة .. و لم يذهب بعدها إلا ليعود بأخيه محمولاً في تلك المرة الدرامية .

لكن القرية مع ذلك كانت عنده الدنيا وما فيها .. لا لأنه زهد في غيرها ، لكن لأنه ما غادرها يومًا إلا لمثلها .. و لم ير مصر أم الدنيا إلا للبحث عن شيء يصلب طوله مع الفتق، أو ليعود بالشيخ الطاهر محمولاً إلى الأبد ..

يشبع بها ويشبع بهم .

قالها أخوه الأوسط المتعلم وسافر إلى (المنصورة) التي لا تهدأ ، بسبب مرور المراكب الكبيرة عليها في رأيه .. وترك في رقبته الأم المقعَدة والأختين العانستين والأخ البايظ الذي رفض أن يكون عبدًا لصنعة

النجارة المقدسة بحجة أنها صنعة الأنبياء والمقدسين وهو من الآثمين . وكذلك الأخ المشلول المقعَد مخيب الآمال ..

ترك الجميع إلى شقة حضرية وزوجة من أهل المدينة ، هاجرًا ذلك البيت الكئيب السحنة لكل من يراه الآن من الخارج والذي كان بابه (في زمانه) لا يغلق أبدًا . ولا تكف أصوات النشر والدق عن الإعلان أنه مركز الكون .. لم يكن كئيبًا ولا مغلق الباب . كانت مائدة الغذاء تمد للنجارين والنشارين بعد الصلاة في المندرة التي تفتح على الشارع تستقبل في كرم كل من يمر عابرًا ليشارك ويبارك .

الأمر اختلف الآن . لكن الحوش ظل رطبًا (وبِرح وستَّار) على ما فيه من هموم .. يمتد إلى جوار المندرة حوش نصف مسقوف بخشب سوَّده الدخان وأفعال الزمان .. يؤدي إلى دهليز داخلي يسمونه (الحضير) حيث حجرتان رطبتان فوقهما مقعدان يؤدي إليهما سلم عجيب الشأن لا يمكن وصف انحنائه العبقري .. ضاعت ملامحة وحدوده من زمن طويل لكنه ظل يعمل بكفاءة لم يقدر عليها البشر . يوصل الصاعدين للمقاعد وللسطح المليء بأكوام من أحمال قش أرز قديم ترابي اللون مغطى ومشبع بزبل الحمام والفراخ ، حوله سور قديم من البوص الممزق بفعل الرياح والشمس والمطر ، تسنده سدايبٍ من خشب مسوّس تآكلت أجزاء كثيرة منه ومنها .. ولكنه بقي متماسكًا رغم ميله الحاد في الفراغ ، بفضل سر مجهول لا سبيل لإدراكه سوى للواصلين والمؤمنين برحمة المولى . ففي أقصى طرفه وعند أقصى ميل يوجد عش ضبابير من نوع زنبور البلح المتوحش.. ولكن رحمة الله التي وسعت كل شيء لا تقبل تشريدهم .. سبحانه ..

سخرت مني يا صديقى يوم قلت لك ذلك فلم أغضب .

و لكن حين سخرت منه ، غضبت منك بشدة فليس لمثلك أن يسخر من إيمان أمثاله . هكذا كنت تعلمني . فكيف نسيت . أم أنها كانت نصيحة للاستهلاك ، وأنا لم أعهد فيك الخداع في المسائل المتعلقة بالعقائد .. فقد كنت تصر في عز اجتماعاتنا الحزبية أن تسمح للمعلم (توفيق) ولعم (الصّديق) و(ابو سلامة) أن يقوموا لصلاة المغرب قبل أن يروح عليهم عندما تحل العشاء ، ونحن في غمرة النقاش حول فائض القيمة وقوانين الاستغلال !

على كل حال حتى أنت كانت لك هفواتك وكان لي في أحيان كثيرة فضل تحذيرك وتنبيهك .. وهذا وحده الذي سمح لعلاقتنا أن تستمر نتبادل فيها الأدوار .. والمشاعر .. حتى مشاعر الكراهية .. ما علينا ..

يرجع مرجوعنا إلى الأخ التعيس الـ(مسعد) .. الذي كان لابد أن يدق الباب .. باب بيته في كل مرة ، كأنه يستأذن في الدخول .. وكان ذلك يثير إعجاب المارة ويضيف لرصيده المثير للشفقة إعجابًا ما بعده إعجاب ، حين يصل الكلام إلى بنت (حيدر) إذ كان يريحها قليلاً من عذاب الانتظار لأنه ليس انتظارًا بدون جدوى ..

كان يكح قبل أن يزق الباب ليدخل زاعقًا – (يا ستار) .. فينتبه أهل البيت .. ويعدلون من أوضاعهم ، فقد تكون أخته (سعيدة) في الكنيف تقضي حاجتها كعادتها دون أن ترد الباب ، لكي تستمر في النقار أخذًا وعطاء مع أختها (قمر) أو مع الأم المقعدة ، على المرتبة القديمة والحصيرة الكالحة المتآكلة الأطراف ، في أول الحضير أمام الكنيف تمامًا.. حيث أصبح ركنها ومقامها الدائم ، منذ قَبِل أن يتحملها دون غيره من أركان الكرة الأرضية – نائمة أو قاعدة .. إلى أن يفعل الله شيئًا في الغيب كان مقدورًا . استجابة لدعوات بناتها أن يرحمها من آلامها طبعًا .. ويرحمهم من قرفها

الذي لم يعد يطاق والذي لا يصرح به إلا عندما يكون هو في الخارج .. فإذا ما سمعت نحنحته ، تجري الأخت الخالية لترد باب الكنيف ويكف الجميع عن الزربنة والنقار ..

وقد تكون الأم في تلك اللحظة تعاني ، وهي تقضي حاجتها كالعادة في مكانها بمساعدة الأخت المتخصصة (قمر) .. عندها تكون قد اضطرت لكشف نصفها الأسفل . فاضحة اللحم الأبيض الهائل الذي يشي بشباب كان ، وغنج قديم لحس عقل المعلم الكبير الذواقة زمان ، قبل أن يفعل الزمان أفاعليه فيملأ ثناياه بخضرة وعفونة ويفرش أديمه البض الناعم ببثور متقيحة لا علاج لها .. فتسرع عندما تسمع نحنحته فتستر البنت أمها ، بأي خرقة متاحة إلى أن يعبرها إلى المقعدين ، لائذًا بالسلم مغمض العينين مكلوم الفؤاد .

وما دام أصبح في البيت يصبح الصمت أشد ثقلا وكثافة من الرطوبة.. وتحل لغة الإشارة والغمز والهمس والهمهمة المكتومة محل الكلمات والشتائم .. نظرته المقطبة دائمًا تثير البرودة في الأجساد وزعقته إن خرجت ، تجمد الدم في العروق . ولأنه دائمًا ما يكون هناك ما سيغضبه أو يثير حنقه ، فكانوا يكتفون شره .. ويكفون عن تبادل الحديث باللغة العادية كما يفعلون في غيابه ..

الاخ الأصغر(الخميسي) وحده هو الذي نجا بنفسه عندما تحطمت المركب به على صخور جبل المغنطيس ، وإياك أن تظن أنه كان هاربًا أو أنانيًا . لا .. الأمر أكبر من ذلك كثيرًا ، كان يعرف أنه سيكون سببًا إضافيًا لتعاستهم لو أنه ظل بينهم في مواجهة دائمة مع الأخ الكبير.. سيعلو صوتهم يوميًا .. وتصبح سيرتهم على كل لسان – النار لا تتعايش مع الماء– والماء سيظل يغلي لو أجبر على البقاء فوق النار حتى ينسكب أو

يتلاشى .. ينتهي.. أو ينتحر بإطفاء النار مضحيًا بنفسه ..

كان شاطرًا حالمًا لا يرضى بما هو فيه . حياة أخرى تناديه . لأين ؟ .. لا يهم .. إنه يرفض القعود في انتظار أن تمن الحياة عليه بالسعادة أو اللذة أو الطعام .. الحياة خارج هذه التعاسة تناديه كي يختار سعادته بنفسه .. لقد ظل منذ وعى الدنيا وطوال حياة أبيه ، يتململ ويغلي ، ولو طال الأمر أكثر لفعلها وتبخر ولكنه صبر وتحمل في وجود والده ، حيث كان نفوذ أخوته الكبار بعيدًا عن حدود مملكته .. وهو الشاطر الألعبان والفتى البهلوان.. وستفهم السر إذا ما بحثت خلف قدرته على إخفاء عالمه السري عن الجميع ، خلف ابتسامه وضحكه ولعبه .. لم يسمح لأحد أن يراه عاريًا أو معوجّا .. وحين أطلق ساقيه للريح لم يفعلها كالمتعلم ، الذي هرب إلى بيت آخر وقيود أخرى أخف دمًا ولكنها أكثر وطأة .

(الخميسى) فرَّ إلى الأفق الحر .. إلى حيث متع الحياة الحارقة والملتهبة . التي تكمن على حدود الخطر .. فيما وراء الدائرة التي تحيط بعش العوانس .. التي جعلها بفطنة يدركها كل الشطار – منطقة محرمة على أنشطته الحرة ..

يدخلها فقط حين تضطر مراكبه للرسو متعبة على أقرب أرض ، للتزود (بالميرة) والزاد والماء ..

يرتدي ثياب العشاق المساكين الذين يستلقون على القفا ضاحكين لأي مداعبة .. أو يبكون حتى تكاد أرواحهم تنشق إشفاقًا وحزنًا – مشاركة لكل مكلوم مظلوم .. (اسم الله) عز وجل لا يفارق شفتيه و(صلاة النبي) فوق لسانه في كل خطـوة ومع كل نظـرة .. أو كلمة .. (اسم الله عليه صلاة النبي أحسن) تتناثر حوله على شفاه إخوته والأقارب والجيران ..

أخوه المعلم الأكبر ولي عهد مملكة السواقي المهزومة ، وحده الذي

لم يكن يطيق وجوده ، كان كل منهما لا يطيق الآخر وكأنه يشاركه البردة والطاقية .. ويحقد عليه . يلعنه خوفًا من أختيه (جنات) و(قمر) اللتين تسبَّب إعزاز أبيهما لهما في وقف سوقهما . إذ كانت له شروط ومطالب لا تقل عن تلك التي زوج بها أختهما الصغرى للمدرس ابن الفلاحين..

كان تمسكه بهذه الشروط نوعًا من التكفير عن ذنب تزويجها قبل أختيها الأكبر سنًّا مخالفًا بذلك الأصول .. وبعد أن دهم البيت الإفلاس . بعدت الطيور الحوَّامة ، جارحة كانت أم داجنة .. حاملة تحت أجنحتها فلول العرسان ..

لكن وجود (الخميسى) الغلبان العارض والمفاجئ كلما عاد كان يضفي عليهما سعادة من نوع خاص ترطب جفاف الليالي الطويلة في غيابه .. تعزق الأرض الثرّة وترويها بالعواطف والملاغية والقصص والملاعبة والمداعبة والهدايا . كان يأسر القلوب بقصصه الشيطانية ومغامراته في بلاد الترك والروم والزنج ؛ قصص لو سمعها (مسعد) لقتله ..

فواحدة من نوعيتها سرقت منه الأخ الأصغر .. وحولت (النبي الطيب) إلى جثة نصفها من خشب وأطفأت شموع مشيخته المأمولة ومكانته الحلم – وسط الكفر والمديرية فما بالك و(الخميسى) يعرف من نوع تلك التي أغوته ، عشرات . وإن لم تتمكن منه واحدة منهن أو تتحكم فيه .. أو تصب لعنتها عليه .

هو لسَّه معقدها ؟ .. ما تسيبوه (لبنت حيدر) .. والاَّ سلطوها عليه .. هي البنت دي مش مرة ..

اتلم يا (خميسى) ..

جرى أيه انتي وهيَّ .. عليَّ أنا .. إوعوا تكونوا بتغيروا منها..

فشرت ..

حتى انت يا (خميسى) لا تعرف أن هاتين المسكينتين تحفظان

حكايات (تودد الجارية) عن ظهر قلب .. وأنهما تذوبان حين كنت أقرأ لهما حكاية (أنيس الجليس) .. وتكتمان الضحكات الخبيثة وتدعيان الجهل بالمعاني الصريحة – كمراهقات ساذجات – وأنا أقرأ عليهما حكاية (الحمَّال والبنات) .. ويسألن في خبث إن كنت أنا قد فهمت معنى (البغل الهصور) الذي يأكل (السمسم المقشور) ويبيت في (خان أبو منصور) .. تلك الحكايا ، التي حرَّضتَني يا صديقي على سرقتها من دولاب (الخال إبراهيم) .. مع الكراسة التي كشفت المستور وفضحت المستخبي ..

هل تعرف .. كنت أرى ملامحك في وجه (الخميسى) وكانت هي مفتاحه إلى قلبي .. وكأنه أنت – خاصة عندما يحتل مكان الراوي ويأخذ في سرد أخبار رحلاته ومغامراته التي فاقت حكايات السندباد عددًا .. ورواية أحدث مشاويره المرعبة في (البُلط) و(المنصورة) .. و(فلسطين) .. ولقائه مع الست (عنزية الرجل) والرجل ذي (الشفطورة الخنازيري) .. والمرأة (أم بزاز ورا وبزاز قدام) ..

كنت أنت الذي توزّني أن أطلب منه إعادة قصّ حكاية المرأة المحتشمة التي طلبت منه في حارة (الهوارية) توصيلها وحمل سلتها إلى القصر الكبير . وأتابع وقد تقطعت أنفاسي ودقّ الطبل البلدي في صدري وأنا أتمثل شُعوره الذي يشكل ملامحه وحركاته بالقلق المتزايد ، مع رنين كعب حذائها فوق بلاط (قاعة رنانة) غير موجودة ، فالشارع طين وتراب مفروض أن يمتص الصدى والرنين الأسطوري .. وأتصور تزايد ثقل السلة ، حتى تعجزه عن المشي وأتخيل ، حين تكشف الست له عن ساقيها .. ليراها ساقي عنزة مشعرة وسوداء فيجري زاعقًا وأجري أنا معه لاهثًا إلى البيت تطارده وتطاردني وطاويط وعصافير سوداء جارحة . وتؤمِّن الأختان على كلامه . (جنات) هي التي فتحت الباب بنفسها وهي

التي ألقت بطشت الماء فوق رأس (المرة العفريتة) فذوَّبتها وأطفأت شرها . وهما معًا قامتا بتمريضه بالفعل لأسبوعين كاملين .

تضحكان لسذاجتي المنبهرة . وتؤكدان أنها حكاية حقيقية . مثلما أكدت أنت لي في أول اجتماع حزبي لنا أنها بالفعل كذلك وأن أمثالها يحدث يوميًّا إذ نقابل أصحاب الأرجل المعيزي في كل مكان حتى في المسجد .. ولا يراها إلا أصحاب البصيرة الذين يخترقون مسافات المكان والزمان بحرية ، حيث تذوب الحدود بين عالمنا وعالم الجن وعوالم الملائكة ..

أنت أكدت لي حتى آمنت أن هناك بشرًا لهم هذه القدرة . وحلمت دائمًا أن أكون منهم ، مثلك .. فلك يا صديقي تلك القدرة الغامضة على تجاوز هذه الحدود التي أرساها الله ليحفظ توازن العالم وليمضي كل في فلكه المعهود بالشعرة . ولولا رحمته بنا لسدت تلك المسارب والمسالك بين العوالم المختلفة في ملكه وجفت حياة البشر .. ولا كان هناك أنبياء أو فنانين أو أبناء ليل أو أولياء وأولاد موت . يثرون الحياة ويحركون سواكن مائها حتى لا نيأس ..

– خالك (إبراهيم) لم يحتمل ما حل به . عندما اخترق حدود عالمه المألوف .. ونفذ إلى نعيم شاطئ جهنم .. فانشل مع أول نظرة حارقة بالعقاب وانسحب من عالمنا .. ليجوس بأحلامه في صمت كل العوالم الأخرى دون لوم .

وخالك (الخميسى) هذا واحد منهم .. صدقني يا صديقي .. هو ابن ليل وابن موت وله معرفة بالخفايا . له صداقات مع العفاريت والنساء الساحرات ولا خوف عليه .. سحره يفتح له الأبواب.. وأنت ستكون منهم ايضا.

كنت تؤكد لي ذلك ، وانت تفسر لي (البرنامج) أو تشرح لي الفرق

بين (التكتيك والاستراتيجية) وان لم تعطني أبدا سبيلا للفهم الواضح .

لكن ابتسامة العارف المتأكد التي كانت ترتاح على وجهك يوم حكيت لك حكايتي مع (زهزان).. ذات يوم ونحن أسري ألاعيب (عزيزة) .. أو عندما دققت معي في تفاصيل مغامرتي مع (نرجس) وتأكيدك لي أنها هي أيضًا من قبيلتنا ..

وصدقتك عندما انتهى الزمن بها آخر العمر أن تكون ميناء (الخميسى) الأخير حينما عاد بعد رحلاته الألف متعبا مرهقا . يجر حبال سفنه القديمة المهترئة . على كتفيه تلات بنات مثل القمر ، من زوجات أو عشيقات سابقات .. فتفتح له أحضانها مسامحة وغافرة . تغمره كشقيقة من أم وأب .. بكل الحنان الذي يستحقه بعد رحلة الواصلين تلك ..

غاظني هذا منك ، فقد كنت تعرفه اكثر مني كأنك تقرأ الغيب . وأخفيته عامدًا عني ، لتجعلني أظل طوال العمر ألهث خلفك . محاولاً إثبات جدارتي بتجاوزك .. ممعنا في كشف أسرارك لأعرف ما ينقصني .. وألوذ بطلسم الحروف والشعر ، لا كتشف كيف كنت تقرأ صمتي .. وتري غياهبي وتدرك ما لم أدركه حتى عن نفسي ..

لأظل في حاجة إليك دائما ، أعوذ بك من الآخرين . والوذ بظلك وأنا أحلم أن تأخذ بيدي عبر عوالم الجن والإنس والملائكة ، لأرى ما رأيته أنت ورآه خالي (الخميسى) عبر نوافذ العشق وخرائط النسوان – فقط أسكنها حروف كلماتي .. لأننتصر عليك ..

تلك عصاي أهش بها . .

○ كان خالي (الخميسي) يصر على التأكيد – في كل مناسبة ، أن (المناوية) أهل (ميت سلسيل) (غنم ابيض) وكان بهذا يستفز مشاعري (القومية) فأدافع بشدة عن عشيرتي رادًّا المسبَّة إلى أهل الكفر الجديد ، إنهم (الغنم) و(الأسود) وكان ردي يثير ضحكًا لا أدري له سببًا ، إلا انحياز أهل . (الكفر) لابن جلدتهم ، فكان ضاحكًا يضمني معتذرًا ليطفي جمر غيرتي على سمعة أهل بلدي ليبدأ لعبة أحبها إذ يأخذ في تقليد قطيع من (الغنم الأبيض) مستعرضًا موهبته في المأمأة صانعًا غاغة ، تجسد بصورة ضاحكة متقنة (ظيطة) خرفان ونعاج ومعيز وجديان من مختلف الأحجام والأعمار . عازفًا بفمه وحنجرته وأنفه زفة مأمأة مركبة ومتناغمة، تتراوح بين السرعة والبطء وبين الغلظة والنعومة والتداخل

والتوالي والتنافر ، هارمونية مأمأة فنية تعلو وتنخفض وتندمج وتنفرط لتحاصرك من كل الاتجاهات ، مجسدة جلسة مؤتمر لقطيع نهم ونشط من الأغنام ، يقاطعها من حين لآخر نهيق جحش أو حمار ، إذ لابد لكل قطيع من قائد ، طيب وأليف وجاهز لركوب الراعي الذي يقودهم ، يتبعه ويتبعهم عدد من الكلاب الحراس تختلط هوهوتهم بضجيج المأمأة والزعيق والنهيق ، حتى تزول غضبتي لأهل قريتي . ساعتها يبتسم هو قائلاً في تشف :

– سمعت؟ أهم ؟! ولا خروف واحد بيسمع للتاني ، كلهم غنم بيزعطوا في وقت واحد ويمأمأوا بألف لسان وكأن ما لهُمش ودن واحدة. أهة ؟! زيهم زي (المناوية) الغنم الأبيض أوّل ما يتوارب باب الكلام .. قول يا رحمن يا رحيم لا حد يسد حلق ولا حد يمسك لسان ..

و لم أكن أسكت له إلى أن تأكد لي ذلك الشبه ، ورأيته وسمعته بأميَ عينيَّ وأذنيَّ في سن مبكرة ، فأصبحت أطلب منه كلما اجتمعنا في أي أرض أن يعزف لي مقطوعة (الغنم الأبيض).

عقب إعلان قرار الحكومة الملكية المصرية بإعادة النظر في قرار منع الموالد بسبب الحرب.. حفاظًا على الأمن العام ، عادت فسمحت بإقامتها بعد الحرب مع تنظيمها ومراقبتها مع تحميل العمد مسئولية الأمن فيها حسب تقديرهم لظروف كل قرية أو مدينة بها (ولي) من أولياء الله الصالحين .

انفجرت الغاغة في (ميت سلسيل) وفاض نهر الكلام مختلطًا فيه الزعيق بالهمس والخناق بالسخرية والسباب ليغرق المصاطب والقهاوي والساحات . يشارك فيه الكبار والصغار والنساء والأطفال، في علو البلد

وفي واطيها . رغم أن مولد (سيدي مجاهد) ظل لعشرات السنين مهمة خالصة لعيلة الشرفا ولأهل علو البلد إلا أنه بعد أن أصبح العمدة من واطي البلد منذ الإطاحة بعمدتها الوفدي حتى صاروا يدسون أنفهم في كل شيء ، ما بالك والإذن بإقامة المولد مرهون بموافقة وبرضاء العمدة بصفته حارس الأمن العام .

بدأ الأمر بخناقة لرب السما بين اثنين من علو البلد أمام دكان (محمد النحاس) الخياط والذي يقع بجوار قهوة (حسن مصطفى) في قلب ميت سلسيل . حين سمع (أبو كلام) وهو الاسم المستعار (لمحمد) شقيق (عبد الرحمن) (الكلين فارمر) إبنيْ عمي (عبد الحليم) ، حين سمع الواد الكبير (للشيخ) (محمد ابو نبراوي) الذي رجع من مصر دون أن يحصل على شهادة الأزهر . ويقال أنه قضى في السنة الأخيرة أربع سنوات كاملة .. والبعض يؤكد أنه قضى تلكم الأربع سنوات وما قبلها في السنة الأولى فقط .. ومع ذلك عندما رجع إلى البلد ظل محتفظًا في المناسبات والمواسم الدينية والدنيوية بلباسه الأزهري . ومن هنا احتفظ بلقب (الشيخ) . وإن كان من ينطقها يضفي عليها سخرية خفية واضحة .. المهم أن ابنه الكبير سمعه (أبو كلام) يزعق على الأسطى (محمد النحاس) في لهجة استعراضية مستفزة أن يستعد لتفصيل (جبة وقفطان) جديدين . لوالده استعدادًا لتنصيبه خليفة (لسيدي مجاهد) . فقد وصله خطاب رسمي من الأوقاف ليشرف على إقامة المولد في الشهر القادم .

فانتفض (أبو الكلام) كمن قرصته عقربة وشخر شخرة عريضة زاعقًا :

– وانت مالك ومال أبوك بسيدي مجاهد يا ابو دلْق !

– أبويا سافر يجيب لك القماش من (سمعان الصيدناوي) يا اسطى محمد عايزينها كده تكيد العزَال وتليق على الشيخ الخليفة .

– عزَال ؟ في عينيك يا ابو دلق .. الخليفة هو عمي (عبد الهادي) يا اهطل .

وتدخل الكل للنفخ في الشرارة التي تحولت إلى اشتباك ، بطح فيه كل منها الآخر .

الحقيقة أن (الشيخ محمد النبراوي) لم يكن يدري حين سال دم ابنه في الخناقة أي شيء عن الخلافة ، ولا عن ترشيحه لها ، و لم تصله عنها أية أخبار أو خطابات . لكن زوجته قريبة العمدة داعبتها الآمال أن تمد نفوذها ليشمل مقام وصندوق ندور(سيدي مجاهد) نكاية وانتقامًا من (زبيدة) مرة عمي لخلاف نسيت أسبابه فأرسلت ابنها بتلك الرسالة إلى (محمد النحاس) ، متعمدة أن تطرح الأمر على الرأي العام .. وأن تسبق الأحداث فكل الميزات التي يتطلبها منصب الخليفة يمتلكها زوجها .. فمن مثله درس في الأزهر ؟ كما أنه أيضًا من أحفاد (سيدي مجاهد) .. ويحمل كتاب الله وكان عضوًا في مجلس إدارة الجمعية مع (حسين بك عاشور) شخصيًّا . كما أنه يضع يده على مساحة من الأرض من ميراثه وميراث اخواته البنات ، تليق نصابًا شرعيًّا لعمدة وليس لمجرد خليفة يستبدل كل مولد .

نجحت زوجة (ابو نبراوي) في طرح الأمر على الملأ .. و لم يعترض الشيخ على ما حدث . غضبته الشديدة كانت لبطح ابنه وسخرية (محمد النحاس) الذي رد عليه معرضًا :

– يا ابني أنا ما بفصَّلش جبب وقفاطين . أنا ترزي افرنجي . تحب نزف ابوك في بيجامة لكرسي الخلافة .

كذلك كان غضبه للسخرية التي اتسم بها كلام ورأي كل من هب ودب في أمر الخلافة

– وامك ان شاء الله ح يعينوها أمين لصندوق المقام يا فالح..

– (النباروة) مالهم ومال (سيدي مجاهد) .. إيه ؟ بيحسبوه من غنائم الحرب ما كفاية عليه زيت الجمعية والمشيخة الكدابة !

– أما عجيبة والله .. طب و(عبد الهادي ابو عوض) اللي هالك نفسه في خدمة (سيدي مجاهد) هوَّ واولاده .. مش هوَّ اللي دق الطرمبة للميضة؟ كان فين (ابو نبراوي) لما وقع جدارها، وانفتح بطنها على صحن الجامع ؟ اشمعنى يعني لما رجع المولد شرعى .

وانتقل الأمر من مركز الحدث في وسط شارع السوق .. وانتشر من قهوة (حسن مصطفى) إلى قهوة (ابو راشد) وقهوة (حمزة) .. حتى غُرزة (منشاوي) ومن محل (محمد النحاس) إلى دكان (جاد ابو عبد النبي) ودكان (محمود وشطا) .. ومن مصطبة (الصحاصحة) لمصطبة (أبو سيد) ومن مندرة (النباروة) لمندرة (يوسف عبد ربه) ! لم يكن أحد يسمع لأحد . أو يتوقف لحظة ليفكر في حقيقة الأمر أو التأكد من صحته .. فلا أحد علم بأمر الخطاب الرسمي من الأوقاف الذي عرفت به زوجة الشيخ (محمد) قريبة العمدة . حتى العمدة نفسه لم يتكلم و لم يعلن لأحد أنه تلقى أية خطابات بهذا الخصوص .. فقد اعتبر الأمر سرًّا لا يجوز إعلانه لأنه باختصار ضد إعادة المولد .. وما يترتب عليه من وجع دماغ .. خاصة والإخوان المسلمين كانوا في البلد أقوياء ولهم جوالة تضم ما يقرب من أربعين جوال من الحرفيين والصنايعية والعاطلين يهزون شوارع البلد بأقدام عسكرية في المناسبات الدينية وبملابس شبه عسكرية .. يستعرضون قوتهم صباح كل جمعة أمام مبنى الجمعية الذي يطمع أن يحوله إلى مندرة

ومقر للعمودية . كما أنهم يعارضون الاحتفال بالأولياء، فهي بدعة وهو ليس من أهل البدع ورأيه أن الموالد ما هي إلا مفاسد .

احتدمت المناقشات والمناوشات و لم تتوقف . اتخذت طابعًا مختلفًا في كل مكان انفجرت فيه حسب طبيعة المتناقرين وأغراضهم .. لكن خالي (الخميسي) جاء يزورنا وبمجرد أن تلاقت عيوننا انفجرنا ضاحكين ووجدتني أطلب منه على الفور أن يعزف لنا سيمفونية (الغنم الأبيض) التي أصبحت أعشق سماعها .

صار أمر خلافة (سيدي مجاهد) الشغل الشاغل لأهل البلد ، وكان (سيدي مجاهد) نفسه قد غاب عن بالهم طوال فترة الحرب وحتى قبل قرار منع الموالد .. الناس كان همها تقيل إذ ارتفعت أسعار كل شيء ، وشح القرش حتى في أيدي الموسرين . وصار الحصول على كوبونات الجاز أهم من زيارة المقام .. وأفلس صندوق النذور ، لم يكن يهتم بالمقام ونظافته إلاَّ عم (عبد الهادي) وزوجته ، وانقطعت الرِّجل عن زيارتة وفعل الزمن أفاعيله في إزالة الرهبة والاحترام عنه . تجرأ الأولاد والبنات على مقامه فصار مرتعًا للعبهم ولهوهم ، واتخذوا من السبيل عشًّا للعبة العروسة والعريس . مطمئنين إلى وجود الخرابة حائلاً بين عيون عيلة (عبد الهادي) وبينهم إذ في ارتفاعها واتساعها ما يعطيهم الفرصة للكف عن لعبهم وعبثهم حين يلوح أحدهم أو يظهر خيال زوجته قادمة لكنس ورشّ المقام بين الحين والآخر..

وظلت غاغة الخلاف حول الخلافة تحوم في سماء (ميت سلسيل) مثل مأمأة الغنم الأبيض ، تغطي حتى على أخبار إقالة حكومة الوفد بأمر من الملك وما صاحب ذلك من زيادة قوة (الإخوان المسلمين) الذين

قيل إن الملك يعتمد عليهم في تنصيبه خليفة للإسلام من بر مصر .. لكن الأمر انتهى بعد ما استنفد قوة الجميع واستهلك غرامهم بالنقار والشجار حتى في صحن الجامع بعد كل صلاة إلى أن تصالح العقلاء والحكماء من الوفديين المنكسرين بخروجهم من الوزارة والسعديين الصاعد نجمهم بتولي زعيمهم الحكم برعاية ملكية . وخاصة بعد أن اتضح أن زوجة (محمد ابو نبراوي) كانت وراء إثارة الفتنة وأن (محمد ابو نبراوي) لم يطمح إلى الخلافة إلا لبضع لحظات ، قبل أن يكتشف إفلاس صندوق النذور وأن (عبد الهادي) كان يصرف على المقام من قوت عياله ..

ولأن العمدة أخفى رأيه في عدم إقامة الموالد ، لأنها مفسدة مراعاة لفرحة عارمة أظهرها أهل البلد فجاراها ، وفكر في أن إعادة المولد قد تقربه منهم . وتبقى ضربة لنفوذ (الإخوان) الذين أضفوا مزاجًا قاتمًا على ليالي البلد طوال فترة الحرب باستهجانهم الدائم لإقامة الأفراح واعتراضهم على ليالي السهر البريء حول ربابة (عطا الشاعر) لأن في خرافاته ما يفتن المسلمين عن دينهم.!!

• • •

يحيي العظام . .

○ بعد اتفاق أعيان البلد على موعد مولد سيدي مجاهد وأن يكون الخليفة هو (عبد الهادي أبو عوض) استمرارًا للوضع الطبيعي عاد المقام لمركز الاهتمام . وانهمك كثير من طالبي الثواب – نسوان ورجالة – في ترميم وتجديد وتنظيف المقام والمسجد . والساحة الممتدة حتى حضن خرابة (أبو خشبة) و(قمينة الجير) القائمة ما بين الترعة والسور المحيط بالجنينة مهدت وكنست ورشت وأرسل (أحمد القصبي) جرَّاره – الذي كان أعجوبة – ليسوي المساحة أمام المقام ولدك جوانب (أبو خشبة) نفسه حتى لا ينهار ترابه (الكفري) على الزوار . وكرّس (حماده المصري) صفيحتيه وتفرغ متطوعًا متبرعًا – لرش الماء بعد الكنس والتسوية .. بينما راح (عم ظاظا) الكبير بحماره الشهير العجوز

وعربيتيه ذاتي البرميلين واللتين كتب عليه أن يجرهما حتى الممات – يروح ويجيء بين البحر والمقام يساعده (حنيدق) و(العيداروس) في رش الماء لإجبار تراب الخرابة الناعم المكون من رفات الجثث وبقايا القبور على الاستكانة وعصيان الريح مشاركة في مجاملة وليّهم الراحل الصالح .

ثلاثة بنائين عظام تحت قيادة (عبد الباقي البيومي) تولوا ترميم الجدران وإعادة صياغة المصطبة والمسجد والمقام بعد أن خربهم وهدهم الإهمال والرطوبة وشقاوة العيال طوال سنوات الحرب التي اختفى وتوارى فيها (سيدي مجاهد) نفسه وانقطع فيها ندره وقلَّت مكانته ليعود اليوم ليكون دافعًا لتقديم اعتذارهم إصرارًا أن يرجع بهيًّا كما كان قبل الحرب. يبرق بياضه ويشع نور الهداية حوله ، ليغيظ أهل الكفر والعزب كلهم .

كنا نحن (العيال) طوال الحرب قد استخدمنا طوب المقام المتساقط في كافة الأغراض لخدمة ألعابنا القروية .. (خشب) للأجوان .. وزوايا لتحديد المساحات لملعب (الكرة الشراب) .. (أمّه) (وخموجة) للكرة والمضرب و(قذائف وصدر) للعبة (ركبتوا خيولها) وكم نزعنا شقف بياضه لتكون بعد رصِّها فوق بعضها (برجًا) نحاول إسقاطه بالكرة في لعبة (أول سنو وضربونا يا أمونا) أو (يا ضمنضاح) أو لتحديد خطوط لعبة (الأولى) و(ركبة ونص) وجعلنا من سبيله الخرب مهربًا للاختفاء في (الاستغماية) .. وحوائطه الملساء سبورة لا حدود لها لكتابة وحل مسائل الحساب أو تحسين الخطوط .. جردته الحرب على أيدينا من قدسية اكتسبها من اهتمام البلد السابق به طلبًا للخير الذي كان يعم في مولده .. فلما توقف المولد صار ضحية لنا . ولذا رحنا نكفر نحن أيضًا عن ذنوبنا

حياله . فشمرنا جلاليبنا عن سيقان (البوص) المعصعصة وأرجل (المعيز) المخربشة المسلوخة والأقدام المشوهة الملطخة بالأوساخ والغبار المطين واضعين ذيولنا في أسناننا . أنا طبعًا رحت أقلدهم فشمرت رجلي بنطلون بيجامتي رغم معرفتي بما ينتظرني من عقاب صارم يومي ، لكن (علقه تفوت ولا حد يموت) باحثًا لنفسي عن دور في تلك الهوجة المرحة .. نساعد هنا قليلاً أو نعطل هناك كثيرًا ، ونتعرض للضرب والتقريع دائمًا .

رغم نوايانا الحسنة .. يهشوننا مثل الذباب الرخم الذي يصر على الالتصاق والحضور الرزل. وفي الوقت نفسه ، كانوا بأنفسهم يبحثون عنا بل يطلبوننا ، حين يحتاجون لمن يأمرونه بشيء تافه .. ثم لا يلبثوا أن يطردونا ويحرمونا حتى من الفرجة على ما يجري عندما يستغنون عنا ، فيما عدا المعلم الأسطى (عبد الباقي البيومي) ذو الوجه الأسمر الشرح والعود الفارع والملامح الضاحكة الباشة التي ترحب بالجميع . فكان يجد لكل منا في كل وقت مهمة ما تشغله أو عملاً يثبت به أنه مهم ، وليس زائدًا عن الحاجة طالبًا ما يريد في مرح وبشاشة :

– ناولني الطوبة دي يا راجل يا عجوز .

تقيلة عليك ؟ . لا .. لا أمال المرجلة راحت فين ؟

– هات شوية ميه في الكوز ده يا معلم ..

– رش حبة ع الجبس ده قبل ما يبرد . وشوف أخبار الجير إيه ؟

– هِمّ شوية يا بطل . دول طوبتين ، يعني لو فرختين محمرين مش كنت قرقشتهم .. هم .. هم – خد بالك من الجير ليسْلق رجلك ..

– هات يا راجل عيب تنهج كده .. دي خُفّ الريشة ..

نضحك ونتستجيب لكل ما يطلب ونحن سعداء .. مقتنعين أن الواحد منا سيلبي ما يريده ولو طلب لبن العصفور ..

– بس يأشر ..

كان يبهرنا بشخصيته وعمله .. و كان من قبل يدهشنا أكثر بقدرته على النشان بالنِّبلة يصيد بها العصافير واليمام .. بل والزرزور والقنبر – الذي لا يسمح لأحد باى فرصة للتصويب عليه – في حينها تأكدت أن المهارة والطيبة وحسن العشرة قد يجتمعون معًا في شخص ويمكن أن تفتح القلوب البرية وتأسرها وهي تبني وتصنع الجمال .

(السبيل) الذي كان خرابة .. ودمرت أزياره الأربعة وتحولت إلى حفر للاختباء أو لقضاء الحاجة .. وباشت جدرانه وأغطيته وكشف الزمن حجارته المملحة وكشط بياض قبته فصارت قرعاء كئيبة تسكنها العناكب والسحالي ، عاد فأصبح كالعروس .. وصنعت أربع أغطية تحفة خشبية لأزياره الأربعة الجديدة .. وأعيد طلاء القبة ونُقشت بخطوط مربعة متداخلة لفَّت حوله في دوائر مزخرفة وبنية ، أبرزت أكثر لونه الأصفر الجديد وكتب (إبراهيم فرج) بحروف الخط الكوفي الذي يتقنه آية قرآنية ترحب بالقادمين إليه "وسقاهم ربهم شرابًا طهورًا" صدق الله العظيم ..

وقامت (لواحظ) بتنظيف الأزيار الجديدة وشطفها وطلبت من (حمادة) أن يملأها ماء نظيفًا . و(حماده) دائمًا ما يطيع أمر الحسناوات والعذارى الجميلات اللائي يخطفن قلبه الخفيف منذ أجبر على تطليق المرأة الوحيدة التي أحبها فسمح بعدها لكل البنات بامتلاكه .. واستعباده لحين يتزوجن – من غيرْه طبعًا – وكن كلهن في مرح يداعبنه ويتعمدن استغلال ضعفه للجمال .

وبعد ملء الأزيار تولت ترويق الماء بالشبه ونقي المشمش ليصبح رائقا سلسبيلا . أعيد دهان أعمدة المقام وجدرانه وجليت حلياته النحاسية

ومصابيحه .. وكسي بقماش خاص .. جاءوا به خصيصا من (طنطا) . باركه (السيد البدوي) بنفسه كما يؤكد في ثقة عم الشيخ (شطا) وهو يقسم بالشيخ وبكل اهل الله .. وفرش المقام داير ما يدور بسجادة عجمي صنع يد قيل أن الشيخ (على أبو حسن) أحضرها بنفسه من أرض الحجاز..

وعرف صندوق الندور من جديد خشخشة القروش والبرايز الفضة والملاليم .

رمم سطح المقام والمسجد وكنست أوراق الشجر الذي أسقطتها الريح خلال سنوات الحرب ، كما جمعت كور التيل والكور الشراب التي فقدناها ، أعيدت إلينا وسط فرحة غامرة مكافأة لمن عمل منا بجد فأصبح لكل منا كرة أو أكثر حسب شطارتنا في تنظيف المكان .. وإن كان علينا – لقاء ذلك – أن نشارك أيضًا في نزح الكنيف والترنش .. وترميم الميضة ، مش مهم !!

قالت (خلت حضرة) وهي تزغرد أن (سيدي مجاهد) بقى أحلا من عروس نهار جلوتها.. وأثارت زغرودتها المميزة شهية النساء العابرات لمجاراتها في الزغردة فرحًا بما حدث (للشيخ) الذي سيعيد البركة للبلد بعد طول حرمان . وطمأنت المنهمكات في العمل على نصيبهن من الثواب المؤكد الذي هو جزاء كل من أحسن عملاً .. واختلطت تعليقاتهن الفرحة – وأيضًا شتائمهن المرحة التي يتبادلنها فيما بينهن أو مع المعلم الأسطى (عبد الباقي) وفيلق العمل الذي يصاحبه من الشباب .. وخلقت روحًا من الرضا حرضتنا أن نهيص ونصيح في الغدوّ والرواح كأسراب الإوز المرحة الملهوفة لماء الترعه هربا من ذباب وفاش الزرائب والأحواش .. وكآبة وتحكم النساء الكسالى في البيوت .

وحتى عندما كانوا يطردوننا لم نعد نغضب منهم بل نروح نطارد (حمادة المصري) ونحايله ونرجوه أن يقلد لنا طائرات صديقه وحليفه (هلتر) الذي ينتظره حين يظهر صاعدًا في الوقت المناسب من مخبئه السري .. ليهزم الإنجليز ويعيدهم لعقر ديارهم بعد أن يكسر أنوفهم . ويهاودنا (حمادة) ، فيقف وقفته العسكرية الجادة ثم يضم شفتيه بطريقة خاصة ويبدأ النفخ في الصفيحة بقوَّة محدثًا صوتًا وأزيزًا يصاحبهما بفرقعات وقرقعات وطرقعات فتحيط بنا وبالمكان أسراب من طائرات حقيقية تلقي حمولة قنابلها على رؤوسنا .. نحسها ونشعر بها، إلى أن يبدأ في تجسيد دوي المدافع المضادة .. فيترعب الواد (يونس) العبيط وينهار صارخا باكيا مستنجدًا بأمه التي ماتت بالصدفة في (بورسعيد) أثناء غارة وكانت تبيع هناك البيض الذي تجمعه من القرية . ومع ذلك يجعلنا رعبه نموت من الضحك عليه .. وخاصة حين يفلسع صارخًا وهو يقفز آخذًا ذيله في أسنانه كاشفًا عن مؤخرته الحمراء كطيظ القرد .. صائحًا :

– غارة يا امَّه .. غاره يا امَّه .. اقفلي باب الزريبة !

(هرتل) جاي يا امَّه (هرتل) جاي ..

• • •

كلٍ في فلكِ . .

○ قبل أسبوع المولد والذي سينتهي بالزفة والليلة الكبيرة أو الأخيرة ، بدأت الفرق من جماعات المريدين وأهل الطريقة والتجار وأصحاب الألعاب المختلفة يأتون من كل فج عميق . أجرت لهم مساحات الأرض كل حسب ما يتوقع أن يكسبه ، ونصبت خيام ملونة وأخرى جربانة باهتة في حضن (أبو خشبة) .. ودقت أعمدة طويلة وأخرى قصيرة من الخشب نشرت فوقها (شقق) من القماش المزخرف بمختلف أشكاله وألوانه .. وخصصت أماكن كافيه بجوار الحوائط القريبة ، مأوى للزّوار من مريدي الشيخ وأهل الله وأتباع الطرق الذين سيقيمون حتى انفضاض المولد في

ضيافة (سيدي مجاهد) والذين يتبعون الموالد من مكان لمكان ، وأعدت أرض الصيوان الكبير شرق الجامع في المساحة التي سيكون فيها حلقة الذكر الأساسية .. وتركت المساحة التي في الغرب والحقل المجاور خالية وبرحة ومستعدة لتقام فيها المراجيح وأماكن التسلية الأخرى من مقاهي وملاهي وسوق ..

وجاءت طلائع الجماعات من أصحاب الطرق والعهد يدورون في القرية بالدفوف والطبول.. يمدحون الرسول و(سيدي مجاهد) ويطلبون القبول قبل المثول إلى رحاب المقام والحصول على بركة المكان .. وفعل مثلهم كثيرون من أهل اللهو والطرب فدار الأراجوز في الحواري يعلن عن نفسه . ووصل قرداتي بقرد ومعزة .. وفرقة من المغنين بالدفوف .. وتناقل الناس في سعادة أخبار المشايخ والشيخات الذين واللاتي سيحضرون لإحياء الليالي والجهاد في حب (سيدي مجاهد) وكل أولياء الله الصالحين وتحققت نظرية (على أبو عابدين) أنه كلما أسرعت البلد في إقامة المولد ستكون الفائدة أكبر . وسينافس (السيد البدوي) لأن الناس شرقانة للفرح بعد الحرب .

وقبيل أسبوع المولد بدأ أناس من بلاد كثيرة يتوافدون ، وحدثت معركة ضارية بين مجموعة من شباب ورجال عزبة (النصاصرة) الذين تعودوا التجرأ على إفساد الأفراح في (ميت سلسيل) باعتبارها أهلها (غنم أبيض) لكن عددًا من شباب البلد بقيادة (محمد أبو ذكي) تصدوا لهم وأجبروهم على الفرار . وقال (يوسف عبد ربه) .. كويس ده درس للإخوان ما يعملوهاش . وأقيم السوق في موعده وكان سوقًا كبيرًا لم ينعقد مثله من قبل ، استبشر بنتائجة أهل البلد . وتوقع الجميع أن تكون

أيام المولد في مثل روعة السوق ، وأن يعود على البلد خير كثير ، وأن يقبل زوار أكثر .

وطبعًا أجرت الأرض لحساب صندوق النذور وتسامح (عبد الهادي) كثيرًا في الإيجارات. كان يريد أن يبدأ خلافته بجذب أكبر عدد ممكن من أهل البلاد المجاورة إلى جانب الرواد والمريدين الطبيعيين للموالد . ففي هذا نجاح حقيقي ودخل أكبر ، ليكون الصرف على الرواد وأهل الله أكبر .ويبقى فائض للصرف على المسجد والمقام فالنذور التى انقطعت لا يمكن التنبؤ بقيمتها أو حتى بعودتها والناس خارجة من قفا الحرب .

لم يتوقف الإخوان المسلمون عن تنغيص الفرحة على أهل البلد الذين سالت دماء الذبائح في أحواشهم ، وفاحت رائحة اللحم عبر سماء القرية من بيوت المتصدقين منهم ، وجرت الملاليم والقروش في أيديهم –فكانوا يقصدون الزوار من مريدي الولي الصالح ويدورون عليهم ويخطبون فيهم مهددين بعقاب الله وانتقامه بسبب ارتكاب الذنوب التي أخفها اختلاط الرجال بالنساء وعدم احترام حرمانية الأموات .. لكن الكلام لم يأت بنتيجة إذ تصدى لهم بالتعليقات الساخرة خفاف الظل ذوو الألسنة الأطول ، فلجأوا الى التسلل ليلاً لهدم الخيام على رؤوس من فيها .. وكاد الأمر في كثير من الأحوال أن يتطور إلى اشتباكات في أماكن عديدة ، مما جعل العمدة يهدد بإلغاء المولد . وجعل هذا معظم أهل البلد وخاصة عائلات الشرفا والمجاهدية وأقاربهما يتصدون لهذا . وتناوب شبابهم حراسة الساحة طول الليل ورنُّوا بعض قادة (الإخوان) علقة جعلتهم يتراجعون . وعمل (الخليفة) القادم وخادم المقام على إعداد الحوش الكبير المحيط بالمقام وتجهيزه ليكون مسجدًا يعمره المؤمنون . أقيمت حلقات دروس دينية بين الصلوات كما نشطت به حلقة ذكر جذبت الكثيرين .

وكلّف البعض أنفسهم لتنظيم الأمور والحراسة ليلاً ونهارًا . فخفَّت حدة التوتر وخاصة وقد رأى بعض الإخوان أن مقاطعتهم للمولد ستعزلهم عن الناس فاندمجوا في الأنشطة خاصة التجارية منها ، وجذبهم هذا إلى كثير من الممارسات الأخرى ، لم تعفهم من التعرض لألسنة الساخرين الحادة .

الحجرة القائمة خلف المقام نقلت إليها زوجة عمي (عبد الهادي) أربع بوابير جاز كبيرة وصفائح جاز وعشرات من أقماع السكر تبرع بها الكثيرون . وظهرت فيها أربع حلل كبار تتسع الواحدة لخروف كامل .

– دي قازانات يا اهبل مش حلل . لغلي اللبن وطبعًا لطبخ اللحم للضيوف–ولنا.

هكذا شرحت(عواطف) ونحن ندخل على زوجة عمي لنشرب اللبن بركة (سيدي مجاهد) و لم يمنع هذا أن تطردنا شر طردة عندما ضبطت (الواد بكر) سارقًا قمع سكر بحاله ، محاولاً الخروج به تحت جلابيته ففضحه . منظره المثير متضخمًا تحت بطنه مما كشفه وأثار غضب النسوة، فصفعته (زبيدة) زوجة الخليفة المنتظر وهي تصرخ مستنجدة بالرجال.. ولولا أنه أحس بالذنب لأن هذا سكر (سيدي مجاهد) كان رد عليها بقسوة وأمطرها بالحجارة والأوساخ فهو ولد قليل الأدب جدًّا .. لكننا طيبنا خاطره ولمناه .

– أنا لا كنت عايز سكر ولا زفت ، لكن عندهم كتير.. منظر الأقماع مرصوصة ومالية الأودة يهبل .. قلت ناخد واحد نبيعه (لحسني النملة) بكام قرش نتمرجح بيهم والاَّ ناكل دندرمة.. كان ح يجرى إيه ؟

ردت عليه (أوطان) :

– يا واد يا اهبل ده سكر حرام ده كله ندر وصدقة . حرام .

تحسس هو مكان اللطمة التي صفعته إياها (زبيدة) مرات (عبد الهادي).. وهي تدعو عليه :

– يخص عليك ! إلهي يفضحك يا بعيد . وشايله بين رجليك كده ليه يا مفضوح يا ابن (عتقية).. جاتك نيلة على أمك القحبة .

غرغرت عينه بالدموع لأنها سبت أمه:

– لكن تشتم أمي ليه ؟ والله لأخرشم ابنها العلق على الشتمة دي .

لكنه نسي غضبه بمجرد أن نادى عليه الأسطى (عبد الباقي) وأعطاه كبشة فول سوداني و يطلب منا أن ننضف ونروق المصطبة التي كان قد انتهي من تبليطها.

وأخذتنا موجة الحماس أولاد وبنات . واختلط ضجيجنا ونحن نتخاطف حبات الفول السوداني .. بأصوات دق الخشب ونداءات النساء والرجال وأزيز طائرات (حمادة المصري) وزغاريد كل من تشاهد المنظر – المفرح فعلاً – من النساء العابرات إلى الترعة.. كل ذلك مختلطًا بنهيق الحمير ونعيق البقر والجواميس العائدة من الحقول .. مع ضجة تريقة (الصديق بن عبد الله) .. في ضجة (مأمأة) أخرى ضاحكة فرحة هذه المرة تملأ الساحة التي ظلت مهجورة صامتة لا تقل عن وحشة خرابة (أبو خشبة) كلها مع انحسار مكانة (سيدي مجاهد) لسنين طويلة طوال الحرب وبأمر الحكومة .

لكن ها هي ضجة المريدين والبسطاء تعود للساحة مرة أخرى .. بالفرح والبهجة مع احتضان ضيوف الولي الذي بدأ يستعيد مكانته في قلوب البلد أهل (ميت سلسيل) .

واستعدادًا ليوم الزفة التي ستصاحب في ختام المولد موكب الخليفة الذي لم يعد هناك اختلاف على (تتويجه)خليفة (لسيدي مجاهد) .. عمي (عبد الهادي) ولا أحد غيره ، خادم المقام الذي عقد له العهد هذا العام.

ليلتها لم ينم أحد في (ميت سلسيل) .. لا الزوار ولا أهل البلد حتى

الأطفال والعواجيز ظلوا سهرانين على السطوح وعلى المصاطب طول الليل.. الشوارع كانت بتشغي قدام القهاوي والدكاكين والكلوبات حول (سيدي مجاهد) وفي الساحة وعلى السكة الزراعية والمحطة قلبت الليل نهار.. وأمام دكان (محمد شطا) لمحني أبي وسط العيال الذين لم يكن يطيق علاقتي بهم ويعاقبني بسببها (لأنني صايع ولا أتلم إلا على الخايبنين) الذين ليسوا من مقام تلميذ ابتدائي متفوق مثلي ، لكنه يا للعجب لم ينهرني و لم يأمرني بالعودة للبيت وكنت أحاول التخفي لكنه لمحني كالصقر واكتفى بنظرة مستنكرة فقط . يا بركة كلام أمي (أنها ليلة مفترجة تنام فيها عفاريت الغضب والشياطين) ولابد أنها أوصته بذلك إكرامًا (لسيدي مجاهد)..

أمام شادر (أبو سيد) رُصَّت عدة دكك وانتشر الشباب على عيدان الخشب الفلاري والسويدي يثرثرون ويعلقون في سخرية على كل من يعبر أمامهم .

وأمام بيت عمي (عبد الهادي) ذُبحت بقرة . وُزِّع لحمها على بيوت كثيرة عُهد إليها بتجهيز صواني الغداء والعشاء للجميع غدًا .. (محمد أبو نبراوي) نفسه ذبح خروفًا ليظهر أنه لم يعد في نفسه شيء من ناحية منصب الخليفة .

تجمعت النسوة أمام البيوت يثرثرن . وفاحت روائح اللحم من بيوت كثيرة تبشر بغد عامر بالهبر اللذيذ. لم نتعب من الجري واللف و لم يتعب (حسن العربي) من وضع خطط لخطف اللحم . رغم أن أحدًا لم يبخل علينا به لكنه كان يؤمن أن اللحم المخطوف ألذ كثيرًا . ولما تعبنا من اللف تجمعنا على مصطبة (السيد مطاوع) (الموزايكو) الناعمة الباردة لدرجة تغرينا بلصق خدودنا بأديمها البارد الرطيب الذي يبخ طراوته في الجلد. بعضنا نام من التعب وبعضنا ظل يقاوم النوم دون جدوى.. وقرب الفجر

ومع أول تكبيرة أسرعنا وأيقظنا من ظل غارقًا في النوم . وأسرعنا إلى ميضة (سيدي مجاهد) نغسل وجوهنا ورؤوسنا بالماء المْعين البارد المالح. وتطوع بعضنا لمساعدة (سيد أبو نعمة) في إدارة الطلمبة لتعويض الماء الذي استهلكناه . و لم يسمح للخزان أن يخلو من مائه أبدًا ..

وكانت كل الأدشاش شغالة ومشغولة وكأن العالم كله كان يستحم.

– مما أضحك (السيد أبو نعمة) وهو يصرخ في المستحمين:

– إيه يا بلد!.. إيه يا جدعان ؟ كل الناس سهرانة للصبح ؟ وكل دول بيستحموا ؟ إزاي ومنين؟ أمال لو كنتوا اتخمدتوا في حضن نسوانكم من المغرب زي العادة كنتوا عملتوا إيه؟ البلد شرقانة يا جدعان ، الله يرحمك يا (هتلر)!

جاوبه (محمد الازرق) :

– وانت يا (أبو نعمة) قادر تدور الطرمبة زي الطور؟ ما انا شايفك بعيني دي أول واحد استحمى الليلة.. بربش (أبو نعمة) بعينيه المظلمتين .

– إلهي تنطس في نظرك.. يا نجس . أنا استحميت تحسبًا من نجاستك لما شفتك راكب ع البقرة مراتك فوق السطح منك للسما يا ازرق الكلب. خيبك الله دا انت ازرق القلب كمان.. طب استتروا في ليلة فضيلة زي دي .

صاح بهم الشيخ (مسعد) غاضبًا :

– ما تصلوا يا جماعة على النبي وبلاش لغو. وتعجلوا شوية .. الفجر لاح . والوقت أزف!

• • •

من كل فجٍ . .

○ تجمعت عربات الكارو في الساحة فيما بين (أبو خشبة) ومقام (سيدي مجاهد) وعادت ضجة الزعيق والنهيق والصهيل تملأ الفضاء منافسة الغبار الكفرى الذي تثيره الحوافر والأقدام، وأجبرت الضجة الجمال المشاركة في (المأمأة) بإخراج قللها والبقَلْلَة في عصبية . وتجمعنا نتفرج على ما يحدث في انبهار . فلم يسبق أبدًا أن رأى معظمنا قلَّة الجمل التي لا يخرجها إلاَّ في حالات غضبه النادرة .. كانت تبقبق وتبقلل ناثرة زبدًا أبيض كثيفًا مخيفًا ومقرفًا ..

قال (حسن العربي) :

– الجمال خايفة .

– أنا لا أصدق أن الجمال يمكن أن تخاف ..

ومع أننا كنا نتفرج من بعيد ودون مشاكل كان يحلو لكل الكبار طردنا دون داعي . ليه؟ مع أن معظمنا كان يسرع للمساعدة ، فهذا يناول أحدهم حبلاً وقع منه أو يعيد لآخر بعض أدوات نثرت على الأرض من على عربة حرن حصانها أو هاج وانفلت . كنا إن لم تنل منا عصيهم نالنا طول لسانهم أو زعطهم وزعيقهم فينا . قالت البنت (وطـنية) بنت (أبو بيومي) :

– دول ناقص يلكشونا زي لكش الحجوش ..

ولكننا لم نكن نبتعد ولا ننطرد .

– ساعدنا (العوضي) مبيّض النحاس على تجهيز عربته . ناولناه كبريتًا ليشعل نار الكانون تحت الحلل وملأنا له الجردل من ميضة (سيدي مجاهد)..

وسألنا عن رأينا فيه وفي منظره وهو يجرب وقوفه في الحلة المصدّية يترقص يمينًا وشمالاً محركًا مؤخرته في إيقاع منغم مثيرًا للضحكات . ولما علق بعضنا على ذلك تعليقات بذيئة ساخرة ، رشنا بالماء الذي لوثته قدماه القذرتان..

(محمد النحاس) أجلس أحد صبيانه ليحتل مع ماكينة الخياطة ضهر عربة أخرى بينما أعد لنفسه عليها ترابيزة عليها قطع من القماش مقطعة . وأخذ يتظاهر مجربًا أخذ المقاسات وبالقص . ولما أخذ يتلفت ويشير لمن حوله أسرع (حسن العربي) :

– عايز حد يعمل زبون تقيس عليه ..

فضحك (محمد النحاس) وقال له :

– ناصح يا وله .. تعالى انت اركب معانا .

لكن (حسن) مصمص بشفتيه رافضًا وقال :

– أنا مش فاضي أنا ح اتفرج .. لكن اطلع يا واد يا (يونس) يا اهبل .. ياللا ح تركب وما تخافش ما فيش قنابل ولا رصاص النهارده.

ولما تردد (يونس) حمله بالقوة ورفعه فوق العربة .. والواد (يونس)

أول ما خد حباية كرملة من الأسطى (محمد) استحلى الموضوع .

(عوضين) المنجد أخذ يجرب العصا في كومة القطن . ولما اطمأن على بقية أدواته ، جلس يتفرج على الناس التي تتفرج عليه..

(أبو سلامة) وجذع كبير من الخشب مع المناشير والشواكيش والقواديم في أيدي عياله.. ووضع أصغرهم قلمًا وراء أذنه ولا أجدع المعلمين . وأخذ ينظر إلينا متباهيًا ، الواد (عبد السلام) نأحه شقة بطيخ لم يكن قد انتهى من نحتها جعله يبكي صارخًا وشخط فيه أبوه وصفعه دون أن يسأله عن سر بكائه ..

كان الضجيج شديدًا . والكل يزعق محاولاً تنظيم غيره .. الكل يصارع ليفوز بمكان متقدم قبل غيره ويزعق أعلى من غيره . الكل يحاول إسكات غيره. الكل يحاول أن يتميز عن غيره ولا أحد أبدًا يسمع لغيره. وأضحكني هذا وافتقدت خالي (الخميسي) وتمنيت أن يكون موجودًا ليعزف لنا على شرف الغنم الأبيض مقطوعة (المأمأة) مضيفًا إليها الصهيل والبقللة.

فلم تكن الحمير ولا الجمال ولا الأحصنة أقل تنافسًا ولا أقل ضجيجًا من البشر فلم تكن مثلهم راضية ولا ساكنة ..

حمار (ابن همام) عض حمارة الولد (محفوظ) السماك ، فاشبكت معه في عنف بينما رفع أحد أحصنة (البرايعة) قائمتيه الأماميتين مبعثرًا ما على عريش العربة التي يجرها وكان عليها (زيدان هنومة) بتاع الطعمية الوحيد في (ميت سلسيل) فدلق الزيت على العجينة وقذف بها إلى التراب . وغضب (زيدان) وكان قليطًا يرى أن اشتراكه لا يليق بقنزحته وكبريائه . كان لا يشتغل إلا ساعتين كل صباح ليجلس بقية اليوم في جلبابه الأبيض يدخن الشيشة في غاية القيافة . و لم ينضم إلى الزفة إلا بعد محايلة كبيرة ..

ولذا احتج وصفع الولد المسئول عن الحصان الهائج وحلف ألا يشارك (في لعب العيال ده!) بينما زعق الولد المصفوع مستنجدًا بأفراد قبيلة (البرايعة) للانتقام له..

وكاد (البرايعة) يفتكون (بزيدان) وأن يمرمطوا بكرامته الأرض ، لولا حال بينهم وبينه أهل الخير الحريصين على كيان الموكب . و لم يمنعهم من الانسحاب من المشاركة في الزفة هم وأحصنتهم وعرباتهم إلا طرد (زيدان) وحرمانه من المشاركة ..

والحقيقة أنه انسحب بإرادته في قلاطة ، رغم ما شيعه به (البرايعة) ونسايبهم (القواسم) من سباب وشتائم .. وبعد استرضاء البرايعة ونسايبهم عاد الهدوء النسبي إلى ساحة الانطلاق.

على عربة أخرى كان (سلمان الحداد) وابنه مع كور وسندان ضخم وطفل مصبوغ وجهه بالسناج وكأنما من قِلَّة الغسيل جالسًا على قرافيصه، وأمامه حجر أبيض أسطواني وعدة شقارف (مناجل) وشراشر أخذ يمارس سنها بالسميك والسندان.. ورغم أن الموكب لم يبدأ بعد فقد انهمك بكل جدية في عمله وكأنه أمام دكان الحدادة .

و لم تجذب نظره أو تشغله عن عمله العربة المبرقشة والمزينة بشرائط كريشة ملونة والتي توسط العريش عليها المعلم (حسن أبو مصطفى) نفسه مجعوصًا على كرسي فراشة ، مرتديًا ملابسه (الأبيض في الأبيض) يدور حوله بمبخرة صبيه الحِرِك في بدلة جرسونات حقيقية استأجرها له من مخزن (العدلاية) في المنصورة وهو يلوح حوله بالمبخرة تنفث دخان بخورها . بينما يقدم له باليد الأخرى الشيشة الفاخرة التي لا يستعملها غيره.. ساعتها صاحت (فهيمة أم جبر):

– جتك نيلة على أمك ، لو كانت شافتك في الأملة دي ما كانتش ماتت م الجوع.

و لم نعرف هل كانت تقصد المعلم أم جرسونه .. لكن زفارة لسانها أضحكتنا خاصة عندما رشَّها الولد الجرسون المتفرنج بكبشة جمر نار جعلتها تصرخ وتجري بعيدًا . فضحك الناس لمنظرها إلاَّ (حسن العربي) باعتبارها قريبته ، فتناول طوبة من طين هش وسفخ بها الواد في دماغه فلغمط له وجهه ، ولطخ جاكيتة الجرسون المسرحية .

على عربة أخرى كان (عبده) الكونترجي الأخرس في عالم آخر.. منهمك في ترتيب قوالب الأحذية وتثبيت السندان والعدة ، بينما صبيه منهمك بجدية أكثر في تشميع الفتلة.

على عربة أخرى يقودها حصان أسود غطيس وكأنه الأدهم جلس (عطا الشاعر) مهيبًا متربعًا على دكة خشبية مبطنة، وحوله بطانته بالأرغول والمزمار والرق.. وقد ارتدى جميعهم ملابس جديدة لنج.. وتجمع حوله عدة أطفال وبنات من حارة الصياغ بينهم (مايسة) والواد (فؤاد) ليردو وراءه حين يصهلل بجد.

وفوق أحد الجمال ربط (السيد أبو نعمة) بسلب وحبال غليظة وهو يمسك بجرنان الأهرام مقلوبًا استعدادًا لقراءة الأنباء من إذاعة (الشرق الأدنى) بينما زميل عمره (محمد أبو صبح) يردد (هنا القاهرة) ويبدي تحفزًا للدخول مع زميله وحبيبه وتوأم روحه في الحمق والهزر وشريكه في مهمة المسحراتي في قافية ومباراة لتبادل النكت والسخرية كل من الآخر ، ومن كل المشاركين والمتفرجين أيضًا.

الجملان الآخران زين أحدهما بشرائط وزهور وأغصان صفصاف وجريد نخل أخضر، أما الآخر فكان عليه صندوق كبير أسود منقوش عليه زخارف كزخارف الكعبة وبما تتزين به الكسوة الشريفة .

في الجانب الآخر كانت عربات أخرى . فوق بعضها جامعات قطن وعمال تراحيل بفؤوسهم وكواريكهم وعلى واحدة أخرى كان (توفيق) ابن عمتي (فرحة) يجلس في عظمة وقد باعد بين ساقية وأخذ في

حضنه طنبورًا حقيقيًّا كأنه يروي حقلاً متخيلاً.. لكن الناس فطست من الضحك عندما فاجأته المهرة التي تجر العربة بإغراقه في نافورة من بولها، فقال أحدهم:

– ياللا يا عم أهي جابت ميه ، الله يبارك لك السنة دي .

• • •

لنرينَهم . .

○ فجأة .. دق الطبل مارشًا عسكريًّا زاعقًا من بعيد ، فالتفتت الوجوه في دهشة واشرأبت الأعناق وتطعلت العيون في استغراب وسكتت الألسنة وطار السؤال المستطلع فوق الرؤوس الصامتة. جرينا نحن الأطفال في نفس اللحظة دون اتفاق متوجهين نحو مصدر الصوت ونحن نصيح في ترحيب لم نتفق عليه .

من بعيد من آخر شارع البحر خلف بيت (الشهايبة) لاح طابور (جوالة الإخوان) بملابسهم الكاكي وكأنهم فيلق من الجيش المرابط . يحملون على أكتافهم كالبنادق شماريخ غليظة تشبة أيدي الفؤوس. في ثلاثة صفوف غير منتظمة على رأس كل طابور منهم واحد يحمل طبلة .. طبلة الرجل

الأوسط كانت طبلة ضخمة تكاد تركبه . يدق عليها بعصا غليظة لها رأس مستديرة من القماش ، بينما طابور اليمين واليسار يحمل من في مقدمتهما دربكة أو طبلة صغيرة حادة الصوت يتبادل ذراعاه بعصاتين رفيعتين الدق عليها في تبادل محسوب الإيقاع نغمًا منضبطًا منتظمًا بحركة مضحكة من ذراعيه اللذين يرتفعان في الهواء بزاوية وكأنه يحرك جناحين شبه طائرين ..

كان منظرهم مدهشًا لدرجة الفكاهة .. فمضينا نقلد الخطوة المنتظمة ، مشكلين طابورين على الجانبين ، مسحورين بالإيقاع وبانتظام الخطوة وإيماءاتها البطولية .. بعض المتفرجين كان يحتج على ما نفعله فصفع بعضنا أو دفع آخرين وأوقعهم معتبرًا ما نفعله سخرية لا تليق بهيبة الطابور ولكن الأغلبية أيدتنا ونهرت من ضربنا مشجعين ضاحكين معنا:

– إيه؟ مش عايزين تمرّنوا الأجيال الجاية؟!

– ما تسيبوهم .. الله ؟ هو ده مش زي الذكر .

لم يلتفت لنا أحد من أهل الطابور نفسه ، بل ظلوا محتفظين بنظراتهم الجادة الجهمة. رافعين رؤوسهم يتطلعون إلى الأمام . فأخذ منظرهم مع رهبة الطبل الكبير وجدية إيقاع الطبلتين الأصغر يجبر بعضنا على الانسحاب من الطابور الساخر (التقليد) ويقف فاغرًا فاه.. أو خائفًا من عقاب مجهول..

زعق (عبد الرؤوف) أفندي محتجًا :

– احنا ما اتفقناش على كده يا (عبد الهادي)..

الحاج (عبد الهادي) رد في حكمة الخلفاء (لم يكن قد حج بعد لكنه سيكمل دينه بالتأكيد ويحج).

– يا (عبد الرؤوف أفندي) وأنا كان في إيدي إيه؟.. كل البلد عايزة

تشارك ومن حق الكل يمشي في الزفة .. ما هم برضه أهلنا.

كتم (عبد الرؤوف أفندي) غيظه ، وهمس الأستاذ (يوسف) له:

– فوّت الموضوع ده يا عبد الرؤوف . همه قصدوا يحطونا أمام الأمر الواقع .. وممكن يبوّظوا المولد.. مش كانوا معتبرينه بدعة ورافضينه من أول ما كان نيَّة .. فوتها عليهم، وغرضهم ح ينكشف .

زمجر (عبد الرؤوف) وأيَّده (عبد الباقي أفندي) وحتى (محمود شطا) قال له :

– يا سيدي ح يعملوا للزفة هيبة .. وعملتهم قدام البلد ماهيش في صفهم . أهم بقوا شركاءنا في البدعة والضلالة ..

– رد (عبد الرؤوف) وهو يكتم غيظه :

– فرحان (عبد الهادي) قوي بيهم ..

ح يعملوا لطلعته هيبة . الخلفا ، زفة رسمية ، دا حتى ح يمشيهم تشريفة قدام حصانه.. ولا خليفة بغداد .

– وح يمشوا قدامه ؟!

كمان ؟ لأ بقى .. وراه زيهم زي غيرهم!

– يا سيدي قدامه والاَّ وراه .. المهم يبقوا بره الموكب ..

كان كل شيء قد صار على أهبة الاستعداد لإطلاق إشارة البدء.. وكان (حمادة المصري) فوق المقام مستعدًّا ببندقيته التي يستخدمها (مدفعًا) في رمضان والتي دفع ثمنًا للترخيص بها سنوات طويلة من عمره وكلفته طلاق مراته الأولى والأخيرة .

وكان (الخليفة) قد امتطى حصانًا أبيض أمام المقام (آخر قيافة منظره) على رأي مراته (زبيدة) :

– يشرح القلب الحزين .

كانت العمة الخضراء تضوي تحت ضوء الشمس .. والغترة الشاهي البيضاء تلمع عاكسة ضوء الضحى مباشرة تزغلل العيون.

واستعد أهل المطاهرين الموعودين كل على حماره أو حصانه ليتبعوه.. ولكن (عبد الرؤوف أفندي) تدخل في اللحظة الأخيرة بمجرد أن أطلقت رصاصة البدء بعد تصاعد إيقاع الطبلتين النقرزان فجعلهم يتبعون طابور الجوالة مؤخرًا حصان الخليفة لما بعد انتظامهم.. وسرت حمى الاستعداد لكل العربات المنتظرة حول الساحة . واخترقت الجوالة بعد التوقف والاستدارة (للخلف در) على طريقة الغفر زحام الواقفين على اليمين والشمال.. وطارت حمائم بيضاء أطلقتها زوجة (علي أبو عابدين) وهاجت غربان الجنينة مع ارتفاع صيحات التكبير وتقدم حصان الخليفة بعد مسيرة المطاهرين وأعطيت الأوامر للعربات أن تنتظر وتتحرك واحدة بعد الأخرى كي تتبع موكب الذاكرين من أهل الطريقة والمداحين. وعلت ضجة كبيرة اختلط فيها التراب بالزعيق والصراخ بالزغاريد التي هزت السطوح القريبة والتي تماوجت وتطاولت عبر الأسطح وفي خلف البيوت وعلى المصاطب مع الشيلان الملونة الزاهية والطرح السوداء التي صنعت مع البيارق والرايات التي ترفرف فوق الموكب مهرجانًا من الألوان ، لم تر (ميت سلسيل) مثله من قبل ..

وعقب تحرك موكب المشايخ والأفندية وأهل (ميت سلسيل) الذين حرصوا على السير في الموكب . بدأت العربات تتوتر وتزمجر مع توتر قادتها كل منهم يريد أن يأخذ مكانًا في المقدمة.. فاختلطت عربات الكارو بحميرها وخيلها مع الجمال وعجز المنظمون وفشلوا في إجبار أي أحد على الالتزام بالترتيب المتفق عليه ولا على أي ترتيب ما.. وارتفعت فوق الهدير والضجة سحابة تراب دخاني كثيف من تراب (أبو خشبة)

الناعم الأسود (مسحوق الجثث) وكأن عفريتًا خرافيًا نفخ من مؤخرته عاصفة رهيبة جعلت الكل يكح ويعْطس وسالت دموعنا حرقة فاقترح (حسن العربي) أن ننسلخ منطلقين لنسبق الموكب لنشاهده من مكان ملكي سيقودنا إليه .

وتبعناه .. بعضنا استجاب لفكرته وبعضنا تاه في خضم الارتباك الذي لا حد له. والذي كانت معجزة كبيرة أن ينتظم بعد كل هذا الهرج والمرج بفضل العناية الإلهية وبركة (سيدي مجاهد)..

قادنا (حسن العربي) إلى حيث اقترح علينا الصعود على أغصان شجرة الكافور الضخمة أمام باب بيت الشيخ (علي أبو حسن) فسبقنا الموكب مهرولين كالمعيز الشاردة . وبسرعة ساعد كل منا الآخر للصعود على الشجرة الضخمة التي كانت تمد ذراعًا قويًّا عبر الشارع لنستقر عليه، البنات رفضن الصعود ، لأن رفعهن يقتضي حملهن وهذا عيب! لكن الواد (عبد السلام عويضة) قال أنهن غالبًا لا يرتدين (إلبسة) وح تبقى فضيحة لو شافهم حد من أهلهن.. تزاحمنا على الفرع واتخذنا من كثافة أوراقه ستارًا يحجبنا عن أعين أهل الدار . (حسني) ابن (محمود أفندي) رفض أن يصعد ، حتى لا تتمزق بيجامته أو تتوسخ .. أنا لم أتردد فهذا يوم مفترج والبيجامة اتوسخت فعلاً . وأبي عرف أنني في خضم المعركة .

وصلت إلينا أصوات الطبول من وراء بيت (بير كمال) .. وتباطأت كثيرًا ، فعرفنا أنهم توقفوا أمام دار (عابدين) ليقوم أولاد عم الخليفة بتوزيع الشربات والعرقسوس تحية له ..

وحين لاحت الجوالة على شارع البحر قال (حسن العربي):

– شوفتوا وكأنهم بيفرجونا إحنا .. ح يعدوا من تحتنا .

قال الواد (عبده جلصّ):

– والله الواحد بتوزُّه نفسه يطرطر على الواد (ابن فريحة) اللي عامل فيها أستاذ ولابس تشريفة!

سكعه (حسن العربي) قلم على قفاه كاد يلقيه من على الفرع .. وكاد صوته يلفت إلينا أنظار (الشيخ علي) وأولاده الذين خرجوا ليقفوا على المصطبة أمام بيتهم وحولهم أبناء العيلة مرتدين البدل والقمصان النظيفة .. وكاد قلبي يقف عندما شاهدت أبي يقف معهم وخيل إليَّ أنه التفت على صرخة الواد (عبده) !

لكن ربنا ستر لأن (صلاح) كتم نفسه ، ولولا أن تشبثنا بالأغصان لسقطنا كتلة واحدة أمام الموكب وأمام ضيوف الشرف، الذين كانوا يقفون في عظمة ، بينما خفَّت الضجة والأصوات ولم يكن هناك إلا إيقاع الطبل وحده يثير في النفوس رهبة ضخمة ، كرهبة الشيخ (علي أبو حسن) والأفندية..

مرت الجوالة ولم تتوقف إكرامًا للشيخ (علي) كما هو مفروض بل تعمد قائداها (بكر ضيف) و(نصر القداح) على أن الإصرار على النظام أدعى ، لأن هيبة الموكب أهم كثيرًا من المجاملات ؛ خاصة وأنهم احتجوا على ما حدث أمام دار (عابدين) وكاد يفسد النظام .. لكن عمي في عباءته السوداء وعمته الخضراء التي كانت أكبر كثيرًا من رأسه الصغير والتي أضفت عليه هيبة لم أشاهده عليها في أي وقت . أوقف حصانه الأبيض بالضبط أمام الشيخ (علي) ليحييه ، وصنع توقفه مسافة كبيرة بينه وبين الجوالة من المتفرجين رجالاً ونساء فارتفعت الزغاريد وأطلق بعضهم عدة رصاصات في الهواء، وحيَّى الشيخ (علي) عمي (عبد الهادي) . فطفرت الدموع من عيني انفعالاً برهبة الموقف .. ولكني أخفيت دموعي بسرعة حتى لا يسخر مني الأولاد ..

وغضب الشيخ (علي أبو دقن) لما حدث ، فقد كان مصرًا على عدم الوقوف لأي من كان ، فنحن هنا في مناسبة دينية شريفة ولسنا منافقين لفلان وعلان..

غطى هدير الذكر وصوت أهل الطريقة على صياحه . وأدار عم (عبد الهادي) رقبة الحصان ومضى في طريقه . خاصة وقد ضغط من هم خلفه وتزاحموا تحت ضغط الخيول والعربات .. وتصاعد صوت حركة الذاكرين وارتفع هديرهم واستأنفوا التقدم ، والكل يحيي بطريقة أو أخرى الشيخ (علي) ذا الوجه الأحمر الطفولي الذي يجبرك على الإعجاب بعيونه الخضراء وابتسامته الطيبة .. قلت لـ (حسن العربي) :

– يا خبر يا (حسن) لو شافك .. تبقى وقعت في إيده بنفسك وجيت له برجليك ..

شخر (حسن العربي) وقال :

– والله كنت عملت له مولد .. وخليت الخلق تتفرج عليه بدل ما هو بتفرج عليها..

كنت أشير إلى حادثة مشهورة عندما حبس الجنايني الولد (حسن) في مخزن التبن عندما ظبطه يسرق لنا الفاكهة .. ولما جاء الشيخ (علي) كان (حسن) قد سلك نفسه ونط من شباك المخزن للترعة .. وكانت حادثة تحدثت بها البلد كلها ؛ خاصة وأن الشيخ (علي) كان موضوع السرقات يضايقه جدًّا ، وأعلن أنه سيسلخ اللص بكرباجه . وظل يعلن طول الطريق صانعًا أكبر ضجة ممكنة أنه سيجلد الولد المعلون ومن يتشدد له .. ووصل إلى الجنينة منتصرًا ليفاجأ أن اللص قد هرب بكل بساطة وضاعت تهديداته هباء ، وسخر منه العيال والكبار ، وظلت رواية يتبادلها ويقلد أبطالها الساخرون في سهراتهم لفترة طويلة .

مرت العربات تحتنا تمامًا في انتظام تحيط بها جموع من الرجال والنساء والأطفال الذين استأنفوا زعيقهم وزياطهم حين وجدوا (الشيخ علي) يضحك في إعجاب وهو يتابع حركات الحرفيين فوقها .. قال (محمود كحول) :

– شايف أولاد الكلب العربجية لابسين اللي ع الحبل وراكبين على الاحصنة.

– ما قلت لكم أطرطر عليهم من هنا ..

– يا عم مش أحصنتهم ، حقهم يركبوها ..

– بص . بص ، برضه عربجية وح يفضلوا عربجية .. شوف الواد (أبو زنون) مبربر على روحه ازاي ..

(حسن العربي) لم تعجبه رنة الحسد هذه .

– ياد يا اهبل انت وهوَّه فيه حد في البلد اتفرج فرجتنا ، إحنا شايفين الزفة من أولها لآخرها .. إيه يعني راكبين الاحصنة ما طول عمرهم بيركبوها حتى وهي شايلة الجلة . احنا هنا ولا الملك .. ولا الشيخ (علي) ذات نفسه .. وكأنها جاية مخصوص تمر من تحتنا .. بص .. بصوا ..

كان (السيد أبو نعمة) و(ابو صبح) كل على جمله يمسك جرناله بالمقلوب وهما يتبادلان الأخبار المؤلفة عن ناس من البلد أو من البلاد المجاورة في كاريكاتير شفوي عمياني ساخر.. وكان الناس يشاركونهما القافية والتعليقات الضاحكة في صخب مرح .

خلفهما كان (العوضي) يستعرض بمؤخرته في حلة كبيرة مصدية رقصة (بياض النحاس) في حركات فاحشة تثير ضحكات الشبان وتكسف النسوان فيدارين وجوههن ضاحكات خلف الطرح والشيلان..

وتوالت العربات في هدوء حتى ظهرت عربة لم نرها من قبل ، تحمل

شلة بنات حاسرات من بنات عزبة الغجر من الأجرية ، يرتدين ملابس العيد الزاهية وهن يطبلن ويرقصن ويصفقن وإحداهن تغني والباقي يرددن في حماس :

يا عـم يا مـــزين خليك عليه حنين

واقطع له بالهداوة لجل يبطل شقاوة

وتحرَّجن أمام الشيخ (علي أبو حسن) قليلاً ، فارتبك غناؤهن وهن يتضاحكن من الكسوف ثم ما لبث أن اشتد إيقاعهن وعلا صوتهن ، لأنه لم يغضب و لم ينهرهن بل ابتسم في وقار .. فأخذن يحيينه بالزغاريد .

خلفهن جاءت تلات أحصنة على كل منها رجل أمامه طفل أو أكثر في ملابس بيضاء وطواقي مزوقة بالخرز يبتسمون في بلاهة . ولا يدرون ما ينتظرهم بعد انفضاض الزفة على يد الحلاق .

وبعد العربة الأخيرة انضم أكثر المتفرجين إلى الزفة . حذرنا (حسن العربي) أن نتحرك حتى يدخل الشيخ (علي) وقلت :

– ولما ابويا يمشي كمان ..

– كده ح تفوتنا الزفة .

– ما الزفة فاتت يا عبيط .. ما شفناها كلها .

– مش لسه ح تلف البلد ..

– واحنا مالنا .. ح نروح وراهم بعد ما شفناها من أجدع حتة ؟ .. ح نجري وراهم؟

– اللي عايز يروح يروح ..

– أنا راجع على المقام .. اللحمة زمانها استوت .. والصواني ح تيجي ع الصوان يا اهبل انت وهوَّه .!

• • •

يعلم ما يسِرّون . .

○ كانت خطة الشيخ (علي أبو دسوقي) بالاشتراك في زفة المولد والتي فاجأ بها الجميع قد درسها الإخوان جيدًا . ووافق معظمهم عليها باعتبارها الطريقة الصحيحة للسيطرة على المولد. أو على الأقل التواجد لمنع المسخرة ومحاصرة أهل البدع ومنع ألعاب القمار وشرب الحشيش ، وغير ذلك مما يشيعه القادمون من بلاد أخرى تحت ستار الولاء للشيخ. وكل ما يجعل من المولد إساءة للدين أو على الأقل الحد منها ..

وكان (الشيخ علي) قد رتب أن تصل الجوالة التي انطلقت بقوة من أمام الجمعية إلى ساحة المولد ومنع أصحاب البدع من التواجد في الساحة بأي طريقة مستغلين ملابسهم شبه العسكرية.

وعلى هذه الأسس ، شارك (نصر القداح)

و(بكر ضيف) وهما من الكوادر القوية في الإخوان وكانا على رأس الرافضين للمشاركة مهما كانت الأسباب . فقاما بقيادة الطابور حتى لا تفشل الخطة ..

ولا نعرف بالضبط ما اتفقوا عليه . ولكن ما حدث من وقوف الزفة أمام بيت دار (عابدين) لتلقي التحية ، وتلكؤ الخليفة أمام بيت الشيخ (علي أبو حسن) لم يكن في حسبانهم . وتسبب الوقوف الأخير في إبعادهم إلى الأمام . وتجمع حشد كبير من الأهالي بين الخليفة وبينهم ، فلم تعد الجوالة وكأنها الحرس الخاص أو التشريفة الرسمية أمام الخليفة ، بل صارت مجرد زينة وطبلة كما قال (عبد الرؤوف أفندي) ..

ولا أحد يعرف ما الذي قرره الوفديون . إذ أنهم مقتنعون بحجج الخليفة نفسه باعتبار الإخوان من أهل البلد . ومن حقهم المشاركة . كان رأي الوفديين دائمًا أن خبرتهم تقول أن هناك دائمًا أغراضًا خفية وراء كل تصرف للإخوان ، وإنهم يضمرون ما لا يعلنون. ولابد أن هناك مصيبة ستحدث ماداموا غيروا رأيهم فجأة في المولد والمشاركة فيه بعد قتال عنيف لمنعه وصل إلى حد تهديد العمدة ...

بعد ابتعادهم للأمام عن الخليفة ، حدث ارتباك في صفوفهم واختل انتظامها ، رغم أوامر (بكر ضيف) ولعنات (نصر القداح) وتحذيراته .. اختلت الخطوات المنتظمة بحكم محاولة كل من في الطابور معرفة ما حدث .. وخاصة حين حصل ضرب النار وارتفع صوت الزغاريد والغناء وما صاحب ذلك من حالة انفعال أمام بيت الشيخ (علي أبو حسن) .

غضب (نصر القداح) واعتبر كل ذلك مؤامرة مدبرة ضد هيبة الطابور الذي بذل جهدًا كبيرًا في تدريبه وتنظيمه . وكان بطبعه هادئًا وقورًا إلا إذا استثير غضبه . وحاول الشيخ (علي أبو دقن) تهدأته دون

جدوى ، بل صمم وأصر على الانسحاب معلنًا أن اشتراكهم كان خطأ منذ البداية .

واستطاع (بكر ضيف) أن يعيد بعض الانتظام للطابور ، بينما اندفع الشيخ (علي أبو دسوقي) رئيس الشعبة عائدًا ليحتج على هذا التسيب .. محاولاً كتم غيظه :

– يا (عبد الرؤوف أفندي) دي مش أصول . هو فرح ، لا يصح أن يقف الخليفة لأي كان .

لكن (عبد الرؤوف أفندي) سخر منه كعادته :

– خليفة .. شي الله يا خليفة .. يا سيدي ده خليفة على قدنا مش عثمانلي .

وأضاف (يوسف عبد ربه) :

– ما تاخدش ف بالك يا شيخ (علي) .. هو يعني كان الملك (فاروق) .. ثم هوَّه وقف لمين يا أخي .. مش للشيخ (علي أبو حسن).. يا شيخ علي يا ابو.... يا شيخ (علي يا دسوقي) ؟!

ضحك الناس لتلميحه الذي لم يصرح به عن ذقنه . وانسحب الشيخ (علي) في غيظ ومضى ليلحق بالجوالة حتى لا ينفرط عقدهم بعد انسحاب (نصر القداح) غاضبًا..

وعاد الموكب لينتظم كما هو مرسوم عبر شارع البحر وحتى ترعة الجوابر.. ثم كادت تحدث أزمة أخرى أمام بيت العمدة .. حيث أوقف (الشيخ علي الدسوقي) الجوالة بنفسه هذه المرة في مقدمة الموكب أمام بيت العمدة لتحيته .

وارتفعت تكبيرات رجال الجوالة ومن يصاحبهم من رجال الإخوان وشبابهم طالبين خروج العمدة إلى شرفة البيت لتحيته .

– الله أكبر ولله الحمد ..

وأحدث وقوفهم ربكة بسبب سدهم الطريق ، بينما كانت مؤخرة

الزفة ماتزال تتقدم للأمام.. واشتد إيقاع الطبول وارتفع صوت التكبيرات يهز الأرض ويملأ الفراغ .. بينما ظلت شبابيك بيت العمدة مغلقة ولا أثر لحياة داخله ..

وصعد الجمهور والأطفال على البراندة . بل ودق بعضهم على الأبواب دون جدوى .. حتى ظهر شيخ الغفر وأطلق بندقيته في الهواء وهو يزعق :

– العمدة مش هنا .. سافر ..

وضحك الواقفون . وجلا الناس عن البراندة وهم يسخرون من العمدة الذي هرب حتى لا يتكلف كوبًا من العرقسوس أو التمر الهندي..

وأسرع الشيخ (علي) يأمر الجوالة بالتقدم وهو يكتم غيظه وتلفت حوله ليرى رد فعل ذلك على (عبد الرؤوف أفندي) وأصحابه .. لكنه لم يشاهد لهم أثرًا ... إلا (أحمد عبده حسنين) الذي كان ضخم الجسم طويلاً يبدو وكأنه يعوم على سطح الزفة والذي كان يشير إليه في حزم أن يتقدم إلى الأمام أو يفسح الطريق للزفة ..

خرجت الزفة من زنقة الترعة مع بيت العمدة . وانفسحت الزراعية وجسر السكة الحديد الفرنساوي أمام الزفة ، وانتظم سير الجوالة في هيبة فوق الزراعية . وتبعها الموكب وأن ظل عديد من الأهالي والأطفال يزحمون المسافة بينهم وبين الخليفة والتي لم تضق أبدًا.. بل اتسعت بحكم توافد آخرين عليها .. وإن كان الموكب قد استقام وانتظم بحكم اتساع المساحة والمسافة .. وبدا في أبهى منظر .. ووقف القطار القادم من المطرية والذي بالصدفة وصل مع انتظام الموكب على السكة ..

وتباطأ السائق معجبًا بالمنظر الممتد أمامه، تطيرفوقه الرايات الملونة والبيارق الشرعية وبيارق الزينة ذات الآيات .. وصعد كثيرون إلى سطح

العربات بينما تزاحم الركاب في الشبابيك وعلى سلالم العربات . وسار السائق في بطء يتبع الموكب وكأنه جزء منه وحيت النساء القطار بالزغاريد وحياهم السائق بالصفارة في إيقاع منغم ..

ما أن وصل الموكب إلى قهوة (أبو راشد) وكانت مازالت مبنى جديدًا له براندة لها أربعة أعمدة صفّت في نصف دائرة على الزاوية بين شارع (الشادر) و(الزراعية) كأول مبنى على الأرض الزراعية الممتدة بين بيوت القرية الغربية و(ترعة السلطان) حيث المستشفى وبيوت دار (عبد ربه) .. وكان المعروف أن الموكب سيدور مع شاطئ الترعة نحو الشمال ، حتى يمر (بمسجد السلطان) والعزبة ليعود إلى ساحة (سيدي مجاهد) .

لكن ما أن عبرت الجوالة القهوة على الزراعية متجهة إلى المستشفى وبيت (كامل أفندي) غربًا .. حتى ظهروا فجأة ؛ نازلين من براندة القهوة . (عبد الرؤوف أفندي) و(السيد راشد) و(حسن أبو موافي) و(يوسف عبد ربه).. وانضموا في موكب رهيب مخترقين زحام السائرين خلف الجوالة وقطعوا الطريق على حصان الخليفة . وقادوه شمالاً عبر مزلقان السكة الحديدية نحو شارع (الشادر) وفوجئ الخليفة نفسه بتغيير المسار ولكنه لم يعترض.. و لم يكتشف قائد الجوالة ولا رجاله الأمر ، إلا بعد أن كانوا قد عبرو (عزبة الغجر) واقتربوا من وابور طحين (البداوية).

حتى الذين كنوا يتبعونهم أحسوا بخفوت الضجة خلفهم . واكتشفوا دخول الموكب إلى القرية من أمام قهوة (أبو راشد) فعادوا مسرعين صارخين ضاحكين وبعضهم غاضبين عندما تبينوا أن الجوالة تسير بكل انتظام وجدية على السكة الزراعية عارية من الخلف إلا من بعض أنصارهم .. وبعض العيال الذين يحملون جريدًا وعصيًّا مندمجين في تقليدهم بنفس الجدية ..

كانت المفاجأة كاملة للشيخ (علي الدسوقي) و(بكر ضيف) عندما اكتشفوا ابتعادهم عن الموكب و لم يستطيعوا السيطرة عليه ، لضبط عودتهم للحاق به .. ودفع الغضب (الشيخ علي) للاسراع ليعاتب المتسبب في ذلك ولكن المدخل كان مزدحمًا لدرجة لم تعطه أي فرصة ليتبين شيئًا .. وهدَّه الغيظ ، فصعد إلى براندة القهوة التي كان يحّرم الجلوس عليها وجلس على أقرب كرسي .. ورآه من عاد من فلول الجوالة فجلسوا حوله على القهوة متعبين صامتين محاولين تهدئة أعصابه وهو ينفخ حتى لا يطق له عرق .. ورآهم (السيد راشد) فرحب بهم سعيدًا وهو يصيح :

– خروب ساقع يا وله للشيخ (علي) وإخوانه . دا القهوة النهاردة زارها النبي !

• • •

عَبس وتولى . .

○ . . (غاب القط . . ارقص يا فار) محرفة النص المعروف للمثل الشعبي عن قصد . بهذا كانت أمي تصف العلاقة بيني وبين أبي . إذ بعد حادث سقوط أخي (الأصغر مني) (سامي) من شباك بسطة السلم بين الدورين الثالث والرابع لبيت خالي في شارع (سيدي عبد القادر) في المنصورة ، قبل انتقاله إلى شارع (المدير) ، لاستحالة العيش في الشقة التي شهدت أول مأساة فادحة في أسرتنا ، أصر أبي على ألا أفارق مدى نظره إلا عند النوم، ! فأصبحت أنا في محاولة دائمة للهرب عن ناظريه طوال اليوم. ويبدو لي أن هذا كان السبب الجوهري لإلحاقي بمدرسة (الشيخة الأولية بنات) في آخر (واطئ البلد) حيث يعمل هو – قبل بلوغي سن الالزام – بزمان.

كان يرفض على طول الخط علاقتي مع أصدقاء طفولتي الأولى صبيانًا أو بنات، يريدني ألا ألعب إلا مع أبناء (محمود أفندى سالم) والست (أم حسني) وأولاد وبنات (غزالة أم رخا) قريبة أمي ، وزوجة الشيخ محمد أبو مجاهد ومن هم على شاكلتهم من أصحاب (البيجامات) والذين لا يخلعون صنادلهم أبدًا للعب الكرة والمضرب أو غيرها من ألعابنا العنيفة المتربة المطينة التي تغرينا أن نخوض غبار مقابر (أبو خشبة) وعفار جرن (دار أحمد) وطين المنصل والمسارف والترع التي تحيط (بميت سلسيل) من جميع الجهات.

كان يريد أن يحرمني من السباحة والنزول إلى الماء.. لا في البحر الجديد ولا القديم ولا (خرَّارة مهدب) ولا (سحارة أبو دهينة) ولا حتى ترعة (غيط السباخ) ..

وكان يحرم عليَّ أن أشتهي تين جنينة (علي أبو حسن) الشوكي . أو أتحايل مع أصحابي لسرقته أو سرقة فول حراتي حقول الساحل . أو طماطم غيط (رياض) أو بلح نخيل (الشهايبة) الحياني أو حتى نخيل (السباخ) الذي زرعه بيديه . وكنت أستمتع بأكله أخضر وصيص . كيف يمكن أن تكون تلك الحياة قابلة للعيش لو هجرت وخاصمت شلة السباحة في البحر الجديد (الصغير) (برهام ومأمون وصلاح وعبد السلام وزغلول) أو حرمت من التسلل معهم إلى حقول (الساحل والسباخ) لالتهام الفول الحراتي أو قتة وخيار (التخريب) أو كيزان الدرة المشوية في دوار الغنم على حطب قطن (أرض الطير) مع (أنعام ووطنية وحلمي وفتنات وسعاد ومحمد إبن الصديق) . ماذا سيكون طعم الحياة، دون عصابة (حسن العربي وصلاح أبو العز وعزيزة بنت عباس وأمينة ووطنية وفاروق النملة) ونحن نقطع كعصابة (محمد أبو إبراهيم) الطريق

بين (الخمس والسباخ) كسرب جراد. مخترقين حقول المقاتة والطماطم نطارد الكلاب والغربان ويطاردنا أصحاب الأراضي دفاعًا عن محاصيل حقولهم...

كيف يمكن ألا نتآمر – (مجاهد) ابن عمتي (فريدة) و(محفوظ) ابن عمي ، و (أشفاق وكمال خضرة وفتحي وعواطف بنت فرحة) وأنا – كي نغزو خزانة ستي (أم العز) وشفط القشطة والرايب بسيقان الفول المجوفة. كيف وماذا يكون طعم الدنيا ؟ وما فائدة الحياة لو أنني قاطعت كل هؤلاء وامتنعت عن صحبتهم بحجة أنهم يسيرون – بعضهم على الأقل – حفاة وبلا – في معظم الأحيان – ملابس داخلية أو بيجامات بوبلين المحلة ؟! أو بحجة أن معظمهم مع البهائم يعيشون أو ينامون على الأفران ، بنفس ملابسهم . و لم يدخلوا المدرسة و لم يقعوا تحت حد مسطرة (شاكر أفندي).. أو خرزانة الأستاذ (علي بو علي) .. سيكون ذلك هو الجحيم نفسه أو النار (جهنم) على الأقل !!

كان صندلي يمتلئ بالطين فأغسله ، في أي بير ساقية ، أو أي قناة راكدة ليعود كالفل.. وكانت ملابسي (تتطين) وتنشق وتصطبغ بالتراب والبقع .. فأغسلها في أقرب ترعة وأنشرها كجناح طائرفوق رأسي ونحن نجري حتى تجف أو أخيطها عند (فاطمة أم شطا) أو أرممها عند بنت خالة أمي (غندورة) فتعود سليمة، ولا من شاف ولا من دري ! وقد لا تعود سليمة أو لا تجف كفاية ، فتؤنبني أمي (ماما) وتقرصني وتهددني (غير جادة) بإخبار أبي . ولا تفعل . وأعود بريئًا .. لكنه حين يدخل محملاً للبيت بعشرات الشكاوي ضدي أبدو وكأنني وحدي الذي صنع خطاف الشبك لاصطياد التين الشوكي، ووحدي الذي قفزت المسرف ووقعت

فيه وكدت أغرق .. ووحدي الذي طاردني أصحاب الطماطم ووحدي الذي شتم (عم رياض) شتمة قبيحة !.. وكنت أتلقى (الضرب) و(التأنيب) منكرًا كل ذلك مستشهدًا بكل أصحابي الذين كانوا سينكرون طبعًا لو أنهم سئلوا.. ولكن في كل الأحوال كنت أقول لنفسي (علقة تفوت ولا حد يموت) وغدًا سيكون يومًا جديدًا زاخرًا بمغامرات جديدة !

كان مستحيلاً أن أتصور ألا يكون أصحابي غير (حسني ابن أم حسني) أو (فاروق) وأخوه (حمام) و(أبو المكارم) إبن الست (بيركمال)، مش ممكن . صحيح هم يرتدون مثلي البيجامات النظيفة والصنادل أم أبزيم معدني ، ويقصون شعورهم حتى لا يسكنها القمل . وينامون في أسرَّة وعلى مراتب بلا براغيت أو بَق أو بالقليل منها على الأقل – لكنهم لا ينزلون الترع للحموم ولا المسارف لصيد السمك ولا يتسلقون الأشجار خلف الثمار أو فراخ الطير أو بيض اليمام .. كان أقصى ما يفعله معظمهم هو الفرجة علينا أو حراسة ملابسنا ونحن نعوم ونغطس كضفادع مجنونة!

لم ييأس أبي من محاصرتي . و لم أعجز عن ابتكار وسائل للإفلات.. كان أحيانًا يدور باحثًا عني في عز القيالة عند (المغذى) حيث نستحم مصارعين الماء الساقط من البوابة أو عند (سحارة أو دهينة) حيث الجميزة الضخمة فوق البئر الغامض الخطير العميق حتى الجانب الآخر من الأرض، بين (ترعة السلطان) و(بحر السباخ) .. وحيث المساحة الساكنة ذات الدوامات غير الخطيرة ، التي تصنع ما يشبه حمام سباحة طبيعي ، نظل نغطس ونعوم فيها منتظرين فرصة لاستغفال حارس جنينة السراية ، ليتسلل بعضنا من خلال فتحة قناة الري عرايا على بطونهم ، لإمدادنا بما تصل إليه أيديهم من خيرات . وفي كل مرة كنت ألمحه أو يلمحه غيري..

يبتكر ويتحايل أصدقائي الأحباء لإخفائي فيلتفون حولي أو يدهنونني بالطين لذا لم يلاحظني سوى مرات معدودة ، كان فيها حضوره مفاجئًا تمامًا .

وأخيرًا قرر أن يلجأ لحيل ماكرة لمواجهة كارثة نزولي إلى طفيليات الماء فلجأ إلى التوقيع بإمضائه على لحم فخذي . غالبًا بالقرب من أسفل بطني ، توقيعه الفذ المعقد بالقلم الكوبيا والذي من السهل أن تزيله المياه . أو على الأقل تشوهه ، فيكشفني دون الحاجة لمطاردتي .. فلابد أن أعود إليه طائعًا بالدليل القاطع على نزولي إلى ماء البلهارسيا ومخالفتي الأوامر..

لكني لم أستسلم لذلك الأمر إلا أيامًا قليلة بعدها اكتشفت طرقًا نجح بعضها وفشل الآخر في حماية التوقيع من تأثير الماء، وإفشال دليل الجريمة.

أخفيت التوقيع – عدة مرات – تحت رباط سميك من القطن والقماش لكن الماء خذلني ونشع ليشوه التوقيع.. ثم حصلت على شيء يسمونه (بلاستر) يضعونه في المستشفى على الجروح والدمامل المتقيحة أحضره لي (مختار) ابن (عمارة) التومرجي.. وأفلح يومها لمرة واحدة يتيمة، لكنه لم يصمد في المرة التالية.. ولم يكن هناك بعد ذلك مفر من التدريب القاسي لتقليد توقيع أبي المعقد المكتوب بالرقعة في سلاسة وحروف متحولة صعبة ،..

لكن من أهمية الغاية وقيمة الهدف ، كان طول صبري وإصراري على تحقيق هذه الوسيلة الذهبية لإخفاء جريمتي اليومية المتكررة . والتي لم تعد تحتاج مني غير الحصول على (عقب) قلم (كوبيا) سري وإخفائه عن الأنظار !

لم تكن علاقة أبي بي على هذا الشكل دائمًا . بل كانت في كثير

من الأحيان تتسم بوشائج حنان وأواصر محبة عميقة . صحيح أن أبي لم يقل لي أو لأي أحد من إخوتي كلمة (يا حبيبي) أو صرح لأحدنا بحبه في يوم من الأيام ، أو تحت أي ظرف عاطفي ، بل كان عاقد الحاجبين دائمًا تتصدر جبهته علامة (١١١) الشهيرة التي أوْرثها معظمنا . فصارت إحدى سمات وجوهنا . إلا أن الحب الأبوي العميق الذي كان يكنُّه لنا فردًا فردًا ولي على وجه خاص ، باعتبار علاقتي به أقدم وأبعد امتدادًا في التاريخ أنا و(آمال) طبعًا . إذ ظللنا هي وأنا نحظى بها لفترة طويلة في الحقبة التاريخية التي شهدت فقدان (صفاء وسامي) المأساويين، حتى ولد (عادل) والذي سماه (محمد عادل) من أول مرة لتعويض فشله في إلحاق اسم (محمد) باسمي – وكان (عادل) قد ولد عقب إصدار الوفد قانون الإنصاف في (٤٤) الذي ارتفع به مرتب مدرسي الألزامي ارتفاعًا ملحوظًا كمكافأة وفدية ردًّا لجميلهم بوقوفهم المبدئي مع الوفد في الانتخابات السابقة .. صحيح أن الوفد جاء للحكم بعد تلك المرة على أسنَّة رماح الدبابات والإنذار الإنجليزي الذي فرضه الموقف العالمي من النازية ، ورغم أن أبي كان قد التحق غيظًا بـ(الأخوان المسلمين) بسبب ذلك ، ولكن الصفاء عاد مرة أخرى لعلاقات (الإلز) بالوفد الذي يقدر على الدوام دورهم الانتخابي ومنهم أبي . الذي عاد إلى صفوف الوفد تاركًا الإخوان تأكيدًا لولائة المستمر وتحية لقانون الإنصاف الذي كان بمثابة مطر منقذ بعد جفاف الحرب القاتل ..

كانت بسمة الحنان الممزوج بالفخر تبسط عقدة وجه أبي ، وتملأه بالسماحة عندما لا تخذله عبقريتي في إجابة الأسئلة أو حل الألغاز التي كانت أحيانًا مادة تخفف من حدة الجدل الجاد أمام دكان (محمود شطا)

أو في مندرتنا أو في حجرات المدرسين والتي كانت تتخذ صورة صراع الديكة في بلاد أخرى . إذ ينحاز الحاضرون وينقسمون انتصارًا لأحد الأطراف والذين غالبًا ما يكونون في مثل سني يختبرون ذكاءنا ويتحزبون لنا . ويصفقون لمن يجيب على تلك الألغاز وتلك الأسئلة :

(ما هي الأعداد التي حاصل ضربها يساوي جمعها ؟ هل يبرد الشاي أسرع لو وضعنا الثلج تحته أو فوقه ؟ ما هو الشيء الذي كلما أكل كبر وزاد وإذا شرب انعدم ومات ؟ لماذا سمي غيط السباخ بهذا الاسم ؟ ما معنى سجنجل ؟ لماذا لا يصعد ماء الجوزة في غابتها ؟)

لم تكن تلك الجلسات المرحة تحدث بالصدفة .. لكني كنت أظن أنها مرتبة لأن أبي كان يؤكد على حضوري و(جهوزيتي) قبلها. وغالبًا ما كنت أنصره . ذلك أنني كنت أقرأ مجلة (الهلال) و(المختار) اللتين كان خالي يحرص على شرائهما وعلى إرسال الأعداد القديمة إلينا من (المنصورة) مع أي زائر أو مسافر متاح.. كما كنت أحرص على قراءة مجلة (البلبل) في جلسة واحدة إلى جوار عم (محمد السقا) بائع الصحف الوحيد في البلدة والذي تعمقت صداقتي به منذ سنواتي المبكرة تلك وشبابي (حتى جندته عام ٥٨) رغم فارق السن الكبير.

وكان انتصاري في تلك المباريات مضمونًا . وكنت أحب أن أرى انعكاس ذلك على وجه أبي . وأضمن بها سماحته في مواجهة صراعنا الآخر الدائم بسبب أصحابي وعدم رضاه عن ارتباطي الحميم بهم.

لهفته على يوم ساخت روحي عندما سمعت خبر موت حبيبة قلبي وزميلتي وزميلة أختي ابنة (أبو نضارة) التي اختطفها لهيب الشمس الحارقة أكدت لي حبه رغم تكشيرته الحادة الدائمة ورغم علامة الـ

(١١١) المعقودة أبداً بين حاجبيه حتى وهو يمازحني .. حمله لي ملهوفًا دون انتظار حمارة عمتي وجريه بي إلى المستشفى رعبًا من أن أكون ضحية مثلها لذلك اليوم الملتهب .. ثم سهره الليالي ليلة بعد أخرى يتابع ما يحدث لي وأنا أقوم مفزوعًا أصرخ بسبب كوابيس أنصاص الليالي للِّحاق بها تحت الأرض . وقد ظننت مثل أمها التي كانت تعتقد أنهم تسرعوا ودفنوها حية . لأنها لا يمكن أن تموت هكذا ! واحتضانه لي وأنا أفرفر فزعًا لما شاهدته وأحكي عنه في رحلة منامي إلى ما تحت الأرض من شياطين وبغال ذات قرون وثعابين طولها سبعون ذراعًا .. واضطراره للنزول على تنفيذ نصيحة خلت (خضرة أم بيومي) بذبح خروف لأهل الله . وإن رفض بشدة إقامة زار لطرد ما ركبني من عفاريت لأنه كان مقتنعًا أن ما يحدث لي إنما هو رد فعل طبيعي لما أفعله طول النهار وخلال أجزاء طويلة من الليل من (شيطنة) مع هؤلاء الأصحاب القذرين وجريي وراءهم في الزرايب ولعبي معهم في مقابر (أبو خشبة) وأنه ما عفريت إلا بني آدم . بل كان يضحك ويقول : قولي انّ هوّ اللي راكب العفاريت !

لكنه لم يصدقني حين قلت له إن الجرح الذي عدت به إلى البيت ذات يوم كان من سلك شائك ملقى في طريق الجرن ، وصدق كلام (بهنونة) التي تأكدلى أنها لابد وان تكون مستاجرة لمراقبتى والابلاغ عنى – فقد أكدت أن كلبة (السباعي) جرت ورائي وعضتني . وهي كلبة مسعورة والعياذ بالله .. ورغم تكذيبه لي وتصديقه لكذبها ، بلغت سعادتي أوجها لأنني رأيت على وجه أبي ذلك التعبير المشفق الذي يقطع القلب واللهفة العميقة والخوف أن تكون الكلبة المسعورة قد عضَّتني فعلاً ..

يومها استبعد فكرة أخذي إلى مستشفى الكلب في القاهرة ،

واستبدلها بفكرة السفر بي إلى الإسكندرية لزيارة أقاربنا الذين كان أبي بمثابة خال لهم . وهم الثلاث بنات والأخين الذين يعمل أحدهم سائقًا في السكة الحديد الأميري والذين أقاموا في بيتنا عندما لجأوا للقرية مهاجرين أثناء الحرب . و لم يستطيعوا التأقلم والعيش في بيت عوائلهم الأقرب منا .

وفرحت أنا وبدَّلت أقوالي ووجدت في اعترافي بعضة الكلب وسيلة لرؤية (بحر اسكندرية) الذي طالما حدثتني عنه البنت الصغرى من الأخوات الثلاث (نعمات) التي كانت تكبرني بسنتين ، والتي كانت صديقتي وشاركتني وأصحابي معظم مغامراتنا طوال مدة بقائهم عندنا لشهور عديدة ، لدرجة ظننت معها أنني أحبها .. خاصة وأن أختي طول الوقت كانت تحشر نفسها بيننا ولا تدع لي فرصة للاختلاء أو الاستئثار بها بعيدًا عن تدخلها – أختي (آمال) .. وطبعًا وجدها أبي فرصة لصلة الرحم بزيارة أقاربه اليتامى والابتعاد بي عن صحبة السوء واصطحابي لمشاهدة دنيا أخرى.. قد تقنعني بأنني أرقى من هؤلاء (المنحطين) في الطين والجهل.. وأن لي مستقبلاً آخر يعدني له، يليق بطموحاته التي ذاق بعضنا طعمها بسبب كونه الأخ الوحيد بين أخوة كثيرين، الذي تعلم ودخل المدارس ولبس دونهم طربوشًا وجاكتة وبنطلون.
دفعته أن يهيئ لأولاده حياة مختلفة نظيفة و(بندرية) كما كان يطلق عليها وعلينا (الفلاحين) أقاربنا أنفسهم.

أحضرت دفترًا صغيرًا وقلمًا كي أسجل أسماء كل البلدان التي سنعبرها في الطريق إلى (الإسكندرية) ، وسر أبي لانشغالي بمثل هذا ورآه بداية لنجاح خطته ، وكنت أراها وسيلة للتفوق على أصحابي أنفسهم

فنحن عندما نتبارى في ذكر ما نعرف من بلدان – قرى وعزب ومدن – زارها كل منا.. كانوا يتفوقون عليَّ طبعًا . لولا أنني كنت أستعين بكتاب الجغرافيا فأفاجئهم بأسماء لم يسمعوا عنها .. مثل (فرنسا ولندن ونيويورك وأنقرة وألمانيا) مدعيًا أنني ذهبت إليها بينما هم لم يتخطوا (الكردي) و(عزبة بذْله) و(أكالة العيش) و(الرحامنة) و(ليثة الجمالية)..!

ظللت منتبهًا منذ ركبنا القطر إلى (المنصورة) لكل اللافتات التي نمر عليها ابتداء من (الكردي) و(موقف المكباتي) حتى (ميت حديد) و(محلة دمتة) و(محلة امشاق) .. أما بعد المنصورة وركوبنا قطار سكك حديد المملكة المصرية فقد حيرني أن كثيرًا من القرى لم يكن القطار يقف عليها وليس لها أرصفة أو محطات ولا حتى لافتات . بعضها كان أبي يسميها لي ولكنني ظننته في غالب الأحوال يؤلف لي أسماء من عندياته . لأن بعض الركاب كان يصحح له معلوماته . وبدأت أتشكك فيما دونته وفي جدواه . وبدأ الملل يتسلل إليَّ . حتى أنني نمت مخدرًا بحركة القطار وصوت عجلاته الرتيب المنتظم الذي لا يتغير .

كانت أمي قد أعدت لنا زيارة فخيمة تليق بمكانة والد يلعب دور الأب لعائلة من اليتامى وكذلك لأنها كانت تحب البنات حبًا جمًّا.. (سعاد ودرية ونعمات) وكانت تتمنى أن تجعل (أمال) تقلدهن في تأنقهن وذوقهن في اللبس والأكل والأدب . وحايلت والدي كثيرًا لكي نصحب آمال معنا . ولكن دموع أختي ومحايلات أمي لم تفلح في إقناع أبى بذلك . لأسباب لا أدريها لخصها هو في شخطة من شخطاته القاطعة :

– هو احنا رايحين نتفسح ؟ إحنا راحين المستشفى .. الولد ح ينسعر .. إن شاء الله لما نشوف ظروفهم يبقى نسافر في الصيف ونكون كمان فصَّلنا لآمال كام فستان يليقوا بالإسكندرية .

ثم قطع الطريق على الاستمرار في المجادلة بأن قال لأمي :

– ده ثمن التذاكر لوحده الشيء الفلاني .. ابقى امسكي إيدك شوية. وع الصيف الجاي يحلها ألف حلاَّل . وتكوني فصَّلتي ليكي ولها مايوهات . علشان الشيخ (أبو العيون) يقطع رقابيكم على البحر ..

وضحك الجميع وانهمكوا في ترتيب القفف والاسبتة التي ستصون (الزيارة) ..

• • •

عليكم بأنفسكم . .

○ في المنصورة انتقلنا من محطة سكة حديد وجه بحري إلى محطة المنصورة الأميرية بسهولة .. كان معظم موظفي المحطة والكمسارية يعرفون أبي بحكم أنه زوج أخت (فتوح أفندي) .. فلم نضطر لمساومة الشيالين . بل تطوع بعضهم لمساعدة قرايب (فتوح أفندي) ومجاملته ..

عبرنا إلى المحطة الأميري الكوبري العلوي الشهير الذي يمتد من أمام المحطة الصغيرة صاعدًا لأكثر من ٤٢ درجة وممتدًّا إلى ميدان المحطة الشهير. كان مجرى الكوبري الحديدي الأسود الفخيم رهيبًا.. ودرجاته زلقة لامعة من كثرة ما مر عليها من أقدام وأحذية وبُلَغ . ولابد أن تأخذ بالك حتى لا تنزلق على أي درجة . وكان سطح

الكوبري مزدحمًا لا بالعابرين فقط ولكن بسبب الباعة الذين يفترشون أرضه ويشغلون نصف عرضه تقريبًا . باعة محافظ جلدية ومعهم آلات تثبت بها الأزرار المعدنية وباعة أمشاط وأوية وعطور وشيلان وتلفيعات ومناديل ولعب وأيضًا ماسحي أحذية وبائعي لب وترمس وفول سوداني وسميط وبيض . بدا معهم الكوبري وكأنه المعبر الوحيد ما بين شرق الدنيا وغربها . يعبره آلاف من العابرين والزائرين والمسافرين من كل الأشكال والألوان .

كان لابد أن نكرر تجربة الانتقال لقطار آخر في (محطة طنطا) . صحيح أننا لن نخرج من المحطة ولن نعبر أي كوبري عالي مثل هذا . بل يا دوب سننتقل من رصيف إلى رصيف. وقد يأتي القطار على نفس الرصيف . هكذا تخيل أبي وبدا كأنه يسهل الأمر عليَّ :

– ربك ح يسهلها ان شاء الله ..

تمتم أبي هامسًا لي وهو يفكر في المشكلة وكانت هذه أهم نتائج الرحلة بالنسبة لي . فأبي الآن يعاملني كَنِدٍّ . رغم أنه لا ينفك ينبهني وينصح لي ويقبض على يدي في قوة وحرص في أحيان كثيرة .. لكنه كان يشركني فيما يواجهنا من مشكلات ، في اختيار أماكن الجلوس ، في وضع أوعية الزيارة أو اختيار ما أرغب فيه من أطعمة أو تسالي . مطبقًا كل محاذير الصحة العامة وضوابط المالية كذلك . ولكن ذلك أعجبني بشكل عام وأضفى على وجودي معه أهمية كبرى لدرجة كدت أظن أنه لولا وجودي معه لما أفلحنا في الوصول إلى (طنطا) .

ضخمة محطة (طنطا) وهائلة .. مدينة كاملة .. ليست كمثلها ولا

يمكن أن تكون ، وكانت معلوماتي عن طنطا كثيرة . إنها عاصمة الدلتا وملتقى خطوط السكك الحديدية والسكك الزراعية ، ويمر بجوارها (الرياح المنوفي) . وهي أكبر محافظات مصر من حيث المساحة . (لم يكونوا قد اقتطعوا منها محافظة الفؤادية بعد) . ثم أن بها (السيد البدوي) المقام والمسجد . وهو شيخ أولياء مصر وزعيم مشايخ الديوان الذي ترأسه (السيدة زينب) .. وكسوة (سيدي مجاهد) بوركت منه ، كما أن عمي نصب خليفة لمولد (سيدي مجاهد) باستشارته ورضاه . وكان أبي مصممًا على أن ننتهز فرصة مرورنا للقيام بزيارته ولنقرأ الفاتحة ونزور المقام استجابة لوصية أمي . لكن المشاكل المعقدة التي واجهناها في تلك المحطة لم تتح لنا هذه الفرصة . فقد صعب علينا معرفة الرصيف ، وكان القطار قد وقف في طرف المحطة لسبب لا نعرفه . وكان الوصول لرصيف (الإسكندرية) مشكلة وهذه القفف والشيل معنا . وتشاجر أبي وهو يفاصل الشيالين واتهمهم باللصوصية حتى كادوا يقاطعونه ويتركوننا في حيص بيص . لكن أبي كان قادرًا على التراجع في الوقت المناسب وكذلك تدخل بعض الطيبين أولاد الحلال الذين عابوا على الشيالين أن يتركوه لحل مشكلته بنفسه ومعه (صغير) مثلي وغريب . وأحسست بأهمية تضاف لوجودي معه من حيث لا أحتسب .

عبر القطار محطة (كفر الدوار) فقال أبي :

– إسكندرية هيَّ اللي جاية ...

قال رجل عجوز له وجه يشبه جدي يوسف :

– إسكندرية مرية وترابها زعفران ...

فقلت مندهشًا :

– زعتران ؟

ضحك الجميع . وصححوا لي نطق الكلمة و لم أفهم الفرق ، ولكني أخرجت رأسي من الشباك أواجه الريح رغم تحذيرات والدي ألاَّ أفعل . كانت هناك رائحة تكاد تكون غريبة .

– دي ريحة البحر .. إحنا على وصول . واليود ح يوسع صدرك . أجبرني قطار آت في الاتجاه المعاكس على الجلوس فزعًا .

– قلت لك ما تبصش من الشباك .

الشمس كانت دافئة والنسمة تشرح القلب .. لابد أنه البحر .. البحر ؟

لابد أنه أكبر من (البحر الصغير) .. ولذلك سميناه البحر الصغير وأكبر من (بحر النيل) كما كانت تطلق ستي على النيل عند (المنصورة) يقولون أننا لا نستطيع أن نرى ضفته الأخرى . والبعض أكد لي أنه لا ضفة أخرى له .

عجبت لأنهم يسمون محطة إسكندرية (محطة مصر) رغم اللافتة المكتوبة بالعربية والإنجليزية . و لم أسأل لأن برضه مصر هيه الكبيرة !

تفاهم أبي بصعوبة مع الحمالين الذين استدعوا عربة حنطور حتى سلم المحطة وتركوا أبي يفاصل العربجي الذي أصر على أن يتقاضى ريالاً كاملاً لنقل كل هذه الشيل . نهره أبي لمغالاته فالمسافة قريبة جدًا من محطة مصر فمنزل أقاربنا في (محرم بك) وليس في (أبي قير) وهدده بإنزال الشيل وطلب حنطور آخر ..

– عايزين تدفعوا كام؟

– عشرة قروش لا غير ؟

– يا عم حرام عليك دا الحصان بياكل بالشيء الفلاني ، هو انت فاكر لما نخرجوا م المحطة معاك ح تشيلوا حد تاني .. ح ناخدوا تلاتة شلن .. آخر كلام ..

كنت أتمنى أن تنتهي المناهدة حول الأجرة .. مشتاقًا لركوب الحنطور ورؤية (محرم بك) .. كان لأبي قول مشهور وأمنية كالحلم يكررها كثيرًا . يا سلام لو عمارة في محرم بيه وميت ألف جنيه والعافية والصحة كأنها روشتة السعادة الأبدية ، وحلم الراحة الدنيوية .

صدمت عيناى لمرأى الكثير من العمارات المهدمة .. كان بعضها مهدوما تماما. وبعضها كأنما قطعت بسكين جبارة من السقف حتى الأرض ، يسيل الركام من حجراتها كالدماء المتحجرة . وتساءلت ساعتها أيها كانت حلم أبى الذى لم يتحقق . ولفت نظرى وجود أسوار من سلك شائك أو من قطع من الخشب والحديد تحيط بكثير من النفايات التى تحولت إلى أنقاض وسألت أبى :

– هل يلفونها بالأسوار لحمايتها من السرقة ؟ ومن الذى سيسرق تلك الأكوام من الأنقاض !

ضحك أبى ضحكه مفتعلة ..

– لا .. حصلت حوادث لبعض من دخلوا هذه الأماكن المهدمة لأن هناك قنابل لم تنفجر فى وقتها وراح ضحيتها بعض الأطفال والرجال.. كانوا بيدوروا فيها على أشياء فانفجرت فيهم ...

أقشعر بدنى فالتصقت بوالدى وحين إحسست بذراعه تطوقنى مرحبة دفنت وجهى فى ملابسه طالبا للحماية .

لم نذهب إلى البحر على الفور كما تمنيت . فقد رتب الشقيق الأكبر لليتيمات (كمال) الذي يشتغل مساعد قائد قطار وهو منصب له أهمية كبيرة في مجاله – موعدًا للكشف عليَّ باعتبار أن العلاج هو المهمة الأولى لهذه السفرية وبعدها البحر وغيره ..

قابلونا بما يليق من حفاوة وهددت (سعاد) العربجي وأنَّبته على طمعه وقالت لأبي أن لا يعطيه سوى شلن واحد . ولكن أبي لأمر ما أعطاه ٢ شلن ، أخذهما الرجل وشكره .

أفردوا لنا سريرًا في حجرة الأخوين ، باعتبارها ستكون غرفتنا خالصة لنا . فالأخ الأكبر يقضي معظم وقته خارج البيت بحكم عمله وسفره الدائم . أما الأخ الأصغر فلم يكن يأتي إلى البيت ، كان عاطلاً لا تكف المشاكل عن محاصرته وإفساد علاقته بإخوته ..

أخذتني نعمات في جولة مسائية حول المنزل .. ولنشتري تفاحًا أخضر كنت قد رأيته على عربة عند الناصية. وسألت أبي عنه فلم يهتم .

كانت الشوارع واسعة ونظيفة ولها أرصفة تظللها أشجار (البنسوانا) الملتهبة الأزهار ولخضرة أوراقها بريق غير عادي . لأن اليود المحمل به نسيم البحر يشفي ويشرح قلب البشر.. لابد أنه أيضًا يشرح قلب النبات ويجعل لخضرته هذا البريق الرائع الذي تفتقده كثيرًا أشجار بلدنا إلا الجديد والوليد منها . وكنت أبحث طوال الوقت عن (الزعفران) ولكني لم أجد أي تراب فالأسفلت يكاد يكون مغسولاً حتى فى الأجزاء التى بجوار هديم البيوت .

أخذت نعمات تخبرني بأسماء الشوارع والميادين وتشرح لي الاتجاهات. وطلبت منها أن تذهب بي إلى البحر ، ولكنها اعتذرت فليس أمامنا وقت لذلك الآن..

– هو انت ح تيجي اسكندرية وما تزورش البحر. دا انا عارفة انك بتموت في الميه.. بس مَيِّتنا بقى ما فيهاش بلهارسيا.. وتقدر تنزل من غير إمضا .

قالتها وهي تضحك في مرح جعلني أكتم غيظي ، لأنها عرفت ذلك السر الذي لابد أن يقلل من مكانتي لديها باعتباري تحت رقابة أبي المتسلطة ..

فاجأتني قائمة جديدة وغريبة من الأسماء . كانت تدهشني برنينها الساحر وإيقاعها الخواجاتي (كرموز/ لمبروزو/ بولكلي/ زيزينيا/ سيزوستريس) الذي مازلت حتى الآن أخطئ في نطقه بينما كانت (نعمات) تنطقه بنفس سهولة نطقها (للشاطبي والأنفوشي والأزاريطة) وأخذت أسخر من هذه الأسماء التي لم أحتمل كما يبدو سحرها وغموضها فمضيت ساخرًا أكسر حدة الغرابة وأمطرها بجلافة ظريفة .

– الأنفوشي ..

– سألوا عليكم مالقيوكوشي ..

– المزاريطة ..

– وقعت عليك حيطة .

مستعينًا بطريقة تتقنها أمي حين تبتكر تعليقًا ساخرًا من أى شيء . لكن هذا الزخم من الأسماء الجديدة ذات الرنين ، أزاح من ذاكرتي أسماء القرى التي دونتها في نوتة المحطات لدرجة أنني نسيت أين أضعتها ..

وقفت فاغرًا فمي أمام عربة التفاح الأخضر المشرب ببعض الصفرة والاحمرار خاصة عندما قالت (نعمات) في ألفة صديقة مخاطبة البائع العجوز المميز :

– نقي الحبة يا عم (أخنوخ) ما احناش زباين على الماشي .. عشان خاطر (سمير) ضيفنا من المنصورة !

لم يعجبني أنها نسبتني (للمنصورة) وليس (لميت سلسيل) . واعتبرت هذا تهربًا أن يكون ضيفها من الفلاحين مباشرة.. لكن موسيقى اسم (أخنوخ) جعلتني أشعر بلذة لا مثيل لها وأنا أقضم التفاحة التي انتقاها (عم أخنوخ) بإمعان وقدمها لي ترحيبًا بي.. وهو يبتسم ابتسامة عريضة باتساع فمه الخالي تمامًا من أي أسنان.

أثناء عودتنا بعد تلك الجولة السعيدة ، جرت (نعمات) لتسبقني إلى البيت وطاردتها مرحًا سعيدًا ولحقت بها عند الباب . ثم طاردتها على السلم القصير . و لم أجد ما أفزعها به سوى أن أنبح عليها مقلدًا أصوات من أعرفهم من كلاب . فوجئت بأبي يفتح الباب صارخًا وقد ارتسمت على وجهه علامات رعب وجزع لا يحتمل ، متسائلاً وهو يأخذني في أحضانه وكنت أظنه سيضربني فإذ به يتفحصني بحنان وهو يسألني مرعوبًا .. منذ متى وأنا أنبح هكذا.. لكنني وقد نسيت أننا هنا بسبب كلب وهمي عضني .. فهمت سرَّ رُعبه . و لم أفهم إلا عندما سألني :

– أول مرة تهوهو يا سمير .. هه . هوهوت قبل كده ؟!

وكدت أقول له الصدق ..

(وأقول أنا ؟ أنا ياما (هوهوت) . طول عمري (بأهوهو) – لدرجة أدهشت خالي (الخميسي) ونافسته في عزف حفلة ومعركة (هوهوة) تقليدًا لبراعته في عزف هوجة (مأماة) الغنم الأبيض).

لكنني في الحقيقة أشفقت عليه وقلت أطمئن جزعه ..

– أبدًا يا بابا دا انا باهزر معاها .. كنت باخوِّفها بس ..

انتصبت قامة أبي وطبطب على كتفي وهو يقودني للداخل .. وسمعته يسأل (سعاد) هامسًا في رجاء:

– لازم بكره ناخده للمستشفى يا (سعاد) .. أنا خايف من هوهوته دي تبقى مصيبة ....

ردت (سعاد) تطمئنه :

– ما احنا ميعادنا بكرة .. بس ما تقلقش ، قال لك إنه بيهزر يا خال .. ياللا . ياللا .. الأكل جاهز .. وم الصبح ح نروح للدكتور. في المستشفى الإيطالي ..

عاد أبي من المستشفى سعيدًا يكاد يطير من الفرحة لنتيجة الكشف . وإن لم ينس أن يؤنبني غاضبًا لأنني لم أعترف بالحقيقة . لقد أكد له الدكتور الطبيب أن هذا جرح عادي وتلوث قليلاً .. ولا علاقة له بأي عضة كلب .. وطهَّر الجرح وقال :

– ممنوع ينزل الميه لحد ما الجرح يلم . ياللا يا شقي براءة ..

لكن أبي هددني بعقاب شديد لما سببته له وللجميع من رعب وجزع . ولكنني قلت لأبي ببساطة شديدة ..

– يا بابا أنا قلت لك لما سألتني ، انها خربشة سلك شائك اتشنكلت فيه . انت ما صدقتنيش وصدقت (بهنونة المجنونة) عشان تعرف انهم بيكدبوا عليك تملِّي ويتبلُّوا عليَّ ..

– والسلك الشائك إيه اللي ودَّاك ليه ؟

لم أقل له طبعًا أنني تعودت واصدقائي الذين لا يحبهم أن ندخل من خلال قناة الري جنينة (سراية عبد ربه) ونحن نستحم أمامها في (السحارة).. وأن السلك طال بطن رجلي لعدم خبرتي ، معقول أقول ؟ ما قلتش طبعًا .

فرحة أبي لأني لم يعضني كلب و لم أنسعر فعلاً جعلته يقرر أن نأخذ يومين فسحة لنتفرج على (الإسكندرية) فوافق أن نذهب للبحر . وأكثر من ذلك وافق على أن نذهب للسينما وها أنذا أقرر بعد عقود طويلة أن هذين الحدثين كانا من أهم ما حدث لي وأثر في تكويني وخلد في نفسي تلك الزيارة القصيرة للإسكندرية ..

البحر والسينما ..

البحر ..

يا له من كائن ويا له من كيان ..

كنت أظن – إلى أن وقع نظرى عليه – أنني ملك الحقول الخضر وسلطان الترع .. ملك (الخمس) و(السباخ) و(أرض الطير) و(الساحل) .. وأنني المسيطر على مياه (البحر الصغير) و(المغذي) و(السحارة) و(الخرارة) و(الهدَّار) . وحتى (ترعة الجوابر) لا أطيق البعد عنها نهارًا واحدًا . وأنني أسرع من يعبرها سباحة أوغطسًا .. وأنني المرصود من جنيتها ذات الأصابع شبه البلح الأحمر .. فإذ بي وبمجرد أن عبرنا الكورنيش ووجدتني في مواجهته وجهًا لوجه أصابني الخرس أو أكاد أصاب بالشلل . واتسعت عيناي وفغر فمي في دهشة وبلاهة .. تعجب لها والدي الذي كان يكرس معظم وقته للحد من علاقتي بالماء .

عجزت عن النطق . كانت الجملة تدور في حروف مبعثرة أمام مخيلتي ولا أستطيع نطقها.. كلما انتظمت بعترها هجوم الموج المباغت الذي كان يعلو الصخور في إصرار ، وكأنه مصر على الوصول إلينا . ضحكوا أو قفزوا محاولين تجنب رذاذه .. أنا لم أفعل .. بل تجمدت عاجزًا عن نطقها ، أو نطق أي غيرها يعبر عما أحسه وأنفعل به .. احتاج الأمر

لربع قرن كامل لكي ينطقها (ابني أشرف /فيما بعد) .. معبرًا عن دهشته حين شاهد موج النيل يلاطم صدر الأوتوبيس النهري في أول مواجهة له مع الماء وهو لم يزل دون سن المدرسة . صاح في تلقائية ومرح ..

– يااااه .. الدنيا بتستحمى ..

لماذا جمد لسانى وعجزت أن أنطقها أمام البحر .. مع أني ساعتها كنت أكثر أهلية لذلك منه ، وكنت صاحب خيال يمرح مع الجن والعفاريت والجنيات . ويخوض حرب الليل ضد الخفافيش الطائرة .. والكلاب السعرانة . وكنت أخوض معركة الذهاب يوميًا إلى (مدرسة الجمالية) أركب لها الصعب مزنوقًا في أوتوبيس (عبده عواد) مع رعب عصا (الأستاذ هاشم) أو ممتطيًا ظهر موتور الديزل القادم مع الفجر وسط بائعات الجبن والفطير والخضار والسمك .. وكان لساني طويلاً ، يخوض فيما لا يجب أن يخوض فيه من هم في سني .....

لكن الأمر احتاج لربع قرن أو يزيد لكي تنحل عقدة لساني فينطق بنفس الجملة على لسان ولدي وليس أمام البحر وإنما أمام النيل .. ربع قرن طالت فيه شرارات وباء الكوليرا الأولى قريتنا لتخطف أكثر من ربعمائة عجوز وامرأة وطفل ورجل من فقرائها من بينهم عائلات بكاملها ، خلت منها بيوتهم وصارت خاوية على عروشها . وكادت تخطف مني أبي نفسه لولا أنني أحضرت له من جنينة (عبد ربه) نفسها التي عضني سلكها الشائك بضع ليمونات أعطاها لي (كامل أفندي) نفسه مع تمنياته لأبي بالشفاء وتأكيده لي أن أبي ليس مريضًا وإنما هو موهوم وكأنه كان يعلم ، لأن أبي قرَش الليمونة الأولى فكف عن الشكوى ، وقرَش الليمونة الثانية فتبسم وبشرنا بنجاته ، وقام مع الليمونة الثالثة ليجبرنا جميعًا على مص فصوصها .. لننجو.

ربع قرن من الزمان كادت فيها أظافر (عهد الإرهاب) أن تنتزع أبي من بيننا بتهمة انتمائه (للإخوان المسلمين) وهجموا على بيتنا يفتشون عن أي دليل . فلم يجدوا سوى خبر استقالته من تلك الجماعة في صدر صحيفة (الأهرام) وكان دخلها مع آخرين نكاية في الوفد عندما تولى الحكم بتدبير من الإنجليز . فاكتفوا بنفيه إلى (عزبة البرج) ثم (الشيخ ضرغام) في آخر بلاد يصلها (فرع دمياط) ويتركني لأكون رجل البيت كما أوصاني ثقة فيَّ وحمَّلني مسئولية خلافته وإدارة شئون بيتنا الخارجية مبكرًا ..

ربع قرن شاهدت فيه عن قرب فلول جيشنا العائد من (النكبة) نستقبلها استقبال المنتصرين ولأزين بصورة قادتها (الملح والفلفل) (المواوي والضبع الأسود) أغلفة كراساتي.. ثم أكتشف الحقيقة بعدما قرأت مقالات المصور عن الأسلحة الفاسدة وتحقيقات (روزاليوسف).. وكنت قد أرشفت صور الطائرات وصور البطل (أحمد عبد العزيز) ..

وسمعت حكايات عن مغامرتهم في أرض فلسطين وهتفت وغنيت وبكيت مع (يا مجاهد في سبيل الله)..

ربع قرن درت فيه على المدارس الثانوية ما بين (دمياط) و(المنصورة) و(المنزلة) و(كشك في زفتى) وصادقت عشرات وتتلمذت على يد عشرات . رأيت الدلافين في نيل (دمياط) وخيط جرح في رأسي في (المنصورة) وأنا أستحم في نيلها حين تشاجر أبناء شارعنا في (داير البندر) مع تلاميذ من شارع (العباسي) قذفني أحدهم بفردة قبقابه المسنونة على أسفلت الشوارع . ويسرع بي زملائي إلى المستشفى القريب . وأجد ألف حجة لأكذب على أمي فمعي شهود عدول..

ربع قرن قلب نظام الحكم فيها الضباط الأحرار . ولمست بيدي قبعة (نجيب) وهو يعبر بوابة الساحة الشعبية وأنا معلق على بابها أنبح في حسي وأنا أدعو بحياته وحياة مصر.. لينتهي المشهد الذي حضرت من قريتنا خصيصًا لأشارك منقذي الوطن وخالعي الملك عند زيارتهم (للمنصورة) فرحتهم والهتاف لهم لأرى بعد انفضاض المولد رهطًا من العسكر يضربون طالبًا يوزع (منشورات شيوعية) كما قال لي خالي عندما أعطيته الورقة التي التقطتها من الأوراق التي نثرها علينا . ولأعرف حين قرأناها أنها تلعن وتسب الذين سافرت أكثر من ٥٠ كم لأراهم ونبحت حسي هتافًا لهم . تنادى بسقوطهم لأنهم حبسوا الشرفاء وخطفوا الوطن وذبحوا عماله وتواطأوا مع الإنجليز والأمريكان عليه وعلينا . ولأعرف بعد سنوات طويلة أن ذلك الذي كان يوزع هذا المنشور ويضرب بسببه هو صديقي (فيما بعد) وزميلي (عبد الله الزغبي) المحامي .

• • •

قد شغفها حبًا . .

○ ربع قرن تتلمذت فيه على يد الشيخ (علي سعود) الذي أدَّبني بأدب الإسلام ولقَّنني الحديث والقرآن وأدخل في يقيني أن العقل هو ميزة الإنسان ، وأن الذي أُرسل رحمة للعالمين لا يمكن أن يكون أتباعه نقمة على خلق الله .. وأن جوهر الدين واحد منذ بدء الخليقة إلى الآن ، وأن لكل مقام مقال ولكل مقال مقام ، وأن الله جميل يحب كل جمال .. وأن عليَّ أن أُحكم عقلي في الأفعال والأقوال .. وأن هناك فرق بين المدني والمكي ، وأن التاريخ صار منذ الخلافة الأولى تاريخ المسلمين لا تاريخ الإسلام . وعلمني أنه لا إيمان مع الخوف ولا إسلام مع الإجبار، لأن الله علَّم الإنسان وخيَّره أن يختار . من شاء أن يؤمن ومن شاء أن يكفر .. بعد

أن حمل الإنسان (الأمانة) التي أشفقت منها السماوات والأرض والجبال والبحار والأنهار . ورغم ذلك لم يرحمه الذين أرادونا في قالب واحد .. نهتف عندما يريدون ونخرس عندما يشاؤون .. ويفقد (الشيخ علي) بصره في السجن . وتشاء الأقدار أن ألتقيه في (معتقل المزرعة) عندما قُبض عليَّ في أول مظاهرة بعد (النكسة) رفضًا للحزب الواحد .

٢٥ عامًا من السجون والمعتقلات والأحلام والانتصارات والأحكام الظالمة، والاعتقالات والسجن الانفرادي . وكم لذلك من شهداء .

٢٥ عامًا زخرت بأسماء ومعاني أخرى لنفس الكلمات .. تأميم القنال والبنوك . وشنق عمال وذبح ملوك . وعدوان وصمود وهزيمة وبإلقاء للسلاح وحل للتنظيمات .

٢٥ عامًا يولد في نهايتها ابني وسط هدير مدافع (أبو جاموس) وحريق الزيتية الشهير . ثم محاكمات هزلية تنتهي بأحكام فكاهية لينتفض المضروبون بالخديعة والآمال الكاذبة يطالبون الزعيم الذي خرجوا من قبل يرفضون استقالته .. يطالبونه بالخروج من قفص أعوانه إلى رحابة صدر الجماهير .. الذي اكتشفت أنه هو البحر .. البحر الأكثر روعة ورهبة وعظمة . وأيضًا عجزت أن أنطق أمامه . وسالت دموعي وقد عجزت أن أقول ما قاله ولدي بعد ٢٥ عامًا .. كانت ضرورية لحل عقدة لساني على لسانه بعد ربع قرن .

ومثلما خطف البحر روحي إلى مداه الشاسع الهدَّار المتلاطم سحرتني السينما كجني تسلل ليتلبس جسدي الهزيل الذي لم تكن تهدأ له حركة ، والذي كانت تسرقه خطفًا مياه البحر الصغير وترع (الخمس) و(السباخ) العكرة لتغرقه حتى في أيام التحاريق .

ابتلتني (الإسكندرية) إذن بأمنيتين لم أشف منهما أبدًا .. هما ضعفي

أمام خضم البحر المالح الذي لا شطوط له . والذي أسلمني له عشق جسدي لمياه النيل العذبة التي حولتني لكائن برمائي يسبح في جداوله وعروقه ، متحديًا سركاريا البلهارسيا وتوقيع والدي المعقد بالقلم الكوبيا على لحم فخذي ! وشغفي المرضي ببوابات ومداخل السينما في كل المدن القادمة التي زرتها في مصر أو في العالم .. والتي لم تستطع أي منها – على تنوع أشكالها وأحجامها وحركة الأنوار اللاهثة على جدرانها الملونة ، المتعددة السرعات والمختلفة الإيقاع وزجاجها الملوَّن عاكس الأضواء الثرية وحتى تلك القروية ذات الإمكانات الفقيرة – أن تنسيني تلك الرجفة المتطلعة المبهورة التي غمرتني بها بوابة سينما (الهمبرا) لأول مرة لتدشن ولعي بالعوالم الساحرة الأسطورية التي يخطفني إليها سحر الظلام حين أعبر برزخها إلى ما وراء تلك البوابات من مدى لا تحده مسافات ، غني بالأضواء والأنوار ، بالسماوات ذات الأقمار ، والغابات ذات الأشجار والجبال المكسوة بالخضرة والمتفجرة بالنار والمدن التي تخطف الأبصار ، والقرى الغارقة في غبش الأسحار ؛ تجتاحها الجيوش والفرسان وقطعان الوحوش ويسعى في حقولها الفلاحون وتضيء ليلها قصص الغرام .. أصبحت كل تلك البوابات منذ بوابة سينما (الهمبرا) هي بوابات الجنة بالنسبة إليَّ منذ أخذتني (نور الهدى) فوق عربة حبيبها لنركب دون أن يراها أو يراني .. وأغرتني (أسمهان) بشرب القهوة وشراء الورد . وأغواني (بشارة واكيم) بفاكهة الكلام المنغَّم الموقَّع المرح .. ودفعني للاحتماء بأبي الذي كان يجلس بجانبي رعبًا من احتشاد الأفق أمامي بخيول فرسان الحرس الملكي في تشريفة الأسرة العلوية وهم ينشدون لملوكها منذ (محمد علي) على أنغام الموسيقار العاشق القاتل (يوسف وهبي) في (غرام وانتقام) .

أعترف أن الطفل الريفي الساذج الذي خرج من السينما يومها لم يعد هو نفسه الذي دخلها متعثر الخطى فوق السجاد الأحمر عابرًا المدخل والممر الغامض المؤطر بالصور الملونة والأنوار الحية التي لا تكف عن الحركة ذهابًا وإيابًا .. إلى الفراغ الضخم الذي تؤدي إليه الأبواب المتحركة حيث بشر كثيرون من رجال ونساء ملونون يحدثون ضجيجًا صامتًا .. ويتحركون كالظلال ولا يكفون عن الفرح تحت إضاءة خافتة لا مصدر لها إلى أن تنفرج ستائر فاخرة ثرية عن ستائر بيضاء هفهافة لتنفتح مع الموسيقى الصاخبة نافذة لا أفق لها على حياة أروع كثيرًا من الحياة .. وبشر ليسوا كالبشر لحركتهم سحر خاص ولكلامهم وقع عميق ليس كالكلام ، تحمله أجنحة الموسيقى الغامضة إلى الوجدان ..

أي فرح كان يبعثه فينا القارب الذي تتقاذفه الأمواج تحت وابل القنابل ، يركبه رجلان على طرفي نقيض . أحدهما نحيف كالعصا والآخر سمين كالفيل .. وترتجف قلوبنا إذ ينقلب القارب ويجاهدان للنجاة تحت سماء غاضبة وبحر عاصف .. ليخرج السمين من جوفه أسماكًا حية تضحكنا من القلب . رغم قنابل الطائرات اليابانية التي كانت تطارد القارب . ونحن نكاد نموت من الضحك على تصرفات وهلع (الرفيع والتخين) وقاربهما التائه في البحر ، الذي لم يعد يشبه البحر . لكن تلك الطائرات وهديرها المخيف عمقت انتباهي – بعد أن خرجنا من السينما إلى تلك البنايات الكثيرة المهدومة ، بسبب طائرات تشبهها كانت قبل عام تقصف هذه المدينة وتهدم بيوتها فوق رأس أهلها والذين دُفن بعضهم تحتها وعاش آخرون كثيرون يقتلهم الخوف والرعب دون أن يثير ذلك أي قهقهة أو ابتسامة .

قالت العمة (سعاد) ضاحكة :

– طبعًا .. اضطررنا للهجرة عندكم خوفًا ، فلم تكن الحرب أيامها فيلم يا ابو سمرة .. واهي كانت فرصة عظيمة نشوفكم وتشوفونا ونوصل حبل الوداد مش كده يا خال ؟

غمغم والدي موافقًا . وأظنه كان أكثر مني يعيش حالة وجدانية سينمائية فهو الذي اختار الأفلام والسينما ليشاهد (يوسف بك) وليسمع (أسمهان) .. وعرفت ساعتها أن أبي ليس على هذه الدرجة من الجهامة.. وبدأت أكتشف فيه أشياء أكثر رقة .. هي بالتأكيد التي دفعته فور عودتنا إلى شراء الراديو الذي ميز بيتنا وأعطاه لمسة مميزة عن بقية البيوت .

اكتشفت أن الظلال المتحركة التي كان يجسدها خيالي على الجدران أشباحًا وأشخاصًا وجنيات وعفاريت في أمسيات وليالي الحوش في بيت جدي أثناء مواسم الحصاد ، تخلقت لي من وهمها عوالم موازية للواقع من الظل والنور هي التي هذبت وجداني فأوقعتني أسير سحر السينما الغامض تلك الليلة في الإسكندية حين غزت مشاعري وروحي فيها الأضواء والألوان والموسيقى والأصوات التي تتجسد فيها وبها تلك الشخصيات النوارنية التي لا تشبه أحدًا من عالم قريتنا التي لم تعرف بدعة السينما بعد . حتى عاصمة المركز (المنزلة) لم تكن عرفتها و لذا ارتبطت فى نفسى غوايتها المبهرة بالمدينة الكبيرة فحسدت أهلها . وهالني الفارق الرهيب بين متعها الملونة وليالي القرية الرمادية الكالحة .

كانت رحلاتنا النادرة التي اصطحبني فيها أبي إلى المنصورة بعد رحلة الإسكندرية ، قصيرة وخاطفة فأبي كان يكرهها . وكان يصحبني ليخفف من وطأة أحزانه سبب مأساة مقتل أخي (سامي) يوم سقوطه وموته الدامي على اسفلت الشارع من شرفة منزل خالي ونحن نأكل

الفسيخ في احتفالية عائلية ذات نهار فاجع . وفي مرة تالية ضاع نهارنا ونحن نبحث عن أربع عجلات متماثلة للعربة التي صنعها بنفسه لنقل بطارية الراديو لكي تشحن في وابور الطحين يوميًا . واقتضى ذلك أن نقضي الوقت في البحث والفحص الدقيق في أكوام الخردة والمساومات مع تجار المهملات والأدوات القديمة ما بين مخازن (داير البندر) وأسواق (الشيخ حسنين) (والعباسي) (والحسينينه) لدرجة لم يتح الوقت لي سوى التمني المستحيل أن يطفئ أبي أشواقي بعبور بوابة (عدن الذهبية) التي كانت واجهتها تزدان بصور ملونة لفارس على حصانه تلاعب الريح ثيابه العربية يشهر سيفه لينقذ معشوقته الجميلة التي تحيط بها النيران وفي الناحية الأخرى صف من النساء الملائكيات الجميلات يرفعن سيقانهن العارية في تناسق وإيقاع منغم واحد مذهل . بينما تقودهن للماء حورية من بنات الجن تكشف عن ساقيها – هي قائدة (السابحات الفاتنات) كادت تدفعني صورهن للبكاء وأن أطلب من أبي – ونحن في طريق عودتنا بعد انتهاء اليوم الشاق – أن نبيت الليلة عند خالي لندخل السينما فنبشت بئر أحزانه وكان متعبا وهو الذي لم يكن من يومها يذهب لبيت خالي هذا حتى لا تفتت قلبه ذكريات مقتل ابنه فنهرني بحدة وهو يكظم حزنه محتجًا بتعب اليوم الشاق.

في الوقت الذي ظلت فيه تلك العربة العجيبة والتي تبدو وكأنها تنتمي لعالم الحكايات . يجرها رجل عجوز يتقدمه ويتبعه آخران أحدهما يدق الطبل والآخر ينفخ بوقًا نحاسيًا يزفون في مرح ذلك الهرم الخشبي ذى الوجهين الملونين يحمل كل وجه صورًا ملونة تعلن عن مشاهد لأبطال الأفلام التي أبكاني أنني لن أراها ..

كانت تلك العربة – والضجّة التي تصاحبها – تبدو لي كأنها تطاردني

أنا بالذات لتزيد حسرتي ، فتلوح في لحظة عابرة في آخر الشارع الذي نمشي فيه لتفاجئني وتقطع علينا الطريق ونحن في شارع (داير البندر) . ثم تعود لتلحق بنا في (السكة الجديدة) ثم تواجهنا ونحن على وشك صعود السلم إلى محطة قطار العودة وفي كل مرة أعاود الإلحاح على أبي أن يرق ويوافق على الاستجابة لإغرائها الغامض فنبيت الليلة لندخل السينما بلا فائدة .

كان أبي مصرًا على العودة متجاهلا كل هذه الإغراءات للفرجة على تلك الأفلام ودخول جنة (عدن) .!

وعدنا .. ولكن قلبي ظل يجوب شوارع المنصورة خلف تلك العربة الملونة بطبولها وبوقها وكأنني البهلوان ذى الطرطور الأحمر أبو الشراشيب والبدلة المرقعة بعشرات الألوان الذي يتقافز حولها يرقص ويغني مرسلا خياله إلى إغفاءاتي مقتحمًا . غيامة الدمع الذي ظل يترقرق حسرة في عيوني بسبب القهر الذي يلاحقني لأنني لم استطيع أن أتذوق وأستعيد مرة أخرى تلك الحالة التي أدهشتني وزلزت كياني في سينما (الهامبرا) ..

وظل أبي يراضيني معتذرًا عن رفضه تحقيق حلمي كلما مررنا بمن يبيع شيئًا من مغريات الصبيان .. لكن حزني كان شديدًا لم تخفف منه أكواب العصير (السيفون) التي بهرتني الآلة التي تشحن الليمون بالغاز فتعطيه طعمًا ومذاقًا حضريًا .. ولم يحّول كوز البطاطا ولا قرطاس الترمس والفول المعصفر تكشيرتي إلى ابتسامة رضا .. حتى العشرة قروش الورقية الجديدة لم تفلح فى ذلك إلا حين أوحى ملمسها لي بفكرة أنني أستطيع عن طريقها مع بعض التفكير والحرص أن أدبر بهدوء لمغامرة محفوفة بالمخاطر أستطيع القيام بها دون تسلط من أحد .. لكي أحقق

حلمي بمعايشة (السابحات الفاتنات) المضيئات على واجهة جنة (عدن) .

ظلت الفكرة تطاردني وتملأ علىَ تفكيري .. فأخذت أتحرى عن مواعيد القطارات الذاهبة إلى (المنصورة) وتلك التي تغادرها إلينا .. وأجمع القروش قرشًا فوق قرش كبخيل أراري وأحرم نفسي حتى من الضروريات و لم تكن كثيرة .. خاصة وقد استطعت أن أقلل من (مشاغلي) المحلية مثل رغبات السباحة ومغامرات السطو على جنينة (على أبو حسن) . حتى تجمعت لدى كل الأدوات والمعلومات التي تجعل الرحلة لمشاهدة (السابحات الفاتنات) ميسورة وقليلة المخاطر . رسمت خطتي أن أسافر في أول قطار متجه إلى (المنصورة) والذي يستغرق حسب تحرياتي ثلاث ساعات ونصف تقريبًا .. فأصل إلى المنصورة في العاشرة والنصف . فإذا استغرقت المسافة بين المحطة وبين السينما نصف ساعة أخرى واستغرقت حفلة السينما ساعتين ونصف فسأجد أمامي وقتًا مريحًا كافيًا للعودة في آخر قطار يغادر (المنصورة) . صحيح أنه قطار بضائع ويستغرق وقتًا طويلاً إلى قريتنا بحكم بطئه الشديد وكثرة المناورات التي يقضيها في معظم المحطات لقطر أو لترك عرباته المحملة بين القرى المختلفة..

ولكن كل هذا مقدور عليه (فأنا ابن اخت فتوح أفندي) وهذا سيسمح لي علاوة على توفير تكاليف التذاكر ذهابًا وعودة سوف يعطيني فرصة لركوب قطار البضاعة .. أما تأخري في الوصول فليس مهما .. فكثيرًا ما كانت مغامراتي المحلية تستحوذ علي وتنسيني مواعيد العودة المناسبة للحاق بموعد تناول العشاء العائلي المقدس ..

وضعت الخطة .. واخترت موعد السفر . وحاولت أن أحسن من علاقاتي بالعائلة وأكون مثالاً للطيبة والسماحة وتأدية كل ما يطلب مني من طلبات وتأدية كل ما تأمرني به أمي وأبي وأختي من مهام لدرجة

أثارت دهشة الجميع ودفعتهم لتخمين سبب هذه الروح الملائكية ، و لم يخطر لهم ببال أنها نسائم عطرة من جنة سينما عدن .. وبركة السابحات الفاتنات ..

في صباح اليوم الموعود استيقظت مبكرًا .. أو قل أنني لم أنم تقريبًا ليلتها من شدة التوتر والانفعال ..

تسللت مع دغميشة الصباح من البيت إلى المحطة .. في الوقت المناسب وحاولت ألا يلاحظني أحد وعندما وقف القطار أسرعت وحشرت نفسي بين زحام ركاب الصباح البدري الذين وجدتهم يختلفون عن المتجهين في نفس الوقت إلى الاتجاه المعاكس والذي تعودت أن أسلكه خلال سنوات دراستي في مدرسة الجمالية طوال عامي ما بعد الحرب ..

لم يجادلني الكمساري طويلاً .. بل ورحب بي عندما عرف أنني (ابن أخت فتوح أفندي) وأنني ذاهب لزيارته في شارع (سيدي عبد القادر) (بالمنصورة) لشأن عائلي ..

– انت (سمير ابن عبد الباقي أفندي) . ومسافر وحدك ليه يا سمير؟. أنت معاك زيارة؟..

– لا .. أنا مش واخد زيارة .. دانا ح اوصل له رسالة !

في المحطة التالية ، جاء وأشار إلى أن أتبعه فنزلت وراءه .. فإذ به يأخذني إلى عربة السائق .. ويطلب منه أن يرعاني حتى يسلمني لخالي يدًا بيد !..

ورغم ابتسامته الطيبة ومبادرته المجاملة .. إلا أنني فسرتها برغبته في عزلي عن ميدان نشاطه .. حيث كان المعروف عنه لدى الجميع أنه استطاع من خلال اختلاس نسبة كبيرة من الإيراد الذي يحصله دون

تذاكر . أن يشتري (لوكاندة) كاملة في حي (الحسينية) ولذا خشى أن ألاحظ ذلك فتفلت مني خطأ أو وشاية كلمة غير مقصودة أمام خالي عما ألاحظه وأراه .

في محطة المنصورة أسرعت بالنزول من القطار والذوبان وسط جموع الركاب حتى لا يلحظني (صللي) أفندي ويسلمني لخالي وإن خمنت أنه لم يهتم بذلك . مثل السواق الذي انشغل عني بمناورات الوصول .

أسرعت في اتجاه باب الخروج قبل أن ينتبه احدهم لي فيقوم بتسليمي ! حين وصلت البوابة اكتشفت أن الخروج سيكون مستحيلاً دون لفت الأنظار وكان علي أن أبرز تذكرة الركوب ليسمح لي بالخروج موظف أبهة ذو كرش يليق بباشا يرتدي زيًا رسميًا أخضر اللون تزينه أزرار نحاسيًا وشرايط ملونة على الذراعين تضفي عليه هيبة بعثت الخوف في أوصالي. فعدت أبحث عن (صللي) أفندي لإنقاذي وإخراجي من هذه الورطة.. ولما لم أره أخذت أردد بيني وبين نفسي (أنا ابن أخت فتوح أفندي) أهمس بها ثم أتمتم محاولاً تدريب نفسي على نطقها دون شبهة كذب أو استرحام . ولما اقتربت من الرجل المهيب الذي كان وجهه المستدير المربرب الحليق يدل على مكانة سامية توحي مع بدلته المكوية وكأنه رئيس مجلس الإدارة نفسه . وشعرت كم سيكون محرجًا جدًا لخالي أن يعرف مثله أن أولاد أخته وأقاربه يركبون القطار (سفلقة) وسيغضب خالي لهذا الإحراج جدًا .. وهو الرجل الدوغري !

تقدمت مضطربًا من الرجل الفخم حارس البوابة أحاول أن أبدو عديم الخوف .. ونطقت الجملة التاريخية من طرف أنفي، عندما مد يده طالبًا التذكرة .. ولا أدري هل سمعني أم لا .. لأنه دون كلمة أو رد، مد ذراعه وأطبق بكفه على يا قتي ثم أطاح بي خلف ظهره السمين.

ووجدت نفسي محشورًا بين الحائط المدهون بالزيت وظهره العريض ذى التضاريس التي خنقتني .. وألجمتني المفاجأة وشلني الرعب .. و لم ينطق هو بكلمة و لم يلتفت نحوي لدرجة ظننت أنه لم يسمعني فقط بل و لم يرني أصلاً ..

ظللت مشلول التفكير لفترة وحين استعدت نفسي والتقطت أنفاسي بدأت أفكر في طريقة للهرب من الأسر والتسلل بحثًا عن أي مخرج عبر سور المحطة .. ثم شلني تفكيري – كيف سيستقبل خالي هذه الكارثة حين يصله أن ابن أخته ظبط متسللاً من (ميت سلسيل) حتى (المنصورة) بلا تذكرة .. مستخدمًا إسمه ؟!

فجأة سمعت من بعيد خالي ينطق إسمي في دهشة واستغراب بصوته العميق الآمر الذي يجبر من يسمعه في الأحوال العادية على التزام حدود الأدب :

– سمير ؟!

لم أتبين حقيقة لهجته في البداية لأنني ظننت أن ذلك أحد هلاويسي .. لكنه كان صوته وكان هو بشحمه ولحمه منتصبًا أمامي وأنا محشور لا أستطيع الحركة خلف ذلك الفخم الذي تراخي أمام حضور خالي الطاغي فأفسح مجالاً لحركتي مواجهًا خالي :

– إيه اللي جابك هنا ؟.. وواقف كده ليه ؟

لم أجد فرصة للإجابة لأن لساني انعقد وتجمد في حلقي عندما رأيت ظهر الرجل الفخيم يلين ويلتفت إليه ويرفع ذراعه التي سجنتني بما يشبه التحية العسكرية ويقول فيما يشبه الاعتذار :

– أنت تعرفه حضرتك يا سعادة البيه ؟

– ده ابن أختي .!.

وأتبعها بضحكته المميزة المجللة التي أحبها في الظروف العادية فهرب الخوف مني واستعدت روحي خاصة وقد عقد الرجل الفخيم ذراعيه على صدره وأضاءت ابتسامة اعتذاره وجهه الذي بدا كسيد قشطة طيب ونبيل يقول :

– هوه قال لي .. وقلت لازم أوصله بنفسي لحضرتك !

أسرعت أنا ملهوفًا خجلاً إلى حضن خالي .. لكنه أمسكني من كتفي وقد اختفت ابتسامته وقد فهم الأمر .

– أوعى تكون ركبت القطر لوحدك ؟!

بلعت ريقي وقلت أطمئنه :

– لا أنا كنت مع (صللي أفندي) .. بس تاه عني وكنت هنا أسأل عليه .

عادت إليه ابتسامته الحانية وربت على كتفي وقال :

– طيب يا للا .. عشان تسبقني على البيت .. يا (خضري)!!

إنشقت الأرض عن رجل طويل بصورة ملفته وتسبق رأسه جسده اللاهث وكأنها تجره خلفها . لتعطي ما يكفي من حرية لحركة ذراعيه الطويلتين فتتطوحان بلا رابط ولا محاولة لحفظ توازنه فوق ساقيه الفارعتين المرتبكتين :

– نعم يا افندم .!

– تاخد (سمير افندي) وتوصله إلى البيت . تسلمه للست هانم يدًا بيد وترجع لي قوام . وتقوم لهم يحضروا الغدا على ما آجي .. يا للا يا (سمير افندي) !

أعجبتني (سمير افندي) هذه وإن لم تستطع إخفاء حسرتي لأن الأمور تمضي على نحو لا أريده .. وجود هذا الحارس الفارع سيفسد

خطتي التي لم تعمل حساب مقابلتي لخالي من أصله . لكنه لم يترك لي فرصة بعد أن أصدر أوامره (للخضري) وتركني له ومضى ليطلق أوامر أخرى بينما أصابع حارسي الطويلة تقبض بشدة على ذراعي لتظهر مدى تفانيها في تنفيذ الأوامر ..

خرج بي (الخضري) من المحطة وقد تحطمت أحلامي في سرعة الانطلاق إلى سينما (عدن) ورؤية الأفلام والعودة كما رتبت وخططت.. وودعنا الرجل الفخيم بابتسامة طفولية رائقة كأنه يسخر مني لافساده خطتي دون أن يدري .. فقد أصر على تحيتي بضرب تعظيم سلام وهو يقول راضيًا عن نفسه :

– مع السلامة ..

لم ألتفت . ولم أرد عليه ، فقد كان كل همي ساعتها أن أنفلت من قبضة (الخضري) الفولاذية .. لأحاول إنقاذ ما يمكن من خطتي لرؤية الأفلام والعودة بسرعة . لأنني لو وصلت إلى بيت خالي .. فلن أستطيع أن أفعل شيئًا وسيكون موقفي في غاية السوء .. خاصة لو عرف خالي حقيقة السبب وراء مغامرتي التي يهددها الفشل الذريع .

بعد أن عبرنا الكوبري ، مضينا في طريقنا وأنا لا أكف عن التفكير في طريقة للإفلات من قبضة (خضري) وجدت نفسي أمام محل العصير الذي سقاني فيه أبي عصير الليمون المعالج بآلة الغاز . فطلبت من (خضري) . أن نشرب العصير لكنه اعتذر بأنه لا يحمل نقودًا الآن .. فأخبرته أنني سوف أضيفه فتمنع ثم قبل بعد إلحاح وخفت قبضة أصابعة . دفعته أمامي لداخل المحل وتعمدت ان أغريه بالجلوس في عمق المحل .. بينما طلبت أنا من الرجل الذي يعمل على آلة الغاز (السيفون) كوبين من العصير وحملتهما إلى حيث يجلس (خضري) ووضعتهما أمامه ، واستأذنت منه لأدفع الحساب .. وعدت إلى مقدمة المحل حيث الرجل المنهمك في ضخ

الغاز في أكواب العصير . وكنت قد دفعت له الثمن مقدمًا .. وخرجت بسرعة قبل أن يتنبه (خضري) لغيابي وانطلقت في (السكة الجديدة) بعيدًا حتى وصلت إلى شارع يؤدي إلى (السكة القديمة) ومنها إلى شارع البحر قاصدًا سينما (عدن) ..

حين وصلت إلى السينما صدمت .. فلم تكن هناك حفلة في الساعة العاشرة .. ولم تكن السينما تعمل سوى حفلتين في السادسة والنصف وفي التاسعة مساءًا ولا تشتغل حفلات نهارية سوى يوم الجمعة فقط !.. وحزنت لدرجة كادت تخنقني دموع الغيظ .. ولم يكن أمامي سوى أن أذهب للبحث عن (خضري) وأدعه يسلمني إلى بيت خالي .. أو أن أعود مكسور الخاطر إلى القرية ، دون أن أشاهد (السابحات الفاتنات) .

مضيت أتسكع أمام السينما أتأمل الصور الملونة المعروضة في الفيترينات الزجاجية .. وارتحت قليلاً عندما علمت أن (الفيلم) سيعرض قريباً وليس الآن . وطيب هذا خاطري قليلاً وأخذت أدور حول السينما حزينًا .. وقررت العودة لأصل قبل انكشاف غيابي لأهلي فقد يخفف هذا من تقريعي ، لما سيسببه سفري دون إذن من قلق وفوضى .

تجنبت طريق (السكة الجديدة) حتى لا يقابلني (خضري) ومضيت أقطع (السكة القديمة) في اتجاه المحطة .. في (ميت حدر) وجدت نفسي أمام سينما أخرى قرأت اسمها (سينما ركس) وكان مدخلها يعج بعدد من الصبيان في مثل سني يتطلعون بشغف لما على الحوائط خلف الزجاج من صور .. أكثرها لأفلام أجنبية ولأبطال يركضون فوق الخيول ويطلقون الرصاص .. ويقبلون نساء في غاية الجمال .. وكان الصبية حولي يحدثون ضجيجًا عاليًا ويقلدون أصوات الرصاص بأفواههم ويتبادلون اللكمات الوهمية .. واندمجت في الفرجة عليهم ثم خفت أن أتاخر فهممت

بالإنصراف أسفًا .. لكني لمحت عربة يد بجوار مدخل السينما عليها كوم من الصور الملونة لممثلين وممثلات مصريات وأجنبيات ولما سألت الرجل الذي يجلس على طرف العربة قال أن الصورة بقرش ولما ترددت قال :

– بتعريفة الصغيرة والكبيرة بصاغ !

قاومت ترددي وأقنعت نفسي أن هذ قد يكون تعْويضًا كافيًا لعودتي دون رؤية الفيلم .. أخذت أفحص الصور وأقارنها وأختار منها الأجمل . وكم كانت فرحتي حين وجدت واحدة لطابور (السابحات الفاتنات) .. ودفعت تمن المجموعة ومضيت إلى المحطة سعيدًا رغم تأكدى أن الرجل غالىَ فى الثمن، ولكنى لم اكن املك وقتا للمساومة كما اقنعت نفسى أن صرامته لن تسمح بأى تفاوض مما جعلنى أمضى .. نصف مجبور الخاطر .. نصف قلق لما سيفعله خالي عندما يعود (خضري) إليه ويعلنه فقد الابن الثاني (لعبد الباقي) في الزحام !

تسللت إلى شباك التذاكر وقطعت تذكرة (لميت سلسيل) وعبرت البوابة عندما تأكدت أن الرجل الفخيم ليس هو الحارس عليها . توجهت إلى القطار المغادر بعد قليل واختفيت في جوفه حريصًا على ألا يراني أحد. أراقب فضاء المحطة في قلق .

وقبل أن يتحرك القطار توجهت إلى أحد العمال الذى يشير للقطار بالرحيل وقلت له :

– أنا ابن أخت (فتوح أفندي) .. لو سمحت لما تقابله قول له إن (سمير) ركب القطر ورجع (ميت سلسيل) .

متصورًا أن هذا قد يخفف قليلاً من الاضطراب الذي قد يكون سببه ضياعي في الزحام.

• • •

عقدة من لساني . . .

○ كنت في الثامنة تلميذًا في الصف الثاني الابتدائي .. في مدرسة (الجمالية دقهلية) التي تبْعد إلى الشرق من قريتنا مسافة ٥ كيلو مترات تقريبًا ..

كنا نركب للذهاب إلى المدرسة واحدة من اثنتين .. قطار سكة حديد وجه بحري (الفرنساوي)، الذي عادة ما يكون قاطرة تسحب عربة أو عربتين، مفتوحتين من كل جانب للهواء الطلق . إن أمكن إغلاق بعض شبابيكها في الشتاء تكون نعمة وفضل .. أو يكون قاطرة طويلة، هي القاطرة والعربة في نفس الوقت، حيث يجلس السائق في (كابينة) ضيقة جدًا في المقدمة، بينما الموتور الضخم يملأ فراغ الجزء الأكبر من العربة. تتناثر حوله عدة دكك خشبية أو حديدية . في

الشتاء يكون ركوبها نعمة في الحقيقة ، إذ أن الموتور رغم صوته المزعج وأبخرة الجاز والزيت المتصاعدة منه يصبح ملاذًا من البرد . خاصة وأن موعد تلك العربة (المكيفة) كان الصباح الباكر جدًّا.. قبل شروق الشمس بكثير ..

يتكدس الركاب في فراغ (الديزل العربة) حول الموتور وفوقه .. وكان ركوبها في الشتاء كما قلت ، نعمة حيث الزحام تلاحم والحديث صراخ ، والضجيج يخترق سكون الريف الهادئ المدغمش ، ليعلن أن هناك ما سيقلق راحته إلى الأبد ، مبدلاً الروائح والأصوات والمناظر والعلاقات داهمًا كل شيء منذرًا بعصر الصراخ وبخار الزيت والنفط والزحام ..

كان اللحاق بالقطار على أي صورة ينجينا مما نتعرض له في المدرسة ، إذا ما فاتنا الموعد واضطررنا لركوب الوسيلة الثانية، وهي أوتوبيس شركة الشرق (فؤاد درويش) .. مع سائقه الأشهر الأسطى (عبده عواد) الذي كان في حالات روقانه ، يتركنا نزمر بدلاً منه ، مطلقين ذلك الصوت الفريد العميق العريض الغامض .. إذا ما أسعد الحظ أحدنا ووجد مكانًا إلى جواره ..

في السادسة والثلث عادة .. كان الديزل ذو الموتور الهادر يأتي مهتزًا ذات اليمين وذات الشمال على القضيبين الرفيعين المتجاورين كأنه فقي في حلقة ذكر ، يكاد يصل إلى لحظة الاندماج .. مخترقًا دغميشة الصبح غير مكترث بالضباب أو البرد أو حتى الظلام ..

نسرع عبر الحواري الضيقة الملتوية مع أول صرخة يطلقها عند مغادرته قرية (الكردي) .. تلاميذ وتجار سمك وتاجرات خضار وبائعوا أقشمة وحصر وعمال وموظفون ومزارعون لهم مشاكل في المحكمة

أو المركز . و لم يحدث أبدًا طوال مدة دراستي – في مدرسة (الجمالية) الابتدائية في الفترة الممتدة من قبيل – هبة الطلبة والعمال ضد (النقراشي وصدقي) والانكليز إلى ما بعد نكبة ٤٨ ، إن سمعت زمارته تلك و لم ألحق به إلا في مرات قليلة .. قد أحكي أسبابها إذا سمحت الظروف . فكل من يسمع صوته .. يمكنه أن يلحق به .. هذا هو قانونه العرفي الذي التزم به الجميع . والذي يرتب الكل عليه حياتهم سواء كانوا تلاميذ أو باعة .. أو مدرسين ..

حين كنت لا أفعل ، كنت انتظر عربة عم (عبده عواد) التي كانت تصل إلى قريتنا بعد السابعة بقليل ، وفي ذلك كانت مخاطرة كبيرة ، تعرضني وأمثالي لخطر تلقي وجبة إفطار ، من مسطرة أو خرزانة الأستاذ (هاشم) مدرس الألعاب الرياضية .

ولأن الأسطى (عبده عواد) رجل طيب ومؤدب ومجامل ، يعرفه كل ركاب الخط .. لم يكن يهمه الإسراع بقدر ما يهمه انتظار كل مسافر براحته .. ومنهم الأستاذ (هاشم) نفسه .. الذي كان غالبًا ما يلمحه الأسطى (عبده) من بعيد مخترقًا حقول قريتهم (ميت مرجا سلسيل) ، التي تفصل بيوتها عن السكة مسافة ما يقرب من نصف كيلو متر من الحقول ، فيضطر لانتظاره حتى يصل إلى الزراعية ، عبر الجسور الزلقة بفعل الندى أو المطر. وهو صاحب الجسم السمين الثقيل الخطو والحركة .. وبعد ذلك ينتظره الجميع إلى أن تتم بنجاح عملية صعود (الأستاذ) ، واختراقه كتلة الركاب التي يشكل الفراغ بجوار السائق بروزًا شديد الكثافة منها .. لذا كانت عملية حشر الأستاذ (هاشم) تأخذ وقتًا حتى تستوعبه الكتلة متعددة الرؤوس وتمتص الكتلة ذات الرأس الواحد ..

والحقيقة أن قلوبنا ، نحن تلاميذ مدرسة الجمالية الابتدائية، الذين لم يسمعوا زمارة الديزل مثلي – و لم يلحقوا به .. كانت تسقط في أرجلنا. ونظل نتمنى وندعوا الله أن تبوء محاولات إدماج كتلة الأستاذ (هاشم) في الكتلة الأم بالفشل . لكن طيبة (عم عبده) التي تفوق سماحه لنا أن نزمر بزمارته .. كانت تدعوه للوقوف حتى تتم عملية الإدماج بسلام .. ومن ثم يقطع الكيلو مترين الباقيين سعيدًا . يتبادل النكات مع الأستاذ (هاشم) الذي يكون حضوره قد شكّل ثقلاً أخرسنا .. وما أن تقف العربة .. وتبدأ كتلة الأستاذ (هاشم) مناورات الانفصال عن الكتلة الأم ، حتى يدفع بنا تخلخلها ويقذف بنا خلفه إلى الأرض ..

يا ويله من يحاول منا الإسراع كي يسبقه إلى المدرسة .. فالأستاذ (هاشم) يكون خلال وقوفه بجوار السائق قد أحصانا وعرفنا واحدًا واحدًا .. وما أن يصل موكبنا – وهو يتقدمنا – إلى باب المدرسة .. وما أن يفتح الباب ويدخل .. حتى يتناول العصا من يد البواب أو يأمره بإحضار أي شيء يصلح للمهمة .. تعودنا لحظتها أن نرص أنفسها في طابور ونتقدم فاردين كفوفنا مقلوبة ، معرضين ظهرها لتلقي ما يسمح به كرم وعطف الأستاذ (هاشم) جزاء تأخرنا عن اللحاق بالديزل .. ومساهمتنا في حشره في زحام الأوتوبيس ..

هذا ما كنت أعتقده أنا .. الأستاذ (هاشم) لم يصرح بذلك ، وإنما كان يجد سببًا أو آخر لعقاب كل منا .. هذا لم ينظف حذاءه .. ذلك لم يحضر منديلاً .. والآخر لم يقص أظافره .. وأنا لم أقصِّر شعري .. ولكني مع ذلك كنت مصرًّا على اعتقادي – أنه إنما يعاقبنا لا على التأخر عن موعد الطابور وبداية الحصة الأولى ولا أي سبب مما يذكر .. وإنما لمزاحمتنا له على سلم الأسطى (عبده) ولأن وجودنا بجوار السائق كان

يحرجه ويحرمه أن يقوم ولو لمرة واحدة – بإطلاق الزمارة العجيبة ذات الصوت الغامض الساحر الممطوط . مثلما نفعل نحن .

في تلك السنة قررت المدرسة الاحتفال بمولد (حضرة النبي) احتفالاً كبيرًا .. تشترك فيه القرية كلها .. وخاصة أن الاحتفالات ومواكب المولد كانت مؤجلة طويلاً بسبب الحرب ..

استعدت المدرسة بتجهيز فرق القسم المخصوص والكشافة.. وانهمكت مجموعات في حفظ أناشيد وأغاني دينية ومصرية .. كما اختير عدد من الأولاد لحفظ والتدريب على تمثيلية دينية ، ألفها مدرس اللغة العربية (الأستاذ المعاملي) .. والحقيقة أن الاستعداد لهذا الاحتفال الكبير جعلنا نكتشف الأستاذ (هاشم) من جديد .. فقد كان شعلة نشاط. كان الدينامو المحرك لتدريبات فرق الكشافة والقسم المخصوص ، باعتباره مدرس الألعاب . ولكنه أيضًا كان يلحن الأناشيد وأيضًا هو الذي يقوم بتدريب فريق التمثيل الذي كنت أحد أفراده ..

كانت (كتلة) الأستاذ (هاشم) (تطز) ككرة خفيفة من المطاط العجيب بين الطوابير والمجموعات .. في رشاقة وخفة .. يتدحرج هنا وهناك .. يلقي تعليماته بصوت إوزة سمينة تعرف أنها سوف تذبح في المساء .. كان قد اختبرنا في التمثيل وفي الحفظ .. ووقع اختياره عليَّ لأقوم بدور (الأمين) .. ولعب صديقي (المرسي) دور (أبو جهل) .. و(عزيز) دور (أبو لهب) .. بينما قام (عبد الحميد) بدور (عبد المطلب) .. وكمال بدور (أبو طالب) .. وآخرون بأدوار (عمر) و(أبو بكر) والآخرين ..

كانت القرية بقيادة المدرسة ، والمدرسة بقيادة الأستاذ (هاشم) ، تقفان على قدم وساق لعدة أيام سبقت الاحتفال .. نُظفت الشوارع وتم كنسها ورشها .. انتظم الباعة في أماكن بعينها .. بعيدًا عن المسار المحدد للموكب وعُلقت الزينات .. فوق واجهات الدكاكين وفي الشرفات .. أعلام ملونة حمراء وصفراء وسوداء .. علاوة على علم مصر الأخضر الحبيب ذي الهلال والنجوم الثلاثة ..

ابتدأ الموكب من المساحة الخالية أمام المدرسة ، يتقدمه مدير المديرية ومأمور المركز والحكمدار وعمدة (الجمالية) . وطبعًا ناظر المدرسة ورجال مجلس المديرية وأعيان البلدة والقرى المجاورة .. وخلفهم كان طابور الخفراء والعسكر وأمامهم طابور الكشافة والقسم المخصوص في خطوة منتظمة على هدير دقات الطبول .. وصفارة الأستاذ (هاشم) الذي كان يتحرك في رشاقة وخفة كعصفور .

وخلف الموكب الرسمي سارت عربات الكارو تحمل كل واحدة رجال حرفة من الحرف، حدادين ونجارين وخياطين وحلاقين ونقاشين وترزية ومبيضي نحاس . وقصاصين وسروجية وصناع حصر وأقفاص.. صيادين وصناع مراكب .. وكل منهم يمارس فعلاً من أفعال حرفته. وعلى الجانبين تجمع أهل القرية والقرى المجاورة . وانطلقت الزغاريد من الشبابيك والشرفات ومن فوق أسطح المنازل ، حيث لاعبت الريح شيلان وطرح وجلاليب الفتيات والنساء الملونة .. واختلطت صيحات الفرح بالزغاريد .. بتهاليل المنشدين ورنات صاجات أصحاب الطريقة مع المزاهر والدفوف ..

مر الموكب في كل الشوارع الرئيسية بالقرية ، ليعود مرة أخرى إلى حوش المدرسة حيث جهزت مقاعد لعدد كبير من الضيوف وأهل القرية

وأولياء الأمور .. وحيث كانت خشبة مسرح قد أقيمت بين حجرة الناظر وحجرة الأشغال وهي شرفة مربعة يظللها سقف من الخشب ، علقت على مقدمتها ستارة متحركة .. صنعها الأستاذ (العشي) مدرس الرسم ، بطريقة فنية . بحيث تفتح وتغلق كأي ستارة مسرح ، بواسطة حبل واحد يتولاه أحد التلاميذ .

وكانت غرفة الناظر المحرَّم دخولها أو الاقتراب منها لغير ضرورة مؤكدة ، قد أصبحت غرفة للملابس وللمكياج .. شغلناها نحن الذين تدربنا على التمثيل لتغيير الملابس، ووضع ما يلزم من دقون وشوارب ، وكان ذلك (أمَلَة) كبيرة . ارتدينا ملابسنا .. ارتديت أنا جلبابًا أبيض ، (يشرب العصفور من عليه لشدة بياضه) ، صنعته وغسلته وكوته أمي ، وقرأت عليه (عديّة ياسين) مرات كثيرة عندما عرفت أنني سأقوم بدور (الأمين) . وعندما جربته عليَّ بخرتني ورقتني بالسبع رقيات المباركات من أعين الحساد وهي تطلب لي الهداية طول العمر .. وأن يملأ قلبي حب (الأمين) الذي اختارني لألعب دوره ..

تقدمت فرقة الغناء (جماعة الأناشيد) وقدمت عدة أناشيد وتلتها جماعة الخطابة. حيث تبارى التلاميذ في شرح حكمة المولد وحكمة الاحتفال به .. ثم أعلن عن مسرحيتنا التي أعدها مدرس اللغة العربية وأخرجها مدرس الرسم .. وقام بتدريبنا عليها الأستاذ (هاشم) الذي قوبل اسمه بتصفيق حار يستحقه ..

وما أن بدأ التمثيل .. وارتفع صوت أهل مكة الكفار يتصارعون ويختلفون حول وضع الحجر الأسود ، حتى شعرت بريقي قد جف وقلبي يتوقف .. وإن كنت أسمع نبضه يدوي في أذني .. وأنا أنصت للكلمات التي أصبحت تملأ الساحة ، تضخمها مكبرات الصوت ، وتضاعفها الدماء التي اندفعت حارة لطبلة أذني .. وما أن نطق (المرسي) يجملة ..

– ها هو (الأمين) !!

حتى وجدتني مدفوعًا بلا إرادة إلى خشبة المسرح . لم أعد أبصر شيئًا .. سال عرقي على عيوني .. وساد صمت خيل إليَّ أنه دام إلى الأبد، لدرجة لم أتبين ما قيل لي بالضبط .. ولكني سمعت صوتي يخرج هادئًا في موعده رزينًا عميقًا .. خُيل إليَّ أن أمي تسمعه على بعد ما بين قريتنا و(الجمالية) ، بل خيل إليَّ أني سمعتها تبكي وتدعو لي فصرخت :

– إيتوني بثوب !

ولابد ساعتها اندفع الكفار ، بعد أن نظر بعضهم لبعض مندهشين ، تنفيذًا لتعليمات الحركة التي رسمها الأستاذ (العشي) .. وأسرع بعضهم فأحضروا قطعة قماش كبيرة من قماش (المحلة).. خيل إليَّ أن بعضهم اقترب به مني .. إذ وجدتني آخذه منهم وأفرشه على الأرض . وسط دهشتهم المفتعلة وصمتهم الضروري ، الذي أجبر المئات من المشاهدين في الحوش وعلى الأسطح المطلة على المدرسة .. على الصمت الرهيب انتظارًا لما سيفعله (الأمين) .

لم أخيب رجاءهم . وتقدمت في وقار وشموخ .. حملت (الحجر الأسود) الذي صنعه الأستاذ (العشي) من الورق المطبوخ .. سمعت شهقة جماعية من كل الحاضرين .. فقد بدت الصخرة المقدسة خفيفة يحملها (الأمين) بكفيه الرقيقتين كمعجزة وخطوت بها وأنا أدعي ثقلها .. ثم انحنيت لأضعها وسط الثوب المفرود .. وأخذت أنظر مستملحًا الصمت السائد في عيون الكفار وكأنني أقول لهم .. (لو كنتم تفقهون!) وقلت :

– ليأخذ كل منكم بطرف !

استرد المتفرجون شهقتهم المندهشة .. وصاحوا مهللين إعجابًا .. وهم يرون كفار قريش وكبارها يتقدمون طائعين . يحملون الثوب وفوقه الحجر الأسود ، حتى ذلك الجدار الذي لم يكتمل بناؤه في الخلفية .. ولما وصلوا إليه وقفوا حائرين ، ينظرون لي متسائلين .. تقدمت منهم مرة أخرى .. حملت الحجر ووضعته في بساطة متناهية في مكانه .. وقلت بصوت جهوري حازم :

– الآن لا خلاف .. أكملوا البناء ..

لا أستطيع أن أقرر بالضبط أو أصف ما حدث بعدها.. فقد كنت شبه غائب عن الوعي.. ولكن أكف الناس لم تكف عن التصفيق طبعًا . لبساطة الفكرة العبقرية التي حسم بها (الأمين) الخلاف بين رجال قريش .. الذين سوف يقاتلونه ويعذبون أنصاره فيما بعد ..

فاضت الزغاريد وغطت على الأناشيد التي ختمت بها المسرحية .. وجدت مدرس الرسم يحتضنني سعيدًا ، وهو يقبل جبهتي . وسمعت أمي بل ورأيتها من خلال غيامة الدموع التي ملأت عيني ، تربت فوق ظهري وتهوِّن عليَّ ما أصابني من رعشة ، انتابت جسدي من شدة الانفعال .. ولمحت الأستاذ (هاشم) يخرج منديله ، ويمسح به العرق الذي تفجر من جبيني !

بعدها لم يضربني الأستاذ (هاشم) على باب المدرسة أبدًا ، مهما فاتني موعد الديزل ، واضطررت أن أزاحمه في أوتوبيس (عبده عواد) .. بل و لم يضرب أي تلميذ آخر بعدها لأي سبب!!

• • •

قِبلة ترضاها . . .

○ (لميت سلسيل) طعم خاص في كل مرة أعود إليها .. ومن أي جهة أدخلها .. راكبًا أو ماشيًا ..

كنت أعود من الغرب دائمًا في قطار سكك حديد وجه بحري على مدى سنوات طفولتي وصباي .. أحيانًا كثيرة قادمًا من (دمياط) في الحادية عشرة من عمري – على مدد متفاوتة ، لأقضي الخميس والجمعة أو الأجازة لمدة أسبوع ، ملهوفًا في الشتاء لدفء الأسرة ، ولطعم محشي الكرنب بالكوارع فوق السطح المشمس .. أو لصواني (الصيادية) والأرز الأحمر التي طالما وفقت (أم سمير) مواعيدها مع مواعيد وصول الابن البكري (الغريب فى مدن الأغراب) . وهي تحاول

أن تزوده بطرق طهي المسبِّك حتى يرّ نفسه ولا يكون (لخمة ومحروم) مثل من يحكي عنهم من التلاميذ ..

المرة الأولى التي كان للعودة من الغرب طعم مختلف حزين ومر كالعلقم .. كان قبل (النكبة) بسنوات أثناء الحرب .. وأبي يقودنا مكلومًا لأن أخي الذي رُزق به بعدي ، مات بطريقة فاجعة لا يمكن تبريرها ولا تخطر على البال دون أن تترك جراحًا غائرة لا تندمل ، إلا بالاستسلام لإرادة الله . إذ لم يكن عسيرًا علينا منع الفاجعة ببعض الحذر والحرص المفترض توفره عند أي منا أو عند الخالة .. كان (سامي) مريضًا وذهبنا أبي وأمي وأختي وأنا لبيت خالي في (المنصورة) لعرض المريض على طبيب مختص..

كانت ظروف الحرب تفرض على السفر قيودًا صعبة ، جعلت الرحلة حلمًا غامض الملامح .. ركبنا عربة مغلقة ، جلسنا فوق أرضها على كليم أو حصيرة ، حتى وصلنا (المنصورة) وهذا لم يكن متاحًا أو سهلاً إلا لأن خالي أصبح له شأن في الشركة بعد ترقيته من ناظر محطة (المطرية) إلى (مفتش مفاجئ) ..

يخيل إلى أنها كانت عربة (سبنسة) أو على ما يبدو كانت (عربة ماشية) جديدة . كنا نحن أول من ركبها ، أذكر أنه حين فتح بابها الضخم ، عندما توقف القطار كانت له قعقعة ، جعلت أختي تصرخ فزعًا وكنت نائمًا فانتفضت .. فاجأتني الأضواء الزرقاء الباهتة كالنجوم متناثرة معلقة تملأ صفحة السماء .. تضفي على الليل سحرًا غامضًا ، لم تكن نجومًا كما خيل إلي. حتى تبين لي أنها نوافذ بيوت عالية تحدق صامتة.. ومصابيح أعمدة باهتة.. وكشافات عربات ركوب وفوانيس عربات حنطور، تختلط وتتمازج مبهمة تهوم في ذاكرتي ، حتى الآن مثلما تلوح بها الانعكاسات الغامضة المتحركة لأضواء الشارع في النهار وفي الليل من خلال شيش النوافذ القديمة العالية . صانعة لوحات حية متحركة غامضة.. تبهت وتهمس .. تقتحم رموش عيني نصف الناعسة ، في توازٍ وتوالٍ ،

على سقف وجدران الغرفة نصف المظلمة في ذلك البيت العتيق ، المكون من أربعة أدوار في شارع (سيدي عبد القادر).

كان خالي يسكن مع (ست هانم) عروسه التي لم تنجب . إذ أجهضت أكثر من مرة . وكان هذا يضفي على حياته مرارة وقلقًا يطفئ وهج شخصيته المرحة (المستنيرة) .

كان أخي (سامي) أصغر مني. جاء بعدي بسنتين مبشرًا بسلامة أمي بعد معاناتها في مولدي، وكنا سنلتهم يومها بكل احتفاء على الغذاء ، أكلة فاخرة من فسيخ (نبروه) الشهير ، جاءت هدية لخالي من عمدتها شخصيًّا . وتطوعت خالتي التي كانت تقيم مع خالي .. للعب مع (سامي) الصغير بعيدًا عن معركة الفسيخ حتى لا يتشهاه وهو (محجوب) بأمر الطبيب . كان صوت بكائه يلاحقنا فيثير تعليقات ضاحكة أو مشفقة على الخالة التي حرمت نفسها من الفسيخ ، ويبعث فينا شجنًا غامضًا أحيانًا أخرى.. حين كان يصمت بصورة غامضة مفاجئة فيثير قلقًا أكثر .

رغم معارضة أمي التي انهمكت في إعداد الفسيخ وتقطيع البصل والليمون ، صعدت خالتي به إلى البسطة التي تتوسط السلم بين طابقنا والطابق الأعلى. وعلى قاعدة نافذة عالية من الزجاج الملون تطل على الشارع أجلسته على الحافة المرتفعة لإلهائه بما يدور في الشارع، واطمئن قلب أمي وابتسمت حين تحولت صرخات نفيه إلى ضحكات غمرتنا بالارتياح ، وفتحت شهيتنا جميعًا للفسيخ اللذيذ الفاخر .. وفجأة .. دهمتنا صرخة ملتاعة أخرستنا ، وغُصَّت بها حلوقنا فشلَّت حركتنا ، حين جاوبتها آهة دفينة حادة من أمي وهي تحملق في وجوهنا :

– إبني !!..

خاطر غامض قاس انطلق بنا جمعيًا كالعاصفة صاعدين السلم في الوقت الذي كانت خالتي تهرول نحونا وحدها وهي تولول وتلطم

وجهها الغارق في شعرها المهوش المكشوف ، مخترقة جمعنا المنهار ، فاندفعنا وراءها هابطين السلم نحو باب البيت ..

هناك .. كان (سامي) مطروحًا على الأرض الأسفلتية القاسية أمام عتبة الباب الصخرية، جثة هامدة كحيوان أليف صغير لا حياة فيه .. ولا حركة سوى مسيل خيط الدم الأحمر الذي غمر لونه الغض تلك الصورة القاسية ، مختلطًا بكل الظلال السوداء ، والأضواء الزرقاء الباهتة التي حاصرتني بها (المنصورة) ليلة وصولنا مؤطرة بصرخات لوعة أمي وآهات الحزن الفاجع المكتومة في نهنهات أبي المُرَّة . وبكاء خالي الصريح كطفل أوسعته أمه ضربًا لذنب لم يرتكبه فكسرت نفسه بقسوة ..

بنفس القطار عدنا في عربة مكشوفة هذه المرة .. كان الدخان الثقيل الرطب يغمرنا طوال الوقت برائحة غريبة لبخار ماء حامض وخشب طري محترق .. بعد خروجنا من (كفر علاَّم) بمسافة طويلة .. رأيت أبي يصرخ وهو ينط قافزًا العربات المكشوفة وسط عاصفة الدخان محاولاً الوصول إلى القاطرة ليوقف القطار . في نفس الوقت لمحت الحقيبة الجلدية الكبيرة التي وسَّدوا فيها خفية جثة أخي ، ليدفن في القرية تجنبًا للوقوع في تعقيدات قانونية ، ومساءلة لا يدري أحد كيف تنتهي ، طائرة مع الريح والدخان والغبار ثم تتدحرج على الطريق الزراعي المجاور لشريط القطر لتستقر مجهدة في حقل قمح .

توقف القطار ، بعد أن تنبه السائق للإشارات الغريبة المحذرة للناس السائرين .. والعاملين في الحقول محاولين لفت نظره لمحاولات ذلك الرجل المكلوم الوصول إليه فأوقف القطار. وقفز أبي ليحضر الحقيبة الهاربة . قبل أن يغري الفضول أحدًا فيفضح سرها الحزين .

لسنوات عديدة طويلة من عمري .. لم تلوث أنفي رائحة الفسيخ دون أن تجسد لعيني جثة الملاك الملقي على صخرة الرصيف ، وصورة الحقيبة الطائرة وسط الدخان والغبار. فتعصر القلب غصة من خوف غامض حاد الأظافر ..

لكن العودة إلى (ميت سلسيل) من الغرب لم تكن دائمًا على هذه الدرجة من القسوة .

فصبي السنة الأولى الثانوية في الحادية عشرة من عمره كان يضطر كثيرًا للعودة بالقطار نفسه في أيام الشتاء عبر (ميت الخولي عبد اللاه).. و(ميت الخولي مؤمن) .. عابرًا نفس المسافة التي طارت عبرها تلك الحقيبة، فتموت أصابعه على السَّبَت أو الحقيبة المكتظة بملابسه غير النظيفة . وهو يخشى أن يتكدر حلمه بطعم حضن الأم ومذاق أطعمتها المميزة التي لم يعد الفسيخ من بينها إلى الأبد . أو يفسد شيء ما لهفته للعودة .. لمرابع الطفولة التي اضطر للاغتراب عنها في ذلك السن المبكر. لتغسل عن قلبه مواجع المدينة ..

يخرج رأسه مواجهًا برودة رياح الشتاء، التي تصارع القطار حاملة إلى رئتيه دخان الفحم الرطب ذي الرائحة الخاصة.. وهو يتطلع إلى حقول (الخُمس) ونخلة (ياسين) وترعة (مهدّب).. محاولاً استخلاص رائحة زيت القدح المحترق وطعم البصل الأخضر والكرات أبو شوشة من بين مزيج الروائح الذي يخيم على القرية ساعة الغروب ، مشبعًا بطعم الحقول والنباتات والبشر والطين المحترق.. ليحس معها بحضن الأم الفرحانة بعودته وبالاستجابة الربانية لدعواتها بسلامته ونجاحه وتفوقه على أقرانه . مخفية إشفاقها الدائم عليه من الغربة باحثة فيه عما يمكنها من

تعويض ما ، لفقدانها (سامي) الذي تُذكرها به دائمًا صفارة القطار القادم من الغرب . رغم ما مضى من سنوات عوضها الله خلالها بأطفال آخرين بنات وأولاد.. لهفتها عليه يشعلها حضوره بالقطار من الغرب . لهفة لا يثيرها حضوره من الشرق في الأتوبيس عندما لا تقطع الأمطار الطريق الضيق الملاصق لشاطئ البحيرة ..

عند صاحبنا كان للأمر وجوه أخرى ، إذ كان للقرية طعم ورائحة خاصة في كل مرة يدخلها قادمًا من الشرق عبر سنين العمر الغض . طفلاً محمولاً على كتف خاله (الخميسي) ، و(رِجْل هنا ورجل هنا) تأسر عينيه الظلال وتفوح ملابسه برائحة نشارة الخشب . متابعًا إلى الأفق غناء الضفادع وزيز الحقول والقمر .. الذي يصر على ملاحقته حتى البيت .. أو صبيًّا يفضل الركوب على سلم عربات القطار الخشبي محتضنًا حديده، تاركًا للريح مهمة مداعبة شعره . وملء ذاكرته بصور الحقول وخضرة أشجار الصفصاف والتوت ..

كان وهو التلميذ المتفوق في الدراسة الابتدائية .. يتباهي على أقرانه برسومه ، ومعرفته بأسماء بلاد وعواصم الدنيا . وحكايات السفن والخيول الطائرة والآلهة التي تسكن جبالاً في بلاد بعيدة .. تحدد أقدار الناس وتحمل الشمس في عربتها الذهبية من قصر الشرق إلى بحر الظلمات..

أو حين أصبح طالبًا فتيًا يكتب الشعر غزلاً في بنت (الهواري) .. أو في عيون (مديحة) البرسيم .. تسبقه قصص نزواته ومشاغباته .. حاملاً آثارها على ملابسه وجسده أو على كتبه الممزقة التي تزدحم هوامشها برسوم وبدايات قصائده العديمة القيمة .. التي لم تنجح في اقتحام (قلعة) الفتاة التي أكلت جدرانها رطوبة حقول الأرز ..

وعلى قدميه كم عاد إليها بنفس اللهفة ، من كل دروبها . ومن جميع جهاتها ، وفي كل الأوقات وعبر كل سنوات العمر طفلاً وصبيًّا وشابًّا.. تلميذًا وشاعرًا وسياسيًّا ، تثير قدمه أينما تدب غبار المشاكل والمعارك .. كل عودة لها طعم مختلف لكن المشاعر نحوها دائمًا غائرة في أعماقه ، لا تتغير ولا تتبدل كمرض عضال لا شفاء منه ..

رائحة الصبار وثمار التين الشوكي والذرة الخضراء والبرسيم تلحق به وتسكره حين يدخلها عائدًا من متعته اليومية في السباحة في البحر الصغير. من جوار جنينة (علي أبو حسن) .. تعلق بملابسه وجلده رائحة الحلفا وثمار (عنب الديب) . وهو عائد من حقل (السباخ) وأرض الطير عبر الخرابة أو جرن دار (أحمد) .. رائحة التيل المعطن والسمك الميت الصغير حين يعود من البحر بعد السباحة أو مغامرات الصيد .

لكن عودته بعد سنوات خمس في المعتقل كانت فريدة لا مثيل ولا شبيه لها .. يومها أصر على العودة بالقطار ، نفس القطار القديم .. الذي لم يستطع هذه المرة أن يحرك فيه مشاعر الطفولة أو الصبا حزنًا أو فرحًا . ولا أن يجسد أمامه أيًّا من تلك الصور التي لم ينسها أبدًا . كان هناك خوف غامض يغزو قلبه .. يطمس الذكريات على صفحة روحه وينتزع منه شيئًا لا ملامح له ، ينتمي لتلك الأيام البريئة .. كانت العودة تلك المرة يكتنفها الكثير من عدم الثقة .. هل غيَّره السجن ؟ أم أن الدنيا تغيرت ؟ لقد هدم البيت كله .. بيت الجد الذى مات فى الحجاز وبيت الجدة (أم العز) التى سحرت المرأة الغجرية المداحة وحولتها إلى بقرة .. بيت (الحوش) الذى شهد خيالات العفاريت والذى تحول إلى مندرة شهدت حضور الشيخ (على سعود) فى حياتى ومعه قيم العدالة فى الاسلام .. بيت (عبد الباقى) خالصا دون شريك والذى مارس عليه هوايته فى التغيير والتبديل فأصبح

من ثلاثة أدوار تناطح السحاب وان ظل قائما على جدران وأساس البيت القديم الذى شهد ملاعب صباى وطفولتى والذى مارست فيه شقاوتى ومغامراتى لسلب جدتى حليب الشوالى . البيت الذى شهد أعجوبة بناء دوره الأول بعد إستقرار أدواره العليا والذى تغيرت سبل الدخول إليه مع كل عقد من الزمان .. وشهد أوائل سنوات الوعى بالوطن وبالناس وبدايات الانفتاح على آفاق الإنسانيه الرحبة التى كان الطريق إليها الانتماء إلى العمل السرى تحت الأرض .. لتحرير الوطن ابتداء من تحرير الجمعية الزراعية ..!

اختفى هذا البيت المفعم بعطر السنين والذكريات أثناء غيابى الطويل هذه المرة .. وبنى مكانه بيت يشبه أى بيت آخر فى أى مكان آخر فى مدينة أخرى .. قالوا لى (لقد صمم ابوك البيت الجديد نسخة أخرى من البيت الذى سكنا فيه بالايجار سنة انتقلنا إلى (المنصورة) .. بيت (يسن الترزى فى شارع الأسواق المتفرع من داير البندر .) فأيقنت يومها أننى عدت ولكن إلى بيت ليس بيتى !.

فقدت نغمة عجلات القطار الرتيبة إيقاعاتها القديمة .. ضاعت رائحة الزيت المحروق . وكل ما توحي به من ألفة المساء بعد يوم مجهد طويل . هل أفقدت سنوات السجن روحه ما كانت تفيض به عند عودته إلى (ميت سلسيل) من مشاعر حنونة تبعثها رائحة الزيت المقدوح ، نكهة الأرز الساخن الفقير في صدور المجهدين .. ام كان ذلك كله بسبب فقدان بيتى القديم بيت جدى .

• • •

طائره في عنقه . . .

○ فخور أنا لأن أحدا لم يشق صدري لينزع منه (حبة الشيطان) التي ظللت طوال عمري أبحث عنها لأنتزعها بنفسي دون جدوى ، كانت تزوغ مني وتختفي ، فلم أعثر لها على أثر بسببك ، نعم.. وكأنها كانت من صنعك يا صديقي المتعدد الوجوه تحتل مساحاتي وتتجول بين حواسي بعقلك وبأمر منك .. وكان علي أن أظل أطاردها أبدًا .. وهي تتحداني وتمتلكني كالعبد وتصحبني كالتوأم الخفي ، تحرضني على الجدل في كل شيء، وتغريني بالمحرم وتدفعني للتمرد .

حين حكيت لك عن (نرجس) ، حاصرتني بحكاياتك مع زوجة الأسطى السواق ، الذي كان يجعلك تمتطيه في الزريبة . ويشدك للوقوف خلفه

كلما انحنى على موتور العربة .. ومغامراتك مع زوجة الفقي الأعمى وأنتما تحممانه معًا. فتلتهب مشاعرك وهي تثيرك بلمساتها وحركاتها مع أعضائه . تليِّفه وتغمز لك .. وكيف أنك لم تكن تطيق نفسك وتكاد تجن. وهي تتركك لتجففه وتلبسه لكي تأخذه لصلاة الجمعة .. أقنعتني أن كل النسوان سواء .. أنهن يلتهبن تحت القماش . تستوي في ذلك التي تلبس الجلابية على اللحم وتلك التي تلف نفسها كعروسة المولد !

أرجعت أمري مع (نرجس) لخيبتي الثقيلة .. لأنني لا أبدي أي مبادرة للهجوم .. ذكرتني بيوم عودتي من امتحان الشهادة الابتدائية من (المنصورة) .. وكان القطار مزدحمًا .. وجلست إلى جوار الشباك وأمامي مباشرة امرأة بضة هائلة الحجم وانحشرنا على الكراسي . ولم تكن المسافة بيننا تسمح إلا بتبادل المسافات ، فتداخلت السيقان .. كانت أشياؤنا تزاحمنا.. وكثير منها تمدد فوق السيقان المتداخلة .. كان أبي فخورًا بما فعلته في الامتحان .. وكيف فهمت الأسئلة المراوغة وهزمت ذكاء واضعيها .. كان الكل ينظر نحوي بإعجاب وخصلة الشعر الناعمة تنسدل على جبيني العالي في زهو كخصلة شعر (أنور وجدي) .. في زمانه ..

لمحت ابتسامتها المعجبة تغمرني ، كان إعلان فيلم (قلبي دليلي) على جدار المحطة ممزقًا كالحًا لكنَّه واضح تمامًا .. ابتسامة (أنور وجدي) ووجه (ليلى مراد) مشرق وله سحر.. غمرت وجهها الصبوح بقبلات عيني حين عادت عيناها من حملقة مسحورة في الإعلان الغامض . في نفس الوقت الذي أطبقت فيه ساقي النحيلتين على سمانة ساقها الممتلئة.. وبينما سندتها بالساق اليسرى بدأت أحرك بطن قدمي اليمنى الذي انتزعته من الحذاء .. صعودًا وهبوطًا في حنان ..

فوجئت الست التي كان زوجها يقف في الطرقة المزدحمة بين الكراسي مشاركًا في حفل الأعجاب بي .. نظرت إليَّ معاتبة مندهشة غير مصدقة ، فكففت للحظة عن الحركة .. لكن توتر جفونها والدماء التي اندفعت لخديها .. كانت فيهما الكفاية – لدعوتي أن أستمر .. في حنان بالغ مضت عيني تحاول النفاذ خلسة إلى عمق عينيها ، اللتين احمرَّتا بالدمع والانفعال . وجدت ساقها تلين تحت ركام الأشياء الميتة فوق ركبتينا ، تحجبان عالم الصخب عن عالم الدهشة الخفي .. فأخذت أتحرك في معلمة . مقلدًا خبرتك . وأنا أتذكر حركات يدك على ذراع زوجة الفقي التي تحتضن كتفيك وهي تداعبك وتدعوك لكي تلتحم بها وأنت تحتضن الجسد كله في بطن كفك الممتلئ ببطن كفها ..

أخذت تمسح عرقها وهي تختلس النظر لزوجها وللآخرين .. قبل أن تقبض أسنانها على شفتها السفلى وهي ترمقني في دهشة . وكأن لسان حالها يقول :

– كل ده يطلع منك انت ؟

مع حركة القطار الذي بدأ يهدئ من سرعته لدخول المحطة .. هدأت حركات باطن قدمي فوق السمانة .. وبدأت هي تلم شتات نفسها .. وحين وقفت لخمت نفسي في جمع (السواتر) ووقفت بشكل طبيعي لأحتضنها مانعًا سقوطها على الجالسين مع صدمة وقوف القطار ..

نزلت وزوجها .. اختلست النظر إليها من النافذة .. كانت تقف مجهدة إلى جواره .. تلهث كمن خرجت من معركة ، وهي تعيد ترتيب ثيابها ، وتعدل من وضع طرحتها .. وتجفف عرقها .. وتختلس النظر إليَّ . وأنا واقف في النافذة أفلتها منتصرًا من براثن نظرات عيوني ..

عدت أجلس مقتنعًا ومسلمًا لك ولآرائك في النساء .. وأنا أواصل

الاستماع لحفل تكريم نبوغي وذكائي الذي كان أبي لا يزال مصرًا على إحيائه على قارعة الطريق .

ولأنك قلت (إن هذه أمور عيال!) . فخيبت أملي في الوصول إلى مكانتك ودرجتك . قررت أن أعاود الهجوم وأن أعيد ترتيب قواتي لمحاصرة (نرجس) . وكانت زوجة فلاح قصير نحيل من أولئك الذين حكم عليهم أن يلتصقوا بالطين منذ ولادتهم .. حتى يغوصون فيه مرة أخيرة إلى الأبد بعد وفاتهم دون أن يلاحظهم أحد ..

أخوه الأكبر تعلم صنعة (الترزية) وفتح الله عليه بدكان فتزوج في المندرة المطلة على الشارع .. وكان رَبْع القوام أبيض البشرة حليوة .. طويل القامة نظيف الملابس على الدوام .. على عكس أخيه زوج (نرجس) القلَّه الذي (يبيت الخنفس في شقوق كعبه !) .

زوَّجوها منه رحمة بها وسترًا ليُتمها .. إذ كانت لها عين مصابة ، فكانت رغم جمالها وامتلاء جسمها الفائر (معيوبة) ويتيمة . وأقصى ما تحلم به حجرة تلمها ، وزوج تجلس في ضل حائطه .. كانت راضية بنصيبها من الدنيا ، لكنها لم تكن راضية عن نصيب زوجها .. بعد أن أفاقت من صدمة الفرحة بزواجها وعرفت حدودها الضيقة جدًّا .. بدأت في التبرم .. تدفع زوجها للمطالبة بحقه في أن يستحم وأن يستريح .. وأن يكون بني آدم .. فأخوه الذي لا يشركه في عائد صنعته الرائجة .. يشاركه في رغيف الدرة الذي يخرج بجهده من الأرض .. وعليه إما (يبقى فيه عَدْل ، يا نشيل ده عن ده يرتاح ده من ده ..) . وخاصة أن عوَج (ملوك) زوجة الترزي قد زاد عن حده ، فهي منذ زواجها لا تكف عن مضايقتها ، تريدها خادمة في البيت مثلما زوجها خادم في الغيط ..

ولكن (لا.. دا بعدك .. دا انا قريبة الأم) و (ما حدش يكسر عيني) .. (والحلوة تحلا ولو في الوحلة) ، (مش أقل منها يا بنت الناس) .. قبقاب بقبقاب وضفيرة مغسولة ومتسرَّحة بضفيرة مغسولة ومتسرَّحة .. وهدوم وإن كانت (باطسطة) و(شيت المحلة) لكن زاهية ومزهزهة ونضيفة .. (العدَل بدَل) ، والقُصَّة المسبْسبة تداري عيب العين المعيوبة زي النضارة.. و(لمّ الجلة مش علّة) .. آه ..

كانت النار مشتعلة في البيت دائمًا .. وكنتُ شبه زائر مقيم في بيت خالتي القريب . الذي كان ملاذ (نرجس) الدائم من لهيب المعركة .. حيث تجد نفسها في بيت (بندري) حضري مع ابنة خالتي التي تضرب بعشرة ألسن ، وتقرا (ألف ليلة وليلة) ولا تكف عن التعليق على الدنيا والحياة التي ظلمتها شكلاً وموضوعًا .. بلسان ساخر سليط ، يوازي طيبة لسان الخالة ورضاها بالمقسوم المبني على إيمان لا تفسير له ، سوى أنها من سلالة عيلة مؤمنة فيها اللي شايل القرآن على قلبه رحمة ونور ..

كان بيت خالتي يقع عبر ترعة صغيرة تروي الحقول قبلي (الكفر) له باحة صغيرة أمام الباب مباشرة تصنع براحًا تظلله الأشجار التي تتكاثف أمامه .. لتجعل منه بقعة نادرة من الرطوبة الحانية للجالس فيها وتعطيه قدرة على الإحاطة باتساع الامتداد العابر للزراعية وجسر السكة الحديد (المقلي) في قيظ الشمس ، في تعالٍ وإحساسٍ بالتفوق والرضا بطراوة الظل والنسمة . وتعطي (لرسمية) بنت خالتي القدرة على رصد حركة مجتمع الكفر الجديد كله .. الذي يتحرك في بطء ، يتيح لها الفرصة الكاملة للتأمل وللتحليل والنميمة الساخرة المنتقمة من الرايح والجاي ، والقايم والقاعد . أو على حد تعبيرها (المُقعَد) . رغم اعتراضات أمها السلبية التي لا تجرؤ على الإفصاح عنها أمام نظراتها اللاهبة التي كثيرًا ما تتحول

إلى شخطة لاسعة ، أو تعليق لاذع يعيدها إلى صدفة طيبتها واستسلامها الإلهي ..

كانت الصينية النحاس فوق كرسي العشا الجريد ، عليها كوم من القمح المتجدد . يقمن بتنقيته من أجل الطحين .. والتف الثلاثة حول القمح ، رستأت (رسمية) نفسها في مواجهة الحياة الفاترة على السكة والجسر لكي لا تفوتها شاردة . بينما جلست (نرجس) في مواجهتها ، أما خالتي فكانت غير مستقرة (تمامًا) بينهما لتعطي لنفسها فرصة للقيام والقعود حسب الحاجة!.

وحين هللت من بعيد ، هللوا جميعهًا مرحبين . خالتي قامت واختطفتني إلى حضنها .. (رسمية) تظاهرت بأنها ستحاول رفع طن اللحم ، فضحكت وملت عليها لتقبلني .. لمحت بهجة خاصة في عين (نرجس) التي قامت تحتضنني وتقبلني كعادتها :

– أهلاً بالحبيب ابن الغالية ..

(رسمية) التي كانت لا يخيل عليها شيء ، وتحسب حساب سوء النية في كل شيء ، جذبتها بعنف فأجلستها ..

– لأ يا حبيبتي ! كان زمان وجبر .. زمان كان (نونو) .. دلوقتي البوس والأحضان عليها جمرك ، نفَسُه الوقتي يحبِّل اللي زيك .. ما يحكمش .

أحست (نرجس) كأنها ضبطت عارية .. لكنني سرعان ما قبلتها في خدها وبعمق لكي أغيظ (رسمية) .

– ح أفضل طول عمري إبنها الرضيع .. بس اخرجي انتي منها ..

كانت ضربة على الوتر الحساس .. (فنرجس) لم تنجب .. ويبدو أنها لن تنجب أبدًا، قرأت ذلك .. في تلميحات (رسمية) عن جوزها

القزعة .. النافر للغيط على طول .. وسؤالها الخبيث الدائم (لنرجس) عن أخبار المخدة والناموسية !

ضحكت (نرجس) تداري جرحها وضربتني بحنية على كتفي ..

– تعيش لي انت طول العمر يا حبيبي .. أيوه كده أجبر بخاطري كده قدام العوازل ..

كانت تقول ذلك لتشاغب (رسمية) في براءة مفتعلة . بينما هاجمني صوتك الواثق المجرب :

– أنا متأكد أنها تلك النظرة الشهوانية في عيونك .. ها هي أمامك يا فالح .. أرض بكر عجز المحراث عن شق أحشائها لتستقبل الشمس وتؤجج رغبة الحياة في البذور .. عفية ، فائرة ، تطوي جوانحها على أحلام مشروعة وقريبة .. تلتهب بالشهوة عندما تقرأ لها (رسمية) في ساعات الصيف عن جواري الخليفة اللائي لا يزور الواحدة منهن إلا مرة في العام . وهن حبيسات البستان والحمام وغرف النوم ، وسط أجساد العبيد السمراء المشحونة بالقوة الغجرية المجهضة بالذل والإخصاء .. لكنها تظل قادرة على الهصر والعصر والإرواء.. بألف طريقة وطريقة ..!

لمحت ظل غرغرة غائمة طافت بعين (نرجس) المبصرة .. لكن سرعان ما ابتعلتها ودفنت كفها الأسمر الخمري الخشن في كوم حبات القمح الدافئ .. الأملس الحاني ..

قررت أن أغيظك وأن أثبت لك أنني لست أقل منك جرأة ، خلعت الصندل وخطوت على الفرش ، نزلت متربعًا بجوارها جاعلاً الصينية في حضني .. اندمجنا على الفور في حديث مرح بدأته (رسمية) بنشرة أخبار عاجلة لا تخلو من تلميحات مكشوفة عن سلفة (نرجس) وزوجها العيوقة ..

سألوني عن دراستي ، تطرق الحديث لبنت (الهواري) قريبتهم .. رجوت (رسمية) أن تتوسط لي عندها . كانت تلميذة تركب معنا الديزل، وكنت متعلقًا بها وبالنمش الذي يغطي وجهها ويعطيه حسنًا لا حدود له .

– طب والمقروصة (مديحة) يا فلاتي ..

– لأ.. دي حاجة تانية .. كل واحدة طعم يا بنت خالتي ..

ضربتني (نرجس) على ضهري محتجة ، لمحت احمرارًا في خديها ، فمددت قدمي لتستقر تحت فخذها .. لم تعترض ، بل خيل إلى أنها ضغطت عليها .

فضلت أن أخمن أنها ظنتها نتوءًا في الفرش الذي نجلس عليه .. أو أنها قدم (رسمية) نظرت في عينها الوحيدة مباشرة وحركت إصبع قدمي الكبير في صمت صاعدًا وهابطًا في رقة تدق شطوط فيافي لحمها الدافئ..

نظرت إليَّ نظرة خاطفة وكأنها خافت أن تفزعني .. فتجرأت .. كان الحديث بيننا صاخبًا ، تعرض لقصص كثيرة حقيقية ومخترعة عن (السقا) الذي حاول مغازلة خالتي . وفطست (رسمية) من الضحك وهي تدعوها للاعتراف أنها (كمَرة) شجعته .. لكن الخالة كانت بمكر تخترع حكاية عن ابنها ناظر المحطة الذي كان في نفس الوقت – حسب قولها – يحاول مغازلة راكبة من الركاب جاءت تقطع منه تذكرة سفر .. لكنه (رأى برهان ربه)، فعدل .. ومثله مع (السقا) تمامًا فعلت ! وقالتها له دون أن تفصح عندما اعترف لها :

– دقة بدقة ولو كنت زدت لزاد السقا .

ضحكنا في صخب .. الحديث والضحك أتاحا الفرصة لي .. أخفيت ذراعي تحت الصينية ، استبدلت بأصبع قدمي باطن كفي الذي استقر على فخذ (نرجس) في أمان .. مدت يدها في البداية لتزيح يدي لكنها خافت أن تلاحظ (رسمية) الأروبة أن لها يدًا واحدة فوق الصينية .. فتخمن ما هو أسوأ . غمزتها راجيًا الصبر . فسكتت وكفت عن

المقاومة . امتدت يدي وسط الضجيج والصخب تفتح لنفسها مسالك خطرة .. فانتفضت (نرجس) واقفة حتى كادت تقلب الصينية .. وعندما حاولت أن تنطق معتذرة ، خرج صوتها مبحوحًا .. فاضحًا لما يمور في خلايا جسمها الفوار من نمال وعناكب ، لم تفت (رسمية) ، لملمت نفسي ونظرت إليها في دهشة بريئة . لكنها أسرعت .. تلبس قبقابها الخشبي .. وهي تقول :

–ياحسرتي..داناكان لازم أعمل العشا النهارده، حماتي ح تدبحني.. وجرت إلى بيتها دون أن تنتظر ردًّا من المحملقين ..

فقط (رسمية) نظرت إليَّ في اتهام مباشر نظرة من يقرأ ما تخفيه الصدور ..

– إنت عملت فيها إيه ياللي تنضرب في قلبك ..

خالتي أنقذتني كعادتها قائلة ..

– عمل فيها؟ هي اللي مرووشة ومش على بعضها من ساعة ما جت.. بلا دلع مرئ .. تتشطر على جوزها العجبة !

لكن عيون (رسمية) تابعت فحصي ، بعيني بصاص ضبط حرامي فراخ متلبسًا كأنها تكتشف ملامح الشيطان فيَّ لأول مرة ..

• • •

هـيـت لـك . . .

○ أنت أغويتني وعلمتني أن أطرق الحديد وهو ساخن ..

فما بالك و(نرجس) كانت مشتعلة ، عندما هبَّت ناجية بنفسها من نظرات ولسان (رسمية) لو أحست بشيء مما جرى في الخفاء .

تعمدت الانتظار قليلاً .. ثم اعتذرت ، كي أغادر . تعللت بضرورة الذهاب لبيت جدي لأن هناك رسالة من أمي لازم أوصلها .. تجنبت نظرات (رسمية) .. وتركت نفسي لخالتي التي أصرت أن ترقيني من عيون الناس . أمسكت بيدي وأحنت رأسي فوق صدرها ، وبدأت في تمتمات وهمهمات منغمة بلغة منقرضة ، لحروفها سحر مجهول ، وهي تملِّس ببطن كفها اليمنى على شعري ورأسي ..

– روح ربنا يجعل في وشك القبول .. وينجيك من كل ما يعاديك..

كنت أحب دعواتها المنظومة المنغمة وأخاف منها . لكني كنت قد قررت الاستجابة لتحديك ..

أعرف أن (نرجس) كذبت حين قالت إن زوجها سيعود مبكرًا اليوم . وأن عليها أن تجهز له لقمة .. فاليوم ليس يوم (خميس) .. كان – زوجها قد تعود أن يختصر مرات اضطراره للمجاهدة والمعافرة اللامجدية مع (نرجس) قدر الإمكان .. لذلك كان مستحيلاً أن يغير عادته . كنت متأكدًا أنها في البيت وحدها الآن .. وقد تكون منخرطة في البكاء .. (ليس هناك مفر ، إن كنت بالفعل تنوي الدخول في التحدي) ....

العقبة الوحيدة كانت الدخول إلى البيت دون لفت نظر سلفتها . الناس العابرون والجيران تعودوا على دخولي وخروجي إلى البيت بحكم العلاقة الحميمية بين خالتي وبنتها وبين سكان البيت. فتظاهرت بعدم الاهتمام وعبرت العتبة. في جرأة..

كان باب مندرة سلفتها على اليسار مفتوحًا .. والمندرة التي على اليمين مغلقة .. وباب الوسط الذي لا درف له كان مغمورًا بالشمس وحماتها تتحدث مع نفسها أو مع شخص ما فوق السطح في غضب ..

باب مندرة (ملوك) كان مواربًا .. مرقت بسرعة خاطفة . ودخلت حجرة (نرجس).. مرت لحظة صمت ، حبست فيها أنفاسي خلف الباب المواربة . ثم سمعتها تقول في شك ..

– مين ؟ مين اللي دخل ؟

لم تسمع ردًّا .. لكن خيالا ما ، كان بالتأكيد قد عبر المرآة خلفها .. وقبل أن تكذب ما رأته ، أرادت التأكد ..

سمعتها تقوم وتزيح كرسيها الخشبي .. ثم وهي ، تخطو نحو

الباب.. ثم وهي تمط رقبتها ، وبعد أن تلفتت في الحوش أخذت تكرر ..

– مين اللي دخل ؟

جاء صوت حماتها تسرسع زهقانة من العرق والتراب .

– شوفي يا (نرجس) ملوك بتنادي ..

جاء صوت (نرجس) من خلف باب الوسط وروحها في مناخيرها، لأن حماتها على ما يبدو كانت قد أنبتها غاضبة لتأخرها عند الست (أم يوسف) ..

– فيه إيه يا (ملوك) .. عايزه إيه ؟

– فيه حد دخل من باب الدار ..

– ما فيش حد يا أختي .. يعني شايفة البساط أحمدي ، والضيوف رايحين جايين .. خليكي في اللي انتي فيه ..

– جرى إيه يا (نرجس) .. بيتهيألي إن حد مرق لجوه ..

– ما حدش (مرأ) يا أختي .. دا خيالات المراية .. والدلع المِرِئ .

مصمصت (ملوك) شفتيها في تحد وسخرية ودخلت المندرة خاصتها.. ورزعت الباب في غيظ ..

تنهدت روحي في راحة .. فالأمر كان يمكن أن يتطور وتمد (ملوك) بوزها في أودة (نرجس) .. لكن الصمت ساد .. رددت باب (نرجس) بهدوء وأخذت أتأمل الغرفة ..

السرير الحديد الأسود عالي بدرجة غريبة . يحيط بأعمدته التي ضاع أحد فوانيسها كورنيش داير من القماش الأبيض المشغول .. الناموسية ملمومة كالقبة في شكل جميل.. وعلى السرير مازال اللحاف الساتان ذي الشراشيب البمبي ، كأنه لم يمس منذ فرش لأول مرة.. يتدلى تحته كورنيش داير آخر يصل إلى الأرض ليخفي ما تحت السرير ..

خلف الجدار المجاور للباب كانت التسريحة ، عليها شوال رز أبيض وتحتها أكثر من صندوق خشبي عليه رسوم بدائية .. وكرسيها مسنود عليها في مكانه ، رغم إحالته على المعاش بدري .. الدولاب العمولة ذو الضلفتين ، والبترينة مازال الصيني فيها لم يجد بعد الفرصة كي يستخدم .

رفعت الملاءة المتدلية من السرير ، كانت هناك عدة إشولة مملوءة بالحبوب وبعض الحلل النحاس وطشت غسيل مملوء بالأرز الأبيض . المساحة التي بين السرير والتسريحة كانت نظيفة ، مغطاة بطبقة من الطين المعالج الناعم المستوي ، تغطيها حصيرة أقرب إلى سجادة الجوامع المصنوعة من السمار بها بعض الخطوط الملونة ، وإن كانت أطرافها قد تآكلت من فعل الرطوبة والكنس المستمر ..

كانت رائحة الغرفة مميزة وأليفة ونظيفة تفوح برائحة الصابون المعطر . زجاج الشباك الملون أعلاه يشيع جوًّا خياليًّا .. ساحر شذاه – مازال يهاجم أنفي وعيني حتى يومنا هذا – كحلم مفقود ..

لم تكن عندي خطة ولكني كنت أسير رغبة حارقة لتحدِّيك أنت بالذات وإثبات قدرتي على المبادرة ، لا يفوقها إلا رعبي ألا يحدث ما يجعلك ترضى عني.. وتدرك أنني تلميذ نجيب لك. وأجعلك تغير من إحساسك الدائم بخيبة الأمل فيّ وفي نضوجي..

دلفت تحت السرير في هدوء وصمت . عندما أحسست بخطى (نرجس) ودقة قبقابها الذي تتعمد أن تطرقع به في الحوش لتثبت للي ما يتسمو إنها مش أقل منهم . وإنها وإن كانت زوجة (الفلاح) إلا أنها لا تقل (تستُّتًا) عن الآخرين ، بل هي تصاحب أيضًا ستات أكابر بحق مثل ست (أم فهمي) .

دخلت الغرفة ورزعت الباب كأنها تصفع أعداءها ، فأفزعتني حتى

كدت أفضح وجودي .. تماسكت بصعوبة .. ساد الصمت الغرفة .. أحسست بها تتشمم الهواء .. وأنها تشك في شيء .. راقبت قبقابها وهو يتحرك في عصبية ثم يتجه بسرعة ناحية الباب . وسمعت صوت الترباس الحديدي يحكم إغلاقه ..

رأيتها تجلس وظهرها للباب. وأخذت تميل برأسها إلى الأرض لترى ما تحت السرير. ملت مثلها وأنا أضع أصبعي على فمي هامسًا ..

– أنا يا (نرجس) .. هس هس .

– يا مصيبتي ..

قالتها في فزع حقيقي ورعب وإن لم تنطقها ..

أخذت تدق صدرها في رعب وهي تتلفت .

– إيه اللي جابك هنا ؟ بتعمل إيه ؟ أصوت ..

– وانتي يرضيكي تفضحيني ..

– قصدك أفضح نفسي .. يا نهار أسود .. أعمل إيه دلوقتي يا ناس ؟ دي المضروبة مقصوفة الرقبة شافتك ..

كانت قد جلست على الأرض يائسة فخرجت من مكمني واقتربت منها زاحفًا ..

– انتي اللي ح تخليها تشوفني .. هس .. إهدي ..

وضعت يدي على كتفها ، ففزعت ونترت كفي وهي تقوم مرتجفة..

– تعالي يا (نرجس) .. ما تتكلميش واسمعيني .. أنا مزنوق هنا أكثر منك .. غلطة . أنا دخلت من غير ما حد يشوفني . كنت فاكرك في الأودة.. لكن إنتي اللي قفلتي علينا الباب.. دلوقتي أنا وانتي في المصيدة.. مش هنخرج من هنا إلا إذا هديتي .. وبطلتي لطم.. تعالي .. أيوه.. تعالي .. الباب مقفول .. والمغدورة قفلت بابها عليها .. الحمد

لله.. وحماتك بينها وبين القيالة عهد ما تبطلش نكش .. و(بهابند) ما بين الفراخ والجلة .. أيوه كده .. إضحكي .. النبي تبسم .. يا سلام .. إنتي عارفة إني باحبك قد إيه ؟ إنتي اللي بتجيبيني لبيت خالتي على ملا وشي.. طب مش فاكرة ؟

كانت تستمع لي مذهولة .. حائرة .. لا تجرؤ على إخراج صوتها للرد عليَّ .. تحس أن أنفاسها المكروشة تصل للناس على الزراعية .. وكانت كفاي لا تكفان عن الحركة . أربت هنا وأطبطب هناك .. وألمس وأتحسس في حنان صعودًا وهبوطًا ..

تحول تهدجها من انفعال الرعب إلى انفعالات حانية ملهوفة وخافتة .. لم أتعجلها.. اقتربت بشفتي من وجنتيها .. وهبطت بهما إلى رقبتها ، كانت تتلوى ، رغم أن جسمها الفارع كان يفوقني طولاً وعرضًا .. كنَّت طفلة بين ذراعي .. كانت لكلمة .. (يا حبيبتي) فعل السحر .. لمعة عينها الوحيدة اختفت تحت سيل من الدموع .. هبطت بشفتي نحو شفتيها البكر، التي لم تعرف على ما أظن طعم القبلات .. فهبطت بي إلى الحصيرة مجهدة .. لينة .. مددتها ومدت يدي فسحبت إحدى الخداديات من على السرير بسرعة البرق وأرحت رأسها عليها .. أحاطتني بذراعيين لا عظام فيهما وهبطت بي لوديان من زهر النرجس . مرغت رأسي في صدرها الصلب وهبطت إلى تلال الزبد والعسل .. ولكنها نفرت فجأة كأيل وحشي، عندما بدأت في فك الطلسم ..

انتفضت واقفة على حيلها ، كأنما أفاقت فجأة .. فألقت بي من سابع سما إلى جهامة الحصيرة الصلبة فأوجعتني .. تحطمت سفني على صخور الشاطئ . وعادت تلطم وجهها ..

– لأ .. يا نهار أسود .. يا فضحيتي !!

غاظتني .. وجدتني مكومًا أحاول جمع ما تبعثر مني ، لأعاود :

– لأ إيه ؟ ليه ؟

– ما تفضحنيش اعمل معروف .. ياللا .. لحد هنا كفاية ..

– إيه اللي كفاية .. انتي اتهبلتي يا هبلة انتي .. تعالي بس .. اقعدي.. يا حبيبتي .. ما فيش حد بيحبك قدي ..

– قوم والنبي سايقة عليك النبي وحياة معزِّة خالتك .. أخرج ..

– ده هبل رسمي .. أخرج أزاي ؟ إنتي لو بصيتي من خرم المفتاح ح تلتقي صاحبتنا قاعدة مستنية لك .. ويجوز حاسة باللي بيحصل .. أكيد.. أمال ليه قعدت ع العتبة ؟

لطمت خديها .. مرعوبة و لم تكن تجرؤ على التنفس .. كان صراخها للداخل وصوتها الأخرس يكاد لا يسمع ، ومع ذلك كانت تظن بالفعل أن وراء الباب حشد من العيون والآذان.. وأن همساتها تصل حتى آخر البلد .. جذبتها ، فجلست إلى جانبي على الحصيرة شبه مستسلمة .

– يا بنت الناس .. خلاص .. ما فيش فايدة .. إحنا اتربطنا لبعض بسلبة جمل .. مش ح أخرج إلا إذا حصل ..

تعجبت لجرأتي . لم أتعود أن أتكلم مع البنات أو النساء بهذه الطريقة . لم أكن أنا الذي يتكلم . كان صوتك وعباراتك .. أنت الذي تلبَّسني وأعطاني هذه الجرأة والمكر.. خرج صوتك مداهنًا على لساني :

– إهدي .. إهدي .. دلوقتي .. إنتي تفتحي الباب وتخرجي .. وكإن مافيش حاجة حصلت.. اتصرفي عادي جدًّا ..

– وانت ؟

– أنا ح أنام هنا .. ح ابيّت معاك ..

– يا مصيبتي ..

زحفت تحت السرير.. صعدت على زكيبة مليئة بحَبٍّ ما . وأسندت ظهري لأخرى واقفة مستندة إلى الحائط .. هبطت ورفعت الملاءة ..

وتأملت جلستي متربعًا للحظة . كادت تنفجر ضاحكة .. كتمت ضحكتها بصعوبة .. وإن أعجبتها بل أذهلتها فكرتي – (آن لك أن تصدق أن كل هذا يخرج مني)! – تمالكت نفسها :

– واللي نبّا النبي إنك اتجننت .. كل ده يطلع منك انت ..؟

– إنتي بتقولي فيها .. أنا أصلي جوًّايا عفريت .. مش قالولك ان أنا بالليل باصحى وازعق واهلوس بكلام .. أنا كده .. وذنبك على جنبك.. تعالي .. أنا عارف انك بتحبيني.. بس مش قد حبي لك يا (نرجس).

– حبَّك اللي ما يتسمى .

لم أعر اعتراضها أي انتباه .. (واستمر صوتك على لساني) .

– إنتي بالراحة تقومي تخرجي وتعملي اللي انتي عايزاه . زي كل يوم .. أنا مش منقول من هنا .. ولا الجن الأزرق ح يعرف طريقي . إلا إذا انتي حبّيتي تفضحينا .. هه.. انتي حرة..

سحبت نفسي ونمت فوق الزكيبة وأغمضت عيني.. بينما هي تنظر إليَّ في ذهول وعجز .. بل وخوف .. نجحت فكرة العفاريت والجنون .. (علمتني أنت أنهن يصدقن كل ما يتعلق بالعفاريت .. الخرافة غذاؤهن اليومي .. صلاتهن .. رغبتهن في السلام والأمان .. شوقهن إلى الحياة والنعيم .. صدقتك ، وازداد إيماني بسبلك المؤكدة) .. لأنها صدقتني واستسلمت .. وأرخت الستارة .. وفتحت الباب وخرجت ..

بينما رتَّبت أنا مكانًا لائقًا بما يكفي . ونمت و(ابتسامة انتصارك) عريضة تكاد تنطلق في قهقهه فاضحة ..

لست أدري كم من الوقت مضى وأنا بين الصحو والنوم ، تدور برأسي الأحلام ، وتصورات ملونة لما سيحدث .. كنت بين الحلم والعلم .. بين الصحو والمنام ، لكنها كانت دائمًا معي .. أخذتني من يدي .. نزلنا البحر ، سبحنا حتى غرقنا .. أنقذنا قرصان عابر حاول اغتصابها

فقتلته .. لاحقتها فوق السطح بين كيمان القش . تاهت مني ، درت كأني في متاهة شاسعة أبحث عنها .. كانت مستغرقة في النوم مستلقية بين أكوام قش الرز وقد تعرت إلا من قميص ممزق . وكان القمر .. يغمر الليل حولي يحيطني بوهج ضياء لا حدود له. كنت نشوانا .. تقدمت منها .. وجلست أتأملها وهي ساكنة في سلام .. وحين لمستها فزعت، لكنها أخذتني في حضنها .. حتى فاجأنا عسكر الخليفة وجرجرونا بعد أن ربطونا من الأقدام بحبال من مسد خلف الخيل .. وأنا أحاول حمايتها دون جدوى .. ثم فرقوا بيننا .. إصطحبوها إلى مقر السلطان . أما أنا فجلدوني تحت شباكها حتى تقطعت أنفاسي ..

لو كنت ساعتها معي لما حدث لي ذلك .. نعم افتقدتك وافتقدت أفكارك وحيلك وقدرتك على مواجهة مثل هذه المواقف .. كنت متأكدًا أنني سأخرج من محبئي في هدوء عندما تنتهي من أعمالها العادية .. وحين ينخمد الجميع ستأتي هي إليَّ . وعلى المفرش البمبي الساتان الناعم الملمس . وتحت هذه الناموسية التي تشبه خيمة من ضوء القمر ، سنقضي ليلة من العمر حرمت منها .. ولكن هذه الصورة لم تتح لي أبدًا .. حتى عندما حاولت ، غلبتني هلاوس .. حملتني بعيدًا .. نعم كانت معي في كل هذه التخاريف ولكني لم أحتويها أبدًا و لم أقضم تفاحتها .. فجأة أحسست أنني تجاوزت حدودي ، وأنني ارتكبت حماقة كبيرة . وأن الأمر لن ينتهي على خير .. كالعادة بدأت في تأنيب نفسي .. أرهفت السمع قد أسمع شيئًا .. على الإطلاق .. وكأن البيت ومن فيه ماتوا أو رحلوا ..

تنبهت على خطوات متلصصة .. كدت أنادي عليها ولكني لم أجرؤ .. ولحسن الحظ لم أفعل .. فمن خلال أحد ثقوب الدانتيلا اليدوية التي

تزين الستارة .. لمحت الباب ينتفح في هدوء .. ورأس (ملوك) يندس بين الدرفتين تبحث عن شيء ما .. لم تهدأ .. و لم تقتنع أن أحدًا لم يدخل .. لخبط هذا كياني وشل تفكيري .. (فلابد أنك تخليت عني تمامًا، وتركتني أواجه هذا الموقف وحدي) .. فلم أستطع سوى أن أرتعش رعبًا .. قالت (ملوك) في صوت هامس :

– مين اللي هنا ..؟ ولَهْ !؟

كتمت أنفاسي . وتوقعت أن تدخل فترفع القماش وتكشفني، وتبين لي أنني شخص مختلف كثيرًا عما كنت عليه قبل أن تتركني (نرجس) .. ذلك لأنك اختفيت عني ورحلت حتى عن ذاكرتي ، وأنا في أشد الحاجة إليك ..

شيء ما جعل (ملوك) تعدل عن الدخول ، وتسرع بإغلاق الباب في هدوء .. وسمعت باب غرفتها يغلق بصوت عال .. ثم ساد الصمت للحظة .. بعده .. سمعت صوت (نرجس) يعلو في صخب مرحبًا ..

– يا أهلاً .. يا أهلاً .. دا احنا زارنا النبي .. معقولة .. أهلاً يا ست (ام فهمي) اتفضلي أهلاً يا (ست رسمية) .. معقول .. و(سي سمير) كمان إيه ده ؟ يا دي الهنا لما تزوروا ناس فلاحين زينا ..

فوجئت باسمي يعلن عن حضوره .. وشاهدت خالتي و(رسمية) و(نرجس) يدخلن إلى الحجرة ورأيت خالتي وابنتها تفترشان الأرض بجواري مباشرة .. بينما ارتفع صوت (نرجس) تنادي حماتها أن تنزل لتسلم على الضيوف ، في الوقت نفسه سمعت همس (رسمية) يدعوني في حزم ليس غريبًا عنها :

– أخرج يا (سمسم) .. اظهر وبان يا اخويا وعليك الأمان .. ياللا..

لم أفهم شيئًا .. لكنها مدت يدها من تحت القماش تستعجلني ..

فزحفت مهرولاً وأنا في غاية من الرعب والاضطراب أجر جثتي خارجًا .. لتلقفني يد خالتي و(رسمية) يسويان منكوش شعري .. ويحذراني من النطق بكلمة :

– انت اتجننت يا ولَهْ .. إيه اللي عملته ده ؟

كاد يغمى عليَّ .. لكن (نرجس) ساعتها دخلت .. و لم تفاجأ بوجودي و لم تنزعج.. كانت تحمل صينية عليها عدة الشاي وضعتها وسطنا .. ورفعت رأسها في ابتسامة انتصار وتشف :

– شرفتنا يا (سي سمير) .. والنبي خطوة عزيزة .. دا احنا زارنا النبي .. دا احنا ناس فلاحين مش قد المقام .

تفجر العرق بغزارة من جبيني . أحسست به يغمر جسمي .. دارت بي الغرفة .. حاولت أن أفهم ما حدث .. معقول !! هل جاءت بهم الصدفة .. لا .. لقد رحبوا بي قبل دخولهم كأنهم يريدون الإعلان عن وجودي معهم .. غامت الدنيا أمام عيني ..

أخذتني خالتي في حضنها وهي تضع كفها فوق جبيني .. وصاحت .. وهي تبسمل وتقرأ (الصمدية والكرسي) وأدعية أخرى بلغة غير مفهومة .. ترقيني لتطرد الشياطين التي ركبتني وغوتني ..

– يا حسرة قلبي .. معلهش يا أختي .. ما تصبيش الشاي .. إحنا قايمين .. الشاب قايد نار.. فجأة كده ؟ يا حَبِّة قلبي .. قومي يا (رسمية) إسنديه معايا ..

– يمكن ما عجبتوش عيشة الفلاحين ..

قالتها حماتها في سخرية ولكن في براءة ..

لكن نظرة (ملوك) التي فتحت الباب وسلمت على (رسمية) وهي تمصمص شفتيها في استغراب ولهجة تشي بشك كبير :

– هوَّ انتو لحقتوا . ماشيين على طول كده ليه ؟ الشاي ما اتشربش .. اسم الله عليه .. إيه اللي حصل له؟ بعد الشر عليك يا ضنايا ..

لم تلتفت لها خالتي وخطت بي إلى الخارج بسرعة.. تريد أن تنهي الموقف الثقيل ..

وقالت لها (رسمية) وهي تربت على صدرها .. في لهجة انتصار نسوي :

– آشيته بعافية شوية يا أختي .. شوفتي .. ما لحقناش نقعد ونتسامر معاكي .. معلهش يا (نرجس) نجيلك مرة تانية .. خيرها في غيرها ..

(نرجس) – على ما أعتقد – لم تحتمل . فأسرعت إلى غرفتها وأغلقت الباب عليها.. ولابد أنها انخرطت في البكاء المكتوم حتى أغمي عليها .. من الحسرة وخيبة الأمل .. تلعن العيشة واللي عايشينها .

بينما (أنا متأكد) – أن (ملوك) همست لنفسها غير مقتنعة بكل ما رأته :

– لا والنبي واللي نبَّا النبي.. ده ملعوب كبير قوي .. الحكاية دي مش نازلة لي من زور.

لكنها على ما يبدو بلعتها بعد ذلك على مضض و لم تحفر حولها ، عندما بلغها أنني سقطت بالفعل مريضًا مرضًا لم يعرف له (حامد أفندي) حلاَّق الصحة وتومرجي الدكتور (حبيب) سببًا ولا دواء.. ونصح بضرورة استدعاء الدكتور (حبيب) نفسه . أو نقلي إلى المستشفى الأميري بالمنصورة على الفور ..

• • •

إن الإنسان ليطغى . . .

○ أعتقد أنك تأكدت الآن أن الذي يدفعني ويغريني مرة أخرة بمعاودة الكتابة عنك هو أنك بكل المقاييس أعز ما ابتلتني به الدنيا من أصدقاء في الطفولة والمدرسة ، بين الناس ، في السجن والغربة ، ولأنني أشعر عندما أكتب وأنت معي ، يصبح فعل الكتابة أجمل وأسهل مع أنك مع كل جملة تتخلق على الورق، تغمغم معترضًا في غضب أو سخرية على طريقتك.

– (لا يا حبيبي) ، أنك تقصد (أنا) بالكتابة عني تعني (عنك) تستطيع أن تتحرر لتتجمل وأنت تكذب فتحكي، تخترع وقائع لم تحدث، أو تغير في ترتيب الوقائع كما تشاء أو تبالغ في قيمة بعضها وتختلق شخصيات تنسب إليها نقائصك ومعايبك

.بما يجعلك تضفي على نفسك ملامح رومانسية مبرأة من كل خطأ، وتظهر بريئًا لم تقترف أي جريمة في حق الآخرين أو في حق نفسك، وتستمرئ بكل خبث وبكل براءة أن تنسب لي تحريضك على كل الموبقات والخطايا التي تغطيك من ساسك لراسك.

أصبح أنا الذي دفعك للتطاول على المرأة في القطار رغم غيابي وحضور كل من كانوا حولك وبينهم أبوك وزوجها .. أنا الذي دفعتك دون أن أدري – يا جبايرك – لاقتحام غرفة (نرجس) بهذه الطريقة وكأنني الذي أوحى إليك بتلك الخطة التي لا يفكر فيها إلا (خباص) أراري وبتاع نسوان متودِّك .. أنا طبعًا الزنديق الذي وسوس لك وجعلك تسخر أمام خالك من بناء فُلك (نوح) في الصحراء . بل وتدعي أنني جئتك هاتفًا كصوت مقدس من السماء وأدعوك وأحرضك على احتضان (زهزهان) المسكينة بحجة مواساتها بتجفيف دموعها بشفتيك إمعانًا في الحنِّية (يا راجل يا ضلالي!) خلاص – تريدني أن أكون شيطانك أم ملاكك– هيا استمرئ سكوتي وانتهز فرصة وفاتي!. واستحل عدم قدرتي على الرد على ترهاتك وادعاءاتك .

اختفِ ورائي ، توارَ – يا جبان– لكن لا تكن فجًّا وتزودها فتصبح اللعبة مكشوفة والحجة تصبح مفضوحة . كن كما تدعي رجلاً شريفًا – واعترف – فهذا منذ البداية كان وعدك لمن سيسوقهم سوء حظهم لقراءة هذا الهراء الذي تعاني كي تسكبه على الورق الذي لا يتعامل معه الآن إلا القليلون وأقل منهم من سيصدقون ، بحكم الظروف التي أحاطت بك وبي وحاصرت كتاباتك وحاصرت وجودي عبر كل هذا العمر . ولا أعتقد أن مزيدًا من الأكاذيب أو – يا سيدي حتى لا تغضب – مزيدًا من فبركة الخيال والحرفنة أو ادعائهما سيغير من الحقائق شيئًا .

– حقائق إيه يا عم ؟ وأكاذيب إيه يا صاحبي وبطيخ إيه؟ حيلك عليَّ ، لماذا ذهبت بعيدًا يا صديقي؟. أنا أكدت منذ البداية أنك – وحدك – كنت ومازلت أهم (شيء) في حياتي حتى قبل أن التحق بركبك (الينايري) أو أعتنق مبادئك الماركسية – بصرف النظر عن مشاعرك من حيث ثقتك فيَّ أو شكك في مدى إخلاصي لك واعترافي أو عدمه بجميلك الدائم والمؤثر الملموس والمؤكد علي مساري وتكوينه بل على مسار الوطن لعقود طويلة .

أنا يا عمي لم ولن أغيَر رأيي فيك . وأعترف مرة أخرى أن كل شيء جميل وحي ودرامي وله صلة بالحياة (الحقيقية) من حب وجنس أو فيما يتعلق بالإبداع والموهبة والصداقة والمقدرة على الفعل أو العجز عنه والإصرار على الحق واتخاذ الموقف السليم كما أتصوره يرضيك (سواء تمخض هذا عن غباء عظيم أو ميزة فادحة) كان كله بسببك وبالتأكيد كان الفضل فيه عائدًا إليك بصرف النظر عن خيبة فكرة (دكتاتورية البرولتياريا) التى انتهت فى الواقع الى دكتاتورية أجهزة الأمن السرية ومستويات التنظيم العلنية والتى دفعتك للإنتحار الإرادى أو القسرى (مثلما سيكشف المستقبل) فى منتصف العام الخامس والستين حتى يحقق السوفييت إنهيارهم العظيم بعد سقوط حائط برلين..

فكمِّل جميلك وتحمَّلْني وساعدني على أن أكمل وبعدها حاسبني . لقد كان في نيتي الآن وقد شجعني ذكرك على معاودة الكتابة بعد انقطاع دام أكثر من عام محل، عجزت فيه عن إضافة سطر واحد إلى ما كتبته من قبل عجزًا ويأسًا وقرفًا برغم صدور الرواية السابقة (ولا هم يحزنون) .

كان عامًا كبيسًا تمت فيه سيطرة سياسة التصفية و(السقوف الواطئة) على اليسار وتمت صياغة سياسة (التمديد) إلى الأبد و(التوريث) إلى ما شاء الله .. وظهر مخطط بلقنة المنطقة بالكامل بمشاركة ومباركة كل قادة المنطقة كل حسب الدور المنوط به !!

وانتهى بتدمير (لبنان) وذبح أطفاله . كان عامًا ثقيلاً وقاتلاً ! ذكراك وحدها وأحلام صعودك وعودتك مرة أخرى كانت دافعي الذاتى لتخطي وتجاوز عجزي ، وعودتي للكتابة ، مرة أخرى . أقسم مؤكدًا على حضورك فيَّ ، معترفًا للأبد بفضلك عليَّ وعلى حياتي كلها . فلابد أنه أنت أو شيء منك هو ما دفعني لاعتناق الشيوعية مثلاً . نعم أنت أو شيء ما من طرفك ، زين لي ذلك الطريق ، وقادني إليه واختار لي أصدقائي وأعدائي . والكتب التي أقرأ والبنات اللاتي أحببت ، بل والطريقة التي أحببتهن بها، نعم كنت الدليل أو الملهم لي إلى أهم وأتفه وأجمل وأرذل ما مر بي من أحداث . لا أريد أن أبالغ فيكرهني القراء وأهون عليهم . ولا أريد أن أهوِّل فتكرهني أنت أو تفارقني رافضًا كعادتك ميولى الفردية الاستعراضية ، ورغبتى الدائمة فى الاستحواز على أعجاب من حولى .. منذ نجاحى فى لعب دور (الأمين) على المسرح ، وشيوع قدرتى عن استعادة أحداث وصور تلك الحكايات العجيبة التى كان يقرأها علينا مدرسى الرسم عن آلهة الأوليمب وابطال الأساطير وقدرتى على روايتها كأننى عشتها أو أقرأها من الكتاب بكل تفاصيل أحداثها وسحرها . خاصة وان خالاتى العوانس كن يطلبن منى قراءة (ألف ليلة) لهم .. ويستعدنها منى

أمام الآخرين فى سهرات ليالى الشتاء العائلية حول منقد النار .. فكنت أفعل متطاوسا فى تمنع مفتعل يجعل الكل يحيطوننى بالاغراءات لأمارس ما كنت تفسره أنت بالأنانية وعشق الذات ، وكل تلك التعبيرات المعقدة التى أنكرها تماما ولكنك أبدا لم تبرأنى منها .

أريد أن أذكرها ببساطة فنية . تعوزني الكلمات لأقولها أنك كنت – كما قلت من قبل متحذلقًا – كنت (جبريلي وخضري وفيرجيلي) . في أجمل وأسوأ ما حدث لي طوال هذه الرحلة منذ وعيت على الدنيا ومضيت في مناكبها ، أعاني متاعبها من سفر وسجن وغربة وصراعات وحب وكراهية ويأس وهزيمة . نعم ، فأنت ، سواء كنت تدرك أو لا تدري ، تذكر أو لا تذكر ، أنت مثلاً .. على سبيل المثال ، لابد أنك كنت من عرَّفني على (حسين عبد ربه)!!

• • •

ويخلق ما لاتعلمون

○ طول عمر (ميت سلسيل) قرية وفدية. وفى القرى الوفدية المصرية كثيرا ما تنمو وتزدهر الأفكار الثورية وتتنفس هواء الحرية والتقدم فى مواجهة أقلية من العائلات الأكثر ثراء وفيها كان معظمهم يقطنون الجزء الشرقى منها والمعروف بـ (واطى البلد) .

كانت عائلات (القصبى) و (قداح) و(عاشور) و(مقبل) وكذلك (دار أحمد) تكره الوفد على طول الخط . ويتعلقون دائما فى أذيال أعدائه ، من أول السراية حتى أصغر أحزاب الأقلية. لذلك تخلقت منهم وتحوصلت بينهم ، كالأمبيا ، خلايا (الإخوان المسلمين) و(مصر الفتاه) وغيرهم من أصحاب الأفكار الفاشية والرجعية . وإن ظلت

محدودة ومعزولة مثلها . ومن هنا كان افتتانهم الدائم والتحاقهم بكل حكومات الأقلية وتفانيهم فى خدمتها ، وخدمة الملك على مر العهود ، مما ضمن لهم وللمتعلمين من أبنائهم الحصول على مراكز مهمة ووظائف محترمة فى كل الأجهزة السيادية حتى فى عز (أيام الاشتراكية !) . أما (علو البلد) الوفدى فقد كان يشكل الجزء الأكبر والأكثر من البلد إذ يمتد على مساحة شاسعة تكتظ بالبيوت المتزاحمة ، فيما بين ترعة السلطان ، عبر جسر سكة حديد الفرنساوى والزراعية جنوباً ويتجاوز البحر القديم شمالاً ، محتفظاً بثلاثة كبارى خشبية ضيقة تربط البيوت المنفلتة من الزحام بالجسم الرئيسى للقرية ..

كان بيت جدى الذى أصبح بيتنا بعد انتهاء عصر ستى (أم العز) أم علام – التى كانت تحتل النصف الداخلى من الطابق الأرضى ، مؤكدة هيمنتها على بقية البيت من أول الباب الفريد ذى التهاويل الخشبية الفاتح على الشارع حتى السطوح العليا للدور الثانى حيث إيريال الراديو الذى يشق عنان السماء ملتقطاً الاذاعة (المصرية والشرق الأدنى) . يقارع بموسيقاه وأغانيه وأحاديثه حدة صوتها الذى لا تنقطع أوامره لكل داخل أو خارج من الدار من البشر أو الحيوانات والطيور .

وانتهى بموتها الصراع الذى كان حادًا فى النصف الثانى من اليوم لأن لها وحدها الهيمنة طوال النصف الأول من النهار ، حيث تهمد حركة البشر بمغادرة الصغار والأب البيت إلى أعمالهم ومدارسهم وانقطاع الإرسال بطبيعته .

بقية بيوت دار (عوض) حيث يسكن أعمامى وعماتى كانت بجوار الخرابة على مسافة قريبة ، وعيلة دار (عوض) فرع من كيان كبير غير محدد

اسمه (عيلة الشرفا) يضم العديد من الفروع مثل (النبراوى) و(شهاب) و(مجاهد) و(حجازى) و(طه) و(الحلو) و(نايل) و(عطا) و(الحسنين) و(جبر) و(شطا) و(عابدين) يختلطون فى (علوْ) البلد بعائلات أخرى كثيرة مثل (قنديل) و(البرمبالى) و(البراوى) و(أبو العز) و(أبو الفضل) و(العصفورى) و(على) و(الزفتاوى) و(رخا) و(بدر) و(عبد ربه) و (النملة) و(العشماوى) و(القواسم) و(البص) و(الدسوقى) و (أبو مسعد) و(أبو دهينة) و(النحاس) و(الأزرق) و(جعطيط) و(حبيب) و(الموافى) و (عبد النبى) و(هاشم) و(زبلة) و (الضهيرى) و(أبو الحسن) و(العربى) و(الطنطاوى) و(البيومى) و(مطاوع) و(القشلان) ومعظمهم من الملاك الصغار ، أو المتوسطين ومن أهل التجارة والأسواق ومن أصحاب الحرف والصنائع ، من فقهاء وجزارين وسماكين وحلاقين وقصاصين حمير ونجارين وتجار وقهوجية وعربجية وباعة ومدرسين وصغار موظفين وعمال تراحيل .

لذا كان أهل (واطى البلد) يطلقون علينا أسم أو صفة (!!) (السوَقية) نسبة إلى السوق و لم نكن نعتز بهذه التسمية ، لكننا لم نكن نغضب منها . بل كانت أحياناً موضع فخر لدى الكثيرين ، وتوحي لهم بالرجولة والفتونة والخشونة والتمرد . بل كان ابن عمى عبد الحليم (عبد الرحمن) وهو فلاح انقطع عن الدراسة بعد أن نال قسطاً متواضعاً كافياً أن يميزه عن الآخرين ويؤهله لشراء جريدة (المصري) بانتظام .. وليعطيه الحق أن يطلق علينا سكان هذا الجزء الحى من القرية بكل بساطة وتعال – الشعب (الدمهاء)!!

وبالرغم من أن حدود العيش فى الغالب الأعم كانت ضيقة كحدود الرزق فى علو البلد إلا أنهم جميعاً (ميسورين وأرزقية) كانوا طموحين

لديهم من الأحلام ما يجعلهم يناطحون الحياة لجعلها أفضل . ولدى الجميع تحتدم رغبة عارمة لتعليم أولادهم تحدياً للفقر . كانت (بائعة الفجل) تكدح لتوفر مصاريف ابنها ، وكان العربجى السريح وعامل التراحيل الأرزقى يذوق الأمريَن لتوفير مصاريف تعليم ابنه فى البندر . كان الطلبة يشكلون ظاهرة لا يمكن تجاهلها فى تشريح القرية الاجتماعى وخاصة طلبة (علو البلد) الذين شاع خبرهم فيما حولنا من بلاد كطلبة محترفين .

كانت بلدنا قبل قرار (طه حسين) وحكومة الوفد أن يكون التعليم كالماء والهواء للجميع –تشرب وتتنفس قدر الإمكان هواء وماء العلم ، لكنها فرحت فرحاً لا يقدر لأن ذلك القرار– الذى تأخر كثيراً فى رأى أهلها ، وفر على الكثيرين منهم وعلى أبنائهم مذلة تقديم شهادة إدارية موثقة تعترف (بالفقر) والعوز ، مذلة كانت السبيل الأوحد لحصول الكثيرين على فرصة تعليم مجانى ثمناً لاعتراف ورضا بالتدنى الاجتماعى وإقراراً بذل الفقر والعوز .

لذلك كان من الطبيعى أن يسعى رجال (علو البلد) بشدة لفتح المدرسة الابتدائية الأولى فى (ميت سلسيل) حتى قبل وصول الوفد إلى الحكم ، بجهود ذاتية عبقرية تؤكد أن الابداع كان سمة من سمات الشعب المصرى ، الذى كان أيامها قد صك شعاره العبقرى (الجلاء بالدماء) !!

فى تلك الأيام بالذات تعرفت على (حسين عبد ربه) . ولكى لا تغضب أؤكد أننى لست متأكداً ياصديقى تماماً – فضلك فى هذا . ولكنها طبيعة البدايات الغائمة التى تمتد ملامحها فى المنطقة العالقة فى أعماق الذاكرة بين حبال التذكر وغيام النسيان ، وإن كانت الأحداث ستكشف كعادتها دون اى قصد أو تعمد ، عن دورك فى انعقاد تلك الصداقة التى دامت برعايتك طبعاً – بل وفى بعض الأحيان رغم أنفك – حتى نهايات العمر .

كان (كامل أفندى مصطفى عبد ربه) أو (مصطفى كامل أفندى مصطفى عبد ربه) الذى أخذ اسمه على الأرجح تيمناً باسم الزعيم الشاب ، مشعل شمعة الوطنية فى ليل الهزيمة بعد (هبة عرابى) – والد (حسين كامل مصطفى عبد ربه) واحداً من (رجالات) (ميت سلسيل) . وليست (رجالات) هذه تعبيراً أدبيَا (من وقتئذ فقط) وإنما هو تعبير عن حقيقة أو ظاهرة لا يمكن تجاهلها . ولعلها كانت ظاهرة عامة فى كثير من قرى الأربعينات نعم أشهد أنه كان هناك (رجالات) فعلاً .

فـ(كامل أفندى عبد ربه) والشيخ(على أبو الحسن) والشيخ(مجاهد أبو دسوقى) و(محمد أبو على أبو عابدين) والشيخ(أبو بكر) شيخ الجامع الكبير و(عبد الرءوف أفندى) والشيخ (شطا) والشيخ (محمد أبو مجاهد) و(عبد الباقى أفندى عوض) والشيخ (أحمد أبو حسانين) و(جاد أفندى عبد النبى) و (محمد أفندى الطنطاوى) و (الشيخ(عويضة شهاب) و(حسن أبو موافى) و(محمد أبو دسوقى النملة) والشيخ(على أبو على الأمير) والشيخ (عبد الحليم النبراوى) و(السيد أبو سيد) و(محمد أبو نبراوى) و(عبد الجليل النبراوى) و(محمود أفندى شطا) كانوا وغيرهم ممن تعجز ذاكرتى عن إستحضارهم جميعاً (وقد يأتى ذكرهم مع توالى الأحداث التى من شأنها إنعاش مضادات النسيان) كانوا هم رجالات (علو البلد) وطبعاً كان هناك مثلهم فى (واطى البلد) يجبرنى روح العدل – التى ربيتنى عليها ياصديقى – أن أذكرهم والشئ بنقيضه يذكر نعم كان لـ(واطى البلد) رجالاتها أيضاً بالطبع ولكن مع الفارق الذى لم أضعه أنا .

كان هناك (توفيق بك قداح) و(أحمد بك القصبى) و(محمد أبو مقبل) و(مصطفى أفندى مقبل) و(حسين بك عاشور) و (إبراهيم العزبى) و(عرفات الغندور) و(أحمد أبو أحمد) و(عوض قداح) و (نصر

أفندى عاشور) العمدة . وطبعا كان هناك آخرون –بين بين– تطوح بهم الظروف السياسية والاقتصادية فيما بين هؤلاء وأولئك مثل (محمد أفندى العزبى) والشيخ(حسن أبو مسعد) والشيخ(على الدسوقى) كبير عزبة الدقون . وطبعاً كان يتخلل هذا النسيج متمردون على التصنيف والتسكين لكنهم حاضرون ولهم حساب عند الجميع سلباً أو إيجاباً – مثل (مجاهد أحمد طه) و(العدل مجاهد) و(حسن أبو مصطفى) و (أبو نضارة) و(السيد الغرباوى) و(محمد السقا) و (إبراهيم رخا) و(يسن أفندى) و(السعيد حمزة) .

اقول (رجالات) لأتجنب كلمة (أعيان) التى كان لها مدلول أقتصادى وسلطوى طبقى آخر فى أدبيات تاريخ تلك الفترة . فلم يكن (رجالات) (علو البلد) جميعاً من أصحاب الملكيات الزراعية الكبيرة ، ولا كانوا كلهم رؤساء عائلات كبيرة يكتسبون من خلالها مكانتهم . قد ينطبق هذا بشكل أكبر على بتوع (واطى البلد) ، فـ(توفيق بك قداح) أو(أحمد أفندى القصبى) و(حسين بك عاشور) مثلاً ، يمتلك كل منهما على الأقل ما يقرب من مائتى فدان.. وإن كان معظمهم لا يقع فى زمام (ميت سلسيل) فقلل ذلك من نفوذهم على فقرائها !.

أما بتوع (علو البلد) فلم تكن لمعظمهم ملكيات كبيرة ملحوظة ، بل كان بينهم من لم يكن يمتلك أرضاً على الإطلاق . أو من كان مجرد صاحب دكان وتجارة مميزة كالخشب أو الجاز أو تاجر أقطان (موسمى) أو (تاجر أقمشة) أو مقاول عمليات أشغال أو تاجر حبوب . ومنهم من كان صاحب عقل راجح ، أو كبير عائلة كثيرة العدد أوْكل له رجالها التحدث باسمهم ، مثل عائلة (القواسم) أو (العشماوى) ، أو كان مجرد صاحب وظيفة لها هيبة ومكانه مثل شيخ الجامع (أبو بكر) ، ومتعلم

صاحب شهادة – مدرس مثل (محمود أفندى سالم) و (يس أفندى) او رجل طيب على قده مثل عم(الصديق الصحصاح) أو رجل مهمات صعبة مثل (إبراهيم أبو رخا) أو (السيد الكداب) وإذا مددنا الخطوط على آخرها فسوف نصل إلى رجال لا يمتلكون من ضهر الدنيا شيئاً يصنع جاهاً أو نفوذاً فى أعراف ذلك الزمان . لكن البلد لايمكن أن تتجاهلهم إذا ما ألمت بها كارثة ، أو اندفعت لتحقيق شئ قيه مصلحة عامة ، أو درء مصيبة فادحة كبناء مئذنة الجامع المنهارة أو استكمال فصل ثالثة ابتدائى على الأقل ، والحصول على وعد بالسنة الرابعة قبل البدء بتأسيسها ، أو بناء مقر للإخوان المسلمين ، أو مواجهة الوباء أو ردم البركة أو إزالة الخرابة ، وبيع أرضها ليساعد ثمنها فى بناء المدرسة الجديدة . يوم يضيق بيت الشيخ (على ابو الحسن) على تلاميذ البلد الذين يتكاثرون بمتوالية هندسية – وغير ذلك– خاصة إذا ما سمحت الظروف أو حتمت حدوث انتخابات حرة أو غير حرة فيستنفرون لتعلن (ميت سلسيل) رأيها الوفدى دائماً رقم مقاوحات (واطى البلد) .

وكان من هؤلاء مثلا (سعد الطنطاوى) الزجال و(احمد أبو جبر) و(عبد الحميد عثمان) و(السعيد الضهيرى) و(مأمون عبد الحى) الضابط الذى حكم عليه بالاعدام بعد الثورة و(الخواجه سبيرو) ناظر المحطة والشيخ(محمد أبو عبد الله) و(شاكر أفندى الدغيدى) وطبعاً (يوسف أفندى عبد ربه) و (محمد عبده حسنين) اللذين كانا على أيامها من الشباب الناهض –الذى ظهرفى القرية بعد الحرب العالمية محملاً بافكار وخبرة (لجنة الطلبه والعمال) و(الطليعة الوفدية) – وما أدراك

لماذا أشعر أنك تتململ وتكاد تنفجر غيظا ؟ هل لأننى أثرثر أكثر من

اللازم ؟ أو لأننى نسيت البعض ؟ أنا أذكر معلومات لا رأياً لنختلف ، فلماذا تعترض ؟.. أنت الذى علمتنى أن أحترم البشر ، خاصة عوام الناس من الرجال والنساء فلماذا تغضب ، ألأننى أريد أن أؤكد فكرتك أن الإنسان هو أثمن رأسمال ؟ وأنه فى أيامها رغم الاحتلال والملك والسراية والخيانة ... كان الرجال يتصدون لا بالكلام فقط ، ولكن بالفعل وبالجهد. وكان لهم اعتبار ومكانة كبيرة ليس لدى اهلهم فقط أو لدى قراهم فحسب ، ولكن الكل كان يعمل لهم ألف حساب عند الحكومات، حتى حكومات الأقلية . وعند الإدارة كان صوتهم مسموعاً يصل لقمة الجبل الإدارى – لاحظ أنهم لم يكونوا رجالاً فى خدمة السلطة كما يحدث الآن . صدقنى – انزل أى قرية مصرية الآن لن تجد مثلهم ، إلا أولئك الجالسين على حجر التنظيم الرسمى أو الحزب الحكومى أو أجهزة الأمن ، و ستجد مثلهم مقهوراً مقموعاً مطارداً إلى الهامش يبحث عن ظل حيط . وإلا قل لى بربك : لماذا اختفى (الطلبة) كظاهرة ثورية من حياة قراهم وصاروا مجرد آحاد، أعداد ، أرقام، خيالات ظل ؟ و لم يعد يظهر لنا مثل هؤلاء (الرجالات) التى كانت تقود القرى وتنسى ما بينها من خلافات سياسية إذا تعلق الأمر بإنجاز أو تحقيق مصلحة لخدمة القرية ؟.. سكتَ .. طبعاً . ولعلك فهمت لماذا أذكر كل هذه الأسماء فى معرض حديثى عن علاقتى بـ(حسين عبد ربه) تلك التى بدأت – كما لا أتذكر – على يديك ، ولكن اعذرنى هذه حيلة رديئة من حيل الكتابة . وعلى فكرة حتى ولو أنكرت، أنت الذى علمتنى اللجوء إلى مثلها ضمن ما علمتنى من عادات سيئة !

الحارة الغريبة الثعبانية تستدق وتضيق فى معظم أجزائها حتى تصبح مجرد زقاق يتعمد تقسيم (ميت سلسيل) قسمة جغرافية غريبة ، تكاد تتفق

مع قسمتها الاجتماعية إلى (علو وواطى البلد) . الحارة تبدأ من الجنوب حيث البركة، عند نهاية مخزن محطة القطار ومبنى جمعية الإخوان المسلمين الذى أقامته القرية عقب خيبة أملهم فى الوفد عقب (٤ فبراير) ، ثم تندفع شمالاً فى صعود حاد لتفصل بين بيوت (آل جعطيط) ، و(الغنادرة) و (آل مقبل) إلى جوار (دار أحمد) مواصلة صعودها مخترقة عدة وسعايات ، وتتقاطع مع شارع السوق ثم تشقه فى حدة ما بين إحدى دور آل (رخا) ودار (مسعد) ، لتهوى فى انحدار حاد ملحوظ نحو معدية (عزبة الدقون) هذه الحاره التى شق بها القدر (ميت سلسيل) بالعرض، تجعلك تلاحظ بقوة أن شرقها حيث (واطى البلد) تكاد تختفى فيه كل حركة رجْل ، ليلا ويخرس كل صوت ، فلا يوجد مقاهى أو دكاكين ساهرة فى كل هذا العِب الذى ينتهى عند (ترعة الجوابر).

فيما عدا (من أجل خاطر عيون الحقيقه) دكان (عم خلف) الذى يعتلى انحداراً آخر حاداً نحو البحر ، تصل الحركة لدرجة السكون فى معظم شوارع وحوارى (واطى البلد) .

أما فى (علو البلد) فالأمر على العكس . إذ تقع فيه كل مقاهى (ميت سلسيل) ودكاكينها وورش مهنها المختلفة ، التى تتكدس إما على المحطة أو على جانب الجزء الغربي والأوسط من شارع السوق ، فى دهاليز وسراديب شوارع (علو البلد) وحواريها قهوة (أبو راشد) وقهوة(السعيد حمزة) وقهوة(أحمد النادي) وفى السوق قهوة(حسن أبو مصطفى) وقهوة (العدل مجاهد) على المحطة . وقد راج شأنها ، بعد أن اشترك هو و(مجاهد أحمد طه) فى إقامة سينما (ميت سلسيل) مواكبة أوفى مواجهة النكبة ، فصارت المحطة بفضلها تشغى بالبشر والأصوات . وصارت

الحركة لا تهدأ ولا تهمد ولا تنام فى النهار كما فى الليل مثلها مثل دكاكين (علو البلد) التى كان لكل منها طابع المنتدى الليلى .

دكان (محمود شطا) مجلس جماعات السياسة الوفدية ، ودكان (محمد النحاس) ملتقى الشباب من الطلبة ، ودكان (جاد عبد النبى) ودكان (الشيخ شطا) ، مجلس أهل العقل والحكمة ممن هم فوق الأربعين .

وبرغم ذلك جاء وقت ضاقت فيه شعاب (علو ميت سلسيل) باهلها المتكلمة فظهرت عدة نواصي ومصاطب تشتبك فيها وتحتدم عليها الأحاديث الصاخبة والسمر الهادئ ، كما انتشرت إلى جوارها منتديات عشوائية فى أماكن مختلفة .

عايشنا ذلك منذ الصبا، واعتدنا هذا الضجيج المحاصر بظلام الصمت بعد حراك المساء والذى لا يهدأ ولا ينى يأسرنا ويجذبنا كالفراشات، ويندفع البعض منا للاقتراب فى تشوف ، مصطنعاً الجدية، ثم مندهشاً منفعلاً ثم مشاركاً ، إن كان له ثمة قرابة أو انتماء لبعض الممارسين الكبار، وقد يجد الفرصة للاندماج حسب سنه طبعاً ، وحسب طبيعة الموضوع، ولياقة التدخل ولو بسؤال .

على خشب بنكات الدكاكين وعلى ترابيزات المقاهى ، بل وعلى التراب وفى الساحات والنواصى ، كم رُسمت الخرائط ، ووضعت الخطط لتحركات جيوش (هتلر) والمحور، ولتجمعات قوات الحلفاء، وعصابات (البارتيزان) ، والمقاومة الفرنسية، وكارثة تقهقر (الجيش الأحمر) أمام النازى ، ثم عودته لاكتساح (الإلمان) فيما بعد وأساطير (ستالينجراد) ورجال الأنصار الحمر !! وكم اسُتخدمت قطع الدومينو أو الزلط أو الأحجار أو أى شئ متاح للدلالة على مواقع (رومل) و (مونتجومري)

، و(ديجول) ، و (ستالين ، و(تشرشل) ، و(شكاي شيك)! تتناثر على الأرض غضباً أو زهقاً أو استسلاماً حسب طبيعة الاختلاف ، وحدة موقف كل متكلم .

طوال (الأربعينات) وحتى سنة (اثنين وخمسين) وجدت هذه التجمعات ما تخوض فيه بكل حماس ، عن الحرب العالمية الثانية ، وحرب الحبشة وإيطاليا ، وكوريا، أو ذكريات الحرب العالمية الأولى وثورة ١٩ ومواقف السلطات المختلفة إذا ما احتاج الأمر إلى ضرب الأمثال : إلى فضائح (الملك فاروق) وقصصة ، وحكايات (نازلى) و (فريدة) ، و(أحمد حسانين) ثم زواج (فتحية) و (غالى) و (ناريمان) ، كل هذه الأحداث والشخصيات كانت تطرح أرضاً على تراب الساحات وعلى أخشاب المناضد لتأكيد الجدل المحتدم والنقاش الذي لا ينتهى .

حتى فى أيام الملاريا ، وبعدها الكوليرا ، لم تنقطع هذه المجادلات الصاخبة حول أسباب الوباء وطرق العلاج الكافى الشافى ، وما لليمون من فوائد فى علاج كل تلك الأرزاء.

فتاوى وآراء يشارك فيها حتى من ليس له فى الطور ولا فى الطحين. ولما حلت حرب فلسطين ، أخذت المجادلات والمناقشات تشتد وتحتد ، وتفاخر أو تسخر من اجتماعات ملوك ورؤساء الدول العربية ، وتحركات الجيوش ، والأسلحة الفاسدة والفدائيين ، استخدمت هذه المرة أسماء مبتكرة لكلَ ما يناسبه .

فـ(عبد الهادى) كلب الوادى و(عبد الله) جون بول و(الضبع الأسود) (السيد طه) واللواء (المواوى) الفلفل والملح أبطال (الفلوجة) والبطل(أحمد عبد العزيز) وما نسج حولهم من أساطير نضالية فاقت أساطير وأغانى زواج الأميرة (فوزية) من (شاه إيران) . حيث انتشرت

على ألستنا صغاراً وكباراً أغنية (على ياعمر ارفع العلم للأميرة فوزية والأمير إيران) .

التحقنا صغاراً بمدرسة السياسة الحرة هذه على المصاطب والنواصى فى مساحات الضوء التى تسكبها كلوبات الجاز أم رتينة فى الليالى التى بلا قمر ، تبدد ظلمات الليل والجهل وتدفعنا دون وعي كامل للاحتفاء باسماء وصور أبطال تلك الحروب ، من (فلسطين) إلى (الصين) والاحتفال باسماء الزعماء، (النحاس زعيم الأمة) ، و (ستالين بطل ستالينجراد)، وكذلك الإعجاب بمناورات (روميل ثعلب الصحراء) ، وحكايات أبطال الفالوجة ، واعتقالات الإخوان المسلمين ، وحواديت ملك مصر والسودان ، والعسكرى الأسود ، والعجوز (مصدق) الذى أمم بترول إيران فصار عندنا فى معزة (النحاس) الذى الغى المعاهده بأسم الامه. وسمح للفدائين بالذهاب إلى القناة لقتال الانجليز ، مما دفع وشجع (حسين عبد ربه)، على الهرب من منزله لينضم للمقاتلين ، وهو لم يبلغ الرابعة عشر بعد ، فقلب كيان البلد ، وغزا اسمه مساحات الكلام فى مقاهيها ودكاكينها ، وساحات الضوء فيها لأسابيع ليست قليلة . وثبتت له مكانة فى قلوب الطلبة والناس ، إلى أن عرف والده مكانه فى (القصاصين)، فذهب وعاد به مظهراً أشد مظاهر الغضب بينما هو فرحان فى سره ولكن ليس لمثله من رجالات البلد الصارمين أن يظهر فرحاً لنزوة ولد جاهل مراهق .

• • •

يسقى بماء واحد . . .

○ كانت بيوت (دار عبد ربه) تقع في صف واحد على الشاطئ الغربي لترعة (السلطان) . في المسافة ما بين البحر القديم الذي يبدأ من نقطة مجهولة ما بين (الكردي) و(المنية) في الغرب من غيطنا المعروف بغيط (السباخ) والذي كان ينتهي ملتقيًا بالبحر (الترعة) الأكبر منه قليلاً ، الذي يبدأ من (البحر الصغير) أو البحر الجديد . كما أطلقنا عليه عند ما يعرف (بالمغذي) ولكنه في نقطة ما ، بين بداية (عزبة السلطان) و(سراي عبد ربه الكبيرة) وبيت (أبو دهينة) ، يصنع ما يشبه اللغز . حيث يختفي طرفه فجأة تحت الأرض في مقابل بئر ساقية مهجور مبني بصخور تاريخية عتيقة بازلتية سوداء، تشبه ما ترصف بها بعض شوارع (المنصورة)

القديمة ، أكثر ما كان يميزها تلك الجميزة القديمة المعمرة التي تعتليها في سطوة واضحة كرمة عنب (بز الناقة) . كنا نظن ألاَّ صاحب لها ولذا كانت عناقيدها الفذة غنيمة مغرية لنا في أي وقت .

كنا نغزوها صغارًا في جماعات كغربان الحقول ، معرضين أنفسنا لمطاردات عنيفة –عفاريتية مجهولة من أي من كان ، وغالبًا ما كانت تنتهي تلك المطاردات بسقوط أحدنا في تلك البئر الدوامة المياه ، فتنقلب المطاردة أيًا كانت وحشيتها إلى تضامنية رائعة بين المطارد الغاضب والمطاردين المذعورين لإنقاذ الضحية ، التي كان يُعتقد اعتقادًا راسخًا أنها يمكن أن تغوص به فلا تظهره – حسب اعتقادنا – إلاَّ في الجانب الآخر من الكرة الأرضية !!

يومًا ما ستمتد بيوت دار (عبد ربه) فيما يلي السراية على الشاطئ الغربي للترعة ، الذي تحجبه وتحجبها غابة هائلة من الغاب البلدي ، ترتفع متماسكة كجدار حاجز يستر سورًا من النباتات الشائكة يحيط السراية ، ويمتد حتى بيت (فؤاد عبد ربه) يليه بيت (إبراهيم عبد ربه) أو (فلَّتيهما) إن شاء الله . قبل أن يؤول الأخير إلى الأستاذ (إبراهيم العزبي) مدرس اللغة الإنجليزية وزوج أختهم .

وبعدها كانت مسافة خالية عامرة بأشجار الخوخ والبرتقال والنخيل والعنب، حيث المساحة التي سيقام عليها بيت (مصطفى أفندي كامل أو كامل أفندي مصطفى) الأخ الأكبر. و لم يكن مسموحًا لأحد غيرهم (آل عبد ربه) ومزارعيهم بالمرور على ذلك الشاطئ، خاصة أن (يوسف عبد ربه) سيبني بيتًا له شمال السراية بعد خرابها، ويصبح من الضروري اقتحام حرمته للمرور على المدق النحيل المحصور في ما بين السور الكثيف الشائك وغاب الشاطئ الخاص .

ورغم هذا التجاور المحصن بحرمة الشط والحدائق المثمرة التي تضم المنطقة ، ستصبح العلاقات بين الأشقاء – الجيران – مقطوعة إلى درجة شبه عدائية مستترة وخفية إلا على الحميمين من الأقارب والأصدقاء . وهي سمة ليست غريبة نراها كثيرًا في العائلات الكثيرة العدد ، حين تتمزق بينهم الملكية الموروثة بعد وفاة الرجل الكبير الذي أعطاهم اسمه ، بما يهدد العز الفخيم الذي كانت تضمنه ملكيته الكبيرة التي كتب عليها بأن تنقسم حسب الشريعة بين الإخوة الأشقاء أو غير الأشقاء ، المعترف بهم وغير المعروفين ، خاصة عندما تكشف الوفاة عن روابط وعلاقات ملتبسة ومركبة ومعقدة. ويدخل الأمر في الغالب بعد الفشل المؤكد للمحاولات العرفية السلمية ، إلى سراديب المحاكم وألاعيب القانون مخلفة آثارًا عدائية تمتد لأجيال وأجيال ..

وإن ظلت السراية والأرض محتمية بقدر هائل من الرهبة والغموض ، قائمة في ما بين البحرين (بحر السباخ) و(الترعة) ذات الشاطئ الغامض، في مواجهة كرمة العنب (بز الناقة) وجميزتها المنحنية لقضاء الله فوق البئر المفزعة . وفي مواجهة العزبة ، التي احتمى ساكنوها بمسجده، ذلك (السلطان) الذي كان آل (عبد ربه) يدعون انتسابهم إليه .. سلطان إيه ؟ لا أحد يعرف !

– إنت أحسن حاجة تقوم تروح يا (عبد الباقي أفندي) بالكشف لكامل أفندي وهو ح يحلها.

اعترض (علي أبو دسوقي) :

– ما تفضوها سيرة وكفاية مجلس المديرية وافق على المدرسة، أولى وثانية ، فيها إيه؟ لو ح تطلبوا فصل سنة ثالثة ح تعطلوها! القرار صدر وح

يتنفذ . نقوم نعطله إحنا ، لا إله إلا الله...!

– محمد رسول الله يا شيخ علي ...

قاطعه (حسن موافي) وهو يفز فاردًا ركبته التي كان يثنيها تحته :

– إنت يا شيخ علي اللي بتقفلها . فيها إيه لما يفتحوا فصل سنة ثالثة ونريح البلد ونريح ولادنا!! بشروا ولا تنفروا يا مولانا .

غضب (الشيخ علي) :

– أنا اللي (نفروا) والا أنت عشان ابنك وابن عبد الباقي ، عاوزين تعطلوا لنا فتح المدرسة من أصله.. فيها إيه امَّا نحمد ربنا على اللي حصل وما نضيعش الفرصة . وطبيعي ح يبقى فيه ثالثة السنة الجاية .. وإذا عيالكم لا قدر الله سقطوا يدخلوها ..

ضحك بعض الحاضرين لكن الأغلبية استنكرت ما قاله .

كانت عادة ترسخت ملامحها في (ميت سلسيل) من عهد بعيد ، كانوا يتداعون بعد صلاة الجماعة ، كلما استدعى الأمر ذلك أو طلبت مشكلة حلاً ، كان أصحابها يسرعون قبل انصراف المصلين ويطرحونها عليهم . وتتم مناقشتها بحثًا عن حل . وكان الأمر في بعض الأحيان يحتاج لعدة صلوات للوصول لرأي مشترك .

وقام (عبد الباقي أفندي) في ضبط نفس لم يتعود عليه وهو يقول :

– عيالنا مش خايبة عشان تسقط . والمجلس ح يوافق ح يوافق على الفصل ، بس انت ريح نفسك يا شيخ واطلع منها ، أيوه يا سيدي تفاءل معانا (ولا تنفروا) يا شيخ علي وقادر ربنا يا سيدي يكرمك ولا يسقط لك عيل !

قام (الشيخ علي) منتفضًا وهو يشوح غاضبًا من تلقيح (عبد الباقي) القاسي :

– القعدة بقت ماسخة ... أنا ماشي ...

قال (عبد الجليل النبراوي) في حزم :

– ما تهمد يا شيخ علي .. إنت لا لك ولد في ثانية ولا في ثالثة وأبو موافي ح يحوِّل لابنه من دمياط مخصوص مع أنه مرتاح هناك عند أخته عشان يكمل الكشف . وإيه المانع يبقى ابنه تحت جناحه ؟

قال الشيخ علي مصرًّا على الذهاب ...

– القرار بيقول لازم الفصل يبقى ٢٢ تلميذ على الأقل .. والكشف حتى بابن ابو موافي يا دوب ١٦ . ح تعملوا إليه في الباقي يا سي عبد الباقي افندي !!

فأخرج (عبد الباقي أفندي) الكشف وفرده أمام الجميع قائلاً :

– الكشف فيه أسامي ١٨ تلميذ معانا طلبات وإقرارات أولياء أمورهم . وفيه ولدين من (الكفر) بكرة إن شاء الله ح نجيب موافقة أولياء أمورهم (كمال ابن طاهر الهواري)... وولد (للسيد الجعلي) .. ما باقيش غير اثنين ..

– خلاص يا عبد الباقي افندي . إنت بس تروح لكامل افندي وتعرض عليه الموضوع وهو يقدر يقنع (الكرادوة) وأكيد ح تتحل ، إلحقه قبل نومة القيالة روح .

مضى (الشيخ علي) وهو يلوح بذراعه محتجًا ويغمغم في قرف :

– كل واحد همُّه مصلحته وبس!

مصمص البعض شفايفه متعجبًا دون أن ينطق ...

جذبني أبي من ذراعي وهو يقف .. قائلاً :

أنا رايح ألحق كامل افندي ، وادعوا لنا يا اخوانًا . واقروا لنا الفاتحة بنية صافية ح تتحل ان شاء الله ...

مضيت مهرولاً وراء أبي ألاحقه بصعوبة وأنا أحس بامتنان له كبير ، وبإعجاب غير محدود به وأنا أراه يبذل كل هذا الجهد لراحتي .. و لم أفهم لم يعترض (الشيخ علي) على اهتمام الأب براحة ابنه ؟ .. كنت أستيقظ

يوميًّا في الشتاء مع أذان الفجر في عز البرد لكي ألحق (ديزل) السادسة صباحًا وكنت أركبه مجانًا فأنا (ابن أخت فتوح أفندي) وأوفر نصف القرش الذي أدفعه للأتوبيس . إذا ما فاتني الديزل . ساعتها تعصر قلبي احتمالات تأخر الأتوبيس بسبب المطر أو مشاكل الطريق غير المرصوف والتربص الدائم (لهاشم أفندي) مدرس الألعاب بالذين يتأخرون منا إلى ما بعد صرف طابور الصباح وتحية العلم .

كانت تتناوشني وأنا أهرول خلف أبي المتعجل مشاعر غامضة حيال الشاطئ الغربي لترعة ذلك (السلطان) .. كنت أظن أننا ذاهبون إلى (السراية) فغمرتني ذكرى زيارة ما – ذات يوم أثناء الحرب المشتعلة بين (الإنجليز والألمان) فوق أرض وسماء مصر. كان يقيم عندنا أقاربنا من الإسكندرية، المهاجرين إلينا من خطر القنابل الألمانية وصواريخ (زبلن) .. (كان الاسم أيامها موحيًا وله في نفسي صدى لغموض ساحر مثير يجعلني أردده بين مشاعر الإعجاب والخوف) . يومها اصطحبت أمي كبرى الأخوات الثلاثة اللاجئات إلينا ، في زيارة مجاملة وتعارف للهانم ساكنة (السراية) . وذهبت معها (إذ لم يكن من اللائق أن تقوم النساء بزيارات نهارية في ظل الحرب أو ليلية طبعًا ، دون أن يصحبهم (رجل) حتى لو كان طفلاً يدرس في مدرسة للبنات بطريقة غير رسمية .

لم تكن (السراية) قد خربت بعد طبعًا إلى هذه الدرجة و لم يكن (يوسف عبد ربه) قد بدأ بناء البيت الذي احتل الجزء الشمالي من حديقتها المثمرة الغامضة ...

تقدمتهما في جدية أنادي على الجناينى . كنت أعرف أنني منتدب لمهام منها الزعيق بصوت عال فلا يليق بالنساء الصياح كما فعلت .

فتح لنا رجل مسن عتيق غامض ظهر فجأة أمامي فأفزعني كأنه شبح شيخ خارج للتو من قمقم إحدى حكايات ألف ليلة . فهذا البستان (الجنينة) المسكون بالجنيات والحوريات كان دائمًا مركز تصوراتي عن جناين حواديت خالتي ، عمامته المعقدة الكالحة المتربة ، ثوبه البالي المعقود حول وسطه كاشفًا عن ساقي شجرتى جوافة أو عنزة جرباء .. بالإضافة إلى لحيته الطويلة الرمادية التي تؤطر في غموض وجهًا جافًا تبرق فيه عينان ثعلبيتان (جحاوتين)، سمَّرتني هيئته على التوِّ حين فاجأتني لهجته تسألني بصوت صاعد من جب عميق عمن أريد .

تصورت معه أن (مقصًّا مهولاً سوف ينقض ليقص طرف لساني) حين أبوح بما أريد ، لكني تمالكت نفسي فور رأيته يفتح البوابة مبتسمًا قبل أن يعرف من نحن . ولما عرف أننا من نحن وأننا في زيارة إلى الست الكبيرة ، تسابقت كلماته المرحبة ترعش لحيته المسلوبة بطريقة مضحكة تليق (بأبي نواس) . تماسكت ولعبت بصعوبة دور الحادي ، أقود أمي وقريبتنا (تانت سعاد) إلى الأمام وكأنني أعرف المكان منذ قديم الزمان .

لم يكن شكل السراية الهائلة ذات الدورين الكاملين والنوافذ الطويلة غريبا عليَّ فقد دخلت مثلها اثنتين في (الكفر الجديد) كانتا لعائلة (الهواري) التي كانت خالتي (السيدة) أرملة واحد منهم – سرايتين لا واحدة – الأولى دون بستان وعلى شريط (السكة الحديد الفرنساوي) على مسافة قصيرة شرق المحطة . والأخرى في شمال غرب البلد ولها بستان يقع أيضًا على ترعة ، مثل هذه تمامًا وقد سبق لي أن زرتها مع خالتي ، ومازلت أذكر تمامًا ما بداخلها ... كانت هناك أيضًا (ست كبيرة) وكان خالاتي يدعونها (الهوَّارية) وينطقن الاسم بما يكفي من الاحترام المشوب بسخرية غامضة . هذه الخبرة أعطتني جرأة على التقدم نحو (السراية)

حاسمًا تردد أمي وضيفتها فصعدتا خلفي السلم الرخامي العتيق العريض الذي فقدت إحدى درجاته نصفها بفعل الزمن .

وقفنا أمام الباب الضخم المشغول بتهاويل حديدية معقدة ، تغلف وتؤطر ضلفتين هائلتين ، ثلثهما الأول من خشب مهول منحوت عليه نحتا بارزا يمثل (سبعَين)، كل منهما يضع إحدى قدميه الأماميتين على غزال صامت . لو كنت أملك كلمة السر السحرية لاستعطت أن أرفع قدم السبع عن الغزال ، ولظهر مدخل الجب الذي به (الخاتم أو المصباح) . تجاهلت حسرتي لعدم معرفة كلمة السر . وأخذت أتأمل ثلث الباب الممتد إلى السماء مزخرفًا بزجاج رائق من ألوان عديدة، وإن سقطت أجزاء من زجاج ضلفته الثابتة . محددًا في قسوة امتدادها الذي بدا لي في البداية، ممتدًا بلا نهاية .

وجدتنا في قاعة عالية ، محاطة بأبواب ضخمة ، حول أرض لامعة لا تشبه صالة السرايات الأخرى، فهذه يتوسطها سلم له درابزين من خشب مشغول. وعلى كل درجة بقايا قطع لامعة من نحاس كالح الخضرة . كانت في زمانها تلمع . وعلى ما عرفت فيما بعد كانت تمسك بسجاد فاخر يغطي السلالم ..

سبقتنا مهرولة إلى أعلى امرأة فلاحة عادية ، تتسابق كلمات الترحيب مهشمة على شفتيها وهي تقودنا صاعدة إلى حيث (الست الكبيرة) .

حين دلفت من الباب لم أر شيئًا . أعشى عينيَّ ضوء ملون يشع من خلف الكتلة الرمادية الغامضة المكونة من عدة كراسي ضخمة مذهبة تمتد أمامها في هدوء سجادة كالحة عليها رسوم لغزلان وعصافير .

بدت لي الست تحت الشباك البحري الكبير – المكون من الزجاج الملون من عالم أسطوري ، رأيته في مكان ما ، (فضاء فسيح تنسدل على

جدرانه ستائر مزركشة مليحة ، ذات تراكيب تحيط به مصاطب وخزائن على ستور مرخيات ، وفي الوسط سرير من المرمر مرصع بالدر والجواهر ، فوقه ناموسية من الأطلس الأحمر تجلس عليها (الست الهانم) بوجهها المضيء ، يخجل الشمس . وعلى جانبيها جاريتان صبيتان رشيقتا القد ذاتا حسن وجمال وقدٍّ واعتدال ، وجبين كغرة الهلال ، تمسكان بمروحتين من ريش النعام ، تروحان بهما في رقة ودلال .. وكان هناك طاووسان يفردان ذيليهما كمروحتين ملونتين يصيحان في غموض) ، جعلني المنظر أتسمَّر في مكاني فاغرًا فمي مذهولاً .. سبقتني أمي لتلحق بمضيفتها قبل أن تقوم لاستقبالنا مرحبة . ولا تجعلها تتجشم عناء ملاقاتنا بما نستحق من احترام . وبينما اندمجت أمي وضيفتنا في كتلة الظل التي يشع الضوء الملون حولها ، وقفت مشلولاً أتأمل ما يشع أمامي من سحر ، وأنا أغمغم بصوت واهن :

– السلطانة ؟!

وبينما كنت أتمتم باكتشافي الخاص ، وقد تسمرت ساقي في المسافة ما بين باب القاعة الهائلة وبسطة السلم الغارقة في الظلال والأضواء الملونة التي تسقطها الشمس من خلال النافذة القبلية تضيء السلم والفراغ الذي كان ممتدًّا إلى السماء – بجد هذه المرة – حيث كانت قبة هائلة تغطي فراغ السلم الكبير خلفي ، إلى حيث أفكر في الهرب .. سمعت صوتها بعد أن فرغت من طقوس الترحيب بأمي وضيفتها . انتبهت لي متسمرًا عند الباب:

– تعالى يا حبيبي ..

تنبهت إلى صوتها العميق الرنان ، الذي بدا لي آتيًا من عالم آخر .

– تعال .. ما تخافش (كيف عرفت أنني خائف؟) .. مش أنت سمير بتاع مدرسة البنات ؟

ضحكت نساء كثيرات ، ساعتها تنبهت أن هناك أخريات في ضيافتها .. وزاد تبيني لهياكلهن ووجوههن من ارتباكي ، لكن نظرة تأنيب من أمي شجعتني فحركتني ، وعاد إليَّ ما يعرف عني من جرأة وتمادٍ ، فتماسكت وتقدمت أسلم عليهن واحدة واحدة في شجاعة مفتعلة . وغرقت للحظات في أحضان عرق وروائح متباينة . وغرق وجهي في قبلات إعجاب ، وقبلات ترحيب منافقة وأخرى لزجة .. حتى وصلت للست الكبيرة فانحنت عليَّ تقبلني . سحرتني رائحة عطرية مجهولة مسكرة ، قبَّلتني على خدي من هنا ومن هنا .. فكدت أقع من طولي . ولما جلست أجلستني إلى جانبها . وبعد لحظات نسيني الجميع وانشغلن عني حتى هي . وانطلق حولي سيل من الثرثرة التي كنت في حال لا أتبين معها مخارج الحروف ولا معنى الكلمات..

كنت مخدَّرًا مسلوب الذهن تائهًا ، حتى غمرني إحساس أن هناك من يراقبني ، فانتبهت والتفت إلى باب صغير بعيد موارب ، لمحت منه فتاة ترتكن إلى ضلفته المتحركة كأنها تقبلها.. وهي تشير إليَّ بطرف إصبع كفِّها اليمنى في بطء وهي تركز عينيها في عينيَّ كالساحرات – أن تعال !

لم يحس أحد بي وأنا أقوم مذهولاً منوَّمًا .. إليها .. ولما اقتربت منها تراجعت عن الباب . وما أن خرجت وراءها أغلقت الباب وهي تقول بصوت خشن صبياني :

– إيه يا وله ؟ ح تقعد تسمع رغي النسوان ؟

أفقت واستنكرت ما قالته ، (فالسلطانة) وضيافتها ليسوا (نسوان) . ولم تعطني أي فرصة بل أمسكت يدي وجذبتني على امتداد ذراعها

هابطة السلم وأنا أحاول أن أتماسك حتى لا أندلق على الدرجات ..

– سيبك منهم تعالى نلعب ..

لم أعترض .. فهي لم تعطني أي فرصة للكلام . ووجدتني معها في الجنينة الغامضة الغنية الظلال الرطبة . تسري بين أغصان أشجارها الغضة الثرية أنفاس جنيات غامضة . تهمس بنداءات مثيرة وتتدلى منها عناقيد من ثمار فواكه شهية أعرف بعضها وأخرى لا أعرفها تكاد تنفجر عصائرها ممزقة بشرتها الشفافة . وثمة أصوات طيور أسطورية متخمة وحشرات لا تكف عن الطنين والثرثرة ، تطير في بطء منتفخة من الشبع نهمة وعدوانية ، سكرانة بعسل الفاكهة الناضجة . تؤكد لي أن هذه الجنينة هي (البستان) الذي كان منذ بدء الخليقة ميدانًا لكل الأحداث التي جرت في كل بساتين حواديت خالتي السيدة من أول (يا مقص قص طرف لسانه !!) إلى جنيات الشاطر (جاهنشاه) اللائي رآهن طيورًا ، يخلعن ثياب الريش ليصبحن حوريات رائعات . خاض من أجل أحداهن الهول في بستان (الملك سليمان) الذي يحرسه (عم عثمان) الذي يعرف لغات الطير والعفاريت .

تحت كرمة العنب الممتدة إلى مدى البصر ، سرت خلف البنت سريعة الحركة مبهور الأنفاس .. أتوقع في كل لحظة أن أصل إلى البركة التي تستحم فيها الطيور المتحولة . تتوقع أذني أن أسمع رنين ضحكاتهن بعد أن رأيت بأم عيني الطاووسين المغرورين المستأنسين يمشيان بخيلاء بين يدي (السطانة) . قالت البنت :

– اسمي حياة ، اسمك إيه ؟

– سمير .

– إنت سمير ؟ البنوتة ؟

غضبت . وتوقفت . انتزعت ذراعي من قبضة يدها في حدة.

– أنت زعلت ؟ ما تزعلش دول الولاد غيرانين منك . عشان انت في المدرسة قبل السن الإلزامي وشاطر .

– سن إيه ؟ .. أنا كبير كفاية .

– يا عم بيقولوا عشان خاطر أبوك ، سابوك تقعد وسط البنات على تختة واحدة .

كانت تقف أمامي محاولة الاعتذار .. لكن الكلمات التي كانت تجري على لسانها في صوت أقرب لصوت البالغين من الصبيان ، كانت تفر في الاتجاه المضاد بعكس ما تريد ، لكنها نبهتني أن أتأمل ملامحها لأول مرة . كانت أشبه بالأولاد بالفعل، أنفها الطويل الشديد الحضور وشعرها المضفر في خشونة .. وحاجباها الثقيلان .. قالت :

– أنا بذاكر في البيت ؟ بابا خرجني من المدرسة ، كنت أشطر منك !

فتاة عادية إذن . وأنا الذي ظننتها طول الوقت إحدى مساعدات (الشيخ عثمان) أرسلها لتدلني على الطريق ، وتكشف لي أسرار البستان . صُدمت وتهيَّأت للعودة ، لكنها لم تتح لي الفرصة وشدتني بقوة :

– تعالى ح اجيب لك كمترى عمر ابوك ما داقها .

الإغراء غفر لها طولة لسانها . فطاوعتها حذرًا لأعطيها فرصة أخيرة.

كانت عناقيد العنب الذهبية تتدلى من سقف التكعيبة . قفزت فجأة إلى أعلى في قوة فأمسكت واحدًا ، فرط منها أكثره على الأرض . لكن قبضتها لم تفلت معظمه . قدمته لي بعد أن هبرت بفمها الواسع جزءًا كبيرًا منه ..

قلت معترضًا :

– من غير غسيل ؟

فضحكت ضحكة حادة جافة ساخرة وهي تقول :

– ده على بز امه .. يا عبيط ، نظيف .

ومدت يدها مستقيمة تضعه أمام وجهي بل تكاد تدسه في فمي :

– أنضف من بقك . خد .

كدت أعاود الغضب محتجًّا .. ولكني أدركت أنها لا تعني ما تقول بالضبط ، وغفر عسل الحبات التي قضمتُها كلَّ إهاناتها .. كان طعمًا ساحرًا لم أذق مثله في حياتي ، أدهشني وأعاد لي اليقين أن هذا بالفعل البستان الذي طالما وصفته خالتي ، وعبرت غامضة في خيالي صورة (السلطانة) تحت وميض الزجاج الملون كامرأة غير بشرية . يبدو بياض وجه أمي إلى جوار ما يشعه وجهًا عاديًّا ، وسمعت صوت تلك الطواويس التي تتحرك بحرية وسط القاعة الهائلة الغامضة .. كان عسل العنب ثريًّا وصافيًا مخادعًا ، أدهشني وجعلني أرى حركتها العنزية ناعمة في خفة غزالات الحكايات التي تصر على إخضاع ما أراه لفكرتي الغامضة عن سحر المكان الذي أتخيله . مدت يدها مرة أخرى . ناولتني ما تبقى من العنقود وحشرته في فمي فخدرني .. ثم صدمني صوتها فأيقظني :

– حاسب يا مفجوع . إنت عمرك ما دقت عنب .

توقفت محتجًّا . كانت هي قد بدأت كالسعدان في تسلق شجرة كمثرى عتيقة تتدلى منها ثمارها كشلول بصل الخزين . وأيقظتني من غيبوبتي صرخات وأصوات عيال يتقافزون في ماء الترعة التي كانت قريبة بدرجة قاسية ، لتبدد أي أمل في العثور على البركة المسحورة التي تستحم فيها فتيات هن في الأصل طيور وجنيات ، ولمَّا اختفت هي بين أغصان

الشجرة وهي تغمم في فجاجة :

– ح أدوَّقك كمثرى عمر أبوك ما شافها .

صفعتني كلماتها .. فعدت أدراجي دون كلمة . حتى وصلت إلى عتبات الباب الخلفي (للسراية) حيث وجدت الرجل العجوز الهزيل الذي قادنا إلى بابها الرئيسي ، جالسًا يبتسم بفم خال من الأسنان يتضاحك منافقًا ، وهو منهمك في تسليك أنسجة التيل وبرمها لفتل حبل جديد:

– بيدوَّروا عليك فوق عشان ماشيين ..

وكركر ضحكة تشبه صوت الجوزة المسدودة . فأسرعت بالدخول حين وصلني صوت السعدانة قاطفة الكمثرى يصرخ باحثًا عني :

– إنت يا وله يا اهبل مش عايز كمثرى ؟

لم أرها و لم أهتم بالتحقق إن كان ذلك صوتها .. وأخذت السلم قفزًا حتى وصلت إلى باب الدور الثاني .. مبهور الأنفاس ، فوقفت أستعيد نفسي . ثم دفعت ضلفة الباب الضخمة متسللاً، لكن الكل لاحظني . التفتت وجوههن جميعًا نحوي مرة واحدة ، فشلت حركتي . سألتني أمي في غضب .

– كنت فين ؟

لكن (السلطانة) التي تبينت أنها ليست سلطانة حقيقية كما ظننت – إنما ست هانم زي (الهوارية) والست (أم حسني) – عادية بياضها عادي مثل أمي ، لكنها قالت في حنان مفتعل يليق بست هانم أصيلة :

– تعالى يا حبيبي كل كمثرى وعنب .. ح تمشي من غير ما نضيفك !

لكنني لم أتحرك .. وقلت لأمي في طهق لا يليق :

– مش هنروَّح بقى؟ ياللا..

وقالت أمي وهي تنهض معتذرة :

– ياللا يا حبيبي كنا مستنيينك !

وقبل أن أغرق في ضحكات وسلامات طقس الوداع المتعمدة ، وقبلات المحبة الزائفة وثرثرة الأحاديث الأخيرة الفارغة ، كنت قد سبقت الجميع إلى السلم الرخامي البارد الضخم ذي السلمة المكسورة .

سرت وراء والدي الذي كان يرتدي قناع الأهمية ويرسم بشدة تلك الـ(١١١) التي تتجسم بين حاجبيه ، توحي بالجدية القصوى ، أنه يخوض معركة فاصلة . فحتى فتح فصل جديد وإضافي للمدرسة التي لم تقم بعد ، ظهر له معارضون لا لشيء إلا لأن البعض تحمس أكثر من اللازم لأن له مصلحة واضحة والبعض ليس له هذه المصلحة .

كان اسمي أول اسم في الكشف الذي يحمله ويجمع فيه أسماء الأولاد الذين يفترض أن ينتقلوا بإذن الله مع العام الدراسي الجديد إلى سنة (ثالثة) ابتدائي من كل القرى المجاورة .

لم يبق سوى اسمين ، ولم يتبق أولاد لائقون لتلك السنة الثالثة لا في (ميت سلسيل) ، ولا في ما جاورها من بلاد وعزب ، وكان الجميع يائسين من إمكانية فتح الفصل الجديد ، لولا أن صرح بعضهم أن (كامل أفندي) يستطيع التأثير على أهل تلميذين من أبناء (الكردي) أو على الأقل يستطيع أن يقنع مجلس المديرية إن تعذر ذلك بفتح الفصل بعشرين تلميذًا بدلاً من اثنين وعشرين . فالدنيا لن تنهد ، إذا نقص الفصل تلميذان ، ومجلس المديرية لن يخذله والانتخابات على الأبواب .

• • •

مثقال ذرة . .

○ وها أنا أهرول خلف والدي (المتجهم) ذاهبين لحل تلك القضية الشديدة الأهمية . وسأدخل بيت (كامل أفندي) لأول مرة . قابلنا في الطريق (عوض عبد ربه) فوجئنا أنه عرف ما نحن بصدده دون أن يسأل أسرع يقول لوالدي :

– يا عبد الباقي أفندي ، كامل أفندي وضيوفه عند الأستاذ يوسف .

كنا عند شادر الخشب . استقرب أبي سكة (السلطان) مختصرًا الطريق لنلحق بهم هناك ، وفرحت أنا لأنني سأرى (السراية) مرة أخرى من الداخل . وأشاهد الطواويس ذات الذيول الملونة والأسود التي تضع أيديها على الغزلان الأسيرة ، وقد أقابل البنت الطويلة الهايفة ذات الصوت

الأجش الذي لا يتحكم في معاني ما تقول فتطلق شتائم قاسية لا تقصدها ، وقد أستطيع ساعتها أن أجد فرصة لرد إهانتها القديمة . وعلى الأقل سأستعيد ذات الشعور الساحر، أيام ما كانت الجنينة تعني لي بستان الشيخ (عثمان) العارف كل لغات الطير والجان، ونائب (سيدنا سليمان) .

ابتسمت ساخرًا من نفسي . لأنني كنت في أيامها على هذه الدرجة من العباطة لأصدق كل ذلك ، لكني ما أن اقتربت من باب الجنينة حتى ارتعش شيء ما داخلي وغمرني شعور بالرهبة وعاد إليَّ اعتقادي الذي سخرت منه ، لكن التغيير الذي حدث جعلني أتماسك وأستعيد نفسي ، فبيت الأستاذ (يوسف) الذى لم يكتمل اقتطع مساحة كبيرة من الجنينة ودمر قدسيتها القديمة .

صفق أبي أمام الباب الخارجي المفتوح مستأذنًا وهو يدخل دون انتظار ، خرج الأستاذ (يوسف) إلى الشرفة وهو يزعق قبل أن يرانا بصوت عال :

– إتفضل .. إتفضلوا ..

ولما رآنا رحب بأبي ،

كنت أدور بعيني مذهولاً لما أصاب الحديقة والسراية .

كانت الخضرة قد اختفت من أجزاء كبيرة ، وتناثرت أكمات وحشية من الحشائش ، بينما بدا النخل مهوشًا غير مقضب .

– كامل أفندي روَّح هوَّ وضيوفه يا (عبد الباقي أفندي) . يمكن لسة ما خرجوش من السور القبلي .

انتبهت على يد أبي تقبض على ذراعي وتسحبني في اتجاه الطريق الذي أشار إليه الأستاذ (يوسف) .

– لو كنت قدمت دقيقتين كنت حصَّلتهم . اتفضل تعالى استريح وبعدين حصَّلهم .

لكن أبي المستعجل شكره وهو يشدني كي أسرع ، بينما أحسست قلبي ثقيلاً يلصق أقدامي بالأرض .

(السراية) لم تعد في هيبتها القديمة التي أسرتني من قبل . كانت أوراق الشجر المهمل تتراكم حول الجدران وعلى السلم الرخامي الذي انتزعت منه الآن درجتان على الأقل .

الجدران كشفت عن الطوب الأحمر الذي بدا مرصوصًا فى الفراغ. وتحولت المونة إلى غبار .. الرطوبة أكلت البياض ، وتساقط البهاء الذي كان يغلف الجدران .

الجنينة التي كانت ثرية الظلال والثمر ، صارت أشجارًا جرداء تثمر قطعًا قديمة من القماش والورق ، ترفرف كرايات جيش مهزوم ، وأوراق متغضنة جافة ، وقطع من خشب بالي ، وحطب وأعشاش زنابير . هربت الطيور إلى رياض أخرى ، لم تجْدبها الخلافات ، ويتحدث فيها البشر أحاديث ودية .

كانت السراية تبدو خالية . تطير الطيور عبر فراغها ، خلال النوافذ المكسورة والمخلوعة بينما ظل الباب الكبير مغلقًا بإحكام، وقد علاه الصدأ وفقد أكره التي كانت تلمع، عديد من السحالي الخضراء والرمادية تمرح تحت أكوام الأوراق المتراكمة الجافة ، التي أصبح من الصعب إزاحتها، فتركت لحالها مأوى لجعارين سوداء وخنافس ولبعض الثعابين المحتملة غير المرئية، والقنافذ المعتزلة، كنت أحس بعشرات من عيونها السرية تراقبنا في حذر توقيًا لأي حركة غدر تصدر منّا .

كان كرم العنب الممتد لا يزال ممتدًا حتى آخر الجنينة ، لكن احتمال وجود برك للجنيات المسحورة فكرة أصبحت ساذجة، وغير ممكنة على الإطلاق . اختفت الأغصان الخضراء والكوخ الذي يسكنه أو الذي كنت أظن أنه يسكنه عم (عثمان) ذو الساقين العنزيتين، تعرَّى من سقفه واخترقته الشمس فطردت كل ظلال الخيال التي من المحتمل أن توحي بأنفاس إنسانية ، فقدت الأمل في لقاء تلك البنت التي أغاظتني . ووجدتني أفتقدها بحق، وأغفر لها كل ما طجنت به من كلام معي .

عبرنا البوابة الخشبية ، كان جزء منها مدفونًا في طين القناة الجافة التي تمضي إلى الترعة . مليئة بالعشب الأصفر نصف الجاف . تقودنا إلى المدق الوحيد بجوار غابة البوص على شاطئ الترعة ، يحجب عنا تمامًا الشط الشرقي ، حيث العزبة وأرض دار (أحمد) .

على اليمين كانت المساحة التي ينتوي (فؤاد عبد ربه) بناء بيته العصري عليها فيما بعد، فأهمل الشجر لتنكشف الأرض عن مساحة فراغ جرداء ممتدة ، حيث يومًا ما سيكون فيها بيت (إبراهيم عبد ربه) الشقيق الأصغر للأستاذ (كامل أفندي) وحينها ستكون مرتعًا لقصص حب ومشاعر مستقبلية لم يحن أوانها بعد .

انتبهت على شخطة من أبي لألحق به ، فقد كنت أحمل الأوراق التي بها كشف أسماء التلاميذ وكانت تضفي عليَّ بعض الأهمية ، تبريرًا شرعيًّا لحشر نفسي في موضوع هو في ذاته من شأن الكبار .

لمحناهم يصعدون الفراندة البحرية لبيت (كامل أفندي) الجديد – الذي لم يكتمل سوى نصفه الشرقي – من خلال الأغصان الثرية للجزء الذي بقى حيًّا من البستان القديم والذي نجا من عاديات الزمن ، وعواقب

تقسيم التركة بين الإخوة . فاز (يوسف) بالجزء البحري ولكن بدون جنينة إلا المساحة حول حوائط المخازن والزريبة، بينما احتفظ (عبد السلام) بالسراية وما حولها حفاظًا على ذكرة والدته (السلطانة) ، ولكن الإهمال سرعان ما أصاب كل شيء بحكم ابتعاده أصلاً عن المكان .

زوجته لم تكن تطيق (ميت سلسيل) ولا أهلها ، فتركت السراية نهيبة لكل من استطاع إلى ذلك سبيلاً ، نزعت النوافذ والسلالم الرخامية ، وتكفلت الرياح ، وزلط الأطفال صيادي العصافير ، بتدمير الزجاج الملون ، ومات الرجل الذي كان يرعى الأشجار ، فاكتأبت كروم العنب ، واهترأت قوائمها و لم يهتم أحد .

وأخيرًا باعها (عبد السلام) أنقاضًا . فخلعت الأشجار واستبدل البستان حتى حدود بيت (فؤاد) ، تحول إلى أرض ستزرع يومًا بالقطن والقمح وما أشبه .

أما (إبراهيم) زوج أختهم الذي كان قد قرر العودة إلى (ميت سلسيل) ، فكان في نيته بناء البيت محافظًا على ما يحيط من أشجار مثمرة، ولكنها لن تكون في بهاء العز القديم .

أما (كامل) وهو الكبير فقد كان من نصيبه المساحة الأكبر إلى جوار السكة الحديد ، حيث ترك جزء كجرن بين البيت الجديد والزراعية وشريط السكة الحديد لكنه أعاد الحياة إلى الجزء البحري فازدهرت به بعض أشجار الخوخ والكمثرى والمشمش والقشطة ، علاوة على كرم عنب (مش بطال) .

لمحناهم من فوقه يتخذون مجالسهم على الفراندة ، مجموعة من الأفندية المطربشين ولابسي القفاطين والجلاليب البلدي الصوفية ، وأخرى أفرنجية بيضاء يشرب من عليها العصفور تلوح فوق بعضها طرابيش فاقعة الحمرة تبدو كأعراف ديكة بيضاء .

وصلتنا أطراف ضحكاتهم وأصداء مناقشتهم الزاعقة مختلطة بأصوات احتكاك خشب الكنب البلدي والكراسي الجريد بالبلاط الجديد ، مع عبارات الترحيب والمجاملة ، كانوا أكثر من خمسة عشرة رجلاً يحتضنهم ويسلم عليهم مرحبًا بهم (كامل أفندي) الذي كان يبتسم في كرم لهم ، وهو يزعق بغضب على من في الداخل للإسراع بتجهيز السفرة ، ومنهمكًا دون توقف في المناقشة ، متابعًا الإشراف على راحة الجميع واستقرارهم في مجالسهم .

كنا قد وصلنا إلى درجات السلم في الوقت الذي كان يستعد فيه للجلوس بعد أن اطمأن على راحة الجميع ، في نفس الوقت جاءه خبر انتهاء كل الاستعدادات فهبَّ قائمًا على الفور يدعو الجميع للطعام .

لمحنا فالتفت نحونا قائلاً بصوته الأجش المقتحم الآمر الذي لا يقبل معارضة :

– طول عمر حماتك بتحبك يا (عبد الباقي) يالله يا جماعة اتفضلوا.

حاول والدي التمنع ، مسرعًا بشرح سبب مجيئه وعجلته ، لكن .. (كامل أفندي) تجاهل كل ذلك ومدَّ له ذراعًا عملاقًا يصافحها ليجذبه بها إلى الداخل :

– يلا .. يلا يا راجل .. دي حصة غدا ومحدش فاضي يتكلم عن الفصل ولا عن المدرسة والمشاكل دي .. اطمئن .. إن شاء الله محلولة محلولة . خش انت بس واقعد وخد نفسك .

وأخذ يقدمه للحاضرين مع أن الجميع كانوا يعرفون بعضهم بعضًا بالتأكيد . وأن اهتم كثيرًا بترتيب جلوسهم حول السفرة، التي كانت

مقامة في صالة كبيرة لم تسقف بعد ، تقع بين الجزء الذي تم بناؤه من البيت والجزء الغربي الذي مازال تحت الإنشاء .

كانت مائدة عامرة يتوسطها ديك رومي كالخروف ، وعديد من الأطباق الكبيرة المتخمة بالحمام والدجاج والسمك المقلي ، وصواني مختلفة فاحت منها رائحة البطاطس المسبكة في الفرن والفتة بالخل ، فقلبت معدتي .

لمحني أقف بعيدًا ، فتجنبت نظراته وأسرعت بالابتعاد منسحبًا وراء الجدار فصاح بي غاضبًا :

– استنى يا ولد .. إيه يا (عبد الباقي) مش تقول ان معاك المحروس .. تعالى يا (سمير) تعالى يا شاطر ، بتهابر زي ابوك عشان ترتاح من السفر (للجمالية) ومن أهلها الهم اللي ما يتعاشروش .

حاولت الاختباء عن نظرته وواصلت الهرب ، فأسرع مناديًا بلهجة شلت حركتي ..

– يا حسين تعالى يا ولد هات الواد ده غصب عنه .

خرج (حسين) من الداخل متثاقلاً يبحث عن ذلك الولد المزعج الذي يهتم به أبوه لهذه الدرجة ، وجدني أجلس مستترًا بالجدار على السلم . ابتسم ساخرًا ابتسامة لا تحمل أي معنى للترحيب . وقال ..

– هوَّ انت ؟ ما تقوم يا ولَه تتغدَّى هو احنا بنلعب ؟

كان صوته مثل صوتها ، نفس النبرة والإيقاع المتعثر في فراغ الأنف ، تذكرتها على الفور الفتاة التي قابلتها بالجنينة زمان . كان يشبهها فعلاً ومثلها كانت الكلمات تخرج متعالية من فمه . لم أتحرك .. وقلت بحدة :

– أنا شبعان مش جايين ناكل .

كانت صيحات (كامل أفندي) تطارده وتتعجلني أن أطيع .

صاح حسين في زهق :

– طب قوم بلاش هزار . ومتاكلش انت حر ، إنما قوم اقعد مع الرجالة . محدش فاضي للهجص ده .

استسلمت وتبعته مثلما فعلت مع الفتاة في الجنينة . دخلنا، كان أبي منهمكًا في الحديث مع أحد الضيوف فضايقني ذلك، أفسحوا لي مكانًا بطرف المائدة ، لكنني ظللت ممتنعًا عن المشاركة.

لاحظ (كامل أفندي) الذي لا تفوته شاردة ذلك . فصاح :

أيه يا (عبد الباقي) الواد ده طالع بخيل لمين ؟ ده اخواله أهل الكرم ولا إيه ؟ كل يا ابني كل .

ألتفت والدي نحوي وقال بدون حماس ونظراته تلومني وتنهرني:

– ما تاكل ، اسمع الكلام .

ثم عاد للحديث مع الضيف قائلاً :

– سيبوه براحته .

لكن (كامل أفندي) لم يتركني براحتي ..

– يا (حسين) تعال يا ابني خد صاحبك ده . ياكل معاك جوه ما دام مكسوف وسط الجرمأ ده .

لم أكن مكسوفًا ، لكنني كنت غاضبًا من نفسي ومحرجًا فأسرعت مع (حسين) لأنجو من هذه الورطة حيث لم أفهم لماذا يجعلني هذا الجمع أتصرف على غير طبيعتي . وتعجبت من حالي، لم أكن مرتاحًا لموقفي ، لم يكن ذلك تصرفي في وجود الكبار ، حتى لو كانوا من الغرباء وكرهت نفسي لأنني تصرفت هكذا كالأولاد (العاهات) في وجود الطعام .

كان خالي (يوسف) لسنوات يصحبني معه عندما يتصادف وجودي

في (الكفر الجديد)، ويكون هو في طريقه لإنجاز مهمة ما – لإصلاح ساقية قديمة أو تسليم ساقية جديدة في عزبة ما أو قرية بعيدة – وكنت أذهب سعيدًا لأنني سأتعرف على أناس وأماكن لا أعرفها . كان خالي يقابل بترحيب كبير ، وكنت أصبح بينهم الطفل المدلل ، يتبارى الرجال والنساء في إرضائي وإكرامي ، إكرامًا لسيرة جدي وخالي ، لم أكن أحس حرجًا أو خجلاً في التعامل معهم بندية ، أجلس مثلهم على الأرض ، منتشيًا لرائحة وملمس الطين والنباتات ، وعطر المتعبين من العمل !

فعملية إقامة ساقية جديدة وتثبيتها في مكانها لم يكن بالأمر السهل . إنها عملية تكاد تكون حربية ، تتكاتف فيها أيدي وأذرع وأكتاف عديدة .. حبال وروافع ، كتل خشبية وأشجار، سلالم وشواكيش ومناشير ، نداءات آمرة ، وأخرى راجية وكثيرة منها داعية ، تقرأ الآيات وأخرى تغني .

فليس سهلاً زحزحة (التابوت) أو (الطنبوشة) وإحكام تثبيتهما في المحور الحديدي المثبت في حائط البئر إلا بحسابات دقيقة تسمح له أو لها بالدوران في يسر رأسيًّا . تلي ذلك عملية إلحاق (الصغير) بها ، وهو ترس خشب ضخم (رغم اسمه) ، يثبت رأسيًّا معها بدقة كي يدورا معًا أو بالأصح يديرها هو بحركته ، ليخرج الماء من البئر ، إذ يكون التابوت الذي يغرق ثلثه الأسفل في الماء قد جربت سهولة دورانه قبل تثبيتهما معًا تمامًا .

ثم تبدأ عملية تدكيك ضروس (الكبير) والذي يشبه (الصغير) في تركيبه . ولكنه يطرح أفقيًّا في فراغ مجهز (بدقة) مع تثبيته في الأرض كي يدور . وتعمل ضروسه على تحريك ضروس (الصغير) الرأسي مع

(التابوت) أو (الطنبوشة) حسب نوع البئر ونوع الساقية ، ومن محور هذا الكبير ترتفع (الشعبة) ، وهي شجرة متوسطة لها فرعان ، هُذبت بعد قصِّ فرعيها بطول مناسب لتصبح محورًا ، يرتفع لأعلي فوق الفراغ وفوق (الطنبوشة) أو (التابوت) إلى السماء ، حيث يحتضن ذراعاه شجرة أخرى من جذعها ، تمتد مستقيمة نحو (المدار) لتستقر فوقه على إرتفاع مناسب محسوب يربط بها (السلَب) الذي سيمتد إلي (الناف) الذي يعلق برقبة (الماشية) سواء واحدة أو اثنتين حسب سعة (الطنبوشة) وحجمها وكمية المياه .

كانت عملية صعبة ودقيقة ، خُطط لها وأنجزت أجزاؤها على حسب حسابات معلومة ، من حيث الحجم والطول والثقل وسلاسة دوران المحاور المختلفة . كان خالي ومساعدوه من النجارين يتولون المسائل الدقيقة لضبط الأصول الفنية ، بينما عشرات من (الفلاحين) يتكاتفون للحمل والنقل والتثبيت وإعادة التثبيت ، حسب نتائج التجارب في كل خطوة ، وبعد كل مرحلة حتى يتم استقرار الساقية ، رهيبة مهيبة ، غاية في الجمال والاكتمال ، حين تدور وتخرج أول دفعة من المياه تبعث في الوجوه المتعبة المرهقة فرحة الراحة والانتصار ، وتنطلق الزغاريد البهيجة من النساء اللائي أحضرن الطعام .

كنت أشارك في كل هذا وكأنني أحمل معهم وأدفع وأحزق وأتمطع ، مع أن دوري كان قاصرًا دائمًا على مناولة حبل أو شاكوش أو مسمار حدَّادي أو إبعاد خشبة أو طوبة عن الطريق ، ولكنني في كل الأحوال كنت أحس أنني فعلتها معهم ، إذا كانت تغمرني مشاعرهم، ولذا عندما يوضع الطعام كنت بكل بساطة أزاحم لأجد لنفسي مكانًا بينهم ، لا

ينتابني حرج ولا خجل . على العكس ، كان الجميع يحسدون خالي على كرم ابن أخته ، الذي لا يتحرج أمام الطعام ، بل يعتبر نفسه صاحب مكان وصاحب مطرح ، وكان خالي يتباهى بتصرفي هذا الذي كنت أجده عاديًا ولا أحس معه تلك الحواجز المبهمة بيني وبين الآخرين من الكبار، حتى ولو كانوا غرباء أقابلهم لأول مرة ، كما حدث لي حين وجدت نفسي وسط هذا الجمع من الأفندية والبهوات من آل (عبد ربه) ورجالات الوفد ، كان بينهم (عبد السلام عبد ربه) ذلك الذي تزوج أخت (يس بك سراج الدين) شقيق (فؤاد باشا سراج الدين) والتي لم تطق العيش في بلدنا ، وكان بينهم النائب الوفدي الجديد (محمد سويلم) الذي اختارته لجنة الوفد في الدقهلية لخوض معركة الانتخابات القادمة .

• • •

ما لم تكن تعلم . .

○ حين جلست مع (حسين) في الداخل.. جاءت فتاة البستان بنفسها حاملة صينية عليها طعامنا.. وعندما حطت الصينية على الترابيزة المجهزة لنا لاحظتني .. فقالت :

– هوَّ انت ؟! رحب بيه يا حسين ده خواف! بلا خيبة دا جري وما رضيش ياكل الكمثرى اللي...

وحتى لا تكمل بصوتها المتعالي وطريقة أدائها العدوانية قاطعتها :

– أنا مارضيتش آكلها مش مغسولة ..

فضحكت ضحكة خشنة ساخرة ..

– طب كل .. الأكل ده كله مغسول ..

نهرها (حسين) وطلب منها أن تذهب

لإحضار ماء للشرب .. وعرفت أنها أخته الكبيرة، كانت الملامح موحية .. الصوت وطريقة الأداء كلها تؤكد انتماءها إلى (كامل أفندي) صاحب الصوت المسيطر الذي لا يقبل جدلاً أو رفضًا ، ويطلق الكلام عدوانيًّا بلا مجاملة .

أثناء الأكل حكيت (لحسين) مبررًا موقفي الذي بدا طفوليًّا .. حكيت له عن السواقي وطريقة إقامتها ، عن صناعتها وأجزائها وعن خالي والجميزة المسحورة التى زرعها شيخ طريقة سودانى على إسمه والمرهونة خضرتها بحياته منذ ارتبط اخضرارها بمولده و عن بيت جدي لأمى ، وعن المدرس الذي يحكي لنا الحكايات فى مدرسة (الجمالية) عن الآلهة والوحوش ذات العين الواحدة وعرائس البحر والساحرات .. وحكى لي هو عن حياته في (المنصورة) والأفلام التي يشاهدها ، وحكى لي عن أمه التي لم تكن مرتاحة لوجوده في (المنصورة) وحده ، وإصرارها الدائم على إلحاقه بمدرسة المنزلة ليكون بين أحضانها . كانت تعيره بي عندما يتحجج بقرف السفر وتعبه ، والصحيان بدري وقرفه ، وكيف كانت تحاول إثارة غيرته مني ، لإقناعه مع أنه كان في السنة الرابعة :

– تعال شوف ابن عبد الباقي القزعة اللي قد الفار ، شوفهم بيطلعوه حشر في الأتوبيس من شباك العربية ، وشنطته الخشب قده مرتين شايلها على قلبه . يا حبيبي الغربة كربة ، اقعد زيه في حضن امك .

وعرفت ساعتها أن منهج الكلام وطريقة الأداء التي أزعجتني منذ قابلت فتاة البستان سمة من سمات عيلة (عبد ربه) كلها وعليَّ أن أتعايش معها .. لو صرنا صديقين في المستقبل!

بعد أن أكلنا صحبني لأغسل يدي في حمام لم تغط جدرانه بعد محارة ولا ضهارة . حيث كان أبريق نحاس ضخم يشغل نصف المكان . يكاد

يلامس السقف محمولاً على حامل من الحديد القوي ، وله حنفية تحتها طشت لتلقِّي ماء الغسيل . فتح الحنفية ودعاني كي أغسل يدي بالماء وهو يناولني صابونة نصف مستعملة .. وقال معتذرًا في سخرية هو يطوح بالفوطة فوق كتفي :

– لسه ما عملناش مواسير في الحيطان يا سيدي !

تجاهلت سخريته وتلميحه أن أبي كان يتفاخر بأنه أدخل المواسير إلى بيتنا وقلت مندهشًا ومتجاهلاً بجد :

– بس الإبريق ده دخل هنا ازاي ؟ دا ضخم جدًّا .

ضحك متنازلاً وهو يقول :

– لا .. دا احنا بنينا حواليه البيت .

وتبادلنا نظرات عدم التصديق المرحة . ثم مضينا لنلحق بالشاي مع الرجال الذين كانوا قد سبقونا إلى الفراندة وجلسوا يحتسونه في استمتاع علني مسترخ وممتلئ ، في دوامة من الكلمات والأصوات صنعت غيمة من الزعيق الرَّصين وضحكات المجاملة جلسنا عند أطرافها لنسمع .

– خلاص وزارة (النقراشي) بتودع .

– هيَّ لحقت ؟ دول كام شهر ..

– إيه يعني ! الملك ممكن يجيب (صدقي) تاني ، ولا يمكن ح يعمل انتخابات مش ضامن نتيجتها .

– يا عم مين قال لك . المرَّة دي غصب عنه . كل الدلائل بتقول كده، الحالة متدهورة وما يقدرش يكرر غلطة (صدقي) .

– الوفد هو الإنقاذ !

– ما تضمنوش .. يا ما في الجراب يا حاوي فيه عشرات جاهزين .. عنده (مكرم) جاهز

أصوات استنكار .

– يرجع (على ماهر) !

– يا راجل الإنجليز حيرضوا (بعلى ماهر) ؟ والدنيا مقلوبة ، ما يقدروش على كده . فيه آلاف في السجون ولْعلمك همه بقي عشان تعرف اللي بيضغطوا عشان الانتخابات ..

وفجأة قال (حسين) بصوت عال مستنكرًا طريقة التعامل مع الجراح التي ما تزال تنزف بهذه البساطة :

– الإنجليز همَه اللي ح يضغطوا عشان الانتخابات ؟!

قطعت الجملة المتسائلة فى استنكار تيار التداعي الذي تعودوا عليه في مناقشاتهم ، كان صوت الصبي غير مألوف ، التفتوا إليه جميعًا في صمت ودهشة . قطعه (كامل افندي) بمشاعر بين الغضب والإعجاب الخفي بابنه الذي أصبح يفهم في السياسة ويتحدث كرجل ناضج بعد أن خاب أمله في أن يجذب ولديه الأكبر إلى الاهتمام العام .. أحدهم فضَّل أن يظل في وظيفة (ابن كامل أفندي) .. والآخر عصفت به هواية التمثيل ويريد أن يصبح نجمًا سينمائيًّا فلم يفلح ، ولكن ها هو (حسين) يبشر أن يكون خليفة له وزعيمًا يتحدث وسط الرجال ويدلي بدلوه .. رغم حدة آرائه التي طالما أزعجته قال :

– أيوه يا سيدي ، يعني رأيك إن ما فيش انتخابات قريب .

تردد (حسين) فهو يعرف والده جيدًا ..

– أكيد ح تكون فيه انتخابات ، بس الملك والإنجليز عارفين إن لو حصل ح ييجي الوفد.. وما حدش منهم عايزه دلوقتي إلا إذا كانوا عايزين يورطوه .

– إحنا اللي عايزين يا أخي . ولازم الوفد يرجع مرفوع الرأس بعد اللي حصل .

– الوفد راجع غصب عن عين التخين ..

هبت موجة حماس غير مبررة ، فاختلطت الأصوات . وكأنما كان صوت الحقيقة المزعج فاضحًا لطبيعة تلك الغمامة الهشة من المناقشات المتكررة فتساقط متبددًا في تراب الأوهام الأرخص والأسهل .

وغمغم (حسين) معرضًا عن المشاركة في الجدل والتفت لي :

– مش عايزين يفهموا إن الوفد ما بقاش الوفد . كلهم مستنظرين معجزة على نار ، عشان اللي عايز يخلص تاره من العمدة واللي عايز ينتقم من رفده من الجمعية التعاونية .. واللي ... واللي ...

استمعت مبهورًا . لا أتصور أن هذا الكلام يمكن أن يصدر عن (صبي) لا يزيد عمره عن عمري إلا بسنوات قليلة . وعرفت منه كثيرًا مما بدد رعبي حين وجدت نفسي وسط هذه الكوكبة من الأفندية ورجالات الحل والعقد في مجلس واحد . أربكني وجعلني لا أتصرف على طبيعيتي . وأنا الذي تعودت أن أحشر نفسي في مجالس الكبار أمام دكان (محمود شطا) (لكن مش للدرجة دي) مرشح الوفد ، ونسيب (يس سراج الدين) ، وأعضاء لجنة الوفد بالدقهلية. ومن (حسين) عرفت إنهم بيرتبوا للانتخابات التي يظنونها على الأبواب . ويستعدون حتى لا يفاجأوا ، يخططون كيف يزيلون أثر (٤ فبراير) متسلحين بإنجازات حكومة (النحاس) أثناء الحرب –(كوبونات الجاز وقانون الإنصاف والإفراج عن المعتقلين وإطلاق الحريات) ، وكأن موقف الوفد هو الذي تسبب في انتصار الحلفاء على (هتلر) وهزيمه (رومل) . وأن ينتقموا لما فعله الملك حين أقال (النحاس) وألغى معظم قرارات حكومته وطالبه بفلوس التبرعات بتاع الملاريا .

– لكن الحقيقة أن (مجاهد أبو دسوقي) ح يطلع بمقاولة تطهير تلت

البحر الصغير . وأخوه هو اللي ح يشرف علي بناء المدرسة الجديدة.. وأبسط يا عم أكيد ح يفتحوا لك فصل سنة ثالثة ورابعة كمان.. لأن الناس في مجلس المديرية برضه خايفين من الانتخابات .. ورجوع الوفد فبيجاملوا (ميت سلسيل) .

أسرني حديثة ولجمني ، سكت أسمع مبهورًا وسألته :

– وانت عرفت ده كله منين؟

ضحك في قلاطة وقال لي :

– اللي يسأل ما يتوهش يا شاطر ، والعقل موجود في نافوخ كل واحد .. بس تشغَّله ..

قلت في سذاجة حقيقية :

– وتشغَّله ازاي ؟

– بالقراية يا ابني .. دول كلهم زعما شفوي . ما بيقروش إلا (الوفد المصري) ، انت ما لاحظتش ان عمي (يوسف) ما جاش معاهم يتغدى .. لأنه ما بيحبش السياسة السماعي ولا المناقشات الألاَوى – بيقول عليهم دول ناس (طوباويين) ..

– إيه؟

فاجأتني الكلمة وبطحتني ،

– يعني إيه ؟ طوباويين دي ؟

– متأسف .. قصدي خياليين .. هواة مش فاهمين الواقع .

– واقع ؟

– أيوه .

– عايشين على أوهام سنة ١٩ وأحلام الماضي .. الوفد ما بقاش هو اللي في دماغهم بيقيسوه على مسطرة مصالحهم وبس ، الفقر مالي الدنيا

لكن همَّ مالهم . المهم تمشي معاهم وتقول (يحيا الوفد ولو فيها رفد) نسيوا صدقى و٤٦ ومش داريين أو بيتجاهلوا إن تحرير مصر بقى محتاج سياسيين من نوع جديد وان الاشتراكية بقت هىَ الحل لبلد زى بلدنا .

– لكن دول ناس بيخدموا البلد .

– ما قلناش ، هوَّ أنا قلت انهم خاينين للبلد . لكن مش قادرين يفهموا إن الدنيا بعد الحرب بقت دنيا تانية فيها الاتحاد السوفيتى والصين، والوفد بقى يحكمه (سراج الدين) و(زينب)، وبالعكس همَّ مبسوطين بكده ما احنا نسايبهم برضه .

لم أستوعب في الحقيقة ما يعنيه . ولكنني كنت قد سحرت به رغم نبرة استكبار وقلاطة ملحوظة في اللهجة . سألني فجأة..

– إنت قريت (المعذبون في الأرض) بتاع الدكتور (طه حسين) .

فغرت فمي .. فلم أكن قد سمعت بهم أصلاً ..

– إسمع ، أنا ح اعطيك كتاب (طه حسين) ده تقراه وتجيبه تاني . ده متصادر ولا انت م اللي بيبلطجوا على الكتب ..

أنكرت بسرعة واعدًا بإرجاعه ، رغم أنها المرة الأولى التي يتطوع أحد ليعيرني كتابًا.. صحيح أنني حكيت له عن حكايتي مع دولاب خالي (إبراهيم) .. وقراءتي لألف ليلة وليلة لخالاتي من خلف ظهره . حينما حكى لي عن الكتب التي يتبادلها الطلبة في المنصورة سرًّا !!

كانت المرة الأولى التي يعيرني أحد فيها كتابًا .. وليس أي كتاب .. فقد قلب كياني الغض . وعصر فؤادي حزنًا .. كنت أبكي بجد حين أكون وحدي . لم أحك عن هذا له ولا لغيره ، فهذا عيب ، كنت أعيش على وهم أن الرجال – الرجال لا يبكون ، كنت خجلاً . وكلما فعلتها

أحسست لبكائي شجنًا ولذة وراحة لا تعادلها راحة .. كنت في قادم أيامي ، كلما تذكرت ما حدث لي مع (المعذبون في الأرض) أقول باعتزاز : يخرب بيت معرفتك يا ابن عبد ربه !!!

• • •

اقرأ كتابك . . .

○ لم يكن (المعذبون في الأرض) أول كتاب أقرأه ، لكنه كان أول كتاب أعيد قراءته وأحفظ منه بكل إرادتي فقرات كاملة . كان ترديدها يجعلني أبكي .. ذات يوم ضبطتني أمي وأنا أغلق غرفتي عليَّ معه ، فحاولت أن أخفيه لكنها لاحظت احمرار عيني .. ضربت صدرها بملء كفها وهي تصيح :

– يا حسرتي ، مالك يا عين امك .. بتعيط ليه .. إيه ده ؟ هات اللي بتخبيه ده ..

و لم أستطع الرفض . فلما رأته كتابًا ، ضحكت ، فأسرعت بإخفاء وجهي الذى يبلله الدموع تحت اللحاف، لكنها لم تترك الكتاب إلا بعد أن قرأته .. وعادت إليَّ ووجدتني نائمًا .. فأيقظتني وجلست

تغالب دموعها وهي تربت عليَّ . ولما استيقظت أخذتني في حضنها وأطلقت لنهنهاتها العنان..

اكتشفت بعدها أن الهواء ثقيل ، وأن نفسي قد انسدت عن الدنيا ، و لم أعد ذلك الصبي الذي لا يكف عن الحركة وتسلق الأشجار ، واختراق السياجات المحرمة لاقتناص فاكهتها . ولا ذلك الفتى الذي يلقي بنفسه في أي مياه جارية يسبح ويغوص ويعبر إلى الشطوط الأخرى.. وفقدت شلة الشقاوة وعصابة الليل بهجتها وإغراءاتها ..

كنت (جميلاً) تحبني البنات . وتتملاَّني النسوة وهن يتوحمن . لكني كنت كالقط البري أخربش وأخمش كل من يحاول تخطي حدود الأدب معي من الصبية والشبان المنحرفين..

ذات يوم فوجئ رواد مقهى (حسن مصطفى) في وسط السوق بي وأنا أنهال بعصا صفصاف كالكرباج على رأس وضهر ووجه الواد (سامي) الذي كان صديقًا لي .. تبعته وقد جهزت عصاي حتى دخل دائرة الضوء وضجيج الزهر والقواشيط لأفعل فعلتي .. حتى يكون تأديبي له علنًا جهارًا نهارًا .. وحين اندفع الجميع لتخليصه من قسوتي ، سألوني..

قلت : إسألوه هوَّ .. لو عنده رجولة يقول ليه ؟ .. لازم يفهم ان مش كل الطير اللي يتاكل لحمه ..

وربت (سعيد المرْيَح) (فى خبث رجل فلاتى لا تترك يده زهر الطاولة ولا يغادر القهوة أبدا)على خدي مهدئًا بطريقة وجدتها تجاوزت حدودها فصفعته على وجهه أمام الكل صفعة أطلقت من عينيه شرارات تؤكد أنني أعني ما أقول . (مش كل الطير اللي يتاكل لحمه) ..

كانت كل أحواش وسطوح البيوت التي حولنا من أقارب أقربين وأبعدين مفتوحة لي .. وكنت أتأمل ما حولي في لا مبالاة.. بل أحيانًا في براءة وسعادة . لا أحس بقسوة الفرق بين بيتنا وحياتنا وبين حياتهم وبيوتهم ، بل قل جحورهم وزرائبهم..

لم ألاحظ أن معظمها لا توجد بها سراير ، ولا كنب ولا مرايات . ينامون على المصاطب أو على الأفران أو في أركان غرف عارية... على حصير أو عباءة تحتشد فيها الحشرات .. والبعض ينام على السطوح ، دافنًا نفسه في أكوم القش . وكم كنت أفرح إذا ما تصادف ودخلت زريبة (الصدّيق) المعتمة التى تفتح عليها نافذة المندرة يعيش فيها عندما تقوم زوجته (عاقلة) بحلب الجاموسة التي ولدت حديثًا .. وتغريها (بالبَوّ)، وهو هيكل مصنوع من جلد عجل صغير ، تخدعها به لتدر لبنها كأنه لرضيعها .. وأشارك في مرح عندما يعود زوجها وابنها من الغيط ، فيلقي بحمل البرسيم في قرف ويزعق طالبًا الطعام .. فتسرع لتضع أمامهم على الأرض ، فوق حصيرة مهترئة ، حلة البامية أو الملوخية (القرديحي) وتلقي أمامهم بعدة رصات من الخبز وبضع بصلات أو حزمة سريس .. فأجلس بينهم في سعادة ، أشاركهم طعامهم الشهىَ ، مستطعمًا مستلذًّا مؤكدًا لنفسي أنه ألذ كثيرًا من طعامنا المجهز بالمستكة والحبهان ، والمطعَّم (بالظفر) ، في أطباقه المغسولة .. مبررًا أن هذا يرجع للفرق بين الطهي على (الموقدة) والطهي على وابور الجازلأننى لا أستطيع أن أتخيل أن هناك امرأة تفوق أمى فى طهى الطعام.

وكنت في خضم اندماجي مع الأولاد والبنات ونحن نتجول كالعاصفة في كل مكان ، نطارد الكلاب ونزعج البط والدجاج ونصيد الزرازير ، أو الجعارين أو أسماك الترع، حين أشاهد المرضى من أهل تلك

البيوت يتأوهون في ظل الحيطان ، مهجورين إلا من أم عجوز تواسي بلا حيلة ، أو زوجة متبرمة تلبي نداءاتهم في استسلام وبلا أي نصير على الإطلاق سوى الصمت والفقر والرعب حين تشتد نوبات المرض المجهول .. لم أكن أفعل شيئًا سوى ، أن أمصص شفتي إشفاقًا .. قد أناول هذا القلة ليشرب أو أغلق الباب المكسور إذا طلب مني ذلك ، أو أقرب له رغيف الخبز الجاف المغمس ببعض المش ليكون أحن على أسنانه ، وأفعل ذلك وأنا أحس أنني ملاك الرحمة .. وأنسى الأمر بمجرد ابتعادي .

لم أكن أحسن بأي مشاعر حادة حيال معاناة عمتي (فريدة) وزوجها (حسين) ، الذي عاد من مستشفى المجانين ، عاجزًا مستسلمًا لقدره . يجلس طول اليوم في مكانه أمام الدار على قرافيصه ، وكأنه يتهيأ لرحيل لا يحدث أبدًا . يتأمل الرائحين والغادين ، يقتله العجز لعدم استطاعته مساعدة زوجته في ترويض أطفالها ، وفي سد حاجات الغيط والبيت .. ولا يعترض على إرسال ابنه للخدمة عند بعض أقاربه الطلبة في مصر، لقاء لقمته وهدمته وقروش قليلة ..

لم أكن أجد غرابة في ذلك ، فهذه هي حياتهم أراها منذ وعيت على الدنيا دون أن تقلقني أو تثير دهشتي ، بل إنها أحيانًا تصبح مادة لعبثنا الطفولي ، إذ كنا أحيانًا إذا ما لم نجد شيئًا آخر يشغلنا .. نغني للمسكين الرابض عاجزًا يهوم في عالمه ، بالأغنية التي أطلقها البعض سخرية من قصة حبه لعمتي أيام الشباب . وكيف أشعلت بأحداثها النارية غيرة الكثيرين فغنوا لهما مرحًا ما نغنيه نحن الآن إزعاجا وسخرية وقد تبدلت الأحوال وتهدلت المعاني وجفت :

(جلاوين جلاوين جلاوين

وفريدة بتحب حسين /وحسين ما بحبهاشي !)

لم أكن أحس قسوة شمس القطن وأحسد الصغار الذين يساقون إلى جمع لطع الدودة من الأشجار المصابة في عز نقحة الشمس .. وأحشر نفسي معهم (ببيجامتي) النظيفة كأنني أريد أن أشاركهم (لعبهم) . وكان الخولي يطردني برقة إكرامًا (لعبد الباقي أفندي) .. أو يطاردني ملوحا بلسوعة خرزانته التي يسوق بها غيري للعمل .. مهددًا بضربي بجد إن نزلت الغيط و لم أرجع إلى البلد ويصرخ فيَّ محتجًا :

– ايه يا اخوان البلاوي دي انت جاي تبلينا ما تروح لأهلك يا ابن عبد الباقى أما مصايب..

ولكنني لم أكن أجد في ذلك أي مصائب .. فبعض من يحترقون في الشمس أصحابي ، لماذا لا أشاركهم ، وكأننا نستحم في الترعة أو نجمع التوت أو نتآمر لغزو الجنينة . وأندهش جدًّا ولا أجد إجابة لسؤال يلح عليَّ لماذا لا يسمحون لي ؟!

أعود شاكيًا لأمي .. فتموت على روحها من الضحك.. وتناولني كعكة مما أحضره أبي من المدينة ، ولسنا في موسم الكعك فأتظاهر بأكلها .. وأخفيها في جيب البيجامة لأشارك فيها أيًا من أصحابي .. وكثيرًا ما كان يحدث أن أنساها فتزيت ملابسي . وتنهرني أمي وهي تغيرها لي بأخرى نظيفة ، مثلما تفعل كلما عدت لها آخر النهار ملوث الثياب بطين المصارف، أو بتراب المصاطب المندي أو بغبار الساحات الذي لا يكف عن الاستجابة لأقدامنا وأجسادنا التي لا تهدأ ولا تكف عن العفرتة..

كنا مع المغرب نخوض معا المعركة اليومية مع (الخفافيش) ، جيوش مؤلفة منها كانت تنطلق مع الغروب من أسقف الزرايب والعرايش والأحواش المظلمة . تطير بجنون عبر الشوارع والحواري فنسرع نحن

لمطاردتها عشوائيًا .. بتطويح ما جهزناه من عصي طويلة وفروع شجر أو جريد نخيل وبوص ريح ، ويتفاخر كل منا بعدد ما أسقط من (وطاويط) كنا نظنها عصافير جنة .. ونخافها طول الوقت حذرين أن يلتصق أحدها بوجه أحدنا ، ساعتها لن يترك المبلي البائس ولا (بالطبل البلدي) حتى يمتص دمه .. وكنت ألاحظ هذه (الوطاويط) في غير أوقات هيجانها معلقة في هدوء من أرجلها في أسقف الزرائب والأفران ، حيث ينام أصحابي وأهلهم تحتها في تعايش ولا أجد ساعتها في ذلك أي غرابة !!

أسمع أن والد صاحبي (موسى) مات فجأة مع أن الكل كان يتوقع موته من زمن طويل، كان كرشه المنفوخ أمامه يكبر يومًا بعد يوم ، لم يقعده عن الذهاب كل يوم للغيط وممارسة شئون الفلاحة .. حتى انفجر فجأة ونزف دمًا أصفر كالمِدَّة من فمه وأذنيه واسته .. وفاحت رائحة زنخة لم تفلح وصفات الحانوتي في منعها إلا لما أطبق عليها غطاء القبر ..

وكنت أشاهد في ذهابي وإيابي (أبو الروس) يجلس على المصطبة العالية أمام بيتهم المواجه لأبي خشبة (الخرابة) وأمه الضئيلة الجسم تقوم على خدمته وإسناده حتى لا يسقط بسبب تضخم رأسه التي تبلغ ضعف جسمه ، منتصبة كهرم مرعب مقلوب .. بل وكنا نداعبه ونلاعبه سخرية في غيبة أمه لشأن من شئونها .. ولما تعود تطردنا وتنعتنا بالكفرة .. لأنها تصر على أن ربنا أكرمها به . فهو ولي من أولياء الله ، تخدمه طول الوقت لتكسب ثوابه ، فالله يبتلي عباده المخلصين .. بينما كان بعضنا يتساءل في خبث .. كيف خرج هذا الرأس المخروطي الضخم من فرج تلك المرأة الهزيلة الواهنة التي تشبه خنفساء بلا أرجل .

كنت أتعايش مع كل ذلك في غمرة نشوة الصبا .. ولا أحس تناقضًا بين حياة بيتنا (البندري) الذي يشع بياضه في الحارة ، المبلط الأرض ، ذو السلالم البلاط ، والحمامات ذات المواسير .. والراديو أبو بطارية سايلة ، والإيريال العالي المزدوج ، والفراندة الملونة الزجاج واحدة بحرية وأخرى قبلية على الشارع ، تمرح النسمة الطرية في الصيف بينهما لتجعل من الصالة العلوية في الدور الثاني مصيفًا ومتعة .. تتصدرها (أم سمير) وهي تقور كوسة المحشي أو تلف ورق العنب أو تنظف الأسماك أو تنقي العدس والأرز .. في دعة واطمئنان لتجهز الطقات الثلاث في مواعيدها . وتجعل منها طقوسًا يشارك فيها الجميع بلا أي أعذار لمن يكسر النظام .. أو تتبادل الأحاديث والأخبار مع (خلت خضرة) التي تقعي على البلاط البارد مستمتعة بملمسه ، وأمي تطوي وترتب غياراتنا المغسولة والمزهرة التي كانت منذ قليل ترفرف كالأعلام فوق السطح على حبال غسيل مثبتة في مسامير وأعمدة . لترتب ملابس كل منا في غيارات معلومة ، لتوضع في تراتيب منسقة في الدولاب .. لتخرج في موعدها .. حمام كل أسبوع بالماء الساخن في الصيف .. وكل أسبوعين في الشتاء للجميع بلا استثناء مهما كان شح المياه في السدة الشتوية .

العجيب أنه لم يكن يدهشني ذلك التناقض بين هذه الصورة التي تأسرني كل مساء في مواعيد الطعام المنتظمة .. وبين تلك الحياة التي تخطفني طوال اليوم ولا أستطيع أن أخلص نفسي منها لتلبية نداءات البيت الجبرية ومواعيده المنضبطة إلا بصعوبة بالغة ..

لكنني حين قرأت (المعذبون في الأرض) فقدت براءتي .. وحط

عليَّ همٌّ لم يفارقني وامتزج بدمي إحساس قاتل بالذنب فيما لا ذنب لي .. واكتشفت مرارة في لساني لا تزول .. ودهشة مبعثها اكتشافي أنني أعايش طول الوقت أولئك المعذبين في الأرض ، دون أن أحس بتلك المشاعر ، التي أطلقت دموعي حسرة وحزنًا عليهم .. حين قرأت عنهم كلمات مكتوبة . (أي سر تملكه تلك (الكتابة) لتدمر هنائي ، وتسلبني براءتي .. أي سر .. ؟!)

– منك لله يا ابن عبد ربه !!

• • •

لا تقصص رؤياك

○ حين سمعت صوت (خالت حميدة أم قشلان) تنادي ابنها (فتحي) على طريقتها – يا للا ياواد يا فتحى أتفتحت في راسك طاقة !!

أسرعت انزل السلم قفزًا إلى أول الشارع حيث بيت (الأشنّة) (جمع قشلان) .. فقد وعدني صديقي (فتحي) أن يصحبني إلى مكنة (البداوية) لنحضر الطحين وأن يعطيني فرصة ركوب (حماره الحصان) ، نعم كان حمارًا كالحصان فأذنيه أقصر من الحمار العادي .. وذيله أغزر شعرًا وجسمه ضخم عال بشكل غير طبيعي .. و لم يكن يشكمة ويسيطر على جموحة إلا قلة على رأسهم (فتحي القشلان) ..

رأيته يركب (الحمار الحصان) ولما لمحني قادما إليه مد ذراعه القوي تعلقت به ورفعت نفسى خلفه

فى نترة واحدة .. وانطلق بنا حماره ركضا إلى مكنة الطحين التى كان لصوتها المتقطع الحاد ذى الايقاع المتواتر رنينا خاصا لم أسمعه فى أية بقعة آخرى من بقاع الأرض . ومازال يرن فى أذنى حتى الأن كلما فاضت روحي شوقا لذكريات صبا وطفولة (ميت سلسيل) ..

وبسببه مازلت حتى الآن أحفظ فضلك ياصديقى فى إشتعال جذوة شغفي (بالشعر الأكرت والعيون التى سرقها الحزن من البرسيم) والنمش الذى جذبنى إلى وجه (مديحه) من بين وجوه البنات اللأتى يتزاحمن لجمع (الرجيع) الناتج عن هرس غلاف الأرز الشعير خلف ماكينة تبييض الأرز ..

بنات فقيرات من عائلات الكدح والتراحيل (المعذبون فى الأرض) .يؤجرن لكل الأعمال الطارئة من حمل مون البناء إلى جمع الدودة أو ملء أزيار الماء للبيوتات المستورة أو جمع القطن أو تنقية الغلت والبخر و الحندقوق من غيطان الأرز أو القمح .. وكن حين لا يجدن ذلك لقاء قروش قليلة ،يقمن بأعمال خاصة متنوعة لحساب من يطلبهن لقاء نسبته من الناتج ايا كان ، فيقمن بجمع الجلة الحية ، بمتابعة البهائم لدى عودتها من الحقول حيث تكون قد هضمت طعام اليوم كله .. أو بجمع (الرجيع) هرْس قشر الأرز ، حسب طلب أصحابه لقاء نسبة عينية منه لبيوتهن أو لحساب صاحب الماكينة نفسه . وكان (السيد البديوى) يجلس فى كشك صغير مصنوع من نفس الصاج الرمادى المصنوعة منه جدران مبنى الماكينة التى تضم عنبرين ، أحدهما لطحن القمح وهو الاكبر والآخر لتبيض الأرز . تزدحم فيه الفتيات يعرضن أنفسهن على صاحبات الأرز المقشور (المبيّض) أو على كاتب الماكينة وابن صاحبها (السيد) ليختار المحظوظة التي تقوم بالعمل لحسابه .

يتقاتلن في صخب طول الوقت مستجديات أن يكلفن بالعمل . يحدثن ضجيجًا وصخبًا يعلو على صوت الماكينة نفسه. بينما يجلس (السيد) أمام شباك فى واجهة الكشك تخرج من أسفله طبلية الميزان ، الذى توضع عليه قفف أو زكائب الأرز ، بينما يجلس هو مزهوا بنفسه متحكما ومراقبا كل ما يجري أمام الكشك والماكينة من الشباك الذى يقع وراءه مباشرة صدر الميزان حيث الذراع ذى الرمانة . يراقب حدود مملكته من الخارج سواء خارج المبنى أو حوش ماكينة تبيض الأرز من خلال الباب الكبير الواسع الذى يكاد يشكل نصف الواجهة .

ربط فتحي (حماره الحصان) فى الشجرة الوحيدة التى تقع أمام الماكينة ، على شاطئ القناة الصغيرة التى يندفع فيها الماء الساخن من الماكينة بعد قيامة بتبريدها إلى مسرف (البواليص) والتى تسببت سخونتها فى تقزيم الشجرة العجوز فأصبحت ذات منظر فريد لاتشبهها فيه شجرة أخرى ..

سمح لى (السيد) بالجلوس الى جواره على دكة سلطته المطلقة ، وراء الشباك المطل على بانوراما المشهد . وهو مكان لايسمح بجلوس أحد فيه أثناء ذروة العمل إلا لمن يعزَه . حيث تتوافد أمامه ستات وبنات البلد المستورات اللائى يحجبن فى البيوت انتظاراً للزواج ،لكن يذهبن لبياض الارز أو لطحن القمح للضرورة . وغالبًا لفرصة شم الهواء الحر خارج البيوت ، والأمر لا يسلم إذ تنكشف الوجوه والأذرع بل وبعض السيقان اثناء المهابرة والتزاحم على أولوية الدور ، لوزن حمول الأرز أو القمح ووضعه على الميزان أو رفعها عنه ثم دفع الأجر أو المساومة عليه . وما فى ذلك من مجاملة أو دلع وجبر خواطر !

وكانت دعوة (السيد) لي أن أجلس إلى جواره حتى ينهي (فتحي) ما

وراءه داخل الوابور مجاملة له فقط .. بل كانت مجاملة لي بالدرجة الأولى يا صديقى مثلما كانت مجاملة لك .

فقد كانت حبيبته (هانم) بنت الصايغ جارتنا لزم ، تسكن فى مواجهة منزلنا ، وبما أنه يأتي لزيارتها كثيرا وفي أوقات ملفتة للنظر ومثيرة لأقاويل ولغط كان لا يهتم لهما كثيرا . كان يهتم أكثر أن يجدنى مبتسمًا له كلما صادفته داخلا أو مغادرًا في تحد لأخويها المتخاصمين المقيمين بنفس البيت ، مما عقد بيننا صداقة رغم فارق السن . لذا لا تؤاخذني يا صديقي – فانا أعرف أنه صديق لك قبلي وأكثر مني لأنكما بحبل الغرام موصولان هو يحب جارتنا وانت تحب صديقتها إبنة (العصفوري) وكثيرا ما اجتمعنا على رأس حارتنا أمام بيتكم أو أمام بيتنا لتتمكن من رؤية حبيبتك . حين تأتى مستترة خلسة لزيارة صديقتها فى غبشة المساء .

المهم أنه – مجاملة لك أولى أجلسنى على دكة سلطته حتى تنتهى من عملك . بل وتركنى أمارس بعض مهامه فأزن وزنة بين الحين والحين أن أراد القيام لبعض شأنه أو ليظهر مزيدا من إعزازه لي . بجعلى اشاركه بعض سلطته المطلقة !

وفي إحدى هذه المرات نشب صراع . وقامت خناقة بين الفتيات جامعات (الرجيع) كادت تصل إلى حد التشابك . واضطررت لممارسة سلطته فى التدخل صارخا فيهن ، من حيث أنا وراء الشباك مهددا بطردهن جميعا ، ولدهشتى إمتثلن لصرختي الهشة وصوتي الغر وتراجعن . أخذتني جلالة الموقف حين هدأن بشكل لم أتوقعه . ناديت عليهن لأسألهن عن سبب النزاع . ولما حضرن أمامي متزاحمات مستضعفات يسترحمنني .. كدت افقد سطوتى . لأننى رأيتها لأول مرة (تلك العيون التى سرقها

الحزن من البرسيم وذلك الشعر الأكرت ..) فتلعثمت كثيرا إذ خطفت قلبي كأنما أنتزعته مني !! وعجزت عن الأستمرار فى دور القاضى .. ولولا وصول (السيد) وتوليه أمر النزاع لأغشى على ، بسبب حرجى من الخرس الذى لجمنيّ .

وكأنما ضرب ساحة ماكنية الطحين (نيزك) شارد أو زلزلت الأرض زلزالها لأنه ساد سكون تام .. واختفت كل مخلوقات الأرض وأثقالها فيما عدا ابتسامتها المشرقة التى لم يخفها الغبار وضفيرتيها الخشنتين وسكت العالم حولى وإلى إن سمعت صوت (السيد البدوى) يصرخ فيّ :

– مالك يا ابوسمره .. هوه سرحت فى إيه ؟ مالك؟

ثم عرفت إسمها لما سمعته ينهرها فى قسوة

– إيه يابت (يا مديحة) إيه يا بنت (أم نمر) عملتي إيه يابت زعَل الأستاذ ؟... همست بلا صوت . (زعَلتنى ازاي يا (سيد)؟. قول سحرتنى شلتني ..؟) ..

كانت عيناها الزمردتين تشعان من تحت رموش غطاها رجيع الأرز . وتبرقان فوق خديها الورديين المنمشين المتربين ، وكان شعرها الأكرت الذى يطل نافرا في ضفرتين زعرورتين من تحت منديلها الأوية الأجرب المغّبّر .. يجسدان لي حلما أخذ بلبى ، وأسرنى منذ تعلقت ببنت (الهوارى) والتي تجسدت لى (مديحة) نموذجًا نظيفًا لها . إستبدل خبالى جلبابها الناحل الكالح الفقير بملابس مدرسية نظيفة ..

هزني (السيد) فأيقظ سباتى وانتبهت أن قلبى يكاد ينحشر فى حلقومى .. وشاهدت البنات يتفرقن ويعدن إلى العمل إلا هي .. وسمعت قلبي يعود من إختناقته ويدق على طبلتي أذني .. عندما رأيتها تلتفت لي

مبتسمة قبل أن تدخل الماكينة . إبتسامة أشرق معها وجهها نظيفا لا أثر عليه لغبار الرجيع أولانكسار الفقر .

كان (السيد) إلى جوارى خلف النافذة يضحك من القلب وينادى:

– تعالى يا (فتحى) شوف صاحبك واللى جرى له ..

ولاح (فتحى) فى باب وابور الطحين وهو ينفض ملابسه من غبار الدقيق :

– ما له ؟ كفى الله الشر .. قدامى لسه شويه يا أستاذ (سمير) وح نروح على طول .

قاطعته حتى لا أصبح محور حديثهما ، فيفسدان علىَ الحالة التى قررت أن أخوضها محتفظا لها بخصوصيتها . فلا تصبح حدثا يفضح قدسيته الأصدقاء ويتمسخرون عليه مثلما حدث (لخطاب بنت الهوارى) المزعوم الذى دسه البعض علّى والذى أكتشفه معى فى الفصل الأستاذ (النشار) .. في الأسبوع الماضى .. وكانت مرارته فى حلقى مازالت حادة حتى غسلها عسل عيون (مديحة) البرسيمى ..

لم أتعمد أن تتقمصنى شخصية (دارتنيان) ولكننى قررت أن أضع (مديحة) تحت حمايتى !

(كنت قد شاهدت فيلم (الفرسان الثلاثة) منذ عدة أسابيع حيث كانت سينما (المنزله) قد افتتحت بفيلم (فتاه من فلسطين) وكأنه جاء إحتفالا بعودة جيشنا المحاصر (المنتصر) إبان النكبة . فتقمصتنى روح الطيار . الذى أحبته الفلسطينية وقررت أن أكون طيارا ثم تلاه (فيلم المجنونة) فغيرت طموح تخصصى لأكون دكتورا .. إنشاء الله .. وظللت أغير مهنتى أسبوعا بعد أسبوع حسبما يكون بطل الفيلم الذى عادة مايقع

فى الغرام وتحيط به المشاكل والدسائس لينتصر فى النهاية ويفوز بمعشوقته رغما عن أنف الجميع أو بمباركتهم وسط فرحة وبهجة وسعادة .

وكان (دارتينان) رابع الفرسان الثلاثة وأظرفهم قد التقى وهو الريفى بخياطة الملكة التى تسكن فى بيت متواضع فى أحد حوارى (باريس) الفقيرة .. فقرر أن يضعها تحت حمايته وأن يصد عنها عدوان ومؤامرات الحرس الشرير ..)

أخذت أحوم حول وابور الطحين وأنا أفكر فى طريقة للحديث معها بعيدا عن الأنظار. ظن (فتحى) عندما رآنى أمر من جانبه إلى حيث موتور الماكينة أننى أستعجله :

– نص ساعة بالكتير يا سمير وح نروح ..

ضحكت وقلت له أطمئنه

– ما تشغلش بالك ، خد راحتك ، أنا بس باتفرج .

ودخلت الجزء الخلفى حيث (الموتور) الذى تخرج منه السيور ، التى تدير ماكينة طحن القمح والتى تدير ماكينة فرك (تبييض) الأرز وكنت أعرف المكان جيدا فقد إرتدته كثيرا عندما كنت يوميا أدخله لشحن بطارية الراديو . كانت الفتحة المؤدية لماكينة الطحن كافية لمرورى عبر الجدار . ولكن التى تمر بها سيور ماكينة الفرك لم تكن كافية لأعبرها إلى حديث الفتيات . فوقفت وسط ضجيج الآلات محاولا لفت أنظارها .. ولما رأتني (مديحة) شهقت خوفًا من أن أعبر بجوار السيور . وانتهزتها فرصة فأشرت إليها أن تقترب . لكنها خافت فالإقتراب من السيور خلال عملها العنيف خطر وله كثير من الضحايا ...

أشارت لي أن أبتعد وأعود ولكنى لاعبتها بالتهديد أن أقترب أنا ..

فتسللت متظاهرة أنها تريد أن تعرف ما أريد ..

كان صوت الآلات عاليا وله هدير .. لكنها بعد لأى التقطت ما أود قوله بصعوبة .. أن تلحق بى عند سور المستشفى القريب حيث سأسبقها إلى هناك راكبا الحمار .

وعدت بسرعة وأنا أسابق دقات قلبي المنفعل فقد كنت كمن صعد جبل (الجيوشى) عدوا ..

لمحني (فتحى) أحاول ركوب (الحمار الحصان) فترك مابيده وجاء بسرعة وساعدنى على امتطائه وكانت المرة الأولى التى أمتطيه وحدي . وناولنى مقوده وقال فى سماحة :

– ماتروحش بعيد أنا قربت أخلصَ .

قلت له بلا مبالاة :

– أنا ح اضرب بلطة ع الزراعية وارجع حالا ..

إبتسم (فتحى) فى ثقة وضرب (الحمار الحصان) على مؤخرته فأندفع بى فجأة كحصان ، حتى كدت أفقد توازنى وأفشل فى أول محاولة لتقمص روح الفرسان ..

عبرت شريط السكة الحديد بعد أن تعمدت المرور أمام باب ماكينة الفرك حيث الفتيات لأأكد (لمديحة) ما طلبته منها إذ كنت أشك أنها إستوعبت طلبى أو وافقت عليه بسبب هدير الآلات المرتفع ..

لكني عدت منتشيا بحالة الفروسية التى تقمصتنى بسبب طاعة (الحمار الحصان) لتوجيهاتى على غير عادته مع الأغراب، وأقنعت نفسى أنها واحدة من أمارات الحب تحسها الحيوانات والطيور القريبة من المحبين اذ تسرى اليهم كالكهرباء ..

مضيت قليلا على الزراعية ، وكان القمر طفلا يرسل ظلالا أكثر

مما يرسل ضوءا .. ولكننى أحسسته بدرا وأدرت رأس (الحمار الحصان) وعدت متسللا بجوار سور المستشفى الذى يغطيه الياسمين الزفر الذى بدا لى سياجا مزهرا كأسوار قصور (باريس) .. وأخفيت معظم جسْمينا تحت غصون الياسمين المنسدلة إلى منتصف المسافة إلى الأرض ووقفت أحملق في المساحة الممتدة أمامى حتى اضواء وابور الطحين .

كان الليل قد تقدم بما يكفى كى تنقطع الرجل على الزراعية في المسافة الطويلة تلك التي تفصل بين قهوة (أبو راشد) وجسم القرية الرئيسى . وبين وابور الطحين والمستشفى حيث ترعة السلطان ..

لم يكن هناك سوى بضع رجال على الجانب الآخر بعيدا حيث (عزبة الغجر) من عمال التراحيل ، يصل إلى أحيانا طرف من حديثهم حول عمل الغد وصوت خلافاتهم على الأجور .

لمحتها بعد أن أرهقنى الانتظار فارتعش كيانى وارتعش الحمار تحتي يشاركنى فرحتي ، وأنا أتابعها تتسلل محتمية بظلال الظلام مهتدية بظلال ضوء الهلال الوليد حتى عبرت الزراعية وهى تتلفت وتسرع حتى احتضنت رقبة (الحمار الحصان) منفعلة وكأنها تريد الشعور بالأمان .. لم تكن هى ، بل كانت طيفا نورانيا لا يفسد جماله غبار رجيع الأرز المختلط بعرق الشقاء طوال اليوم بل يزيده بهاء .

قاومت رغبتى فى النزول لأتلقاها بدلا من رقبة (فرسي) ، حتى لا يظهر عجزي عن امتطائه مرة أخرى .. ولكننى مددت يدى الحرة .. وملست على شعرها وألصقتها بساقى .. قالت :

– عايز إيه ياسى سمير مني ..

عجزت عن الرد .. فقد كنت فى الحقيقة لاأعرف ما أريده منها

ولا كيف أخاطبها ولكن صوت (نهجانها) شجعنى لأخفي (لهاثي) فأنحنيت عليها واختطفت بشفتى شفتيها البكر وأذوب فى عسل أول قبلة تلهبها مشاعر حقيقية ملموسة . وهمت في رعدة غامرة لم أعرفها من قبل . لا في أوهام غيبوبتى مع (زهزهان) ولا فى أحلام يقظني مع (نرجس) .

كانت قبلة أبدية كونية لم يفارقنى طعمها الخشن المغبر فى يوم من الأيام .

• • •

قدرناه تقديرًا...

○ صار نومي متقطعًا ، لكن العالم كله ظل حاضرًا وصاحيا في دماغي .. ترحل بي أهوائي فيه عبر المسافات والأزمان . وسط ضجيج هائل من الرغي واللت والزمامير والصيحات والذقون (اللَحى) والجثث والبضائع والكتب وشخصيات الكتب .. أحس مرور الزمن ثقيلاً وأنا مغمض العينين . يخيل إليَّ أن ساعات طوال قد مضت وأنا أظن أني نائم . أتصور هذا بسبب التعب والجوع إلى النوم .. أفتح عيني بصعوبة بالغة وأبذل جهدًا خارقًا للتحديق في الساعة .. فأكتشف أن الدهر الذي مرَّ عليَّ منذ لقحت جسدي على السرير ليس سوى ربع أو نصف ساعة.. ما هذا ؟ ما الذي يحدث لي ؟ كلما جئت إلى هذا المكان النائى الذى يبعد إكثر من ٣٠٠ كم عن ضجة العاصمة

فأكتشف أننى حملتها فى نافوخى بكل ما يصطرع فيها من ضجيج وزحام وبشر يستيقظون كلما حاولت النوم لأستجمع قواى كى اتمكن من ممارسة هوايتي وأمسك بالقلم .. فأهرب من الكتابة وأخترع لنفسي ألف حجة أضيفها لما لديَّ من الحجج الجاهزة ، إذ تنتظرني هنا ألف مهمة ومهمة مؤجلة ، مثل دق مسمار لتعليق فوطة في المطبخ حتى لا أضطر كلما ابتلت يدي أن أجففها في جلبابي ويضطرني منظره إلى إعادة غسله ، أو عزق طرف الجنينة وإعادة غرس الشجيرات التي فشلت في اختراق الأرض فظلت قزمية قزعة ، وتوقفت عن النمو ، وإن أصرت على تمسكها بالحياة ورفضها الموت .. مؤيدة قرار الكف عن الاستمرار في كتابة ذلك المسلسل الفكاهي – الذي كانت قد اتفقت معي على كتابته تلك المحطة (للإرسال المبكر) التي عرضت يومها أجرًا خرافيًّا دمر كل مقاومة أو رفض يستند إلى رأيي في تلك المحطات ومن يكتبون لها ومن يمولونها – ليبدو لي أنه أعظم قرار يمكن به علاج حالتي ..

فما حاجة الناس إلى هراء جديد يضاف إلى عشرات التفاهات التي تقيأتها المطابع ولا تجد من يقرأها ، أو التي تزحم الشاشات لتوقف الزمن وتطمس الملامح الإنسانية في وجوه وعقول الناس .. ما حاجتهم إلى الفكاهة المؤلفة ، والمسخرة تحيط بهم وتحاصرهم من كل جانب في مهزلة لا مؤلف لها .. تلعب الأدوار الرئيسية فيها (أولبرايت) و(مبارك) و(البعث السوري) و(الأمم المتحدة) و(القذافي) و(الطالبان) و(عرفات) ومع ذلك يديرون لها ظهروهم ويفضلون الفرجة على حركات (زينات صدقي وعبد السلام النابلسي) ..

لم يعد مضحكًا أن يجلس الوفدان (الإسرائيلي والفلسطيني) كالأطفال المشاغبين في انتظار (الألفَة) الذي خرج من الصف كي يقضي

حاجة وتركهم لائصين لا يجرؤون على التصريح بشيء للصحفيين حتى يعود – بعد أن يبلغوه بكل تفاصيل ما قيل في غيابه – ليختلي بـ(عرفات) ليشد أذنه كي يفهم ويجعل في وجهه حبة دم ويرى كيف ألغت (إسرائيل) صفقة الإنذار المبكر مع (الصين) دون أن تطلب من (أمريكا) شيئًا .. فيعتذر له (عرفات) بضعف السمع والعجز عن الهرتلة .. ويذهب بنفسه ليجلس مع الوفد المناكف لأنه من ناحيته يوافق على أي شيء يرضى أولاد العم ، ولكن عنده من هؤلاء من سوف يأكلون وشه عندما يتنازل أو يساوم . ويزايدون عليه ويفضحونه فضيحة (المطاهر نهار دخلته) ويعلن المتحدث الرسمي أن البقية في الحلقة القادمة .

بماذا يجدي مسلسل كوميدى كئيب آخر .. ومازال سكان الحي الفقير يدفنون تحت الانهيار الطيني أو الصخري في كل مكان .. رغم تحذير السلطات لهم أن ينتقلوا إلى أحياء أرقى .. لكنهم يفضلون الموت عنادًا (وعشقًا) لعششهم الصفيح وبيوتهم الخيش التي لا تمنع سقوفها الأمطار لأنها أكثر راحة طبعًا .! لا يحسون فيها بحرج الموت جوعًا .. ولا النفوق علنًا رغم كل النفايات التي تبدعها الأقلام .. فلماذا تكتب نفاية أخرى .. لن تزيد الأمر سوءًا في العالم إن أنتجت – وإن أذيعت لو أنتجت – وإن شوهدت لو أذيعت ، لن تضيف إلى الحياة إلا المزيد من الفجاجة والصفاقة وقلة الطهي !

أنت نفسك تحس أنك لم تعد تجد ما تقوله ولا تعرف كيف تقول إن فرض ووجدت شيئًا يقال .. وماذا ستقول .. لأجيال تتحدث لغات أخرى .. ولا تدري عما تحكي عنه شيئًا .. فماذا – وحياة أمك – يعني لهم (شهدي) أو (فؤاد حداد) أو (فؤاد مرسي) . هؤلاء الشبان سيضحكون

إذا ما صورت لهم عم (بُرق) مثلاً وهو عريان ملط وقد انكمش أيره الضخم (الذي أفسد عليه حياته) من الرعب وهو مضروب ومسلوخ متدشدش تحت شوم (حسن منير وعبد اللطيف رشدي) يجري فينكفئ على وجهه ويقوم متعثرًا حاملاً (نمرته) نحو باب (أبو زعبل) المفتوح الدامي وسط صفين من العساكر الجلاوذة يطحنون عظمه .. وحين يرفع رأسه فيشاهد دخان المازوت الذي تنفثه مدخنة المطبخ ، يصرخ في هيستريا رافعًا إصبعيه السبابتين .. (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ينطق بالشهادتين قبل أن تلتهمه نار الفرن المشتعل والمجهز طبعًا لالتهام أجساد المضروبين من دكاترة ومهندسين وفنانين وصحفيين وأدباء وبرولوتارية ، و لومبين مصريين من (المنصورة) و(طنطا) و(أخميم) . ماذا لو سألوك عن معنى (بُرّق) أو معنى كلمة (جلاوذة) أو ما هو (أبو زعبل) . لن يصبروا حتى تشرح لهم العلاقة بين دخان المازوت الأسود في (أبو زعبل) .. وأجساد الضحايا في أفران الغاز النازية في (بوخنوالد) ..

ماذا سيعني كل ذلك لهم .. سوف يهزون أكتافهم وتقول أقربهم إليك.. (يا عم كبر راسك.. هات م الآخر.. يعني إيه (برّق) نطق بالشهادتين. هو (برّق) ده راجل يعني ؟! إقلب الشريط).. وستقلب الشريط .. الذي هو مقلوب في الأصل ..[1]

بالأمس ذهبت لتنام بعد مكالمة – سخيفة – مع ابنتك الوحيدة ، عكنن كل واحد منكما على الآخر رغم الثلاثمائة كيلو متر التي تفصل (سيدي عبد الرحمن) عن (القاهرة) .. وذلك بسبب (ميشكا) ..

سألتك عن (ميشكا) وصحته .. فأغضبك هذا لأنها لم تسأل عن صحتك أنت بنفس الاهتمام .

(١) أرجو من القارئ اللبيب إن كان يهمه الأمر أن يراجع (الفذلكة) التي تتصدر روايتي (ولا هم يحزنون) التي لها صلة عضوية بهذه الرواية!!

غرت من القط ؟

كنت قد أخبرتها أن (ميشكا) بعافية .. وأن الناصور قد عاد للظهور.. اكتشفه ابن أختك صدفة لأنه كان مهتمًا بدراسة تصرفات (ميشكا) معك وتصرفاتك حياله .. وأسرار العلاقة الغريبة التي تؤكد التشابه العجيب بينكما لدرجة التطابق .. انزعجت هي طبعًا وطلبت منك أن تأخذه للمستشفى ، وتطلب من أي تمرجي أن يزيله أو ينظفه له .

– وهات له ملين أطفال .. لازم حصل إمساك ..

وطبعًا قاومت أن تصرح لك أن كل هذا بسبب الإهمال .. إهمالك!

كظمت غيظي ، فكيف يمكن أن آخذ القط إلى المستشفى وأقف في طوابير نساء العربان القادمات لتلقي علاج الأمهات والحوامل وهن يصحبن أطفالهن ليخترقن معهم حواجز زمان وحقب من التخلف البدوي يفضلن معها العلاج بأعشاب الصحراء وحبة (البركة..) .

استكبرت أن تتقدم أنت بشيبتك الوقورة لتطلب وسط هؤلاء من الأطباء أن يرحموا (قط) قوم ذل .

– حاضر سمعًا وطاعة ..

أحضرت له الملين وأرضعته عدة مرات مع حذر كاف لعدد النقط خوفًا أن يتسمم أو يزيد عليه المرض ..

هو نفسه أيقظني اليوم في السادسة لأفتح له باب الغرفة .. وأضع له الطعام .. لم يأكل السمك .. السمك المكرونة الذي قليته بعد تنظيفه. فأكدت طهيه خوفًا أن يكون عادمًا ، لم يعجبه طعمه ، سوّيْتُه في شوربة بالبصل والكمون والملح .. فصصته .. أخليته من أي أثر للشوك أو الجلد. ومع ذلك لم يأكله. قطّرت له اللبن في فمه .. فصصت له قطعة دجاج

مخلية ..بعد أن سلخت عنها البيض و البهار و الفيجيتار .. أكل قطعتين سنتوفتين ثم نظر لى كأنه يسبني و مضى فى كبرياء يفلق الحجر

أسرعت وراءه أسترضيه لأرضعه الدواء.. فتزحلقت على البلاط وكادت تتكرر مأساة وقوعي يوم الاحتفال بذكرى (صلاح جاهين) في (المنيا).. حين تمزقت كل أربطة وشرايين وشعيرات ساقي اليسري .. وترتب على ذلك شللي لمدة شهر كامل. شعرت بنفس الخدر الشرير يجتاح ساقي . وخُيِّل إليَّ أنني لن أقوم من سقطتي وليس من أحد يساعدني .. تحسست ساقي في قلق ورعب لكنها جت سليمة .. وضعتها تحت الدش البارد .. ثم جربت المشي ، فمشيت بلا ألم ، حمدت الرب . وأخذت أنادي على القط وأرجوه أن يعود ليشرب الدواء .. لكنه لم يعرني أدنى اهتمام و لم يرد .. صعدت إليه في الطابق الثاني .. كان نائمًا فلم يعرني أي اهتمام واكتفى بتحريك إحدى إذنيه لتلقط أي حركة غدر أقوم بها لإجباره على الشرب..

نزلت السلم كي أحضر السرنجة لأرضعه لبنًا أو ماء مع نقط الدواء فأساعد حضرته على التبرز المريح . كنت قلقًا عليه بعد بحث مضن في البيت كله لأرى إن كان قد فعلها أم لا.. بحثت تحت السراير في الحجرة الكبيرة في البلكونة والصالة الأولى والثانية . صعدت إلى السطح ، دققت في كل شبر .. دخلت إلى الحمامات والمطبخ .. لم يكن هناك أي أثر لبراز في أي مكان.. فانقبض قلبي، ضاعفت نقط الملين.. لكنه طبعًا فهم أنني أستعد لعمل شيء ما لا يحبه.. فأختفى.. درت أنادي عليه رفعت ملاءات السراير.. زحفت على ركبتي تحت الكنب.. صعدت السطح مرة أخرى نظرت تحت الخزان وبين أشولة (السّفنج) .. ثم عدت أدور حول المنزل .. فتشت الحديقة ، شبرًا شبرًا ، مناديًا عليه ذلك النداء الذي تعوده مني

المارة والجيران والعاملين في المستشفى القريب .. (ميشكا ااه).. الذي صار به أشهر حيوان في (سيدي عبد الرحمن) وأصبحت به سيرتنا على كل لسان ، وأخيرًا وجدته معتزلاً فوق النتوء الخرساني في سقف الدور الأول حيث لا يمكن الوصول إليه .. (ميشكا) .. (ميشكا) يا حبيبي .. تعالى .. أووبه .. جعان .. تعالى .. جعان ..

ما أن نطقت بها حتى فعلت مفعولها .. الكلمة السرية الوحيدة السحرية التي يتجاوب معها عند نطقها إذ يبدوا أنها تحمل نفس المعنى في لغة القطط..

تقدم مني في حذر وشك كعادته .. وصبرت .. صبرت حتى صار في متناول يدي . انقضضت عليه غير عابئ بتفسيره لتصرفي . وأجبرته على الرقاد بحيث أقطر له ما في السرنجة من ماء اختلطت به قطرات الدواء..

همهم بألفاظ أقرب إلى لغة البشر مع كل زخة سائل في فمه المغلق .. تملص أكثر من مرة وخدش بقدمه الخلفية في قوة وتهديد زام مزمجرًا مهددًا ، ولكني لم أعره أي اهتمام .. (ففيروز) تتهمني بإهماله .. وأنا لا أطيق أن يمر يومان حتى الآن دون أن أتشرف بجمع بقاياه وإخراجه النادر .. وما أن انتهيت من زخ ما بالسرنجة وإفراغها .. حتى تملص مني فتركته .. وقف بعيدًا يزغر لي من خلف ظهره صامتًا حتى انتبهت إليه، فشتمني في احتقار وقرف .. وحين هممت بالقيام لشأني وليس في نيتي الرد عليه أطلق ساقيه للريح واختفى في الدور العلوي ..

– ما قيمة كل هذا وما دلالته يا شيخ بعد كل هذه السن ، وما فائدته .. لأي إنسان .. وماذا تريد أن تقول به .. هل هو يضفي علي نفسك راحة حين تكتبه ؟هل يزيدك معرفة بنفسك ؟أم يعمق إحساسك بالوحدة

والقلق والاكتئاب؟ بعد هذا العمر العريض وتلك الرحلة الطويلة.. منذ قيام الحرب العالمية الثانية ، مرورًا بوباء الكوليرا ونكبة (فلسطين) الأولى .. وانتخابات عام خمسين .. ثم قيام الضباط بطرد الملك لحسم الأمور وشنق (البقري وخميس) وتوزيع الأرض على الفلاحين و(باندونج) والعدوان الثلاثي ويا (حمام البرسقف) و(احنا اخترناك) (لتشنق الإخوان المسلمين وتطبق مبادئهم) واستقبال اللاجئين من (بورسعيد) وتسكينهم في مدارس القرية والتدريبات للحرب بالعصي في حوش المدرسة . وحكاوي (محمود الفلسطيني) وحواديت (أحمد النادي) و(محمود الباز) ونوادر (الشقيط) و(السقا) و(شطا) و(سلامة) و(عم الصحصاح) وانتحار (عبد الحميد عثمان) ومقالب (إبرهيم رخا ومغامرات بنته العمشاء) وزكي الظروطي) وحكايات أختي و(نجاة) ومعركة الجمعية والوحدة .. والسجن والاعتقال وموت (شهدي) وأبو (زعبل) و(قراميدان) .. و(الواحات) .. و(السويس) وأيام المقاومة وندوات (قصر الثقافة) والجواز وحل الحزب والحب المجهض . وهلوسات المراهقين وتراجيديا (جوزفين) وأيام الحب والخلفة والنكسة وهتافات الانتقام من ضباط الطيران .. ومظاهرات ٦٨ فى رمسيس والمطالبة بذبح (هيكل) وسقوط دولة المباحث بعد أن صدقنا بسقوط دولة المخابرات و(بيان ٣٠ مارس) ومعتقل (طره) ، وزيارات (نجلاء) ومقابلتها الجريئة (لشعراوى جمعة) . ووكيل النيابة (رفعت) وعودة (سيد خميس) وظهور (الشيخ إمام)، وعود (عدلي فخري)، وأغاني (في حب مصر) و(جماعة الدراما) .. والأحقاد الصغيرة .. وموت (عبد الناصر) .. وانتفاضة الحرامية .. وألاعيب (شيحا) وملاعيب (تعاليبو) و(السادات) ، والسفر للخارج وفضح المستور .. ورحلات (السندباد الحديث) ما بين (عدن) و(الكويت) و(دمشق) و(بيروت)

و(موسكو) و(باريس) و(بني غازي) .. وأيام (بيروت) مرورًا (ببرلين) و(بوخارست) و(صوفيا) .. و(فرانكفورت) .. وساحرات (ساليم) .. وحكايات (ميفوستوفيلوس) حامل درجة الدكتوراه في التاريخ السري لضحايا التاريخ العلني وخطته الجهنمية لإنهاء الحدوتة نهاية كوميدية لا تتناسب مع بحر الدم المهدر على المسرح ومؤامرات (ياجو) وحصار (بيروت) ، ياه ما فائدة كل ذلك وقد حدث وراح و لم تكن له جدوى ؟

تأتي الآن لتصدع رؤوسنا بمغامراتك مع (ميشكا) ؟

هل بالحديث عنه ستكون له الجدوى فى إعطاء الحكاية طابعًا روائيًا.. أو دراميًا ؟

عشرات كتبوا عن نفس الأماكن والناس والحوادث ، ولا أحد يذكر الحقيقة كاملة .. كلهم ينظرون من خرم الباب المواجه لعيونهم الشمال أو اليمين دون محاولة لتوسيع دائرة الرؤية التي هي ضيقة جدًّا بالضرورة .. وبالغضب .. هل يجدي أن تضيف تفاهة أخرى إلى كل هذا الركام من التفاهات.. الذى يجمل الوجوه المشوهة ، لأنها هي التي تفتى وتحكي وتطبع وتقول .. ثم على كل الموائد تبرر لتنول وتحظى بالرضا والقبول .

ماذا ستقول؟ .. وماذا سيفعل لك أصحاب محطة الإرسال المبكر إن لم تكتب .. لم يدفعوا لك مقدمًا إلا الملاليم . من قبل طلب منك (حسن مصيلحي) مدير عام مكتب مكافحة الشيوعية بنفسه كتابة نفس فكرة المسلسل في قالب درامي آخر .. ورفضت بكل شمم وفضلت المعتقل والمنفى . والآن ها أنت قد صمت وصمت وفطرت على بصلة .. بينما طلع بعضهم بالهبر لأنه كتب حسب الاتفاق وفي المواعيد المقررة .. الآن فات الميعاد والسوق جبر والآخرون سيتهمونك أنك تكتب للمحطات الرجعية التي تزيف الوعي .. الذي سبق وزيفوه أكثر من مرة في براءة ولكن في إطار العقيدة وبموافقة التنظيم ؟

على كل حال هكذا أحسن .. لقد مرت الأزمة . وها أنت لا تكاد تتوقف عن الكتابة.. لا تجادل.. إن حالتك الآن أحسن كثيرًا عنها عندما كنت تبحث عن آثار براز القط (ميشكا) ولا تجدها وتحاول أن تطمئن نفسك أن نفاياته أطهر كثيرًا من نفايات (رفعت السعيد) وعدم ظهورها أمامك ليس مهمًّا ، فلابد أنه فعلها مثله في مكان ما ..

ها أنت ترى بكل وضوح أن كتابة المسلسل الفكاهي لمحطة الإرسال المبكر كانت ضرورة واحتياجًا لا مفر منه .. فمن أين سيأكل (ميشكا) سمكًا طازجًا غير مستورد ؟

لا حل الآن سوى أن تجبر نفسك على العودة إلى الجلوس إلى المنضدة القصيرة التي تحبها.. وأن تمسك بالكاتر والأقلام وتبدأ في بريها بالطريقة المطلوبة المحسوبة وتخضع لواجبك المقدر لتظل قادرًا على إشباع حاجة كل من يحتاجونك .. وعلى إغاظة كل من يكرهونك .. هيا . هل تمردت أبدًا .. على ما يكون واجبًا وضروريًّا ؟

هل ستفعلها بعد هذه الشيبة .. هيا أنت الآن أفضل .. وسلس وهادئ .. فكر في المفيد، قم واصنع فنجانًا من القهوة المغلية كما عودتك عليه البنت الحلبية الجنية التي خلبتك فسحرتك ذات مرة ..

عد إلى الكتابة ودع (ميشكا) يتبرز في أي مكان يريد !

• • •

الذي باركنا حوله . . .

○ كان (بيت جدي) في زمانه كبيرًا ممتدًا في الشارع ، واسعًا ، له باب ضخم لا تصل عيناي إلى مداه ، باب من ضلفتين هائلتين منقوشتين بزخارف من أغصان النبات والأزهار الخشبية. لكل ضلفة شرَّاعة طويلة من الحديد العريض المشكل في دوائر وأقواس متداخلة .. وتعلو الباب فوق عارضة من الخشب ، نصف دائرة حديدية هائلة تؤطر شمسًا من الأشعة تقف عليها أزهار وعصافير من الحديد ، لم تكن تفتح سوى ضلفة واحدة ولا تفتح الأخرى معها إلا عندما تدخل الحمير محملة بالزكائب المتخمة بالحبوب في الموسم أو محملة بالبرسيم في الشتاء ، وإلى يسار هذا الباب العملاق شباكان شديدا الطول لهما إطار خارجي من الحديد

المزخرف الأطراف والزوايا يحيط بعدة أسياخ سميكة من الحديد لم تكن تسمح لرؤوسنا بالخروج من بينها ، فقط الولد (حلمي) ابن عمتي هو الوحيد الذي كان يستطييع النفاذ من بينها برأسه الصغير .. وكان ينفلت للخارج بمهارة مخرجًا رأسه ثم حاشرًا جسمه ليتعلق بالشباك من الخارج حتى يأتي أحدهم وينزله بعد أن ينال قلمين صفعًا أو عصايتين لسعًا على مؤخرته عقابًا له على الخروج . ولكننا كنا نحسده ونتمنى أن نفعل مثله ..

وكان (بيت جدي) يمتد من بيت (حسنة أم عبد الله) حتى بيت (البيومي الحلو) مسافة كنا نقطعها جريًا ونحن نلعب (استغماية) أو نطارد الدجاج الشارد ونحن نلهث ، كانت جدران البيت عريضة.. يستطيع الجلوس على حجر الشباك ثلاثة أو أربعة منا نطل على الشارع من بين القضبان متعلقين في الأسياخ الحديدية بقبضاتنا الصغيرة .. وكان الولدان (فتحي القشلان) و(حسن عويضة) يحضران أعوادًا من الحطب أو الصفصاف ليضربا قبضاتنا .. كانا يغاران منا لأن بيت (عويضة شهاب) وبيت (القشلان) لم يكونا مثل بيت جدي .. كان لكل منهما باب كبير من ضلفة واحدة هائلة يمكن أن تدخل منها عربة كاملة لا فتحات فيه إلا فتحة واحدة تسمح لشخص واحد بالدخول والخروج منها . أما الضلفة الكبيرة فلم تكن تفتح إلا للضرورة لكنها تظل مفتوحة دائمًا في المواسم ، وإلى جوار هذا الباب كان شباك صغير أشبه بالطاقة يسمح فقط للهواء بالدخول بصعوبة إلى حيث (طوالة) البهائم التي تمتد بطول الحوش حيث تبيت البهائم أمامهم مربوطة تأكل طول الوقت .

لم تكن البهائم التي لجدي تبيت في البيت ، كان لها دوار آخر بجوار الخرابة حيث بيوت أخرى يسكنها أعمامي (عوض) و(محمد) و(عبد

الهادي) و(عبد الكريم) و(فرحة) و(فريدة) .. الذين يلعب أولادهم معنا طول الوقت في (بيت جدي) .

خلف الباب الضخم لبيت جدي كان دهليز طويل واسع وعريض سقفه عال جدًا .. تعشش فيه بعض طيور عصافير الجنة في أعشاش طينية تبنيها باهتمام ودأب شديدين ، و لم أكن أصدق أنه يمكن الوصول إلى ذلك السقف العالي الذي يبدو غارقًا طول الوقت في ظلام غامض حتى في عز النهار .

على يمين الداخل كانت المندرة ذات الشباكين حيث كانت ثلاث مصاطب كبيرة وعريضة تمتد أسفل الجدران مفروشة بالحصر أو العِبْي الصوفية اليدوية ذات الملمس الخشن. كانت ثقيلة لا أذكر أنني كنت أستطيع تحريكها أو حملها .. الحصر كانت أسهل ولذلك أحببتها ، فقد كانت باردة في الصيف تدعوك لتريح خدك مستمتعًا بطراوة حقيقية محببة.

كان هناك حاجز يفصل بين آخر المندرة وداخل البيت يتكون من نصف جدار وباب بلا ملامح ، وخلفه يقع (الكنيف) الذي كان مجرد (حفيرة) في الأرض السوداء الرطبة .. كنت أخاف الاقتراب منه .. لا بسبب رائحته النفاذة فقط، ولكن لظلمته الغامضة . ولأن ستي لا تدخله إلا بعد أن تقرأ (آية الكرسي) لطرد العفريت .. وكنت أحسب لذلك أنها تطلق عليه أحيانًا (الكرسي) .

وفي مواجهته كانت توجد غرفة غير مسقوفة، يربون فيها الدجاج والإوز والبط والأرانب . بعدها كان باب الوسط مفتوحًا على الدوام.. على يمين الداخل منه كانت قاعة غامضة بها عنجريب وكرويتة خشب . كان جدي يسكنها قبل أن يموت ، في أرض النبي صلى الله عليه وسلم أثناء الحج ، قبل مولدي ولذلك لم أره .. ولكن جدتي (أم العز أم علام)

هي التي كانت تسكنها على أيامي... كنت أراها دائمًا في الحوش المواجه ، نصف المسقوف.. تجلس على (عنجريب) نصف ، فوق بعض العباءات مستندة إلى جدار (الحاصل) حيث خزين البيت من الحبوب والسمن (على مد ايدها) وتحت بصرها ، بعد ذلك كانت قاعة الفرن التي يمتد الحوش أمامها غير مسقوف إلا قليلاً . يستند إلى جداره البعيد ، أو يستند الجدار عليه ، سلم خشبي من فرعين سميكين من الكافور له درجات عريضة متقاربة من كتل خشبية قصيرة نتقافز عليه طول الوقت مع المعزة والخروف صعودًا إلى السطح وهبوطًا منه، متعرضين طول الوقت لعصا جدتي التي لم تكن تطيق ضجتنا. وتطالبنا طول الوقت بالسكوت أو اللعب في الشارع ..

عندما بنى أبي المقعدين فوق السطح ليسكن فيهما مع زوجته (أمي) استعمل هذا السلم لفترة ، لكنه لم يكن آمنًا بما فيه الكفاية لزوجته ، فبنى سلمًا في القاعة المكشوفة التي في الوسط حيث يربون الدواجن . نصفه درجات من الحجر ونصفه من الخشب المتين يصعد إلى بسطة طويلة فوق الغرفة غير المسقوفة . ونقلت الدجاجات إلى الداخل على غير هوى جدتي، التي لم تكف عن احتجاجاتها بصور مختلفة ، خاصة وأننا أنا وأختي وأبناء وبنات عمتي (فرحة) وعمتي (فريدة) التي كانت تلازمها كل نهار .. لم نكف عن استعمال السلم الخطر المحروس بلسعات عود الحطب، أو غصن الصفصاف الذي كانت توصي يوميًّا عليه لتكسره على ظهورنا ومؤخراتنا حتى يذوب ، كانت لعبة تحلو لنا معها ، هي تطاردنا في غيظ ونحن نتفلت منها في مرح .. مهللين عندما نفلت وتطيش ضرباتها ، وصارخين في عناد عندما تؤلمنا لسعاتها . كنا حريصين طوال الوقت على

كتمان ألمنا في ضحكات ، مظهرين عدم الاهتمام لأغاظتها ، بينما نحن نحك مواضع الألم في وحوحة حارة . نجاهد لكتم لهاثنا ونحن نخرج لها ألسنتنا في تشف ممزوج بالألم والانتصار .

في بعض الأحيان كانت هناك بقرة . تظهر أحيانًا في قاعة الفرن ، كنت أعتقد اعتقادًا جازمًا أنها واحدة من المداحات الغجر اللاتي لم تكن تطيقهن جدتي ، سحرتها وحبستها لأنها لم تمض في حال سبيلها ، وظلت تصدع رأس جدتي بطبلها المزعج وصوتها القبيح . و لم تجد أحدًا من العيال لترسله إليها برغيف أو بعصا ليطردها ، فاستدرجتها إلى داخل البيت وعاقبتها وحوَّلتها إلى بقرة .. كنت أرى حزنًا إنسانيًّا غريبًا في عيون البقرة .. كانت تسمعني عندما أتسلل إليها أسألها ، وكانت تحاول الإجابة ، ولكن عجزها عن الشكوى كان يفجر في عينيها دموعًا.. وكان صراخ جدتي وصياحها عليَّ كلما دخلت عند البقرة يؤكد لي خوفها من أن أكشف سرها أو أبطل سحرها .. وكان الأمر دائمًا ينتهي بعلقة ، لا لأنني أغضبت جدتي ولكن لأن أبي لم يكن يريدني أن أعبر حدود المنطقة المحرمة الخاصة بها أصلاً . خوفًا من أن تحولني إلى كلب !

هو شخصيًّا ، منذ بنى السلم في حوش الدجاج ، لم يعد يستعمل السلم الخشبي الآخر للعبور أمامها ، وحذرني من ذلك، ولكنني لم أستطع أن أفعل ، فأولاد عمتي (فريدة) لم يكونوا يلعبون إلا معي ومع أختي ، عندما يحضرون مع أمهم لقضاء حاجات جدتي ، سواء إطعام الدواجن والخروف النطاح ، والمعزة ذات القرن الواحد ، الرابضين أسفل السلم الخشبي . أو لحلب البقرة المسحورة وكنس الحوش ، وتنفيض عباءات

فراش جدتي ، وتنظيف حجرتها الغامضة التي كان محرمًا علينا دخولها ..

كنت أتحجَّج بهم وأنسب إليهم كل ما يحدث من جرائم سرقة بيض الدجاج لشراء الملبس والحمص والأرواح أو لركوب مرجيحة (أحمد همام) . كانت عمتي تتدخل لصالحي ، وتمنعه من عقابي مؤكدة – له أن أولادها هم السبب وأنني طيب لا أفعل شيئًا ..

– جرى إيه يا (عبد الباقي) ؟ ده عيل ، الواد (مجاهد) وأخوه (سيد) هما اللي يستاهلوا قطم رقابيهم .. بلاش افترا .

لكن حظي السيئ كان دائمًا يزوده بالبراهين ، أنني الفاعل الأصلي، أو على الأقل مشترك أساسي .. كأن يضبط في جيبي غلاف (أرواحة) ملون لم أستطع الاقتناع بانعدام قيمته، أو عدم الوقوع في إغراء (خروشته) كلما كعبلته في كفي داخل جيبي ، أو غواية وضعه على عيني في مواجهة الشمس ، لأرى الدنيا خضراء أو زرقاء أو برتقالية . وأحيانًا ما كان يضبطني شخصيًّا أبادل البيض المسروق باللب والملبس من عند (حسني النملة) ، كان أولاد عمتي يهربون في صمت ، ولا ينبهونني ويتركونه يمسك بي متلبسًا لإثبات تورطي على عكس ادعاءات أمهم (عمتي) براءتي .

و لم أكن أسكت لهم طبعًا ، وكنت أيضًا أدبر لهم ما يوقعهم في شر أعمالهم أو شر أعمالي .. كان السلم أمام الفرن ، الذي يحرسه الخروف النطاح والمعزة الثرثارة التي كانت تتعمد المأماة صارخة كلما نجحت في العبور دون أن تلحظني الجدة كأنها تقصد أن تفضحني وتشمت بي فتصرخ جدتي :

– إنت يا وله انت وهوَّ رايحين فين ؟

لم نكن نرد طبعًا . وكان (سيد) يرفس المعزة رفسة قوية تحوِّل مأمأتها الواشية إلى مأمأة شاكية ..

– إنت يا وله سيب المعزة يا وله .!

نكتم ضحكاتنا وهمساتنا ، ونوسع المعزة ضربًا متأكدين .. أنها لن ترانا ، كانت عيناها كليلتين للغاية ، لا تميز على بعد شبرين إلا أشباحًا .. كما أنها كانت لا تستطيع مغادرة مكانها منذ تحملها (فريدة) كالطفلة من سريرها إلى مكانها الدائم ، ما بين (الحاصل) المليء بالخيرات والخزين وحجرة نومها الغامضة المحرمة علينا! .. كحارس ، (تبُك) عيونه شرار نار ، غير مرئي ، يلبش كل من تسلطه عليه ..

كان عندي إيمان راسخ مؤكد أن لديها كنزًا يفوق كنز (الملك الشمردل) تخفيه في أرض الحجرة أو في (الخورستانة) التي في الحائط الغامض ، مغلقة بمفتاح له ثلاث سنات من حديد صلب نادر، يشل من يمسكه ، غير صاحبته ، يبرق معلقًا في حبل كتان غامق حول رقبتها . حذرت العيال من النظر إليه لأنه مرصود وقد يصيبنا بالعمى ، إذا وقعت عيوننا عليه ونحن نعبرها متسللين إلى المنطقة المحرمة .

كنا في أوقات معينة نصعد في صمت على السلم إلى نصف السطح الممتد أمام (الشكمة) البحرية في الدور الثاني . ونزحف تحتها في طابور كالنمل أو دود القطن ، حتى لا يرانا أحد من سكان المقاعد ، عابرين إلى حيث الخزانة العامرة بطواجن الرائب وشوالي الحليب وأشولة السمسم .. كان عيال عمتي يعرفون متى يكون الغزو مجزيًا لنفوز بالغنيمة .. نراوغ العمة ، نتسلل في فترات انشغالها في الحلب ، أو في أي عمل وتكون قد سهت فتركت باب (الخزانة) مفتوحًا .. لكنها على ما يبدو ظنت أن قططًا تدخل خفية لتشرب اللبن الحليب أو الرايب . ولكن أقراص الجبنة الضاني لا تحملها القطط ، ولذلك قطعًا للشك لم تعد تترك الباب مفتوحًا ولو للحظة ..

اخترعت طريقة عبقرية لامتصاص اللبن والرائب من الطاقة الصغيرة الوحيدة التي في جدار الخزانة البحري ، والتي تركت للتهوية وإن حصنت بأعواد من جريد النخل الصلب بالطول وبالعرض لمنع القطط والفئران من الدخول للمخزن عبرها..

تفتق ذهني بعد فشلنا المتكرر في التسلل إلى الخزانة ، منذ أصبحت العمة أكثر حرصًا ويقظة .. أحضرنا عدة أعواد من سيقان الفول الجافة التي عادة ما تكون مجوفة وكنا نستعملها كمزامير أو مواسير لنفخ الريش الزغبي في الهواء ومتابعته والرهان على الاحتفاظ به طائرًا لأطول مدة ممكنة ، لعبة كنت قد علمتها للعيال نمارسها عندما يقتلنا الضجر أو يصعب علينا اختراق حصار عيون الجدة وعصاها اللاسعة .

وجدت لتلك السيقان وظيفة أكثر فائدة وعلمتهم أن نمدها من خلال المربعات بين أعواد الجريد ، حراس الطاقة البحرية غير المكشوفة لسكان الدور الثاني .. وتفننا في وصلها وإطالتها لتنال من كل الطواجن وتندس في حلوق الشوالي الفخار .. وحين نجحنا أول مرة في شفط دفعات ثرية من الحليب والرايب ، كادت ضحكات فرحتنا بانتصارنا أن تكشف مكمننا الخفي ..

لم يصدق أبي أبدًا عندما انكشفت حيلتنا الجهنمية أن هذه الفكرة ليست من بنات أفكاري، كان يعتقد اعتقادًا جازمًا أنني وراء كل هذه المصائب .. فأنا السبب في كسر قرن المعزة التي صارت بعدها عنزة وحيدة القرن .. وأنني وراء ما أصاب الخروف النطاح الذي كانت تربيه جدتي لذكرى وفاة جدي القادمة ، فعجّلت بذبحه . وهي تدعو كاشفة رأسها على من أطعمة (الداتورة) فكاد يقضى عليه .. لم يكن يثق في ذكاء عيال

أخته ، فحكاية شفط اللبن الرائب والحليب بواسطة أعواد الفول لا ترد إلا على ذهن يعرف شيئًا ما عن الأواني المستطرقة . أو سمع عن نظرية الضغط الأسموزي ، مع أن كل الناس الذين لم يذهبوا أبدًا للمدارس يمارسون شيئًا من هذا القبيل وأنقح ، في كل القهاوي وبطرق أكثر تقدمًا وعلمية من نظرية عيدان الفول وذلك باستخدام أعواد البوص المشذبة والغاب الرفيع المختار بعناية في شرب وقربعة الدخان والكركرة بالجوزة ليلاً ونهارًا .

الخسارة الفادحة لم تكن في معرفة وضبط من توصل إلى هذه الأفكار الجهنمية فقد عثرت عمتي على قطع من سيقان الفول مشبعة باللبن و على بوصة جوزة كاملة (كانت قد أفلتت من يد ابن عمتي عند محاولته (تنشينها) في حلق شالية مترعة بالحليب لم تكن موضوعة في مكان مناسب) .

وأمام استمرار غزو (الخزانة) حتى بعد معرفة السبب سدت الطاقة تمامًا .. وحين اكتشفوا اختراق حاجز الطين الذي لم يكد يجف نقلوا كل ما في الخزانة من خزين إلى الحاصل المحروس (بالرصد السحري المتربع) على العنجريب طول الوقت مستندًا على جدار بابه المحرم .

تهدمت (الخزانة) مع الأيام وتساقط طين (لياستها) ، وانكشفت بوص سقفها و لم تعد تصلح إلا كبيت مفترض لحفلات زفافنا العيالي ، حين نلعب عروسة وعريس في البيت اضطرارًا . فقد كان الجو فيها بعد خرابها غاية في الطراوة المنعشة خاصة في قياييل أيام الصيف الطويلة .

تعرفت على سر (جنيِّة الكنيف) التي كانت جدتي تكف شرها بآية الكرسي ، وهي تدخل كي تقضي حاجتها محمولة بواسطة ابنتها (فريدة). راقبتهم أكثر من مرة .. وتأكد لي أن هذه الجنية لا تسكن الكنيف ، وإنما هي تشارك جدتي في حجرتها المحرمة ، لكني لم أجرؤ على تجاوز العتبة .

حتى كان يوم رأيتها ترج سائلاً ما في شيء صلب غريب، شبه مجوف، يلمع باطنه كرخام عتبة الجامع العاجية ويتعرج ظاهره القائم عروقًا بنية غريبة تتخللها شروخ من بياض يكاد يضيء .. قالوا أنه قرن (الحنتيت) الذي عرفت فيما بعد أنهم يقصدون (الخرتيت) وبعد أن رجت القرن بالسائل الذي وضعته فيه مع عشب ناشف مطحون .. قرأت عليه أورادًا أو آيات على رأس بنت عمتي المحشور بين ركبتيها . وعمتي تفتح فم البنت غصبًا لاستقباله فزعة تحاول التخلص باكية من كلابة ركبتيها دون جدوى ..

البنت شفيت من المغص القاتل – بعد أن نامت طويلاً غارقة في عرقها ، صحت وقفزت على قدميها كالقردة . وعرفت من أحاديثهم أن (قرن الحنتيت) هذا أحضره جدي من أرض الحجاز هو (ودهن إحليل تمساح) و(كبد عقاب حي) وأن ساحرًا من السودان لقنه كيفية استعمال السحر في شفاء الأمراض ، وهو علَّم جدتي السحر بدوره . كنت متأكدًا بعدها أن لدى جدتي أشياء أخرى خفية كنت أسمعها تتردد على ألسنة الكبار عن (نمل يتيم... وعقارب عقيمة وهداهد صامتة .. ودم أطفال يتامى) ثم اختلط كل هذا بما قرأته في حكاية (جودر) والسحرة المغاربة الذين جاءوا إلى مصر يسعون وراءه لكشف كنز (الشمردل) وبغلة الحظ والمسحور والجحش الذي يأخذ شكل المارد وتمثل لي كل ذلك متجسدًا في الظلام الذي يكلل الغرفة التي لا نوافذ لها، ضبابًا يحجب السقف والأركان عن نظر من يجرؤ على التطلع صدفة أو على البحلقة عمدًا في فراغها الرطب اللزج ..

• • •

فـي غيابـة الجب . . .

○ قبيل موت جدتي بأسابيع سمعتها تطلب من (فريدة) أن تعمل حسابها على المبيت معها. إذ أنها صارت تحلم كثيرًا ، لو نامت ، بالحاج يناديها أن تلحق به إلى أرض الرسول . وفي يقظتها تطاردها كوابيس وأحلام مرعبة ، لا تجرؤ بعدها أن تنام . حكت لها أنها منذ وعت على الدنيا لم يمت أحد من عائلتها أو من عائلة الحاج إلا حين يترك وحده – حتى ولو للحظة خاطفة – لذلك تريدها أن تبيت معها .

سمعت (فريدة) تحتج بأولادها – وأنها ستوصي (عبد الباقي ومراته) أن يطلوا عليها في غيابها .

وستترك باب الوسط مفتوحًا لأي طارئ،

صرخت فيها العجوز غاضبة:

– باقول لك تيجي تنامي معايا ، تيجي بعد ما ترتبي أمورك .. وما تزوديش في الكلام

حين شوحت بذراعها الجاف غاضبة رنت حول عضمة ساعدها كتلة من أساور ذهبية كانت تختفي تحت الكم الأسود الواسع .. ولمع الخزام الذهبي على ضوء المسرجة . و لم تهدأ إلا حين قالت (فريدة) التي اقتنعت على ما يبدو بحكمة وجودها إلى جانبها في لحظتها الأخيرة:

– ح أشوف يا امه ، هوَّ أنا يعني اللي بنتك لوحدي .

همهمت (أم العز) تغريها في صوت مستضعف يثير الشفقة ويشي بوعد خفي:

– ما ليش غيرك يا بنتي يسترك ربنا ويعوض عليك .

كانت (فريدة) أحب بناتها إليها والأقرب لقلبها ، فهي التي خدمتها ورعت مصالحها منذ فضيت الدار عليها .. كلهم انشغلوا بحياتهم .. وأزواجهم وزوجاتهم بنات ورجالة .. لم يبق بالبيت إلا (عبد الباقي) الذي كانت معه في نقار دائم لإيثارها (عوض) آخر العنقود بحبها .. ولأن (عبد الباقي) تزوج بدون شورتها وأتى (بواحدة) غريبة طالعة فيها و(بندرية) تظن نفسها أفضل منها ومن بناتها وتريد منهن أن يخدموها لا أن تخدمهم هي . وجوزها شجعها وصار يتحكم (على كيفه) في البيت يبني فوقه مقاعد بالجبس والطوب الأحمر والبلاط . هي ربطته من مناخيره ، جرته وراءها وأنسته حاجة أمه « .. يا ريت كان (عوض) هو اللي اختار الدار وقعد جنبها بدل من اللي سكن مراته فوقيها ، وليل ونهار قباقيبهم تدق على نافوخها».

هدَّأت (فريدة) من مواجعها وودعتها بعد أن وعدتها أنها ستأتي لتبيت معها من يوم الجمعة القادم إن شاء الله .. (وعليها بس أن ترتاح.. وربنا ح يديها الصحة وطولة العمر!).

– طب خشي الحاصل وخدي العشا لاولادك قبل ما تمشي!

وفعلت (فريدة) ما تفعله كل يوم . دخلت وأخذت ما لا أعرف من حاجات وأشياء ومضت..

صار المكان (اسكت هس) .. لا شيء يتحرك حتى العنزة أم قرن واحد – رقدت واتخمدت ، والدجاج طار على جناحات الحلم ، واستيقظت العفاريت تمارس ألعابها الليلية .. فاستجمعت أنا ما ادخرته من شجاعة وتسحَّبت للدخول إلى تلك الحجرة الغامضة المكتظة بأدوات السحر والمسكونة بالأشباح والغرائب.

حين دفعت الباب القاتم الثقيل صرَّ وزيَّق محدثًا صوتًا كالأنين الغامض لمارد يتأوه هبَّت عليَّ منه ريح محملة بمزيج من روائح غليظة وهبْو دخان ثقيل له قوام يضغط على الجلد ويثير الرعب، أغمضت عيني وأخذت نفسًا عميقًا محاولاً تهدئة قلبي الذي صَمَّت دقاته أذنيَّ حتى خُيِّل لي أن كفين ضخمين يصكانهما في بطء وانتظام . فتحت عيني وأنا أحاول تذكر آية الكرسي أو حتى الفاتحة . لكن الآيات اختلطت ولساني تصلَّب يسد حلقي عن التنفس..

إصراري جعل عينيَّ تتعودان الظلام الذي يغمر الحجرة، رغم الضوء البارد الكالح الذي تشعه في ضعف اللمبة السهاري الضئيلة المستقرة داخل طاقة خاصة على شمال الباب. على ضوئها الباهت تبينت كتلة ضئيلة من السواد متكومة في طرف العنجريب، تحت (الخورستانة) التي

بدا بابها الخشبي كوجه صنم من أصنام (الملك النمرود) ، يراقبني وقد رفع حاجبين عريضين يلقيان تحتهما ظلاً يخفي لمعة عينيه المنطفئتين .. كانت أركان الغرفة غارقة تمامًا في ظلام لا يمكن اختراقه ، بينما اختفى نصفها الأعلى وتعمق سواده وامتد إلى السماء .. خطوت نحو (جدتي) فتعثرت بكرسي خشبي حسبته كائنًا ما . فصدرت مني آهة صامتة كتمها الرعب الذي شل ساقي ومنعني من القفز عائدًا إلى الخارج .. عدة أجولة مترعة بالحبوب كانت مرصوصة في الركن الأيمن بدت كرجال رماديين يبحلقون في صمت متسائلين عن هوية ذلك المزعج الذي أيقظ سباتهم .. تململت جدتي وسمعتها تقول في حدة :

– مين ؟ وله .. واد يا سمير ..

كدت أصرخ حين سمعت اسمي مشروخًا بل أردت أن أصرخ ، لكن صوتي مات في جلد حلقي واختنق .. وتخشبت ساقاي وتحجر جسمي وأحاطت بي همسات للمسات باردة و لم أدر هل مددت يدي لآخذ المفتاح من تحت رأسها ، أم أنني وجدته في موضعه بباب (الخورستانة) .. أنا لا أذكر أنه كان بقدرتي الإتيان بأي حركة ، أو أن أفعل ما ظننت أني فعلته إن كان قد حدث فعلاً .. فتحت باب (الخورستانة) بسهولة .. كانت مستطيلة بها رفَّان من خشب قديم قاتم قسماها إلى ثلاثة أقسام .. حين لمست (قرن الحنتيت) انتابتني رعشة وكدت أسقطه فوق رأسها .. ولكنني أبعدت يدي بسرعة ؟؟ وحين تناولت العلبة الخشبية الخشنة وفتحتها ، شعَّ منها بريق أعشى عيوني وبهر أنفاسي ، عشرات الجنيهات الذهبية والأساور والحلقان يعلوها خلخال ذهبي يتلوَّى راقدًا فوقها كأنه ثعبان حي . فحَّ في وجهي فأقفلت العلبة بسرعة ، فأحدثت صوتًا له رنين

وصدى عميق لا نهاية له .. خيِّل إليَّ أنه أيقظ كل الموتى والشياطين ، قفزت مرعوبًا و لم أدر ساعتها هل أغلقت (الخورستانة) وأعدت المفتاح إلى مكانه .. أم أنني لم أجد القدرة على فعل ذلك . إذ أن الصرخة الحادة التي أعادت الوعي لي لم تعطني الفرصة للتأكد من أي شيء ..

– إلحق يا (عبد الباقي) الواد سمير نايم تحت السلم .. واحنا دايخين عليه من المغرب . يا قلب أمه!!

في الصباح لم أتذكر شيئًا مما حدث . جاءت عمتي (فريدة) كعادتها مبكرة . وعلى الفور أجلست امها على العنجريب، مثلما تفعل كل يوم ، تسللت أتلكأ بالقرب منهما أتنصت لحديثهما لعلِّي أتبين حقيقة ما حدث بالأمس .

هل اكتشفا أنني اقتحمت حجرة الأسرار ، أو أنني فتحت (الخورستانة) وأبصرت كنز (الشمردل)؟ لكنني لم أتأكد أبدًا .

• • •

وكان سعيهم مشكورًا . .

○ قبيل موت الجدة جاءت (كمال) بنت عمتي (فريدة) وأقامت معها في الحجرة التي كانت محرمة علينا .. أمي أظهرت بعض الاحتجاج والشك وقالت :

– طبعًا .. بيرتبوا لحاجة كبيرة ..

أبي كعادته عندما لا يعجبه قول أو تصرف لها برطم وقال :

– طب كنتي اعمليها انتي .

قالت في امتعاض :

– أنا .. بعد الشر ..

ازدحم المكان بأولاد وبنات عمتي ودبت الحياة في الحوش، لكن المدارس كانت قد بدأت

وقصر النهار وأصبحت أقضي معظم الوقت خارج البيت وإن ظل خيال وأحداث تلك الليلة لا يفارق خيالي.. كانت (كمال) نشيطة ولا تكف عن الحركة تطرد الجميع بعيدًا طول الوقت.. حتى أمها قل تواجدها في المكان.. الذي صار نظيفًا .. وذبحت العنزة أم قرن واحد و لم تعد البقرة تظهر في قاعة الفرن .. وارتفع صوت الغناء في الحجرة وفي الفناء وذات مساء كنت عائدًا من الغيط بعد يوم قضيته مع أولاد عمي (عبد الحليم) – (محفوظ) و(أبو كلام) – حمَّلاني هدية من بلح (بنت عيشة) من نخلة زي العسل ترمي مبكرة أكلها اللذيذ.. وكنت سعيدًا لأنهما وعداني أن اصحبهما في الأسبوع القادم، بعد أن يستأذنا أبي أن أحضر جمع أول قطفة من قطن (غيط السباخ) الذي رمى بشائره مبكرًا هذا العام.

حين اقتربت من باب الوسط سمعت (نشيش) وابور الجاز في حجرة جدتي وسمعت (كمال) تضحك وهي تغني أغنية فرح طالما سمعتها في ليالي الحنة وبالذات عند حموم العرائس:

– "أحمد ويا أحمد ويا أبو الود يا غالي .. يا ليل الله..

أحمد على الكوبري شاور لي بمنديله.. يا ليل الله.."

كانت تغني وترد على نفسها في سعادة ومرح .. فتركت غَلَق البلح على أول السلم وتسحبت نحو حجرة جدتي .. كان الباب مواربًا .. وثمة بخار دافئ يملأ فراغ الغرفة .. دفعت الباب قليلاً ومددت رأسي في حذر وصمت .. صوت الوابور يأتي من ركن الغرفة التي تضيئها لمبة (نمرة عشرة) يلاعب ضوءها البخار الساخن . لم يكن سرير الجدة في مكانه .. كان قد أزيح إلى الركن البعيد ، وثم في وسط الحجرة طشت كبير في وسطه كرسي الحمام الذي تعثرت به ليلتها .. وكان جسم (كمال) شبه العاري تحت قميصها المبلول يحجب الرؤية عن بقية المنظر

. إذ كانت قائمة تتحرك في نشاط ، تأخذ ماءً ساخنًا من الصفيحة فوق الوابور وتخلطه في ماجور كبير من النحاس مع ماء بارد .. ثم تصب على جسم ما لم أتبينه كانت تليِّفه في نشاط وحنان .. كان البخار المتصاعد من الصفيحة ومن ماجور (الإنجاز) ومن الجسد الغامض يملأ فضاء الحجرة ويزيد غموض المنظر ، لم تعد الأجولة المليئة بالحبوب في مكانها .. وغام وجه (الخورستانة) المرعب وضاع في فراغ الحائط المضبب وانحنت (كمال) وهي تضحك تطارد الصابونة الهاربة في رغاوي الطشت فرأيت بين يديها .. جسدًا هزيلاً يشع بياضه تحت ضوء المصباح يغطيه شعر طويل رمادي مهوش مبلول صبغت معظمه حمرة الحناء ، جسم نحيل من جلد وعظم له أطراف معروقة مقرفص فوق الكرسي ، عظامه ناتئة بارزة تحتضنه ذراع (كمال) البضة الفتية التي تبحث عن الصابونة وهي تكمل غناءها في مرح:

– أمانة لو رحت للبندر تجيب لي هدية .. يا ليل الله ..

تأملت المنظر المضبب ، ولاحظت عدم وجود الأساور الذهب في ذراع الجدة الرفيعة .. ولا الخزام في أنفها الواضح ، فضحتني شهقتي فالتفتت (كمال) ناحيتي غاضبة في عصبية كاد أن يسقط معها الجسد الهزيل الغريق في ماء الحموم .

– إمشي يا وله بلاش قلة أدب .. اقفل الباب ، ستك تاخد برد يا حمار ..

و لم أجد وقتًا إلا لأهرب في قفزة وحدة ، لألتقط غلق البلح من جانب السلم وأصعد به وقد تملكني شك أنني دخلت الحجرة المسحورة قبل الآن .

ماتت جدتي بعدها بأيام ..

وثار بين أعمامي وزوجاتهم وعماتي وأولادهم وبناتهم ، بل وبين كل من له علاقة بالأمر ومن ليس له علاقة .. جدل حاد وكلام كثير مختلط بصراخ وعويل .. واتهامات وشتائم وتلميحات . وكان عراك كبير.

لم يجدوا في (الخورستانة) شيئًا سوى بضع جنيهات ورقية و(كبشة ريالات فضة) ولم يكن هناك لا (قرن الحنتيت) ولا (طاسة الخضة)! والحاصل الذي كان مترعًا (لتمّته) وجدوا به بضع أوان فارغة بعضها مكسور ، عشش فيها العنكبوت وطبعًا اختفت الأساور التي كان الجميع يراها ويسمعها تشخلل في ذراع الجدة العظمي .

قيل أن (فريدة) رفضت ما حرضها عليه أولادها ودبروا لها ما تفعله . ولذا جاءت بنتها الكبيرة لتباشر – في صمت – ضمان نصيب اليتامى في ميراث تهدده سطوة الإخوة الذكور..

همس البعض أنها تعمدت أن تحمِّيها بالماء الساخن في البرد ، وأنها تركت باب الحوش مفتوحًا لتصاب في رئتيها وتموت وهي الضعيفة الواهنة التي لا تتحمل !!

وظل الأمر لسنوات طويلة محل جدل . وخلَّف غلاً وقطيعة بين الجميع حتى الآن ..

لكن الواد صاحبي (فاروق النملة) ظل لسنوات يلاحقني مستظرفًا يغيظني وهو يعايرني ضاحكًا:

– كل دي حركات يا آبا ، إنت وابوك اللي طلعتوا بالشخاليل والهبرة الكبيرة .

وكنت لا أحتمل هزاره وأغضب فعلاً رغم تأكدي أنه لا يعنيه ، لكنه كان يرد علي مؤكدًا ليفرسني أكثر:

– أيهه ؟! اللي على راسه بطحة .. مش بأقول لكم .

فكنت أخفي غيظي وأضحك لأجاريه في سخريته، لكن قبضة باردة كات تعصر قلبي دون أن أدري لها سببًا كلما جاءت هذه السيرة .

• • •

لا يضركم كيدهم شيئًا . . .

○ خلص البيت بعد دفن جدتي لـ(عبد الباقي) طبعًا . ووزعت بقايا التركة التي كان يمكن أن يكون مصيرها كمصير (قرن الحنتيت) وكل ما ظنوا أنه كان يملأ (الخورستانة) وسويت ملكية البيت فلم يكن أحد يود مشاركة أبي فيه .

لقد بنوا بيوتًا على وش البلد لا تفصل بينها وبين مقام جدهم (سيدي مجاهد) – الذي لم يكن قد صار مسجدًا بعد – سوى (الخرابة) أو الجبَّانة القديمة التي اسمها (تل أبو خشبة) وقمينة الجير و(منصل) أو مسرف دار (أحمد) .

كان نصيب أبي ثلاثة أفدنة نجت من تحيزات جدتي وميولها غير العادلة بين أبنائها وبناتها . وكان جدي قد باع كل الأرض لجدتي (بيع وشرا)

قبل حجة الوداع . وبينما كان الإخوة الآخرون أو بعضهم على الأقل يعارض في توريث أبناء الذين ماتوا من إخوتهم ، وكان أخوهم (عبد الكريم) قد توفى قبل وفاة أمهم . تمسك أبي بشدة بضرورة حصول أولاده على نصيب والدهم ، وقاوم استصدار الآخرين لفتاوى ترفض ذلك شرعًا ..

وكان موقف أبي هذا من المواقف التي أعظمته فيها – وبسببه زادت محبتي له واعتزازي به . لا لأن (محفوظ) ابن عمي (عبد الكريم) كان صديقي وواحدًا من أفراد شلة العفرتة في البحر وفي أبو خشبة والغيط، ولا لأن (فتنات) بنته كانت جميلة وكثيرًا ما تخيلت جنية البحر على صورتها كلما جهزت نفسي لها كي تخطفني أو كلما حلمت بها تطير بي إلى مدينة النحاس . ومازلت حتى الآن أحفظ موَّالاً لا أعرف قائله يقول :

عجبي على بنت بيضا واسمها فتنات ..

كانت الأفدنة الثلاثة أقل من أنصبة الإخوة الآخرين .

و لم أعلم لماذا ؟ لكن يبدو أنهم وضعوا في الحساب (تعليم) أبي ودخله . ومصاريف تعليمه دونهم في الاعتبار ، لكن أبي لم يشك من ذلك أبدًا بل واستنكر أن يذكره أحد به .

توزعت الأفدنة الثلاثة على عدة أماكن متفرقة متباعدة وانقسمت إلى قطع في أحواض مختلفة لأن أبي تمسك بشدة أن تكون القطعة الأساسية (أرض السباخ) – وهي (فدان إلا ربع) – التي بجوارها الدوار والساقية ، والمحاطة بالنخل الذي زرعه جدي وشتل بعضه أبي ، أن تكون ضمن نصيبه ، مما أثار معارضة شديدة لأن الكل كان طامعًا فيها – واللي يلعب الدحة ما يقولش أحه – ولذا توزع نصيبه ، كانت منه قطعة في الشمال.

ضمن حوض يسمى (أرض الطير) بالقرب من البحر الصغير .. وأخرى في الجنوب البعيد، قبلي السكة الزراعية والسكة الحديد فيما يعرف بحوض (الخُمس) .

كنت أكثر الناس فرحًا لهذا الذي جرى . إذ توزعت مساحات أنشطتي وملاعب طفولتي.. وتعددت الحجج التي أسوقها لتواجدي خارج البيت بين أركان الأرض وجهاتها الأربعة ... ما بين البيت شرقًا و(أرض السباخ) غربًا و(أرض الطير) شمالاً وجنوبًا غيط (الخمس) .

كانت (أرض الطير) تعطيني فرصة للصياعة في حقول (الشهايبة) المجاورة والاستحمام في البحر الصغير مع أولاد وبنات عمي (عبد الحليم) وأولاد عمي (محمد) وعمتي (فرحة) . وكانت أرض (السباخ) تسهل لي مغامرات السطو على الأشجار الكثيفة من الجوافة والتوت والجميز والبلح، والبلبطة مع عصابتي في البحر القديم للعوم أو لصيد السمك ، والسطو على بستان (الزنفورة) وعنبة (أبو مجاهد) ومطاردة (المسحور) الساكن في أعماق (الطنبوشة) .. وكانت أرض (الخمس) تعيد الروابط المقطوعة مع أولاد وبنات عمي (عوض) وعمتي (فريدة) وتقدم سببًا للالتحاق بأصحابي من أبناء (عويضة شهاب) حيث يقوم دواره الشهير على أول طريق (الخمس) الممتد إلى الجنوب ، مخترقًا عالم الغموض إلى أرض مجهولة خالية من البشر لبعدها عن العمران. وكان الطريق إليها أحد طرق أهل بلدنا إلى (بلاد الشرق) التي ظل معناها غامضًا علي حتى كان وباء الكوليرا فقطع الطريق على العابرين ، لأن عبره انتقلت العدوى التي حملها بلح وتمر بلاد الشرقية و(القرين). حيث كانت معسكرات الإنجليز – الذين قيل إنهم دسوه للمصرين انتقامًا بعد الحرب .

وهكذا أصبح عالم مغامراتي الصغيرة الهائلة ، ممتدًا على مساحة يمتد براحها – كما أوحت لي حصص وكتب الجغرافيا عبر حدود – قارات العالم – التي يقع غيط (السباخ) منها موقع القلب بالضبط ، مثلما تتوسط مصر خارطة أحلامي التي بدت لي تتسع وتتخطى خطوط الطول والعرض .. وتمتد إلى حيث بدأت تأسرني مدن أتعرف عليها مثل (تانيس وبغداد والهند) . وتخلب روحي جبال (الأوليمب) و(الواق الواق) والتلول ، وفي القلب من هذا العالم كان البيت الذي أصبح منذ ذلك التاريخ مملكة أبي ومملكتنا، تبدأ وتنتهي إليه الأيام ، والأحداث تولد وتحتضر فيه لحين تتحقق أو تجهض الأحلام . والأوهام أيضًا ..

بعد الأربعين مباشرة شمَّر أبي عن ساعديه ليعيد تشكيل بيت الجد الذي صار بيته . انهمك في تجديده وصياغته حسب الحاجات التي كانت تتغير بإيقاع متسارع مع تغير ظروف الحياة ومطالب المعيشة ..

كان بيت جدي من أقدم البيوت في الشارع الذي عرف في (ميت سلسيل) من زمن قديم باسم حارة (الصيّاغ) لأن بها عدة بيوت يسكنها أحفاد صائغ قديم صارت مهنته علمًا عليه فتسمى بها أولاده تمييزًا لهم عن أولاد الفلاحين في الحارة والبلد. وكان معظمهم يشتغل ببيع الذهب وبالرهونات والسمسرة .

أكد لي عم (عويضة شهاب) الفلاح ، في كراهية شديدة، أن جدهم كان (ربويًّا) أراريًّا لأنه كان (يهوديًّا) هاجر إلينا من حيث لا نعرف وأعلن إسلامه (وقبض ثمن تغيير دينه) لكنه لم يعمل بالزراعة أبدًا .. وحين بارت تجارة الذهب وانقطعت صلاته وصلات أولاده بموطنه السابق انفرط عقدهم، وتفرقوا بين أنشطة مختلفة من التجارة في الحبوب وبعض الأعمال

الربوية. وغادر بعضهم الحارة وتزوجوا . وبعضهم رحل وعاد إلى حيث جاء أبوهم ، حتى نسى الناس أصولهم وصاروا يغضبون ويتشاجرون لو ذكرهم أحد بأصولهم سبًا أو عايرهم بها ..

وفي مواجهة بيتنا كان أخوان شقيقان من تلك العائلة ، أحدهما اقترب من الزراعة فاشتغل سائقًا عند أغنى مالك في القرية وامتلك هو وأختاه مشتلاً للزهور وتربية شتلات الأشجار المثمرة على الجانب المقابل لجنينة (علي أبو حسن) منافس سيده اللدود على شاطئ البحر القديم تظله أربع شجرات توت وجميز معمرات ، تشكل ركنًا ساحرًا من الخضرة الكثيفة على طريق يمتد من البحر الصغير إلى جوار ساقية (الأمير) حيث كان يحلو لنا شبابًا أن نقضي ظهيرة أيام الصيف في ظلها الرطب الساحر حيث تشتبك رياح الشمال الصيفية القادمة بعرض الأفق مع البحر وتلاعب أشجار الكافور والنخيل والغاب الرومي التي تصنع من الشاطئ المقابل سياجًا يمتد بطول (الجنينة) مهيئًا لأشجارها المثمرة طقسًا رائعًا يجعلها من أخصب أراضي (ميت سلسيل) ، غنية بما تنتجه من فواكه وخضروات تذكرني بقصة (الجنتين) المذكورة في القرآن ، وأهَّلتها لتعطي لصاحبها الشيخ (علي أبو حسن) مكانة متميزة بين أهل الناحية – الذين أطلقوا على هذه القطعة المسروقة من الجنة اسم (الساحل) وأحاطوها بالكثير من الخرافات والأساطير وحكايات الحيوان وعرائس الماء.. والعشق أيضًا .

في الحارة كان هناك عدة بيوت لعائلات من (الصياغ) ولم يكن يفصلها عن بيت جدي سوى بيت (حسنة أم عبد الله) – الذي لا يزيد عرضه عن بضعة خطوات ، أقربها كان بيتًا عجيبًا ضيقًا كثير الأخشاب يرتفع وحده عاليًا نحيفًا يفصله عما يجاوره جدار أصم من الطوب لا تزيد

واجهته عن خمسة أمتار ، ثلاثة منها تشكل غرفة ذات شباك واحد نصفه الأعلى من ضلفتن زجاجهما مكسور على الدوام ، والأسفل المنفصل من ضلفتين خشبيتين يؤطرهما إطار حديدي يشبه شبابيك السجون . كان باب البيت المصمت يفتح على صالة ضيقة ممتدة طويلاً إلى العمق تنتهي بسلم خشبي شبه قائم يرتفع لثلاثة أدوار ، وينحني ملتصقًا بنفسه ليسمح للمساحة المجاورة أن تكون غرفة بجوارها طرقة نحيفة تنتهي بكنيف . وكانت الأدوار الثلاثة منكمشة على نفسها كمزنوق جاهد طويلاً كي يقف منتصبًا ليعلو البيوت المجاورة ، شاقًّا بصدره طريقًا إلى السماء ومانحًا قفاه لنسيم الشمال ورياحه تصفعه في همة ونشاط دائم، مستمتعًا بانفساح الأفق خلفه حتى آخر الدنيا مجددًا الهواء في البيت المخنوق ومحولاً إياه إلى جنة في الصيف وثلاجة في الشتاء.

كان بيت جدي يحاول منافسة ذلك البيت المزنوق في الارتفاع، على الأقل ، في رأيي ، رغم أنه بنى على راحته فكانت وجهته الممتدة إلى أكثر من اثنى عشر مترًا أو يزيد ترتفع جدارًا سميكًا من الطوب الأحمر و(القصرمل) يبرز فيه بابه الضخم المشغول التاج والشراعتين بالحديد الأسود، وإلى جواره الشباكان الطويلان . يوحي برسوخ خاص لم يدم طويلاً أمام همة والدي ورغبته الدائمة في التحديث !

كان قد أقام السلم (الخاص) في حجرة الدجاج المكشوفة على غير رضا أمه. فعزل نصف الدار الداخلي الذي كانت تسكنه عن مدخل البيت. وكان قبل موتها قد استكمل بناء الدور لثاني فبلط السطح أمام المقعدين . وأحاطه بسور من الطوب الأحمر والجبس . وكان بدعة في حينها .. ثم عاد وأضاف إلى المقعدين القبليين المطلين على الحارة –

وكانت بينهما تراسينة من زجاج وخشب – غرفتين بحريتين ببلكونة (شكمة) أخرى بعرض الصالة التي توسطها باب من أربع ضلف زجاجية بمفصلات جاهزة حين يفتح في الصيف تصبح الشقة مصيفًا يرد الروح ..

وبعد أن اكتمل الدور الثاني مدّ السلم نصف الخشبي صاعدًا إلى السطح الجديد، ثم أعيدت صياغته ليصبح كله سلمًا حجريًا من درجات مؤطرة بالخشب ومبلطة بالبلاط الملون. وتحول الكشك البوص ، الذي كان في الماضي مخزنًا لخزين الست (أم سمير) ومكانًا لأزيار تنقية الماء ومنامًا لمبيت الخادمة السمراء (التي جاء بها لتخدم الست وليغيظ من احتجوا على زواجه منها) ، صار مطبخًا واسعًا يشرح القلب بنافذة بحرية . جرى بياضه كاملاً بالجير من الداخل والخارج ، لكن بعضهم همس في أذنيه مشككًا في قدرة الجدران التي بنى بها البيت القديم على التحمل ، صحيح انها متينة ومبنية بذمة أهل زمان ، لكن الحياة الجديدة واستعمال الماء بإسراف كما تعودت (الست) ، ومد مجاري من الحمام في الدور الثاني إلى أسفل، سوف يشكل خطرًا على الجدران الخلفية التي بنيت بها قاعة (الأسرار) والفرن والحاصل – كلها بالطوب اللبن أو على الأقل بالطين المعرض للتآكل.

شمَّر أبي عن ساعديه وقرر إعادة تدعيم جدران الدور الأول لتتحمل حداثة الدور الثاني ، وقد كان ، وحسب أوامره للعمال ، الذين كانوا يعملون حسب إرشادته وتحت إشرافه ، تم تكحيل كل الجدران من الأرض للسقف بعد كشف كل الأحجار. ورغم رأي بعض البنائين بأن (القصرمل) والطين سيطردان الأسمنت. إلا أنه أشرف على ملأ المسافات التي عمقت لأقصى درجة بين الطوب وبعضه – بالأسمنت ثم أعاد تمحير كل الجدران من الداخل والخارج (بمعلمة)، ثم أعاد تبييضها بالجير الملون .

ولكم حزنت عندما اختفى الباب الضخم ذو التاج الحديدي . والذي كنا نزينه في شم النسيم بأغصان الصفصاف الخضراء وجريد النخل والريحان ، واستبدل بالشباكين العملاقين شباكين أقل حجمًا ، وبلطت الأرض كلها – صارت المساحة على يمين الداخل مندرة واسعة تصلح لاستقبال الضيوف وصار بها كنب بلدي بدلاً من المصاطب وامتدت الصالة أمامها، واسعة برحة مضيئة على عكس ما كانت أيام الجدة، يدعم سقفها قطوعان يقسمانها قبيل الكنيف، ويحجبان داخل الدار عن أعين الداخل ، لتنتهي بباب من ضلفتين حديثتين ، يفتح على الحوش الذي كان نصف مكشوف ، بعد أن أزيلت العريشة التي كانت تغطية ليتدفق النور والهواء البحري حرًّا إلى عمق البيت .

وبعد إزالة السلم الخشبي ، أصبح أمام حجرة الفرن حوش كاف لتربية الدجاج والأرانب.. وصار للحاصل شباك بحري وأصبح بعد تجديده غرفة ، بينما صار الكنيف (الكرسي) محلاً للأدب أو (حمام) . كما كانت (الست) تحب أن تطلق عليه ، واختفت إلى الأبد (جنية) الكنيف المرعبة التي كان لا يحلو لها الظهور إلا عندما تسمع وقع أقدامي على السلم الخشبي وأنا نازل لألحق بالقطار إلى المدرسة حاملاً حقيبتي الخشبية الثقيلة والتي كنت عندما أراها أغمض عيني وأنا أتقدم في الظلام أتمتم بآية (الكرسي) و(قل هو الله أحد) كما علمتني خالتي ، فأشلها وأجبرها على العودة إلى ظلام (الكنيف) بينما أفتح الباب مغمض العينين و(أفلسع) نحو المحطة دون أن أتبين ما أمامي .

وبعد اختفائها إلى الأبد أصبح البيت صالحًا لاستقبال غيري وغير أختي آمال .

رفع الإيريال القديم إلى سطح الدور الثاني فصار استقبال الراديو

أصفى وأوضح.. وسوّر السطح كله بالطوب الأحمر والجبس. وصارت هناك إمكانية لصنع أكشاك صغيرة لتربية الكتاكيت وللتمتع بشمس الشتاء حين تشرق.. وبلياليي الصيف تحت نجوم صافية بعيدًا عن أعين المتطفلين من فوق سطح بيت (الصياغ) وبيت (أبو سيد) القريبين.

اكتمل البيت .. صار الدور الأول مكانًا يتيح الفرصة لاستقبال الضيوف، وأصدقائي دون جرح ستر البيت .. بل صار على غير ما كنا نتوقع أكثر إغراء لأمي وأبي لقضاء أيام وليالي الشتاء فيه، لمن يطلب دفئًا توفره الجدران السميكة، المبنية على الطريقة القديمة.

وأعادت هذه التجديدات نزناز الكلام والإشاعات أو هكذا خيل إليَّ . فبالرغم من أن أولاد عمتي (فريدة) وبنتها البكرية بالذات اشتروا عدة فدادين ، وأعادوا بناء بيتها وبيوتهم وظهرت عليهم دلائل اليسر بشكل فاضح – إلا أن الولد (فاروق النملة) لم يكف عن إغاظتي أنا ومعايرتي ضاحكًا...

– أهه! أنا جبت حاجة من عندي ؟ أهي .. (الشخاليل) .. ظهرت يا عم .

ويبدو أنني كنت قد أصبحت مع الأيام أكثر عقلاً مما كنت. أصبحت ناضجًا بعض الشيء لأتبين بعض الأمور التي تفرق بين مقتضيات الواقع وتخاريف الأوهام التي تفسح مجالاً للحسد وللقر . جعلتني أعتقد أن أشياء غير حقيقية لا تحدث تطمس معالم أشياء حقيقية حدثت وتجعلها أقل أهمية .

كان البيت قبل هذه التغيرات وبعدها قد استقبل أخي (سامي) الذي سقط من الدور الثالث في بيت خالي بالمنصورة وودعنا بعده أختي (صفاء) التي اختطفها الموت فجأة بحمى لم تمهلها . لقد عمَّدته الأيام بما يكفي من أحزان .

• • •

ما كان حديثًا يُفترى

○ استيقظت من نومي المتقطع القلق مكتئبًا فزعًا .. لم أستطع تبيُّن موقع قدمي. كادت خطوتي الأولى تسقط جسدي غير المتزن ، في هوة سحيقة بلا قرار ، لولا أن تعلقت بأكرة الباب ذي الضلفة الواحدة، التي نصفها الأعلى من الزجاج المصنفر الرمادي، والمعلق على مدخل البلكونة الضيقة ، فافتقدت براح بيتنا الخمسيني ! حيث كان الحائط النصفي في نفس المكان يشكل بالعرض ظهرًا آمنًا للكنبة البلدي ذات المساند والحشايا الثرية – المجلس المفضل للست (علية) تدير من عليها شئون البيت – تمتد أمام ناظرها الصالة العميقة الممتدة حتى البلكونة القبلية ..

تمرح النسمة الصيفية بحرية تكون معها الشقة

(مملكة) خاصة إذا ما فتح باب الوسط المكون من أربع ضلف زجاجية، ممتدة حتى السقف، والذي يصبح متراسًا ثانيًا إذا ما أغلق في وجه رياح الشتاء وبرد طوبة ، بينما لا يمنع زجاج التراسينة الملون الإطار رؤية انهمار المطر فوق سطوح لبيوت القش التي لا تحجب عن الرؤية قمم أشجار الكافور على شاطئ البحر القديم..

قبل أن يرتفع بينهم بيت (النبراوي) وبيت (عبد الحليم أبو عوض) العالي اللذان يقطعان استرسال النظر إلى المدى البعيد...بعد أن تقزم البيت فى شكله الجديد إلى دورين فقط !!

كان الرمادي ثقيلاً ممتدًا حتى أنفي ، حاملاً رائحة تراب التلول المالح الذي لم يعد يلوح لعيني، ثمة ظلال أكثر كثافة تحيط بي ، وترسم ما يشبه بقايا قرية مصرية تحاول الخروج من أسر الطوب اللبن والسقوف المحملة بالقش الرطب وجدران الخزاين البوص المطلية بالطين المدهوك والحظائر القديمة الحميمة حيث يتشارك فيها البشر والماشية والدواجن .

قرية تحاول الإنفلات إلى عالم البناء بالطوب الأحمر والأسمنت والبيوت العالية والمجاري الطافحة وأكوام الزبالة الحديثة المفعمة بزناخة رائحة البلاستيك المحروق ..

حولي كانت مساحات مربعة ومستديرة وكتل ضخمة حادة الخطوط غامضة تتجسد صادمة صامتة تتناثر في تحد لتشكل إطارًا ثقيلاً من سواد ، خلالها وبينها تلوح بقع مضيئة ترسل مجهدة أشعة صفراء باهتة من مصابيح جاز أو فتائل سواريخ مرتعشة تحدد بصعوبة حدود أكوام القش والحطب فوق الأسطح وحول الجدران .

ثمة همهمات دينية غامضة غطت على صيحات الديوك الأخيرة

تختلط في المدى الكالح بصوت مياه مندفعة من صنابير مجهولة على أرض صلبة، وبأصوات استنشاق ومضمضة وتكبيرات وتعويذات متبتلة تمتزج بآهات لذة غامضة تشد أذني إلى أكثر المناطق سوادًا .

أحسست بحيرة من لا يستطيع التأكد أن الأمر اختلف إلى هذه الدرجة وكأن الخمس سنوات التي غبتها في السجن كانت أربعين تحاول محو تفاصيل كثيرة متداخلة غائمة تتضح قليلاً حين تشق الصدر رائحة دخان قمائن الطوب المحروق . تلتهب باحتراق أعواد القطن الجافة المحملة بعذارى دودة القطن وعرق البنات والأولاد ودماء أصابعهم التي نهشتها إبر (الأوشبر) الحادة الثلاثية الأطراف للوز القطن الجاف .

الصدفة دفعتني لحضور مؤتمر للديكة المتعبة . استمعت بإمعان فيه لخطاب تاريخي لجحش متوتر يتعجل أن يصبح حمارًا ..

واقتحمت أذني مظاهرة فجائية لفيلق من بط بلدي وأوز ثرثار، استيقظ قرفانًا من النوم عندما دهست فيه قدما امرأة خرجت لتوها متحررة من جسد زوجها المرهق ، فانطلق السرب ساخطًا يبحث عن الذباب الذي لم يبدأ نهاره بعد ..

اتضحت ملامح الأسود الباهت على شمالي ، فتبينت شبح امرأة نصف عارية متعجلة تدلق طشطًا من الماء ذي الرائحة النفاذة لصابون رخيص ، بين قدميَّ مباشرة فتصاعد منه نشيش الصابون الدافئ على الطين الجاف فلسع حمضه أنفي ..

تراجع الغامق ليكشف وضوح شكل البيوت القديمة القزمية البائسة مقنفدة تحت أقدام أخرى حديثة عالية تبدو أشد بؤسًا رغم الطوب الأحمر والجبس .

انطفأت دوائر ومربعات بؤر النور الباهت ، وانقشع الرمادي الممتزج بزرقة دغميشة السحر عن ظلال أشجار وقمم حزم القش الممتدة حتى الأفق تتخللها بقايا من أسوار البوص المدهوك بالطين كدمن لزمن قديم ..

استندت إلى سور الشرفة الضيقة المطلية بالجير والملح الملون والتي حلت محل التراسينة القديمة في بيتنا الخمسيني التي كانت تطل على الخلفية البحرية لبيتنا ، فهالني مدى ما صنع أبي وما جرى به الزمان على بيتنا خلال تلك السنوات الخمس التي غبتها في السجن لأعود بعدها لبيت جديد دفنت فيه مع القديم كل الذكريات التي غمرت في السجن قلبي وعقلي تقاوم النسيان والموت. البيت الجديد لم يأتنى فى الحلم بعد ذلك أبدا وظلت أحلامى تدور حول البيت القديم ، دهاليزه واركانه وروائحه وعفاريته وجنياته .

اختفى السلم العجيب الذي كان يمتد ليفتح على باب ضيق في أقصى الجنوب الشرقي صاعدًا للدور الثاني . وكان ينزل بزاوية قائمة عدة درجات إلى داخل وسط البيت . إلى تلك الغرفة في وسط الدور الأول والتي عثر عليّ فيها ذات مرة نائمًا صباح ليلة اقتحمت فيها غرفة ستي (أم العز) بحثًا عن سر (الخرستانة) و(قرن الحنتيت) والتي كانت فيه العفاريت تتجسد لي في صورة أرانب بيضاء وسوداء ورمادية وأنا في طريقي إلى مدرسة (الجمالية) زمان . بينما كان أمام الدور الثاني يمتد في بسطة تسلمه إلى الصعود إلى الدور الثالث وقد اختلف شكله وضاق عرض درجاته مثلما يضيق الدور الثالث نفسه ليصبح نصف دور من غرفتين بحريتين ودورة مياه .. وسطح يشغل نصف البيت الجنوبي .. يحيط به سور عال

ترتفع على زاويتيه ساريتان يمتد بينهما سلك الإريال النموذجي للراديو حسب مواصفات (محطة الشرق الأدنى) والتي حَلّت محلها محطة (راديو لندن) فيما بعد .

اختفت (المندرة) التي كانت تشكل واجهة البيت بشباكيها العاليين الذين يجاورهما الباب التاريخي المنحوت الراسخ ذي التاج الحديدي الذي يصنع حديدة نصف شمس تشكل مروحة أسطورية من نجوم وأقواس وعصافير وتهاويل ودوائر تمكننا أن نزرعه بأغصان الصفصاف وجريد النخل الأخضر ، وأحيانًا بزهور عباد شمس احتفالاً بقدوم شم النسيم . وكان بتركيبه وعلوه الفذ والفني يساعدنا على حمايته من غارات أطفال الحواري الأخرى ، حيث يشتد الصراع من (أربعاء أيوب) حتى (سبت النور) بين الحواري على إشعال النيران أمام أبواب البيوت . بعد تزيين قممها بالخضرة لتدور معارك صبيانية لحماية ما يخصنا والإغارة على ما يخص الحواري الأخرى ، في تنافس لا يولد حقدًا ولكن يصنع بهجة إذا انتصرنا وبعزقنا نيرانهم وأسقطنا زينة أبوابهم ، ويخلف حسرة إن نجحوا في بعزقة وإطفاء نيراننا وزينتنا .

وكانت النيران الأجمل والأكثر جدارة بالحماية ، تلك التي يطقطق لهبها في فرقعات يصنعها بشدة الملح الخشن الذي نرشها به أو الذي يصنعه احتراق أعواد القمح والشعير الحية الجافة .

فإذا ما أتي (سبت النور) وفات ، كفت حرب النيران المرحة هذه التي يتفاخر ويتباهى من ظلت نيرانهم مشتعلة إلى النهاية أو من بقيت بساتين خضرتهم حية فوق هامات أبوابهم .. تدور فرق من المنتصرين والمغلوبين معًا لتفقد نتائج الحرب المرحة والتعليق الساخر . والكل يحضر البصل الأخضر لصباح (شم النسيم) سنلقي به مبكرًا إلى البحر (الترعة أو

البحر الصغير) ونحن نغطس معه ليزيح الماء البكر خمول عام مضى عن أجسادنا.. كما أحرقت النيران السابقة البراغيت في بيوتنا لعام قادم ..

لم يعد ذلك الباب الجميل موجودًا .. وترقرقت في عيني دموع حقيقية عندما سألتني ساخرًا عن إصرار أبي الدائم على إعادة صياغته :

– إيه الل عمله أبوك في بيتكم يا وله وانت غايب !

لم يكن اختفاء الباب العالي الجميل وحده الذي حز في نفسي ولكن (المندرة) ذات نفسها اختفت ، وهي التي شهدت أيامًا لها تاريخ منذ كان عمري أربع سنوات وأقل ..

فكم وقفت قصيرًا على أرض الشباك الشرقي .. أناول أهل البلد كوبونات الجاز وإيصالات استلام الزيت والسكر ، التي كان أبي يحررها ويناولها لي لأسلمها بالاسم لمستحقيها من أعضاء الجمعية الزراعية التي كانت أيضًا توزع التموين حسب مقتضيات الحرب .. كنت صغيرًا لدرجة أنه كان يثير عجب الفلاحين والفلاحات ، أنني – الذي لا تصل هامتي إلى نصف الشباك العلوي المفتوح – أناول كل واحد ما له دون أن أخطئ..

تصل إليَّ همهمات ودعوات العجائز الأميات والنساء المتعبات والرجال الذين لا يقرأون وتعليقاتهم .

– محفض ، ربنا يحميه .. بيعرف يقرا ..

– ربنا يخليه لابوه .. شوفي يا اختي عارف كوبون الجاز من وصل الزيت .

كان كثيرون منهم يستبدلون كوبونات المواد التموينية بالمقابل المادي.. ولم أكن أعرف أن هذا مخالف للقانون .. إلا بعد أن خرج

أبي من الجمعية . فشن حربًا على هذا التصرف وعلى إقراره من مجلس الإدارة. وعجبت لفضح وتشنيع والدي على من بقوا في المجلس بعد طرد الوفديين منه .

حاولت أن أسأل أبي عن سر سكوته على ذلك وهو في المجلس .. ولكنه نهرني مؤكدًا أنني لن أفهم – ولم أفهم !!

ولكن ظل (للمندرة) نفوذها كمركز جذب واهتمام أهل البلد عندما اشترى أبي (ثاني أو ثالث) راديو يشتغل بالبطارية السائلة في (ميت سلسيل) .. كنت أعرف أن العمدة يملك واحدًا وكان الآخر في بيت (أحمد بيه القصبي) لأن سائقه الذي يسكن في البيت المواجه لبيتنا علق عندما رأى الراديو معروضًا في الشباك .. قائلاً :

– لا .. راديو البيه قد ده مرتين ..

ولكن هذ لم ينل من فخري أن في بيتنا راديو .. خاصة عندما كنت أعود في الساعة الرابعة من ماكينة الطحين محتضنًا البطارية على حمار (فتحي القشلان) جارنا الذي يسكن في أول الشارع وقد حصنت نفسي من ماء النار ومن حرارة البطارية – التي تكون قد ظلت تشحن منذ الصباح أو منذ تدور الماكينة – بشوال من الجوت القديم .. حتى ابتدع أبي عربة خاصة لحملها على عجل . سافرنا خصيصًا للمنصورة ليحضره من النوع الذي يدور (برولمان البلي) من مخازن الخردة التي بهرني تنوع الأشياء الموجودة بها . وكان شارع (داير البندر) يزخر بالعشرات التي تمتلئ بمئات بل آلاف الأشياء المستعملة القادرة على مواصلة الخدمة .

تبدأ الإذاعة المصرية في الخامسة مساء ، وأتولى أنا تجهيز الراديو

للإرسال من الشباك الشرقي لأنه الأقرب إلى نصف شارعنا حيث يسكن (فتحي) الذي يسهم في شحن البطارية بحماره يوميًّا ، كما أن الشباك يواجه تقريبًا مستعمرة (دار جبر) أكثر مناطق شارعنا ازدحامًا بالسكان وبالأطفال ، الذين يتزاحمون على مصطبتهم في شغف لسماع (بابا شارو) وإشارته اللذيذة .. وإلى أغنيات (صفصف نونو قد القطة ماشي يتدقلج زي البطة) أو (عيد ميلاد أبو فصادة ، وعوف الأصيل ، وعلي بابا والأربعين حرامي) .. و(حتة جبنة قديمة تبقى الأكلة عظيمة) و(حبة فول حراتي تبقى الأكلة ذواتي !!) .

هذا غير (عبد الوهاب وأم كلثوم) .. و(طلب وشهرزاد وشافية أحمد والشيخ رفعت والفشني) .. ياااه عالم من الخيال خطفتني دوائره لتتقاطع مع عالم خالتي (السيدة أم يوسف) وعوالم كتاب مدرس الرسم العبقري عن تلك الآلهة التي تطلق الصواعق وتغوص في البحار.. وألف ليلة وليلة ..

وكنت أنا ، وقد صار من مهماتي الأساسية صيانة البطارية والتحكم في مواعيد الإرسال ، أشعر وأنا في موقعي المتميز في الشباك الشرقي بجوار ذلك الباب العالي الجميل كأنني من يصنع كل هذه الأحداث والأحاديث ، وأعطاني هذا هالة من التميز والجذب بالضبط مثلما عدت ذات يوم من المنصورة ومعي أول (كرة كفر) تلمس أرض شارعنا .. تتزاحم أقدام كل أولاد شارعنا وتوابعه على ضربها في حرفنة وغشومية !

ثم انتشرت الراديوهات وخاصة في المقاهي وفي بيوت كثيرة ولم تعد كثيرات من صديقات أمي يسهرن في بيتنا لسماع الجديد . صارت الإذاعة بعد (يا مجاهد في سبيل الله).. مشاعًا في معظم البيوت أو الدكاكين ..

كانت عملية انتزاع الجزء الذي شغلته درجات السلم (المبتكر) لفتح مدخل مستقل للدور الثاني من المندرة عملية هندسية صعبة .

– هو فيه حاجة هندسية تصعب على أبوك .. وهيّ دي أول مرة يعملها .. مش هو اللي بنى الدور الأول بعد بناء الثاني . والاَّ خياله .؟

كان خيال أبي في أمور البيت حاضرًا نشطًا .. عدل وغير فيه منذ كان بيتًا عاديًا جدرانه من الطوب النَّيّ – جدرانه سميكة يتكون من نفس تلك (المندرة) ذات الشباكين وأمامها الحوش الممتد حتى الحائط البحري لغرفة الفرن وغرفة الدواجن والأرانب . وبين الاثنين ذلك الكنيف المخيف الذي كانت ستي لا تدخله إلا بعد قراءة آية الكرسي لطرد عفاريته ، وحجرة الخزين التي كانت منامة جدي قبل أن يذهب للحج ولا يعود .. وفي مواجهتها الحجرة الغامضة التي ظلت مستقرًا لجدتي (الساحرة) التي حولت المرأة المدَّاحة إلى بقرة والتي دفعني فضولي إلى التسلل في نص الليل ذات مرة لأكتشف سر (الخورستانة) وكنز الشمردل .. وقرن الحنتيت !!

وعندما تزوج أبي بنى لنفسه شقة كاملة بالطوب الأحمر والجبس مكونة في البداية من حجرتين وصالة ، ولها تلك البلكونة البحرية لتستقبل بنت المعلم (يوسف النجار) أقصد يوسف الخميسي البندرية ، وهيأ لها مع السطوح الممتد أمام الشقة سكنًا يليق بها ويحقق شروط أبيها للرضا به كابن فلاحين رغم تعليمه وأفنديته !

وما أن ولد له الطفل الأول بعد البنت البكرية حتى شمر عن ساعديه . وكم كان يعشق أن يعمل بيديه قبل مخه حتى مع من يستجلبهم للبناء من المتخصصين واستطاع أن يدحض حججهم ويقنعهم بإعادة صياغة الدور الأول (البيت القديم) بتكيحل جدرانه إلى أبعد مدى بالأسمنت وتمحيره

من الداخل والخارج ليتحمل البناء فوقه وليمكنه من استقبال نظم المياه الحديثة .. حتى أنه أعاد صياغة الكنيف المرعب (الكرسي) .. وصارت المندرة كالعروسة بعد أن دُهنت محارتها بالزيت . وكان هذا جديدًا على (ميت سلسيل) .. وزين السقف بوردة ضخمة من الجبس المصبوب تتدلى من وسطه تمامًا – وسط المندرة – تلك اللمبة ذات الشريط الأسطواني والزجاجة الطويلة ذات الكرش .. التي تهبط بسلسلة حديدية دقيقة لتعمر بالجاز وتُغسل زجاجتها ثم ترفع مرة أخرى مضيئة مبهرة تجعل من ليل المندرة نهارًا ساطعًا يستقبل (بابا عبد الباقي) فيها أصدقاءه من المدرسين والموظفين والأعيان في مكان لائق لا يوجد مثله إلا في قليل من بيوت القرية كلها ..

وبعد وفاة جدتي الساحرة صاحبة الخورستانة وقرن الحنتيت واستكمال صياغة الدور الأول كله بنفس الطرق الهندسية التلقائية والمعقدة التي دعم خلالها السقف الشاسع بدعائم من الخشب الفلاري (كان يطلق على بعضها (ضرط) لأنه سميك وغليظ ونادر!) .

و لم يكف أبي عن التغيير والتعديل في البيت . كانت الأفكار تفاجئه فيعيد التعديل والتغيير . ولما انتزع جزء من المندرة ليخلي مساحة للسلم النازل إلى المدخل الشرقي الخاص بالأدوار العليا ببناء جدار قال أنه سيساهم في تحمل ما سيجد فوقه من حمول . لم تعد تلك اللمبة القمرية تتوسط المندرة ، بل أزيحت إلى الطرف الشرقي ولكن أحدًا لم يلحظ ذلك و لم يؤثر هذا على مركزها كأهم مكان في البيت الذي صار إلى أدوار ثلاثة مع الأيام .

• • •

ولا تتبع أهواءهم . .

○ نصحني (إرنست همنجواي) وهو كاتب كبير جدا ممن تعرفت على كتاباتهم فى صباى المبكر ،أن أتوقف عن التفكير فيما أكتب .. حتى لا أفقد حميمية الشيء الذي أكتب عنه .. قال إن لم تفعل فحتمًا لن تستطيع الاستمرار أو استئناف الكتابة في اليوم التالي .. ولكني لم أتعلم ذلك منه أبدًا .. رغم تحذيره لي ألا أفكر فيما أكتب عنه ، ابتداء من اللحظة التي أتوقف فيها عن الكتابة إلى وقت استئنافها في اليوم التالي .. مؤكدًا أن هذه هي الطريقة الوحيدة لإتاحة الفرصة لكي يشتغل عليه شعوري الداخلي .. بينما أستطيع أنا أن أستأنف حياتي وأستمتع في حرية بالحياة حولي .. وأراقب الناس والدنيا وأعود عندئذ لما توقفت

عنده وأستأنف الكتابة .. هكذا ببساطة ؟. ويبدو أن عدم قدرتي على الالتزام بنصيحة (همنجواي) تلك وراء ما يصيبني من عجز وإحباط كلما عدت لاستئناف الكتابة .. فأنا لم أتوقف عن الحديث أو التفكير فيما كتبت أبدًا .. أعيد قراءته ومراجعته وأقترح سبلاً للتقدم به إلى الأمام ونقد الطريقة التي سارت بها طريقتي في سرد الأحداث .. كنت أحاول جاهدًا ألا أفكر فيما كتبت أو فيما كتبت عنه وألاّ أذكره إلاحين أستأنف الكتابة، دون جدوى .. فكنت ألجأ للقراءة أو للاندماج في تفاصيل حياتي المملة كرجل صار فوق السبعين ويعيش وحده .. فأقوم بغسل المواعين المتراكمة في المطبخ أو أجمع غسيلاً لم يحن وقت غسله وأحشره في الغسالة .. أو ألتهم شيئًا حتى ولو كان من المحرمات .. ولكن هذا لم يمكنني أبدًا من استئناف الكتابة بسهولة عند النقطة التي توقفت عندها ..

(همنجواي) يفعلها كما يقول ببساطة .. وكان هذا يزيد إحباطي ويؤكد لي أنني لست بكاتب أصلاً .. خاصة وأنني أحاول أن أفعل (غالبًا) مثله .. حيث يؤكد أنه تعلم ألا ينزح البئر – بئر كتابته لآخره .. وألا يتركه قاعًا صفصفًا .. بل كان يتوقف دائمًا وفي قعر البئر شيء ما يدعوه لاستكماله .. فعلاً كما أحاول أن أفعل . فلم يحدث أبدًا أن كتبت في موضوع أو حادث .. أو فكرة واستنزفتها لآخر قطرة – يؤكد (همنجواي) لي (أن هذا يسمح للبئر أن تمتلئ مرة أخرى من الينابيع التي ترفدها .!)

وهذا بالتأكيد صحيح لأنه لا يمكن لمثلي أن يشكك في قدرات من كان في قامة (همنجواي) .! ولكن لماذا أعجز دائمًا عن الاستمرار في بساطة في شد الخيط حين أعود إليه.. وتشدني ألف مصيبة ومصيبة بعيدًا عن طرفه الواضح الذي تركته .. ولم أكف عن التفكير في حل عقده .

التي أفاجأ أنها تتلبك وتتعقد بمجرد أن يلامس سن القلم وجه الورق ..

كل مرة يحدث هذا ويتكرر بنفس الحدة ..

كل مرة أجدني عاجزًا عن جملة الوصل التي عليها أن تصل ما أنتويه بما انتهيت منه.. فتعاودني فكرة أنني لست أصلاً بكاتب .. وينفسح مجال واسع لفكرة الشك في قيمة ما كتبت وفي أهمية ما أكتب بعد كل ما كتبت .. رغم امتلاء البئر حتى حافتها بألف فكرة وألف خاطرة – وكأنني أبدأ كل مرة من جديد .

ذلك أنني كما حذرني من البداية السيد (إرنست) .. واصلت التفكير فيما أكتب بكل الطرق ومن كافة زوايا الرؤية . وكأنني أعاود اكتشاف الشيء الذي أكتب عنه فأجدني عاجزًا عن الاستمرار حين تحق العودة .. مهما حاولت إقناع قلمي أن هذه الأمور ليست أكثر من وجهات نظر .. وأن لكل شيخ طريقة .. وعليَّ أن أبحث عن طريقتي لإقناع قلمي بالكف عن الخوف من ملامسة الورق واستئناف الكتابة .. وغالبًا ما أفشل رغم امتلاء البئر للحافي..

وأخيرًا .. أقنعت نفسي أو تظاهرت بإقناعها أن هذه سمة من سمات طريقتي الخاصة في الكتابة وعلي ألا أحاول نفيها بل يجب التأكيد عليها والتعامل معها واكتشاف قوانينها .. كميزة تعيدني دائمًا إلى نقطة بداية جديدة .. وأن أبحث لنفسي عن حجج أخرى لتبرير متاعبي مع استئناف الكتابة كل مرة .. مثل تلك الفكرة الطائشة التي تتملكني إلى حد فظيع أنني أهرب من الكتابة ومن إتمام رواياتي لقناعة خفية أو لخوف مقنع أنني سأموت عند الانتهاء منها !

أو تلك الفكرة البلهاء التي تسيطر على نفسي وتشوش تفكيري ..

في جدوى الكتابة أصلاً . وماذا ستضيف إلى ركام ما كتب عن نفس الموضوعات التي تأخذ بخناقي وتطالبني بالاستمرار في تجسيدها .. إن كنت قد فعلت أصلاً .. أو أن ما أفعله ينتمي بأية وشيجة لما كان يفعله (همنجواي) أو لما يفكر فيه وما ينصح به ..

قررت الاعتذار فورًا لصديقي (همنجواي) .. لقد حاولت أن أتبع نصحه وحاولت ألا أفكر فيما كتبت أو فيما سأكتب .. لكنه يطاردني (ما أكتب عنه) باستمرار ليل نهار . مرعوب دائمًا ألا يكون ما كتبت هو بالضبط ما قصدت .. أنا أقلب صفحات ذاكرتي التي صارت كمخطوط قديم تأثرت أوراقه حتى بليت والتصقت وكادت تتهترأ من طول الإهمال ومخالب الزمن .. لا تعطيني نفسها بسهولة .. وأجتهد في تفسير ما يتاح لي من شذرات وعبارات تكون أحيانًا ذات مدلول .. أو تكون ملغزة أو غامضة .. وقد تقتصر على بضع حروف أو نثائر من مزق صور حالت ألوانها .. فكيف لا أفكر طول الوقت في دفعها إلى بؤرة الوضوح .. خاصة مع التزامي ألا أؤلف أحداثًا أو أخمن حوادث .. أو أبتكر أو أبتدع على طريقة المؤلفين .. أنني أكتب عما رأيت وعشت وأطمع أن أصنع مما يتاح لي صورة ما أقرب ما تكون إلى حقيقة ما حدث لي أو ما صنعته بيدي وقلبي ولساني.!

كنت أحاول أن أقنع نفسي أن (همنجواي) لم يضع قواعد على المؤلفين الالتزام بها ، بل هو يقترح ما يراه مناسبًا له ويظنه يناسب الآخرين..

لكنه لا يناسبني . ولذا عفوًا يا صديقي ..

لقد ظللت لثلاثة أيام أحاول الهرب من حكاية المندرة التي لم يعد لها وجود في بيتنا رغم كل ما كان لها من حضور طوال سنوات طفولتي وصباي حتى عودتي من السجن لأجد البيت الذي عشته وألفته صار بيتًا آخر .. أدهشني ضيقه وتقزمه مع أنه بني على نفس مساحة البيت القديم..

وفجأة اكتشفت أو تذكرت أن تلك (المندرة) التي تصدرت على الدوام واجهة بيت جدي القبلية وشغلت معظم مساحة البيت على (حارة الصياغ) .. لم تكن دائمًا مندرة .. أو لم تكن دائمًا تلك المندرة المدهونة بالزيت والتي سمحت مساحتها البرحة أن يقتطع ربعها لتكون السلم ذو المدخل المنفصل للصعود إلى الدور الثاني والثالث دون المرور في صالة الدور الأول حيث منطقة نفوذ ستي (أم العز) .

اكتشفت بعد تفحص صفحة ظهرت فجأة من بين ركام أوراق الذاكرة الصفراء .. أنها لم تكن كذلك في سنوات الحرب وما قبلها .. واستطعت بعد طول تفكير وتذكر ومتابعة فيما كتبته مع الاعتذار لصديقي (همنجواي) .. أن أتذكر أنها لم تكن كما وصفت بل كانت مجرد (حوش) .. بل وكان يطلق عليها نفس الكلمة (الحوش) الذي كان يمتد ليشغل مساحتها ومساحة الدهليز أو الحوش القديم الممتد من الباب الأصلي للبيت حتى مجلس الوسط ، حيث كانت تقبع ستي (أم العز) طول النهار ما بين غرفة (الخرستانة) و(الحضير) الذي يزخر بخيرات البيت والغيط ، كحارس فرعوني قديم .

وكان هذا (الحوش) الذي اقتطعت منه مساحة دكان على يسار الداخل لها باب يشبه أبواب دكاكين السوق يليه ذلك الكنيف المفزع ثم الحضير ويقتطع منه قبل (باب ومجلس الوسط) على اليمين حجرة ظلت مكانًا لخزين أدوات زراعية : أيدي فوس ونورج وكواريك وقفف وأيضًا تستخدم لتربية الأرانب والدواجن طوال ما قبل الحرب حتى حولها أبي إلى بئر للسلم الجديد الذي ابتدعه للصعود إلى الدور الثاني حيث تزوج .. وكان الصعود إلى المقعدين يتم قبلها من عمق (الحوش) بالعبور أمام مجلس (الساحرة) عبر سلم خطر من خشب الشجر . فابتدع أبي هذا السلم الحجر ليجنب زوجته المرور الحرج أمام مجلس أمه التي لا تكف عن التعليق على كل شاردة وواردة .!

• • •

انظروا إلى ثمره

○ كان الحوش فى مواسم الحصاد المختلفه يتحول الى ساحه لعب لأطفال العيلة كلهم سكان البيت وسكان بيوت (الخرابة) التى كانت فى وجود جدى مازالت بيتا واحدا وزريبة واحدة أمام تلال بقايا المقابر المعروفة بخرابه (أبو خشبة) مباشرة حيث يعطيهم الجوار مساحة كافية لربط البهائم بعد العودة من الحقول .. ورعايتها أمام أم أعينهم .....

كان جدى يبيت طبعا فى حجرة (الخورستانة) فى بيت الحارة الذى كانت غرف الدور الاول فيه سداح مداح لأعمامى . ولما فعلت عوامل الزمن والتزاوج فعلها ، قسم بيت (الخرابة) الى عدة بيوت .

عمتى (فرحة) سكنت الجزء الاقصى قبل بيت

عمي (عبد الكريم) المجاور لدار (الأزرق) .. وعم (محمد) تزوج فى الجزء الاقرب ، على ناصية شارع (ابوسيد) وفى الوسط تزوج عم (عوض) برأى أمه ومشورتها التى اختارت له زوجته الجميلة من عائلة (أبودهينة) الذين لعائلة (عوض) بهم نسب ولها بهم قرابة ...

–ناس متربيين على ايدينا وعارفين اصلهم وفصلهم .

كان هذا بعض ما وتر العلاقة بين أبى وأمه حين تزوج على غير رغبتها من غريبة .. ومن بلد ثانيه :

– هوٌ عشان ما اتعلم يقوم لما يشطح ينطح .؟!

المهم أن كل ذلك قديم ، قبل أن أوجد أنا أو أختى (آمال).. وحتى قبل ان يموت جدي . الذى تتهم جدتى والدى أنه هو الذى شجع أبوه على الحج مرة ثانية فى ذلك العام النحس وكانت هي تعارض سفره ... لكن جدي أصر ، وأيده والدى أو نزل على رغبته الجادة فى زيارة النبي... تلك الزيارة التى لم يعد منها .. وبدلا من أن تعترف (أم العز) ان هذا قضاء الله وقدره ، أضافته الى سلسله ذنوب أبي . فاشتعلت بينهما النيران حتى وفاتها بأمر الله على ما اعتقد ، لا بسبب الحمّام الساخن الذى فرضته عليها بنت عمتى (فريدة) ... التى نهرتنى عندما فتحت الباب عليهما وشاهدتها عارية والأساور الذهبية لم تزل فى ذراعها النحيل :

(لأنني سأتسبب في موتها من البرد) ... كما حدث غالبا !

كان الحوش قبل هذه الأحداث المأساوية – (موت الجدة وموت الجد) وقبل إنتهاء الحرب العالمية وأثنائها وقبل أن يتحول إلى مندرة – في موسم الحصاد ساحة عيد يموج بالحركة، التى يزيدها هرج العيال صبيان وبنات

ضجيجا . يتقافزون ويتشاجرون حول الكبار المشغولين بالمحصول ... شتوى كان أو صيفي ... فإذا ما جن الليل أحضروا (كلوبا) برتينة يحيل ليل الحارة والحوش إلى نهار ، فلا ينقطع النشاط والعمل والصراخ .. والبكاء طبعا .

في موسم القطن تعلق الاكياس من مصامها . ويدخل فيها أطول الموجودين من أبناء أعمامي ، ليدك ويكبس القطن الذى يصب اليه وعليه. فيجعل الكيس الواحد يتسع لما كان يملأ شنفين أو ثلاث من فصوص القطن . ويصبح صلبا مدكوكا .. فيهئ لنا نحن الصغار مسرحا نتقافز عليه أو نتزحلق ، دون أن ينهرنا أحد...

وفي موسم الغلة أو القمح تعبأ الزكايب التي كانت في العادة أقل طولاً من الأكياس ونسيجها أمتن وأثقل ... لترص داخل الحوش كذلك في موسم الأرز .. لكن شكاير الأرز كانت كالأطفال أقل حجمًا ... ولكن ذلك لم يغير من علاقتنا بها .. وكأنهم يملأونها ويرصونها خصيصًا لكى نلعب ونتقافز عليها في حرية ...

وحين يخف العمل في انتظار المرسل من الحقل .. أو بعد الانتهاء من الكبس والتعبئة ويحلو للكبار الجلوس المريح .. لتناول الطعام أو شرب المعسل ، هم ومن يساعدهم من الأقارب أو الجيران أو المزارعين ... ننتشر نحن الصغار حولهم وبينهم مثيرين أكبر قدر من الإزعاج .

وكانت أمي في هذه المواسم تحاول جاهدة أن تذيب الجليد بينها وأبى وبين ستي (أم العز) ... فأدوار الشاي تتوالى من فوق للست وللعاملين ، في أكواب نظيفة مع الماء الساقع في القلل المريحنة والمعطرة ، ووجبات الغذاء والعشاء في صواني لامعة وأطباق مغسولة ... والكل يشيد بها

ويذوقها ، لكن ستي كانت تتلقى ذلك بلوية خفيفة من فمها الخالي من الإسنان معبرة عن استياء لا حل له . فرضاها مستحيل .

– ياشيخه حرام عليكي هي مطلعة روحها لراحة الكل وانتي مش عاجبك ؟... عايزاها تعمل ايه اكتر من كده ؟

.. عايزاها تنزل تكبس القطن برجلها مع الرجاله !

قال لها ماهر ابن عمي محمد وهو يتناول طبقا به قطعتى كنافة .. :

– خدي دوقي دول . أهي مرضيتش تنشف الكنافة قوي عشان تعجبك .. خدي هوّ احنا بنشوف الكنافة إلا في رمضان.. وإن كان .

تناولت منه الطبق .. والتهمت نصف القطعة السايحة فى السمن والعسل ومضغتها كمن تختبرها ..

– هه ... إيه رأيك ؟ عمرك دقتيها دي قبل كده ؟

– طب روح ... والنبى (أنهام) مرات (عوض) بعتت لي من كام يوم طبق عجوة بالسمن لا يعلا عليه .

فأخذ (ماهر) الطبق بسخرية من يدها وبه القطعة المتبقية ليلتهمها هو.. وهو يقول :

– ااه انهام ؟! طيب ! بس عجوة ياستى ؟ عجوة ايه قدام الكنافه دى .. ياللا .. فعلا خليكي في العجوة .

ومضى غاضبا يضرب كفا بكف ويلوك الكنافة اللذيذة وهو يقول :

– ما هي دي مرات ابنك ودية مرات ابنك .. ياسبحان الله ... الحمد لله إن أمي لا بتجيب عجوة ولا بتعمل كنافة . كافيه خيرها شرها ومش داخلة الحرب .

كان (ماهر) متعلما ووسيما وكان مثل (عبد الرحمن) ابن عمى

(عبد الحليم) يقرأ ويكتب ، وكثيرا ما كانا يتناقشان في حدة أثناء هدوء الحركة والكف عن العمل . حول الحرب ومجريات الأمور كما يريانها ..

كان (ماهر) معجبا بـ (روميل) ويرى أن الانجليز خدعوه ولم يواجهوه مواجهة الرجال .. بينما كان (عبد الرحمن) يتبنى وجهات نظر رواد دكان (محمود شطا) الوفديين ، ويؤكد على هزيمة الالمان المؤكدة على كل الجبهات خاصة في روسيا .

كان مهرجان كبس القطن هذا بالنسبة لي شيئا غير عادي ... فوسط كل هذه الحركة والنشاط والهرج والمرج . كنت أحيانا أسرح في صمت يثير دهشة كل من يرانى ، فيزجرنى متسائلا أو غاضبًا أو مناكفًا (فيه ايه ؟) ولم أكن أعرف فيه إيه ؟ ولكني كنت أرى أشياء .. فالكلوب الساطع يلقى ضوءه على ساحة الحركة ، على الأطفال والأكياس المنفعلة بفضل حركة من بداخلها .. لكنه يصنع على الجدران ظلالا عجيبة ، تتحول فيها الأشكال الطبيعية إلى تهاويل غير عادية ، تشدنى مع حركة الكبس وملئ الغلقان والتحام الاجساد بالأكياس تضيف لها ظلال الأضواء المتبقية من لمبات الصاروخ المدخنة . وحركة الدخول والخروج ... ناهيك عن الانكسارات يمينًا وشمالاً مع تغير اتجاهات الجدران ، والاقتراب والابتعاد عن مصادر الضوء ...

طبعًا لم أكن أيامها أفهم ما أحاول تفسيره الأن ... ولكني كنت أسيرا لهذا الخليط المدهش من حركه الظل ، وتحولاتها مع الضوء . أقارنها بما أراه رأى العين من أشياء هي ذات نفسها الأشياء الحقيقية التي تحتدم حركتها أمامي ، أكبر من الكيس ومن بداخله ... تغريني أن أصنع بكفي أشكالا تزيد الظلال المهولة تهويلاً .. مما يجعلني انفجر من الضحك

أحيانا .. أو يملأني رعب حقيقي ، حين ينفلت الظل من بين أصابعي ليصبح عفاريت وجنيات تتراقص على الجدران . ولا تلفت نظر أحد غيري وكأننى وحدي المقصود بتجسدها .. مما كان يدخلنى فى فترات صمت تثير دهشة الجميع واستغرابهم (الواد ده مجنون؟!) أو كنت انفجر في الضحك بلا سبب .. مما كان يضعنى في خانه (قلة الأدب) .

في ذلك الحوش سمعت لأول مرة بأسماء مثل (هيروهيتو) و(تشرتشل) – و(ستالين) – و(تيتو) . وعلمت بالقنبلة الذرية التى أركعت اليابانين ..

واهتز كياني يوم قالوا إن الإمبراطور – الذي يعتبره اليابانيون (ابن الشمس) وانه .. (إله يعبدونه مثل ربنا) اضطر مهزومًا أن يصبح بشرًا ... وأن يتحدث إلى مواطنيه وإلى العالم لأول مرة فى التاريخ عن طريق ميكروفون الإذاعة ، ليعلن استسلام بلاده وهزيمتها .. لتنتهي الحرب .

وتبقى ستي في مكانها بعد وفاة جدي ... ويخلوا الحوش من ليالي العمل الجماعي تلك التي جمعت الأخوة وأبنائهم وبناتهم على محصول واحد .. إذ توزعت أرض جدي بينهم ، وكل إلتهى في حاله .

واستمرارًا في سياسة الانحياز التي إتبعتها ستي منذ زواج أبى على غير رغبتها .. كلفت عمي (عوض) بزراعة أرضها .. و لم يكن أبي يهتم بذلك ... فأرضه نفسها يزرعها له أولاد اخته (فرحة) (الصديق وتوفيق وحلمي) والتي كانت قد فقدت عائلها في نفس العام الذى مات فيه جدي ...

لكن أبي شمر عن ساعديه بعد أن تحول الحوش إلى مندرة . أقام الجدار بعد الباب الكبير ليغلق الحوش ويبلط أرضه والمساحة التي أمامه .

ليبدأ للمندرة تاريخ آخر ، كنت فيه الفتى الأول .. وكان له تاثير كبير على مجريات حياتى بعد الحرب ... (شاركتني أنت فيه –يا صديقي وتوأمي – بشكل مباشر في أحيان قليلة . وبشكل غير مباشر في معظم الأحيان !.) مما جعل للمندرة هذا الوجود الذى خلف غيابه لى ألما كبيرا ... فهى لم تكن مجرد مكان بل كانت حياة كاملة ممتدة مليئة بالاحلام والرؤى والأ حداث والمشاعر ... لدرجه اننى بعد عودتى كرهت هذا البيت الذى رأيته قد تقزم ... مع انه اقيم على نفس المساحة ولكن فرق كبير بين مكان – أي مكان– وبين مكان زاخر بكل هذه المشاعر والأحداث التي لا يمكن أن أكف عن التفكير فيها واستعادتها .

• • •

ومتاع إلى حين

○ أصبح النوم عزيزا اذا زارنى خطفنى حتى اظن اننى لن اعود . وسرعان مايلقى بى على شط ذى صخور مدببة ... تجرحنى الاسئلة وتحرقنى الاجابات غير المؤكدة .. هل تماديت ؟ ... لدرجه اننى ابحث عمن ألقى عليه وزر ما كان لحد الأن . أم أن الاوضاع التى تكشفت عنها الأحداث – كانت ستكون أرحم او أجمل او أكثر راحة .... لو تريثت قليلا وأخذت نفسي فلم أبالغ ؟

كل الذين تصورت اننى اناضل من أجلهم وأدفع عمرى لجعل حياتهم أجمل وأفضل ، هزمتنى وقهرتنى ظروفهم أكثر !

لم تعد هناك طبقه عاملة . بيع القطاع العام ووهبت المصانع الكبرى هدايا وعطايا فى صفقة

تاريخيه يعجز فهمك القاصر عن بلوغ حدودها او الالمام باسرارها ودوافعها . إنتهى الصراع الطبقى ولم يعد مفكروا قبيلتك حريصين على ذكره منذ أعلن (السادات) إلغاءه واحلال السلام الاجتماعى محله. واستبدلوا (خطوه للأمام وخطوتين للخلف) بنهايه التاريخ و(ماركس ولينين) (بفوكوياما وهننجتون) ...بمجرد انهيار حائط (برلين).!!

ضاع إبنك فى زحام موسكو . يوم بيعت أصول الاتحاد السوفيتى العظيم (للآوليجار –شيين) ... وكف (تاكي) عن مص أثداء البقرة الاشتراكية الحلوب ، وضاع فى غيام الاممية الجديدة (تاركوفسكى وأوفتشنكو وبوندراتشكوك) ...

لم يعد هناك حجة لاخفاء حقيقة النقابات العمالية المصرية وجوهر الاتحاد العام للعمال فى مصر باعتبارها أجهزه أمنية . وساحت الألوان والأقنعة وتشققت الدهانات الفاقعة ، وسقطت عن الوجه القبيح لنظام يوليو . بالظبط كما أرادها (يليتسين وجوربا تشوف والسادات ومبارك وتاتشر) .

إنتقل عباقره التحليل الماركسى وحماة المادية التاريخية وفقهاء فلسفة الصدفة الى غيام صنعته الليبرالية المتوحشة وأصبح النقد الثقافى إمتدادا طبيعيًا لديهم عن (جرامشي) .

وانت ؟! اه تلوك ذكريات طفو لتك وعذابات (سجنك) الانفرادى متعللا بكتابة (هوامش على سيرتك الذاتية) متحججا بانك تقدم إجابة لسؤال أولادك – لماذا ؟ ... وهم لن يقرؤوها فى الغالب . وستأخدهم نفس الظروف التي تعذبك الان بعيدا ... ليجدوا إجاباتهم بطريقتهم ... لأنهم حتى لو فهموا . فلن يغفروا لك .. ولن تكسب سوى ان تكون

نشرت غسيلك نظيفًا أو قذرًا أمام العيون . وهم لن يصدقوا أنه لاذنب لك فيما حدث

صاحت بك (فيروز) الصغيرة بعد أن عرضت أمامها كتابًا مصورًا عن القاهرة :

– معقول يا بابا ، دي القاهرة ؟! أمال ليه خليتوها وسخة للدرجة دي ؟!

كيف لكل هذا الذى تفاخر به سنوات عمرك الضائعة لم يثمر شيئا ملموسًا .. يستطيع أن تبرر به أن انانيتك – نعم أنانيتك حيالهم – وانحايزك للأخرين ولما تسميه الوطن والكادحين وهل هما السبب الرئيسى فيما صارت عليه الحال – حالهم هم، الذى لم يشغل ألا جزءا صغيرا من اهتمامك بحال الدنيا الذى أصبح رغم كل شئ الى ما هو عليه!!.

صار النوم عزيزًا قلقا ... أحلامه كوابيس ... زوارك خلالها إما مفترسين او متاعيس .. ومازلت مصرا على إكمال ما بدأت رغم انعدام كل الدوافع ، التى كانت تفجر خيالك وتعينه على إعادة رسم صور الصبا ومعايشة جنون الشباب ..

(ميت سلسيل) لم تعد ميت سلسيلك ، كهرباء السد العالى أفسدت ليالى الخيال البكر ، وطاردت حوريات القمر ، وجنيات الظلمة الحانية فضحت سذاجة الرعشة المسروقة تحت (أيكة الياسمين) وبراءة سحر أشعار العشق الأولى ... في جرن (دار أحمد) و (سطوح دار عوض) ومقابر (أبى خشبة) وسبيل (سيدي مجاهد) .. طاردتها محلات الأتاري والفديو وإغراءات بورسعيد الحرة التي أزالت بكارة العذارى . وعلمت

الفلاحين فنون السمسرة والتجارة المحرمة .. ومسحت بأستيكة الحاجة المتنامية كل ما بذاكرة العواجيز العجزة من أمثال ومواويل . ودفنت فى حمى المسلسلات الحديثة جثث حواديت الشطار وليالى المناقد الدافئة وعطر الجدات .

وها أنت مازلت على أنانيتك ... تظن أن التعلق بحبال الوهم / الحلم القديم الدايبة مازال يجدى فى ايقاظ المشاعر القديمة وأحياء جثة العمر الذى لن يجد (إن أراد) شبرا واحدا من الزراعية لم يلوث طهارتة الأسمنت ، لتدفن فيه .

نطرت الغطاء وقمت من الفراش هاربا مختنق الأنفاس من البكاء ردا على نظرة الشاب الطيب المنكوش الشعر الذى همس دون صوت (صاحبك مات !!)

إرتميت على جسد المخرج الشاب الممدد الذى كنت تحدثه من ثوان لتقنعه بضرورة الضغط على سائق الاوتوبيس ليوصل (جروب التصوير) المنهك ولو ألى العمار . فهو مجبر على ذلك بحكم التعاقد ... وليس من حقه أن يتركهم تائهين في مستنقعات (التلول) ... ويذهب ليلقط رزقه دون وجه حق ... فيسقطون من الاجهاد تحت ثقل أدوات التصوير وقطع الديكور ومعدات تجهيز المشاهد كل هذه المسافة .. وتحاول أن تعطيه حبة ملبس سكر ملونة كانت فى جيبك من تلك الحبات (الكرملة دروبس) التى كان الحاج (سيد الصياد) يتحفك واخواتك بها صغارًا .. كلما رآكم تقرقشون الفول الناشف .! وانتم تتقافزون فرحا بزيارته على نفس هذه الزراعية الترابية التى التقيت عليها المخرج الشاب الواعد . الذي سيموت

الآن بين يديك ... رغم أنك كنت سعيدًا حين إلتقيتة صدفة إذ كنت سترجوه أن يأخذ ابنك مساعدًا له في مرة قادمة .

أجلت الحديث اليه فى هذا الشأن الشخصى إلى وقت مناسب... لأن الصداقة التى انعقدت بينكما بعد نقاش حاد حول فيلمه الجديد الذى شاهدته يتحدث عنه على القناه الاولى قبل أن تنام – اكتشفتما معًا منذ اللحظة الأولى وفي نفس الوقت – أنها صداقه قديمة رغم فارق السن الكبير ... لكنه وفجأه يسقط من الاجهاد منهكا . فتحاول إقناعه بوضع حبة الكراملة (الدروبس) في فمه لتعطيه بعض الطاقه يستعيد بها قواه ... لكنه يبتسم شاكرا ويتلكأ . حتى يكتشف الشاب المنكوش الشعر الحقيقة ويعلن موته دون صوت . ويتجمع بقية (الجروب) الحزين معك حوله على نفس هذه الزراعية التى تمتد غربا من (ميت سلسيل) الى مالا نهاية ... نفس الزراعية التى كنتم تحتشدون فوقها فى عربات النقل لتأخذكم رجالا وصبية الى قرية (برمبال القديمة) وانتم تهتفون بقوه وحماس (لمصطفى النحاس) :

– يحيا الوفد ولو فيها رفد .

خلف (السيد الغرباوي) أو (محمد أبو زاكي) أو ضمن حشد الطلبة مع (حسين عبد ربه) أو (السيد راشد) وبحياة مصر والشعب المصرى وحياة (محمد سويلم) مرشح الوفد في انتخابات (٥٠) عن دائرتكم الوفدية . التي هزم فيها بفضل قريتنا باكتساح مرشح الأقلية (أبو الحفني) الذى جرسه أهل البلد متظاهرين وهم يحملون نعشًا خاليًا يدورون به في جنازة صاخبة هاتفين بنفس الحماس يلوحون بأنصاف أوراق الجنية

– إطلع يابتا ع الجنية .... جنيهك عمل لك ايه ؟

وكان (أبو الحفني) قد وزع تلك الجنيهات مقطوعة إلى نصفين

ليشتري الأصوات على وعد أن يسلم للصوت نصف الجنية الآخر بعد النجاح ... وراح الجنية المقسوم على الاثنين . ولكن كله يهون أمام نجاح الوفد ... بعد ست سنين من الاضطهاد والطرد من الحكومة وفصل رجاله وإبطال افعاله ... كانت الفرحة غامرة وشاملة خرجت الناس للشوارع حتى النساء وبنات الأسر ... إما خرجن للمصاطب أو صعدن ألى السطوح يزغردن ... بينما صمت الهزيمة يلف بيوت (واطى البلد) .... واستهوى الأمر الذين انبح صوتهم من الهتاف طوال الأسابيع الماضية (يحيا النحاس باشا) ... و(يحيا الوفد ولو فيها رفد) التي حورها (السيد الغرباوى) إلى يحيا الوفد ومافيهاش رفد !!

حتى العيال وصغار السن استهوتهم اللعبه فمضى أعلاهم صوتا يقود أقرانه فى مظاهرات فرعية صغيرة . وإن تفوقت مظاهرة الواد (خالد بن هانم) فنمت وكبرت لأنه كان يبتكر هتافات مضحكة مثل (روح لأمك يابو حفني) و (الله حي الله حي غصب عنه الوفد جاي) .... وخمنها كثيرون أنه يقصد الملك فعلق (الشيخ موسى) قائلا :

– مش غصب عنه ياروح امك ... ما باس إيده ،،،

لكن المشاجرات البسيطة لم تمنع ان تلتحم كل تلك المظاهرات فى تجمع واحد قاده الهتيفة الكبار الذين انضم اليهم (محمد السقا)بطوله الفارع ليقود الجميع نحو السرادق الذى أقيم أمام بيت (كامل افندى عبد ربه) لاستقبال النائب المنتصر هذا المساء ..

وأمام قهوه (أبو راشد) ، التي كانت المقر الرئيسى للمرشح الوفدي . والذى يدير حملة التأييد منها طلبة البلد الذين احتشدوا وكأنهم فى اجازة الصيف ... وقفت المظاهرة تحيى الطلبة الذين كان دورهم ملحوظا

.. وبينما وصلت طلائع مظاهرة الكبار إلى السرادق ممتدة عبر الزراعية – نفس الزراعية بجوار جسر قطار وجه بحرى (الذى لم ألاحظ وجوده فى الحلم) الذي قضى المخرج السينمائى الشاب نحبه فيه .

من المستشفى حتى مكتب (أبو مقبل) الذي كان مقرًا لدعاية (أبو الحفني) وإن أغلق أبوابه ، كانت مظاهرة الشباب الصغير والأطفال التي يقودها (الولد ابن هانم) قد التحقت بالمظاهرة الكبيرة وقد ابتكر نكتة أضحكت الجميع وأجبرت مظاهرة الكبار على التنحي عن الزراعيه لتفسح الطريق لها نحو بيت (كامل افندي) ... لقد أحضر الأولاد جحشا صغيرا زينوه بأغصان الشجر وحملوه على خشبتين تحت بطنه وألبسوه طربوشًا وهم يزفونه بابتكار هتافات لم ترد بخلد أحد :

– كان (عبد الهادي) فين لما (الحفني) وقع انكسر

– يحيا الوفد مع (النحاس) و(الحفنى) قلع اللباس

وهنا تدخل بعض العقلاء وحرروا الجحش من أيدى الصغار وفرقوهم ... منعا لطولة اللسان .. وانطلق الجحش يجرى وهو يقمص ويرفص ووراءه العيال تشيعهم ضحكات الجميع وحاول ابن هانم (أن يحتج ويتلامض) ... لكن (مصطفى الزفتاوي) طوق رقبته بذراعه ... وضربه قلمين بحنية بصفته جاره الحميم وأدخله في زمرة الطلبة ... حيث انشغل معهم فى كتابة لافتات الترحيب بالنائب الحبيب ....

صبيان وبنات المدرسه الالزامى الذين تعب فى تدريبهم على النشيد الملكى وعلى نشيد خاص بالمناسبه الشيخ (شحاتة بقة) . تعبوا من الغناء ومن الوقفة . وأظن أنهم جاعوا طبعًا ... فالشيخ قد ألزمهم بالوقوف في صفين متقابلين منذ الصباح على حافتى الزراعية قبيل بيت (كامل

افندى) ليكونوا طلائع الاحتفال ... لكنهم بعد طول وقوف انتهزوا فرصة ذهابه ليقضى حاجته فجروا بلا اتفاق وانطلقوا هاربين ... لم يبق منهم سوى البنت (أم ابراهيم) ألعرجة ... و(أم هاشم) أم خرشوم (ذلك بسبب التهاب مزمن فى الأنف يجعل الأرنبه والمنطقه الوسطى من الشفة العليا شديدتى الاحمرار والرطوبة) زادهما الرعب من عقاب الشيخ .

ولما عاد الشيخ (شحاته) بعد قضاء حاجته . وجد الزراعية خالية إلا منهما وبعض الصبيان والرجال يضحكون . وهم يجيبون ساخرين على سؤاله المندهش (الولاد والبنات راحوا فين ؟) – فلسعوك ياشيخ (محسن!!) . مقلدين لهجته فى نطق اسم بلدته– (ميت مْحِسن) !

كان الشيخ (شحاته) قصير القامة احد كتفيه أعلى من الأخر بشكل لافت ... عليهما يلوح رأس اكبر من أن يناسب المسافة بين كتفيه ... علاوة على حول ملحوظ يظهره جحوظ عينه اليسرى الواضح ... وكان أحد أربعة من المدرسين الذين نفوا من مركز (ميت غمر) إلى قريتنا منذ ما يقرب من العام إبان حملة (عبد الهادى) ضد (الإخوان) وكان من قريه (ميت مِحسن) بكسر الميم والسين والتى كان ينطقها بفخر يجعلها مثار سخرية وتقليد لا يرضيه .

كنت أظن أن اسمه الحقيقي (شحاته بقجة) لأنه جاء الى قريتنا يحمل بقجة فى ضعف حجمه ... فيها كل ما يملك من ملابس وأدوات وأثاث ... أحضره إلى منزلنا يوم وصوله الشيخ (علي سعود) الذى كان قد استقر فى المندرة المطلة على الشارع من بيتنا ... حتى يجد له مكانا يستقر فيه ... ولكني لم أر محتويات البقجة إلا عندنا صحبتة تاني يوم إلى البيت الذى استأجره له عم (أحمد شطا) فراش المدرسة بناء على توصية (الشيخ علي)

... وكان مقعدا من البوص المطلى بالطين فوق السطح ... في بيت تملكه أرملة قريبة له تتاجر فى مستلزمات النسوان ولها بنت وولد يعاني من الكساح ... اقنعها بان تخلى له المقعد ، وتكتفى وأولادها بغرفة الفرن التي في الدور الأول ، خلف السلم الخشب العريض الذي يواجه الداخل مباشرة وكان للخمسين قرش التى سيدفعها فعل السحر ...فوافقت ان يشاركها واطفالها فى الكنيف الكائن تحت السلم ... ولكن (الشيخ شحاتة) الذي لا يملك من ظهر الدنيا سوى تلك (البقجة) التى ظننتها إسمه والتى بها القفطان البديل والغيارين .. وكمية من الكتب الكبيرة المغلفة أجبرني على احترامه ...!

كانت الكتب مصفوفة وملفوفة فى قماش من تيل الزكايب... تبين انه مكون من كيسين من أكياس القطن موصولين طوليا ... ما ان أخرج الكتب منه ونفضه ... حتى طلب منى ومن عم (أحمد شطا) أن ندبر له غمرين قش رز نضيف حشا بهما الكيس ... ثم خاطه بمهارة فصار مرتبة رائعة استقرت على أرض المقعد ، بعد أن طلب منا أن نشبعها دهسا وضربا بجريد نخل وجدناه على السطح . وكان يعرف أنه أدهشنا بابتكاره هذا فكان يدفعنا للعمل في مرح يضاعفه منظره المضحك . بطريقة تجعلنا نبتلع سخريتنا من إسمه وشكله ونتعاطف معه في حب ....

واعتقد أنها نفس الطريقة التي تعامل بها مع الأرملة صاحبة البيت فلم يلبث أن تزوجها أو هي تزوجته في حفل زفاف حضره كل تلاميذه وكل مدرسي القرية من أهلها والمغتربين .... وكانت زفة (الشيخ بقجة) والأرملة الملحمة زفة ظلت حديث القرية لشهور ، حيث كانت الطرق موحلة والسماء لا تكف عن المطر فأجبرت الجميع على زحام حميم

داخل البيت الذى لم يكن يعرف الزغاريد لسنين . ولعلعت لتغيظ الذين نفوه من بلده بدل أن يعتقلوه لخطورته على الأمن العام .

الشيخ (شحاته بقة) أو (البقجة) لم يكن سهلا فقد مضى وسط تجمعات أهل البلد الذين كانوا يتوافدون زرافات إلى المساحة أمام بيت (كامل أفندي) باحثًا عن الصبيان والبنات (المتمردين والمتمردات) حتى جمعهم مرة أخرى واحدا واحدة ، وأعادهم تحت تهديد عصاه (الزنزلخت) الى حيث كانوا على حافتي الزراعية . باكين شاكين متململين لكنهم سرعان ما كتموا النفس ، وانتظموا فى التدريب مرة اخرى لينشدوا ... النشيد الملكى والنشيد الذى ألفه ولحنه خصيصًا لاستقبال (يسين باشا سراج الدين) الذي سيأتي على رأس المحتفلين بنائب الوفد ومرشحه (محمد سويلم) .

• • •

فاستبقوا الخيرات . .

○ في الجرن أمام بيت (كامل أفندي) أقيمت خيمة كبيرة للإحتفال فرشت بالقش وقبل أن ترص الكراسي – كانت هناك ثلاث (سفرات) بطول الجرن .. تنتظر الطعام الذى كان يعد فى الدوار المجاور .. طعام وعزومة لكل الناس .. توحى الروائح والدخان المتصاعد من الدوار بما سيكون عليه الأمر الذى جعل (الشيخ شحاته) يشحن جوقة العيال المتعبين ويعدهم بمكان مضمون على المائدة إن هم أحسنوا الأداء وشرفوه أمام (الباشا) و(الأكابر الضيوف) .

وكان العيال قد لاحظوا كما لاحظنا طول الثلاث أيام السابقة مدى الإستعدادات للوليمة من حجم وتنوع الإمدادات التى جاءت من بيوت

عائلات البلد ومن بلد النائب فى ناقلتين محملتين بطيور وذبائح وزكائب أرز ولوبية وسكر ودقيق وبصل وكافة مستلزمات صنوف الطعام وانواع الحلوى التى يتحدث بذكرها الركبان . إذ ظلت كتيبة الطباخين والسفرجية المحترفين يقدمون مثل هذه المائدة وأكثر في سراية (أبو سويلم) الثلاثية الأدوار في (برمبال القديمة) حيث كانت الموائد في أدوارها الثلاثية تستقبل أهل الدائرة كل يوم من بعد صلاة الظهر حتى حصة طويلة من الليل جماعات ووفود بعد جماعات ووفود .. وهاهم يختمون ذلك بالليلة الكبيرة فى احتفال (ميت سلسيل) الذي خطط له ألا يكون أقل دسامة أو روعة باعتبارة ذروة العطاء وسدرة الأبهة ..

– النهارده عيد ياولاد تاكلوا بكفايتكم اللي ملوش ايدين يستلف

– اللي نفسه في حاجه يطلبها من سيادة النائب نفسه .. أمّال ؟

عبارات تشجيعية يطلقها السفرجية والمتطوعون من الجمهور المتحمس بتبادلون المجاملات مع الطلبات . ويحملون الفارغ ويعودون بالملآن ، في فرح وينظفون مكان من يترك المائدة وهو شبعان لتستقبل جائعا غيره .. وكأن الطعام يطلب المزيد من الأفواه والبطون .. كانت هناك منافسات . وحدثت مشادات متحمسّه كما ظهر الكثير من فراغة العين لكن الموقف كان مسيطرا عليه بقدسية المناسبة .. كان الغفر والعساكر مندمجين مع الفلاحين والمدرسين والطلبة والحرفيين والتجار وكلهم تحت تأثير الفرحة بفوز حزبهم يتسامحون ويتعاونون ويتبادلون النكات ويأكلون كما يقول المثل في (قتة محلولة) وكأنه آخر زادهم .

وبعد انتهاء الطعام ورفع الفوارغ .. رفعت الموائد الخشبية وتشارك الجميع فى رص الكراسى واقيمت المنصة التى سيعلوها الضيوف

(الأكابر) الذين كانوا قد أكلوا فى اماكن آخرى داخل بيوت عيلة (عبد ربه) وغيرها والحقيقة أنهم أكلوا من نفس الطعام الذى صنعه نفس (الطابخين) وبنفس الجودة والتنوع ولكن بطقوس أخرى تليق ببدلات وبطرابيش وجرافيتات وعمم (الأكابر) وفيها (بشوات) و(بكوات) حقيقين و(أفندية) و(ضيوف رسمية) .

بعد صلاة العشاء .....

كان هناك كلام كثير يردم البحر الصغير والقديم و(ترعة السلطان) أيضا ويفيض ليغطى مساحات الحقول المجاورة . كانت الايدى تلتهب من التصفيق كلما ذكر إسم (النحاس باشا) وكانت الارض ترتجف . وتكلم كل الذين على المنصة وكل الذين كانوا ضيوف (كامل أفندي) يوم أعطاني (حسين) كتاب (المعذبون فى الأرض) .. وأيضا الضيوف الذين لم أر معظمهم من قبل والذين أعترض طريقهم على الزراعية الشيخ (شحاته بقة) وعياله وأجبرهم على سماع أغانيه واناشيده ترحيبا بالضيوف وخاصة (الباشا ياسين) الذى كانت ابتسامته تكاد تصل من المستشفى حتى سرايا (كامل افندى) عندما ذكر الاولاد والبنات إسمه فى بداية غنائهم رغم أنهم ذكروه بلا ألقاب :

ثم تبعها بنشيد / اسلمى يا مصر أنني فدا ... لي يدي إن مدت الدنيا يدا أبدا لن تستكيني أبدا .... اننى ارجو مع اليوم غدا ..

وكانت ابتسامة الضيف الكبير تجعل الأولاد يصرخون من أعماق قلوبهم .. ولكن (الشيخ مجاهد أبو دسوقي) قاطعهم بعد النشيد متضاحكا:

– أيوه فعلا (إننى ارجو الغدا .. والغدا جاهز) .. والله براوة عليك يا شيخ شحاته .. دانت طلعت ماسترو جامد .

والتقط الأطفال الكلمة التي أضحكت الجميع ... فصار اسم الرجل بعدها (الشيخ شحاته ماسترو) فكانت أرحم كثيرًا من (بقجة) .

قال كامل أفندي منتهزًا فرصة الضحك الذي فرط الطابور قال :

– الباشا مبسوط منكم ياولاد ح يدي لكل واحد منكم (تعريفة) بس يالاَ ياشيخ شحاته خدهم جوّه وغديهم كويس دانت هلكتهم من الصبح .

وتهلل الأولاد وزاطوا فرحًا وهم يدفعون بالشيخ وسطهم وهم يهتفون (ماسترو) (ماسترو) غارقًا فى زحامهم الذى ابتلعه إلأعمّته ، التى بدت كبقجة عائمة فوق الروس الهائجة كقارب صغير منفعل .

جميع من كانوا على المنصة خطبوا وتكلموا وصاحوا وزعقوا واحد إثر الآخر .. كل الذين كانوا على البراندة وكل الضيوف ... لكن (محمود شطا) اشعل حماس الجميع عندما تحدث عن دور الطلبة فى الإنتخابات وكيف كان النادى دينامو المعركة الانتخابية ودعا الجميع للتبرع للنادى .. وطالب بإعادة مبنى جمعية الاخوان المسلمين ونقل النادي إليه فقد أقيم بجهود وتبرعات أهل القرية تطوعًا . والذي إستولى عليه العمدة دون وجه حق ليجعله حجرة للتليفون ومقرا للغفر . واعترض العمده على ذلك وكادت المشادة تنقلب إلى شجار ومعركة .. لكن النائب أعلن أنه سيتبرع للنادى بخمسين جنيها كامله وصفق الحاضرون وهتفوا فقال :

– خلونا نفرح النهارده وسيبوا كل حاجه لوقتها ...فالطلبة والنادى ساكنين جوه قلبه

فجأة .. أحسست بغصه عندما لاحظت أن أبي ليس على المنصة وسط كل هذه العمم والطرابيش .. كما أنه لم يخطب مثلهم وأحسست

ساعتها وكانك تخرج لسانك لى ساخرا وتهمس فى إذني تغيظنى :
– عيبك انك مش عارف ان كل برغوت على قد دمه !

أحس دائما أن طيفك يخايلنى كلما تعثرت فى الكتابة .. وكلما ازداد شكى فى فائدة ما اكتب لأى إنسان أو لى واعتدت ذلك لدرجة أنه عندما تلوح لي ولوفكره مهوشة غير واضحة المعالم للتقدم بالأحداث إلى الأمام تشدنى الذكريات بسببك إلى الخلف . وأنني أدور فى دائرة مغلقة وأن الخيط الدرامى والتقدم فى بناء الرواية سيتعثر أو أن رغبتى فى الاستمرار أصابها الوهن . ولكثرة تكرار ذلك الموقف . تطور رد فعلى تجاهه إلى رغبة عارمة فى الاستسلام وتمزيق الورق . ثم ألجأ إلى إعادة القراءة للتأكد من أن ما كتب كان على الأقل له ما يبرره تعلقا بأمل الاستمرار .. أو فى النهاية بحثا عن طرائق جديدة تبلور فكرتى عن البحث عن الذات .. أو عن التحصن بالذكريات ضد كل ما يحيط بى من تفاهة وما يثقل روحى من عجز..

وتعودت أن أستسلم للحالة ولا أصارعها .. حتى تمر بسلام لأننى غالبا ما أعود صاغرا لإكمال ما كتبت حتى وإن انبت كثيرا ما بين السطر الأخير الذى توقفت بعده والسطر الاول الذى سيتجسد كشرارة بارقة أو رعدة كهربا يحدثها تدفق تيار الذكريات في كابلات الذاكرة الهرمة ، أو ومضات الحلم الذى يقطعه دائما فزعى من حقيقة أنه لم يعد هناك أمامى وقت و لم أعد أملك شرف الاختيار حتى ولو غلبنى فى معظم الأحيان نومى المعذب المتقطع .

• • •

فى ستة أيام

○ الخمسون جنيها التى تبرع بها النائب الوفدى المنتصر والخمسون الأخرى التى تبرع بها عدة (أفندية) من أهل البلد والضيوف أثبت ما تعنيه – حكمة – (كل برغوت على قد دمه) .. دفعت إلى عروق نادى (إتحاد الطلبة) نبضا جديدا فقد كانت تعنى ثروة حينها .. فأنعقدت بعد عدة ايام جمعية عمومية للنادى حضرها كل الطلبة تقريبا وقد غمرتهم موجة الحماس التى إجتاحت جامعات مصر ومدارسها الثانوية إستبشارا بحكومة (مصطفى النحاس) وأيضا بتولى (طه حسين) وزارة المعارف .. وبات ضروريا تغيير إسم النادى من (إتحاد الطلبة) إلى نادى (الاتحاد) خاصة وأن كثيرون من الذين تبرعوا ومعظمهم من الخريجين أو

الأفندية اصحاب الوظائف أو المدرسين . وتمت إنتخبات جديدة فازت فيها بعض الشخصيات المهمة من خارج الطلبة .

وابتدأ (حسين) فى إخراج أول مسرحية وهى (الضحية البريئة) وهي (ميلو – دراما) عاطفية عن فتاة عذراء تحب ابن عمها الطالب فى الحقوق . وتذهب ضحية مؤامرة دبرها عاشق شاب من الأعيان الفاسدين ممن فشلوا فى الدراسة .. ويقوم حبيبها حديث التخرج بمهمة الدفاع عن والدها القاتل ... بعد ثبوت عذرية الضحية التى قتلها الجهل والغل والدناءة ...

وقام (مأمون مجاهد) بدور أم القتيلة بينما قمت أنا بأداء صوت روحها الهائمة تحاول إثبات براءتها واقناع حبيبها الذى كان مترددا فى الدفاع عن والدها . ومن تحت خشبة المسرح طاف صوتى الصبىّ محلقا يثير الشجن والحزن يستدر دموع النساء والرجال ... المزدحمين فى ساحة (الصارى) التى ضجّت بالبكاء وأيضا بالزغاريد التي أطلقتها النساء المحتشدات فوق اسطح البيوت التى تحيط بالساحة . كان شيئا جديدا .. ورائعا، والمئات يفترشون الأرض أمام منصة أقيمت من أعواد الخشب المستعارة من شادر (السيد مطاوع) والمصفوفة فوق البراميل الجاز الفارغة من عند (حسن موافي) ، يحيطها إطار من شقق الفراشة إستؤجرت من (الجمالية) .. وصنعّت لها ستارة من ملاءات سراير بيضاء استعيرت من بيوت بعض الطلبة والأكابر والعرسان الجدد ..

الساحة تقع تقريبا فى منتصف علو البلد بالقرب من مطلع شارع السوق الذى يبدأ من جرن (دار أحمد) حتى ترعة (الجوابر) ، وكانت خلف بيت (الطنطاوي) . وكان بيتا ذا مدخلين باب يفتح على شارع السوق وآخر خلفى على الساحة. التى يعطيها ما يحيط بها من بيوت

ظهورها لتصنع سورا طبيعيا لا منفذ منه إليها ، إلا مدخلها من ناحية شارع السوق ، حيث ترك لها (الطنطاوية) مدخلا عريضا ذا سقف . أقيمت فوقه مقاعد (غرف علوية) تمثل امتداد بيت (محمد الطنطاوي) العالي ذو الأدوار الثلاثة وبين البيت الذى يقيم فيه إخوته مع عائلات أخرى فقيرة من أقاربهم . تتراكم فى تركيبة معقدة من الحجرات والممرات والدهاليز المتداخلة . يعطى معظمها ظهره للساحة إلا فيما ندر ...

في وسط الساحة ينتصب (صارى مركب) هائل الارتفاع يقال أنه يشبه الصارى الذى قاتل به (سيدي أبو خشبة) الصليبيين حتى هزمهم .. وكان يقام لتخليده مولد سنوى فيما مضى من الأزمان . ثم أتت عليه وألقت به إلى النسيان هموم الحياة ، إلى جانب عجزه كولى من أولياء الله الصالحين ان يظهر معجزة ما أو يحقق أملا فى شفاء مريض ما او العثور على طفل تائه . حتى نسى الناس الولى الصالح مكتفين بأرتباط إسمه بأعلى تلة فى ركام مقابر الخرابة .. واكتفوا باطلاق اسم (الصارى) على الساحة . لكنه ظل – كلما أكل السوس خشبه القديم واقترب خطر سقوطه – كان الولى فيما يزعمون يقوم بزيارة بعض من كبراء العائلات من سلالة الأشراف . ويذكرهم فى المنام بضرورة إستبدال الصارى الآيل للسقوط بصارى آخر جديد بنفس مواصفاته القديمة ..

وكان الجميع يسارعون إلى تجديد الصارى ، واقامة المولد خوفا من إنتقامة أو زعله .

لكن السنوات كانت تراكم سحابات النسيان إلى أن تحدث زيارة ليلية أخرى . فيهرع (المختار) منهم إلى تجديد ذكرى البطل الذى هزم جيوش الصليبيين بشراع مركب . هذا ما أكدته لى (خلت مقبولة) تلك التى (لو تذكرون) وشت بى لدى أمي ، عن سرقتي الفول الحراتي أنا

وصديقى (فاروق النملة) يوم كذبتها فصدمت . واعتذرت بأنها لابد كانت تلبس عيونها القديمة !!

لكن أبى يؤكد أنه لم يشهد منذ جاء إلى الدنيا أحدا يجدد هذا الصارى أو يقيم ذلك المولد .. واكد لى هذا الرأى أن القرية فى سعيها لتقيم مولد (سيدي مجاهد) بعد قرار الحكومة الملكية بإعادة إقامة المولد . لم يفكر أحد من أهلها في مولد (سيدي أبو خشبة) أو يذكر إسمه. وحتى عندما إجتمعت عائلات البلد وقسمت فيما بينها تلال (الخرابة).بما فيها تلة (أبو خشبة) نفسه . وقامت رجالا ونساء وحميرا وجمالا ، بنقل تراب المقابر القديمة (الكفرى) الخصب (كل عائلة إلى أرضها) لتخلو تلك المساحة الشاسعة تمهيدا لبيعها وتخصيص ثمنها لبناء المدرسة الإبتدائية (إياها) والتى ضاق بتلاميذها بيت (الشيخ علي) ..

كل هذا هو الذى سمح لنا ولنادينا أن ندخل بدعة المسرح إلى تلك الساحة ، خاصة وأن من يفترضون (إن كل بدعة ضلالة) كانوا فى حالة ضعف شديد يصل إلى حد التلاشى أو الكمون ، بعد أن عصفت بهم وبجّوالتهم سنوات إرهاب (عبد الهادي) . وإن لم يصب رذاذها أحد من أعضائها فى قريتنا ، اللهم إلا ما كان من نقل أبي ونفيه إلى (عزبة البرج) رغم أنه كان قد استقال من عضويتها علنا ..

رفعت (بدعة) المسرح التى أدخلها الطلبة إلى ساحة الصارى مكانة الساحة واعادتها لذاكرة القرية بقوة وصار أهل علو البلد يؤرخون لأحداث كثيرة من حوادث أيامهم.بموقعها من قبل ومن بعد ليلة المسرحية . وتحول أبطال المسرحية (احمد صبرى بكر) و(الدسوقى النادي) و(مأمون مجاهد) و(محمد عبد ربه) وطبعا مخرجها ومؤلفها (حسين عبد

ربه) إلى نجوم يعاملون بكل إحترام وتبجيل .. وصار كثير من الأولاد والبنات الذي هم فى سنى يطاردوننى بكلمات المونولوج الذى ألقيته بانفعال من تحت خشبة المسرح نيابة عن روح الضحية البريئة .

(أنا بريئة ياعادل (اسم ابن عمها وحبيبها المحامى) إوعى تصدق اللى بيقولوه عليه .. انا ماحبيتش غيرك .. ظلمونى بكدبهم وجنوا على أبويا واخواتى قبل ما يجنوا عليّه .. أنا بريئة وطاهرة ياعادل ..) .

تلك الكلمات التى أبكت الرجال قبل النساء .. وكنت فى البداية أغضب وأزعط فى الذين يصرخون بها علىّ ثم أصبحت أبتسم لها .. بل واحزن إذا امتنعوا عن ملاحقتى بها .. بل وكنت أحيانا أحرضهم على استعادتها ..

العجيب أن (حمادة المصرى) أصبح يغامر كل شهر تقريبا فيصعد إلى قمة الصارى ليستبدل العلم الأخضر ذا النجوم الثلاثة بآخر جديد .. و لم يكن يقوم بهذه المخاطرة قبلها .. إلا من السنة للسنة قبيل رمضان ، ليعلق راية ملونة بأي لون كان .

أعطى نجاح البدعة المسرحية دفعة هائلة لنشاط النادى فى مختلف المجالات كما دفعت مكانته ومكانة أعضائه عند أهل القرية فأنضم إلى عضويته عدد الشخصيات المؤثرة كانت المائة جنيه الأولى من التبرعات قد مّكنت النادى من شراء ملابس لفريق كورة القدم وصنعت منضده لتنس الطاولة حسب الأصول. واشتريت ملابس ومضارب للراكت ولكرة السلة .. وكنا قد طبعنا للمسرحية تذاكر باهظة الثمن أعتبرناها نوعا من الضريبة التصاعدية – نرسل وفودًا بها إلى الأثرياء – طبعنا من فئة الخمسين قرشا عددًا أكبر . أما باقي التذاكر فكانت بخمسة قروش . وطبعنا منها أكثر من مائتى تذكرة ولذلك كان الإيراد طيبًا غطى تكاليف

العرض وإقامة المسرح والإضاءة والصوت .. بل وتحقق منها فائض أضيف إلى ميزانية النادى ، مما مكننا من إستئجار شقة فى الدور الأول لمسكن من ثلاث أدوار ملكا لأحد أفراد أسرة (مطاوع) أمامه مساحة واسعة كانت تستوعب بعض إمتدادات ساحة العيد أمام دار (همام) .

لكن أهم التطورات التى حدثت بعد المسرحية كان انضمام عدد من جوالة الأخوان السابقين إلى عضوية النادى ومنهم (بكر ضيف) أحد قادة الطابور المذكور فى أحداث مولد (سيدي مجاهد) ... وكان لاعب كرة ممتاز . سرعان ما صارت له جماهيرية شديدة إذ كان هدافا ساعد على تحقيق إنتصارات كبيرة لفريق النادي في الدوري ، الذى صار حدثا تاريخيًا وهاما فى حياة القرية وحياة القرى المجاورة من (البصراط) حتى (منية النصر) . وكانت الصدارة فيه دائما لصراع شديد ومنافسة قوية بين نادينا والنادى الذى أسسه النائب المنتصر في قريته (برمبال القديمة) .

وتواكب هذا الزخم الرياضى والفني وتواكب مع ما اجتاح البلاد كلها من مد شعبي أحدثته انتخابات الوفد وماقامت به حكومته من إعلان مجانية التعليم وأنه كالماء والهواء والإفراج عن المعتقلين السياسيين، وتوج بإلغاء معاهدة ٣٦ وما صاحب ذلك من فورة حماس ضد الاحتلال .. واستعاد الوفد سمعته التى نال منها قبوله الوزارة على أسنة الحراب الإنجليزية . وماخلفه الكتاب الأسود ، وانشقاق (مكرم عبيد) منذ عدة سنوات .. وارتفع بناء المدرسة الجديدة وكان التلاميذ يخرجون من الفصول إلى حيث يجرى البناء الجديد ، فى جرن كان بركة مجاورة للطريق الزراعي فى مواجهة ميدان المحطة .. يساعدون فى نقل الطوب أو مناولة المونة للبنائين ..

كانت حالة من الفرح . زاد معها عدد الصحف التى يحضرها قطار العاشرة وتضاعف .. وأصدر النادى مجلة حائط باسم (الفجر) كان يرسمها (مأمون مجاهد) ويحررها طلبة النادى ممن صار بعضهم فى الجامعة . وهرب (حسين عبد ربه) سرًا ليلتحق بالفدائين فى القنال ، على أن يلحق به (مصطفى الزفتاوي) و(محمود الفلسطينى) الذى قام بتدريب من يتوق للتطوع – بعد أن عاد من رحلته الطويلة – منذ أختطفته السلطة إبان الحرب الأولى ورأى فيها من العجائب ما تشيب له الصبايا – حرب وغربة وسجن في جزيرة الشيطان . ومغامرات في (بلاد الأمازون) مما أجبر خالى (الخميسى) أن يمتنع عن أغاظتى بعزف سيمفونية المأمأه ويكف عن وصف أهل (ميت سلسيل) بالغنم الأبيض .

• • •

وما تخفى صدورهم

○ فزعت حين ضبطت نفسى متلبسا (بالكذب الفنى) إذ غمرنى للحظة شعور سعيد من الراحة حين هاتفنى أخى الأصغر(دكتور هشام) يخبرنى أن هناك مشترى تقدم لشراء بيتنا (بيت جدى) بيت التاريخ والسيرة ، بسعر معقول !!

قال ...

– (عادل) موافق ، هو الذى أرسل إليه المشترى

ضبطتنى فرحا أعده أن أبذل جهدى لإقناع أخينا الرابع (د.جمال) بالبيع وأن أسعى للحصول منه على توكيل ببيع نصيبه لإتمام الأمر بسرعة و لا ننتظر حضوره من (اليمن) ، هكذا بهذه البساطة . كأننى أتخلص من ثوب قديم .

حين وضعت السماعة ووجدتنى فى حركة طفولية أفرك يدى فرحاً لأن البيع جاء فى موعده تمامًا ليساهم بشكل كبير فى تكاليف علاج زوجتى وليحل بشكل ما مشكلة تكاليف طبع الجزء الأول من هذه المذكرات ، الذى أكتمل فى رواية منذ أسابيع . توقفت بعدها عن إضافة سطر واحد لبقية الأجزاء مما جعلنى أظن أننى لن أكتب سطرا أخر ، عجزًا أو يأسًا أو بسبب الإحساس القاتل بعدم جدوى الكتابة ، والشك الكبير فى فائدتها لأحد وسط هذا المهرجان الدموى من القتل والذبح والاغتيال المتبادل ، المحتدمة طقوسه فى المنطقة والذى تحيل تفاصيل أحداثة اليومية عملية الكتابة مرًا وعلقمًا وشوكًا في العروق .

أجد نفسى غاضبًا طوال الوقت ، غاضبًا على نفسى ومنها ، غاضبًا على الناس ، وغاضبًا من أصدقائى ، وأكثر غضباً من الوطن الذى أراه راضياً بالإهانة والمهانة ، عاجزًا عن رفض ما يحدث له ، متخبطًا في فهمه قاصرًا عن الوعي به والاحتجاج عليه .

غضبى يمسك بخناقى ، يجبرنى كلما أمسكت بالقلم على كتابة ما يملية على أشعارًا وأزجالاً مستفزة متفززة أشبه بصراخ الاحتجاج ، وسباب اللوعة . كصكات شماريخ من خشب الأثل على كل الرؤوس ، بما فيها رأسى ورأس من خلفوني . وحدى أعانى حمّى غضبي ، كأني آكل لحمي الحي . وهو أمر يعجزني ويحول بينى وبين كتابة الفرح ، وها هو وقد غمرنى شعور جاد بالجريمة ، يدفعنى إلى الموافقة على بيع البيت بيت الأحلام والطفولة والمرح .

أقنعت نفسى أن طباعة ذلك الجزء من السيرة – الرواية التى أنتهيت منها – سوف يريحنى قليلا وسينفث رد الفعل الذى أتوقعه حيالها قليلا

من غضبى وأعود متعافيا فرحاً لاستكمال الأجزاء الباقية . ورحت أدور بها على كل فرص وإمكانيات النشر المتاحة ، فلم أصل إلا لفرصة طبعها على حسابى كالعادة رغم ما فى ذلك الأن – فى ظروف مرض زوجتي – من إرهاق على كل المستويات .

يبدو لي أن ذلك كان سبب فرحي ، فنصيبى من ثمن بيع البيت سيحل جانبًا كبيرًا من المشكلة . ويخفف من أزمتى المالية ، من ثم أعود إلى استكمال الأجزاء الأخرى من هذه (السيرة) التى أعتبرها مشروع حياتى الأخير. وجوهرة التاج ودرة الإنتاج الأدبى فى أخر مشوارى الطويل المتخم بالعذابات والإحباطات منذ أطاحت بى حرفة الأدب التى هوّته التي لا قاع لها .

ارتحت لهذا التفسير لكننى ما أن شرعت فى جهود الاتصال بأخى (جمال) ، اطلب منه توكيلاً لإجراء البيع على وجه السرعة ، حتى وجدتنى فى دوامة من أفعال وردود أفعال المواقف الصغيرة التىرسمت صورة شديدة التعبير عما وصل إليه حالى وحال الدنيا والعلاقات الانسانية من تدهور مثير للإحباط والغضب أكثر .

وتأكدت أن طبع الرواية – لو حدث – لن يجدي في بعث أي درجة من الفرحة تكون كافية لتعيدنى إلى الكتابة مرة أخرى.

إكتشفت أن علاقاتنا – إخوتى وأنا – وكنت أرصد تحولاتها لسنوات ، خلال عديد من الحوادث الصغيرة والمواقف المتناقضة، والخلافات التافهة وكنت أعتبرها عادية مثل غيرها تحدث بين غيرنا من الأخوة والأصدقاء .

اكتشفت أنها تتدهور وتتفكك بإيقاع مطرد هابط بإستمرار، وإن كان قليل من التظاهر المتبادل وبعض التجاوز غير المقصود، وكثير من

الغفران الساذج والسماحة الريفية – كان يرم عظامها الواهنة ، ويصلب عودها المتهاوى كى تمضى مستندة إلى عكاكيز من التعالي ، وعوائق المسافات الطويلة بين كل من الشرقية واليمن والساحل الشمالى والمنصورة ودمياط الجديدة وبين ميت سلسيل .

– أفزعتك الهوة التى وجدتها تفصل بينك وبين أخوتك وبين كل واحد منهم والآخر ، ظننت أن بيع البيت سوف يكون علاجًا لذلك !؟

– اكتشفتها اليوم فقط يا فالح ، من دقيقة كنت تقول أنك كنت تراقب تطورها وإيقاعها البطئ !

– كيف فجأه إذا حدث الاكتشاف الرهيب ؟ (هشام) يلاحقك للحصول على التوكيل ؟! وجدت نفسك تسأل في تشكك – هو مستعجل بيه ؟!

(جمال) بدّل وغيّر رأيه عدة مرات ، وافق ثم أعترض وجاملك مظهراً بانه يمكن أن يساهم في طبع الرواية ، ويظل البيت على حاله ، لكنك رفضت وضغطت فى الاتجاه المعاكس مستخدمًا (هشام) وحاجته الماسة للنقود ، لتغطية رغبتك أنت فى البيع إلى أن وافق وعمل التوكيل فعلاً. لكنه قبل أن يرسله لك أقترح أن يشترى البيت شراكة مع (هشام) و(هشام) رفض بدوره. وقال تعبيرًا تعجبت له أن هذا لو حدث سيكون (جمال) أكثر منه قوة فى هذه الشراكة . دهشت وصرخت غاضبًا (هىّ حرب ؟) ده أكيد كلام حد تاني!! أستنكر (هشام) ذلك ثم عاد وأقترح أن يشترى هو البيت كله ، وبالسعر القديم الذى أشترى به نصيب البنات من قبل .

الفكرة بالتأكيد ليست فكرته – فهو لا يتقن اللوع – على رأي إحدى أخواتك ، لكن (جمال) رفض .

عاد (جمال) وكلمنى من اليمن طالباً شراء البيت كله . مما حيرنى وأغضبنى حين قال (أنه أولى على كل حال من الغريب) ، ثم عاد وطلب أن نتهاون في السعر بعض الشئ ، طالباً أن يدفع شيئًا مقدمًا ، وأن يؤجل الباقى إلى يوليو القادم ، وطبعًا كان لابد أن يثور (هشام) ويطالب هو الآخر بكل فلوسه مرة واحدة . وتركك الجميع غارقًا في محاولات تبين الدوافع وراء كل هذه الانقلابات ، خاصة عندما عاد(هشام) يقول – طب ما اشترى أنا بالتسهيلات دي !

فكرة أخرى غريبة عليه وعلى طبيعته المسالمة .. وهمس البعض (يشتريه بالرخيص وتانى يوم يبيعه بالسعر المعروض) .

حاولت استبعاد كل هذه الشكوك والسفاسف ونفيها عنه .

ولما سألت (هشام) وحايلته كى يرضى بشراء (جمال) للبيت والانتظار عليه والتساهل معه ، تشكك من ناحيته فى موقفى وحاصرنى وجادلنى كأنه يبحث عن (مصلحة لى فى الأمر) . وأغضبنى هذا جدًا حتى قلت له أننى سوف أكون أخر واحد يطلب نصيبه ، بعد أن يسدد (جمال) للجميع ، لم يقنعه هذا . عاتبته في رفق مذكرًا إياه أنني كنت دائما أقف فى صفه وكنت منذ البداية الذى نصحه بعدم شراء أنصبة البنات ، فقد كان مستقرا وكان يسكن البيت فعلا ، ووعدته ساعتها بان أضمن له بألا يطالب أحد بإخراجه وأن يعتبر البيت بيته لكنه أصر على الشراء !

أيامها كان يتابع مشاكل الأرض مقيماً به ، لكن الظروف تغيرت . فقد قرر الهجرة إلى دمياط الجديدة ، تنفيذًا لرغبة زوجته وبناته فى حياة

حضرية ، وهذا حقهم . والبيت أصبح عبئا عليه دوننا فقد كان مضطراً أن يعود للبلد كل مدة ، يراجع الموتور ويتابع مشاكل الأرض . وازداد عبء البيت مع الأيام ، فالسقف بدأ ينهار وأصبح المبيت فيه خطرا أو مثيرًا للخوف خاصة لدى البنات ، وزاد من عبئه مشاكل زوجته وبناته مع الجيران وأبنائهم بعد الهجرة إلى المدينة وممارسة الحياة الحضرية . إذ تغيروا وصاروا ينفرون من اللعب معهم والاختلاط بهم ، وأثار ذلك حفيظة بعضهن وبعضهم ، وطفحت بينهم الذكريات القديمة غير المريحة والإحن الموروثة من أيام الآباء ، حركتها مشاعر الغيرة الطبيعية مختلطة بأوهام الصعود الاجتماعى .

قلت له : الحقيقة مش فاهم سر عودتك للتمسك بميت سلسيل ، كنت أتصور أنك أول واحد يفرح . خاصة وانت ادرى الناس بحال البيت وإحتملات صموده ، ارتبك ، وزاد ارتباكه حين طلبت منه بحزم ان يوقف إجراءات البيع ، ويتحجج للمشترى بعدم الحصول على التوكيل من (د. جمال) والانتظار حتى يأتي في الأجازة .

صرخ محتجًا لوهلة ، ثم تردد وتراجع قائلا ، الناس ها تاكل وشه . وأنه لا يضمن (جمال) لأنه سيرجع فى كلامه كالعادة ، ثم دخل فى محاولة لإغرائى بالسعر الذى يعرضه المشتري . وألمح أنه لن يوافق على البيع لأى من كان بأقل من ذلك .

أحسست أن هناك أمر ما أخفاه عنى فسألته فى حزم :

– أنت أخدت فلوس من المشترى ده ؟

تردد ثم تلجلج قائلاً :

– أصل ...

وهنا أنفجر غضبي . لأننى لم اتصور أنه قرر ونفذ بالفعل ، ثم

تلاعب بى لأحصل على توكيل (جمال) وموافقته على البيع . و لم استطع فى حمقة غضبى أن أنطق فاغلقت الخط، تجنباً أن أسمعه مالا يرضاه .

صدمت بالفعل .

أتصل (عادل) بعد يومين وبطريقته التى يغلفها بالكثير من الحنان والوداعة سألني .

– لماذا شتمت (هشام) وهو لم يقصد ...

قاطعته بحده ..

– أنا ما شتمتهوش . أنا قفلت السكة علشان ما ألعنش اللي جابوه ... أنا على الآخر مش هاكون لعبة فى إيد حد مهما كنت أحبه . أعملوا إلى انتو عاوزينه .. إخبطوا دماغكم فى الحيط مع بعض أنا لا عندى وقت ولا دماغ للمهاترات ديّة، وتبيع البيت ما تبعهوش ، تحرقوه تهدوه ، لو عايزين منى تنازل عن حقى فيه ح أبعته لكم وتبقى ياسيدى بجملة – زيه زى شقة (الشناوي) !

لم أكن أريد بجملتى الأخيرة هذه إثارة مواجع قديمة أو الضغط على جرح قديم .. كنت قد تخطيت أثار تعقيداته وتجاهلته برمته وبكل ما عاصره من التباس أحزننى ، وما أحاط به من سوء فهم ونوايا غير طيبة .

تداركت الأمر واعتذرت له بسرعة عما قلته متحججاً بمدى غضبى وحمقى اللذين جعلانى غير صالح للمناقشة .

وعلى عكس ما توقعت ، كان رد فعل (عادل) باهتًا ، إذ تجاهل ما في قولى من تلميح ، وأخذ يهّون على الأمر ويعتذر لي عن (هشام) ، ويتعهد بالحديث معه لإقناعه بأحقية (جمال) فى شراء البيت .

انتهت المكالمة لكن دهشتي لم تنته ، وجدت نفسى وجهًا لوجه أمام الحقيقة العارية التي كدرتنى وأشعلت نيران غضبى من نفسى ، من الطريقة التى يبدو معها تصرفي كأننى أشوش على ما تجسد أمامى فى مرآة فاضحة ، صورة لى ، ما أن دققت فيها حتى أنكرتها . أفزعتنى صورة ذلك الذى يبدو طيبا أمامى متظاهراً بالحكمة والفهم ، متسلحًا بالسماحة الريفية وبالايثار والحب ، ليتمكن طوال الوقت من إخفاء كل هذا القدر من الإثرة ، والأنانية وقلة الوعى بل ... والكذب .

– لم تعد روحى تحتمل هذا القدر من الكذب الفنى .. فكيف أعاود وأواصل الكتابة ؟! صحيح أن ما أحمله من عاطفة وذكريات لم تكن تتعلق بالبيت الذى نتحدث عن بيعه فلست أحمل له الكثير من العواطف.. بل وكثيرا ما أنسى صورتة واجدنى دائما أتحدث عن ذلك البيت القديم .. الذى ضاع منى كأحد النتائج الفادحة غير المباشرة لتصدع الحلف الوطنى فى نهاية الخمسينات !!

• • •

حتى طال عليهم العمر

○ هل أنت تقترب من المشهد الأخير .؟!

ياللهول كل من تذكر هذا أمامه يزعط فيك ويقول اللهم أخزيك ياشيطان .؟ ليه ياجدعان .. الموت علينا حق ،وكل حى لموت مهما طال الوقت .. وماتصدقوش إن أنا باقول له اهلا وسهلا .. على الأقل انا لسه ماخلصتش (مذكراتى) أو هوامش (ذكرياتى) وسيرتى (العطرة) !!

تقوم من السرير حذرا من أى حركة عنيفة لرجلك الشمال .. يا يسارى !! وأنت لا تنام إلا وقربة الماء الساخنة تحت ركبتك .. وتتمنى الانتهاء من موال (اليوريك أسيد) والخشونة لكى تبدأ مشوار عينيك والمية البيضا التى تجاهدك بعد عدة صفحات ... وتقاوم قلقك على تآكل أسنانك

وهشاشة الطقم الذي انكسر عدة مرات فى فمك . ومابالك وحكاية (البروستاتا) وسلس البول ؟ مواويل مقدرة كلها تؤكد أن العد التنازلى قد بدأ ولا مفر ..

(نجلاء) بعد سبع سنوات من عملية الصدر الشمال دخلت في مرحلة عودة الإصابة وإنتشار المرض في الحجاب الحاجز ومسلسل عمليات البذل والحقن الكيماوي . إلى أن رقدت في المعهد أخيرا تقاوم إنزال الستار في شجاعة تحسد عليها !!

هكذا الدنيا .. فماذا ستنتظر لتعاود الكتابة .. بينما تلاحقك الأحداث وتضطرك لتفريغ طاقتك الشعرية فى تعليقات ساخرة تهاجمك ولا ترحمك ولا تسمح لك بتوفير طاقتك للعودة إلى هوامش السيرة .. تتخذ قرارات . وسرعان ما تناقضها وتصمم بإصرار وشدة . ثم تتراخى.. ولا حل إلا أن تستسلم فعليك أن تمارس أمور الحياة المادية بنفسك ..

ذات يوم لم تذهب للجمعية العمومية لاتحاد الكتاب وفضلت أن تتحامل لتقوم بمسح المطبخ والحمام بعد ان سادت القذارة والبقع أرضية السيراميك .. وغسلت الملابس والمواعين فإذ بك تكتب تعليقين في (رباعتين) واحدة عن (ولي عهد مصر) وواحدة أخرى عن (الشعرا المخبرين) .. متحديا فكرة إلاّ جدوى من الكتابة ، وألا احد يقرأ .. ولا أحد يسمع وأنك لن تطولها .. ولن يمكنك هذا النظام وهذه السلطة من حلمك بمشاهدة نهاية هذا الهول الذى يأخذ بخناق مصر ويعصر قلبك ويحسرك على كل ما مضى وكأنه كان الفردوس !

هل هي الإشارات التي ذكر (اسماعيل) أنها تأتى إلى الإنسان كى تعلنه بالنهاية قبل موعدها بأربعين يوما ؟.. تلح علىّ كل ليلة تقريبا .. أرى

(حسين عبد ربه) وأرى (أبى) أركب معهما قطار الدلتا وأحيانا أقوده بنفسى عبر الجسر العابر أمام بيت خالتى (السيدة) فى (الكفر الجديد) لكنه يبدو فى مدينة حديثة . وإن كنت شاهدت القهوة التى تبدو مدفونة فى ركام من الرطوبة والكسل . وأرى شجرة التوت ، والبربخ الأسمنتى العتيق ، تندفع من تحته مياه الترعة نحو ظلال الغاب الذى يبدوكثيفا على غير الحقيقة .

أرى (رسميه) فوق حصيرتها تتابع خلق الله عبر انفتاح زاوية الباب القديم على رحابة الزراعية والجسر وجرن (الهوارية) الخالى المحاط بالسور المتهدم والقطار الذى لا أستطيع عد عرباته يكاد يطير نحو الشرق هابطا منزلقا عبر قرى (الجمالية) و(البصراط) إلى البحيرة مباشرة يكاد يلمس سطح الماء .

وأبي يضحك وهو يوقع بالقلم الكوبيا على فخذى توقيعه المعقد حتى يضمن ألا أنزل إلى البحر الصغير خشية الأصابة بالبلهارسيا ..

وأرى (حسين) يعود إلى شقة (السكاكيني) مهزوما . ومياه المطر تغرقه ممسكا بياقة جاكتته التي لم تلمسها المطرة . تعساً لأن (زينات) أخلفت موعدها معه عمدا لتغيظه ، فظل يدور حول بيتها فى (مصر الجديدة) تحت المطر دون أن تعطيه الفرصة ليراها.

أبدو منتشيا وانا أقبل البنت (مديحة) فى حماية ساتر طبيعى من ياسمين المستشفى الزفر . كلهم زوارى من الموتى فما بالى؟ هل أحاول اللحاق بهم ومابالهم يلحون علىّ ؟. كل ليلة بشكل جديد فى أماكن عديدة وطرق مختلفة ؟.. هل هو الموت الذى كنتم به توعدون ؟هل هى النهاية التى تاتيكم بغتة وانتم لا تشعرون ؟...

يقولها (إسماعيل) بإيمان شديد مرعب يليق برجل (فلاتي) أصلي

لا يفوت فرصة لانتهاك حرمة . أو تجاوز حد أو لاشباع طاقة النهم والاستحواز التى تفور عند أمثاله ، ممن يعتبرون أنفسهم بكل جدية أصحاب هذا البلد ومبعوثى العناية الإلهية لغزو نساء وبنات وخيرات الأرض مثله مثل معظم كوادر (نظام يوليو) الذين تربوا وترعرعوا فى ظل سلطة (هيئة التحرير) و(الاتحاد القومى) و(الاتحاد الإشتراكى) و(التنظيم الطليعى) و(اجهزة الأمن العديدة) حتى آمنوا بكل ثقة أنهم أصحاب وحكام هذا البلد المسكين . لايكف لحظه عن التفاخر بسرد مغامراته التى لا يتسع لانجازها عمر عشرة أشخاص سواء من ناحية أستيعاب زمنها .. أو لاحتمال تبعاتها وأن كنت أسخر من نفسي لأنني أصدقه .

كان تكرار الحلم وإلحاحه علىّ كلما غفوت ، يملأ أنفي برائحة الموت.. ويزيد من إحساسى بعدم جدوى إكمال الرواية التي تتتابع كفيلم فى رأسى أحداث فصولها صورا وجمل حوار متهالكة . ولا أستطيع نقلها إلى الورق محبطا مكتئبا تعاودنى فكرة أن لا جدوى لمايكتب أصلا فلا أحد سيقرأ ، ولا أحد سيهتم .

ها هو العالم يمضى مندفعا يلهث نحو مصير لم نتوقعه في صبانا وفى طريق لم تتصوره قناعتنا القديمة ، و لم تتخيله أحلامنا المجهضة .. يعجز القلم وينشل بعد أن قُصف سنه منتحرا ، ولا يجرؤ على ملامسة الورق . تموت الكلمات والجمل الملحة قبل أن تتجسد حية ساخرة من (اسماعيل) وتخاريف توقعاتة .. ومنى .

المؤكد أن للموت إشارات أخرى .. أحسستها اليوم وانا فى طريقى لمعرض الكتاب الذى لم يعودوا يدعوننى إلى حفل إفتتاحه ، منذ تخطيت متجاوزا (العرف والقواعد) لأتحدث بفجاجة إلى رئيس الجمهورية عن

إنتخابات الجزائر التى أجهضها العسكر فيما بعد . وأظهرت بجاحتى وأنا أقدم له نفسى وسط القطيع متطاوسا باننى (شاعر يسارى) . اليوم أذهب إلى المعرض بالمواصلات العادية لأتاكد من صدور أخر كتبي . سرت عبر شوارع وميادين مدينة جنت لأن موقف السيارات العامة تقل من ميدان (رمسيس) إلى موقف (أحمد حلمي) على بعد اقل من كليومتر. وكان هذا الأمر التافه أن يسفر عن كارثة .

فقد تكدس الناس على الأرصفة المحاصرة بجنود الأمن العام وارتبك السائقون وعجزوا عن تحديد مساراتهم بالضبط . جنت العربات وهى تدور حول نفسها وحول البيوت فى مسارات جديدة مجهوله . تثير صرخات الهلع والغضب وتبعث على القرف والشك فى حدود تكريم الله للإنسان الغشوم الظلوم الذى أصر على حمل الأمانه . وتعيد إلى ذهنى بإلحاح اصرار (إسماعيل) على اثبات إيمانه العميق بالإله المنتقم الجبار الذى تسع رحمته خطايا العالمين . فيعمد إلى إرسال إشاراته بقرب زيارة (عزرائيل) لقبضهم إليه قبل أربعين يوما حتى يجدوا فرصة للتوبة . ويسعون للنجاة من غضبه وعذاب سعيرة وناره الموقدة، وهم غارقون فى أثامهم اللذيذة ..

كدت أتعثر حين شعرت بتعب ساقي من المشى على غير العادة .. وبطريقة لم أحسها من قبل . و لم أجد كتابى فى المعرض .تذكرت أننى بالأمس كدت قد تطاولت غاضبا على الناقد (إبراهيم فتحي) أحد الزعماء القدامى الهامشيين للحركة الشيوعية ، حين تطاول دون مبرر على قيمتى لمجرد أنني قاطعته في ندوة أدبية ، وهو يمارس هوايته الجديدة فى تشويه قناعاتنا القديمة ويواصل تخريب واعادة هدم أنقاض المعبد الذى ساهم

بفعالية (ثورية) فى هدمه الأول . كلما أحس أن هناك من يواصل البحث فى دوافع مرتكبى الجريمة أو الأخذ بالأسباب ، التى تدينهم.

عاتبت نفسى على تهورى وأرجعت تعب ساقى من المشى وبطء خطواتى إلى حالتى النفسية التى أكأبها إنزلاقى لهذا السلوك الهمجي . الذي لم يعد يليق بسني وإلى ذلك الشلل المرتبك الذي أصاب المدينة بالجنون لنقل موقف الاوتوبيس العام لمسافة نصف كيلو . وأستدعي نزول نصف مليون من جنود الأمن العام لتنظيم سير المواطنين فوق الأرصفة فى المسارات الجديدة . ورفضت بشدة فكرة اعتبار ذلك أيضا من الاشارات الإلهية . وأرجعتها لسياسة التحديث والتغير التى كلف بها الرئيس المبارك حكومته القديمة في دورة برلمانية جديدة .

ألم أقل لكم ؟؟ ها أنذا قد نسيت (اسماعيل) فى غمرة إسترسالى وخروجى الدائم عن الموضوع الذي حذرتكم منه قبيل شهور عديدة يوم بدات كتابة روايتى .. وذلك الاسترسال المعيب الذي يجعلنى لا أفرّق بين الأحداث الهامة التى تدفع الدراما إلى الأمام أو التى تجعل الحكى مؤثرًا ، وبين تلك الأحداث والتفاصيل غير الهامة غير الدرامية ، وذلك الحكى الثرثار الذي ينشغل بأمور عابرة لا قيمة لها .. تجعلنى أشك في جدوى وقيمَة ما أكتب . خاصة عندما أذكر شخصية مثل (إسماعيل) التي عبرت بالصدفة البحتة أفق حياتى ، بل وأذكرها بإلحاح وبطريقة توحى بأن لها دور فاعل أو ذو قيمة فى مجريات الأمور – باعتباره عالمًا ببوطن الأمور فخورًا بكونه عميلاً قديمًا أو عاملاً في أعتى جهاز أمني في البلد – ثم أنساها وكأننى – وهذا غير منطقي وغير صحيح – لا أهتم بها وبمثيلاتها أصلا ...

ها هي نسبة الحموضة فى جوفى ترتفع ، وحرقان عينى يبدأ فى إقناعي بإلقاء القلم لعدم جدوى الاستمرار فى كتابة قصة لم تعد تهم أحدا كما كنت اتخيل وانا ابرر إقدامى على ذلك منذ سنوات . مؤملا أن أنتهي منها قبل أن تبدأ إشارات النهاية تلاحقنى بإصرار وتحاصرنى بأفكار وتخاريف (إسماعيل) المزعومة – التي لا أومن بها .

• • •

وقلوبهم شتّى . .

○ تطاردني ذئاب آلية وأنا أعبر مملكة (القللي) قاصدًا شارع رمسيس .. كلاب حقيقية معدنية تشبه تلك التي كانت أفزعتني وأنا أشاهد (حرب النجوم) .. لكن (الحمار الحصان) الذي كان يجر عربتي البدائية نفر في وجهها فعوت وفرت . وجدتني بالترام الذي سأعبر فيه النفق إلى شبرا ، كان خاليًا مكونًا من عربتين . هناك ولد في الخامسة عشر أو أقل قليلاً يتقافز في شقاوة ومرح بين العربتين .. نظرت إليه محذرًا عدة مرات فأخرج لسانه وهو يتقافز .. ثم يقفز إلى العربة الأولى معاندًا . تجاهلته وأدرت رأسي . فجأة سمعته يصرخ وهو يسقط بين العربيتين . ثم رأيته فزعًا يلوح لسائق الترام الذي أطل مرعوبًا من الصرخة ليرى معي رجل الولد اليمنى تقطر دمًا في يده وهو يزعق هلعًا محتجًا :

– لا .. ما ينفعش كده قول للأسطى وحياة اللي ماتو الك.. هات ورا يا عم يا سواق..

قلت لنفسي .. لابد أنه يأنب نفسه على شقاوته ويظن إمكانية عودة الزمن به ولو لدقيقتين اثنتين ليعيد لصق رجله إلى جسده الملقى على الأسفلت .. ووجدتني أتساءل .. هل صحيح لو عاد الزمن – فرضًا – هل كان سيؤجل قفزته الأخيرة القاتلة الفاشلة .. ليحتفظ برْجله في مكانها ويسمع نصيحتي ؟ لكن الإجابة لم تأتني أبدًا !

وجدتني على رصيف النفق نفسه في زمن آخر . وكان ابني الذي بلغ الرابعة يتقافز بجواري مرحًا وقد أسلمني يده .. وفجأة جذبني بشدة متوترًا منفعلاً يلفت انتباهي في دهشة مشيرًا إلى رجل ربعة القوام (الحقيقة . كان نصف رجل أو قل جذع رجل بلا ساقين) يمضي على ما فوق ركبتيه بحيوية ونشاط وذراعيه تجدفان في الهواء وتدفعانه للأمام . وصاح (أشرف) :

– بابا . شايف ؟ الراجل رجليه اتبروا من كتر المشي . يا عيني . بص !.

وجدتني أضحك بصوت عال ... فأيقظني ضحكي من النوم . ساعتها كان القلم في يدي .. وأسقطته الضحكة . فقمت ابحث عنه وأنا عرقان رغم شباك البلكونة المفتوح نصف فتحة يدفع بتيار هواء بارد يلسعني وقد كشف الغطاء عني !.

تذكرت أنني نمت بعد أن توقفت عن الكتابة لوقوعي فى أسر تفاصيل الاحتفال الوفدي انتصار نائبنا .. والكتابة تغريني بما عاهدت نفسي عليه ألا أقوم بتأليف ما لا أذكره من أحداث وكنت عرفت أن الاحتفال ظل

قائمًا صاخبًا مزدحمًا إلى ما بعد منتصف الليل .. وأن البلد ظلت بعده ساهرة حتى الصباح في السرادق وعلى جسر السكة الحديد وأمام المحطة وفي القهاوي .. وعلى المصاطب . وداخل البيوت تعزف سيمونية (الغنم الأبيض) . وخمنت وكتبت مجتهدًا كلامًا كثيرًا يكفي لردم البحر فيما يمكن أن يقوله الخطباء وكان معظمهم من (حكماء) البراندة البحرية بالإضافة إلى الأستاذ يوسف وأحمد عبده حسنين الذين كانا عضوين في الطليعة الوفدية . كذلك كنت متأكدًا أنه كلما ذكر إسم (مصطفى النحاس) ولابد حدث ذلك ألف مرة (تقريبًا) تلتهب الأيدي لذكره بالتصفق في كل مرة. كعادة المصريين من عهد الفراعين !

كنت قد رحلت في نفس الأسبوع للألتحق بمدرسة دمياط الثانوية بعد أن حصلت على الشهادة الابتدائية ، حيث انتقل إليها (طه) ابن خالتي كأسطى لورشة النجارة – وكان يشرف على حجرة الأشغال في مدرسة (ميت سلسيل) منذ إفتتاحها . واطمئن أبي حين ذهب لتقديم أوراقي . إذ وجده قد استأجر شقة من حجرة واحدة برحة وصالحة في بيت قريب من المدرسة. كانت الشقة الوحيدة في الدور الأرضي ولها مدخل مستقل حيث يشغل مساحة البيت خلفها مخزن أدوات وكتب مدرسية. إذ كان صاحب البيت هو (الحاج نصار) صاحب المكتبة الدمياطية المشهورة وكان صديقًا لوالدي ..

غمرني إحساس جارف أن الدنيا تفرد لي ذراعيها لتأخذني إلى المدينة بأفاقها الحرة وتضعني برفق على شاطئ المسئولية .. وعليّ أن أثبت للجميع أنني قدها وقدود . فها أنا أصبح مستقلاً تمامًا ومتحررًا من رقابة لا تخلو من الصرامة – في مدينة كبيرة ومدرسة عريقة ناظرها رجل لإسمه

صدى رائع لدى رجال وزارة المعارف على إتساع القطر وهو الأستاذ (الهاكع) – تقدم لطلابها وجبة غذاء ساخنة وتزخر بالمدرسين الفطاحل في كافة المواد. ومجهزة بالملاعب والورش والمكتبة ، والمعامل .. وأكثر من ذلك سأسكن في بيت قريب منها ملاصق لدار سينما (دمياط الجديدة) !!

فأنا لم أرعوى و لم أرتدع من فشلي في تحقق أملي في رؤية (السايحات الفاتنات) مكتفيًا بالحصول على تلك المجموعة الملونة من صور النجوم ومناظر الأفلام الساحرة والتي أخذت أتأملها في قطار البضاعة في شغف وحب طوال الرحلة إلى القرية والتي استغرقت وقتًا طويلاً حتى أشرفنا على (ميت سلسيل) بعد العشا بكل عشا .. وأنا غافل عما يكون قد حدث على الضفة الأخرى من النهر ...

فقد اتصل خالي عقب تسليمي (للخضري) بناظر محطة (ميت سلسيل) (الخواجة سبيرو) وطلب منه أن يطمئن (عبد الباقي أفندي) أن فلذة كبده الغالي قد وصل إليهم في المنصورة بالسلامة ... وكأنه فجر قنبلة عن بعد في بيتنا .. فلم يكن لديهم أية فكرة عن هذه السفرية العجيبة المفاجئة ولا عن أسبابها .. وصرخت أمي هلعًا و لم تجد سببًا لهربي من البيت هكذا .. وفجأة !! إلا تلك العلقة التي بالغت في تخيلها .. والتي ظنت أن أبي (رنّها) لي بسبب وشاية بلغت أبي عن علاقة غير سوية بيني وبين بنت تدعى (عزيزة) وأنني أرافقها حتى في حقلها حيث (تستعبدني) في انجاز كافة أعمال الحقل وخدمة البهائم !!

ورغم إصرار أبي وانكاره لكل ذلك بل ودفاعه عني ضد الوشاية التي إختلقها بعضهم لغيظهم من تفوقي الدراسي إلا أن قلبه (أكله) بسبب لجوئي هاربًا لبيت خالي في المنصورة دون سبب !

ولما عاد (الخضري) معلنا فقداني في السكة الجديدة .. لم يتروى خالي و لم ينتظر نتيجة البحث عني .. بل أسرع إلى التليفون وطلب من الخواجة (سبيرو) أن يسأل (عبد الباقي أفندي) إن كان فلذة كبده قد عاد إليهم من عدمه ؟!

وكأنما انفجرت قنبلة أخرى في البيت حين جاءهم مندوب (الخواجة سبيرو) يعلنهم بضياعي في زحام المدينة المزدحمة اللعينة والتي اختطفت (أخوه سامي) من قبل وقتلته بوحشية على أسفلتها اللعين !!

ولما أسرع أبي إلى المحطة ليطلب خالي من التليفون الوحيد المتاح .. ليسأل ويستفسر .. كان خالي قد غادر المحطة فلم يشف الاتصال غليله فاستشاط غضبًا :

– طبعًا ما هو ما بيخلفش عيال .. على قلبه مراوح .. ح يهمه إيه ؟. لو ضاع مني ابني التاني ؟!

و لم يكن أمامه ما يفعله سوى أن يعود ليلقي بهمه ومخاوفه وغيظه على رأس أمي واخوتي الصغار . الذين انهاروا تحت وطأة انهيار أمي واعلانها الحداد العام .. رغم أن غيرها لا يعرفون حتى بوجود الضحية الأخرى (سامي) .. ولا بقصة موته شهيد منصورة خالي عديم الأولاد !

وطبعًا عندما وصلت رسالتي إلى خالي بعد أن ركبت قطار البضاعة عائدًا لم يتوانى البتة عن أن يبلغها إلى (الخواجة سبيرو) الذي لحسن الحظ لا يترك المحطة إلا بعد وصول (قطار البضاعة) .. وليلتها ظل أبي معه في المحطة ساهرًا وقد زال غضبه وحل محله قلق انتظاري مع وصول القطار بالسلامة . والذي لم يمنعه من أن يشارك (الخواجة) مرحه المعروف عنه في التعامل الساخر مع مثل هذه المواقف التي يعتبر الاهتمام بها (من باب

هيافة من لا يدركون مثله المعنى الحقيقي للحياة .. بترك ما لا نعلم أمانة في يد الإله !!) لكنه لم ينس أن يجعل أبي يرسل رسلة للبيت لكي لا تظل النيران مشتعلة هناك وليهدئ النفوس ما دمنا قد عرفنا نهاية (نكتة) المحروس !

تلقاني أبيى وأنا أغادر القطار بهدوء أقلقني . ولكني عرفت أن الخواجة استحلفه بالمسيح وبمريم وآل عمران ألا يؤذيني .. لكنني أحسست في قبضته كأنه تأبط شرًا ..! و لم ينطق بكلمة حتى دفعني أمامه داخل البيت وقلبي في قدمي .. ومرت لحظات اللقاء على خير وكأنني عائد من المدرسة . وفردت يدي للكل بالصور الملونة أدعوهم للفرجة عليها :

– شوفوا .. أنا جيبت لكو إيه من عند سينما ركس ؟!

كنت قد ارتكبت حماقات كثيرة – غير (نكتة) ضياعي في زحام المنصورة ، استجابة للعفريت الذي تلبسني واصطفاني لعشق السينما منذ شاهدت (نور الهدى) و (أسمهان) في سينما (الهمبرا) وزادت لوعتي بفشلي في رؤية (السابحات الفاتنات) ! فأخذت أسأل وأطقس حول مواعيد حفلات (عدن) و(ركس) ومواعيد القطارات إلى ومن (المنصورة) ولكنني فشلت في تكرار تلك المغامرة . حتى افتتحت سينما (المنزلة) ودارت عربة بميكرفون ومزينة بصور ملونة تبشر فلاحي المركز ببدء عروض أعظم أفلام النجوم المصرية والعالمية وتؤكد على عرضها في توقيت واحد مع عرضها في سينما (ستوديو مصر) أكبر دور العرض المصرية في القاهرة .

وكأنما استجابت السماء لدعواتي .وكان افتتاح السينما العزيزة

مواكبًا لعودة جيشنا المهزوم منتصرًا من حصار (الفالوجا) بفيلم أثار حماس الجميع وفتنني وهو فيلم (فتاة من فلسطين) .. وغنى المركز كله كبارًا وصغارًا خلف (سعاد محمد) (يا مجاهد في سبيل الله .. دا ليوم اللي بنتمناه) !

وكأنما قطعت اشتراكًا أسبوعيًا في سينما المنزلة .. و لم أسمح لنفسي أو لم يسمح قلبي لي أن أتخلف عن أي فيلم يعلن عنه في (الأسبوع القادم) أو (قريبًا) .. خاصة قد كانت السينما تعرض حلقة من حلقات المغامرات .. مثل (فلاش جوردون) وكنت أوفق ذهابي إلى السينما مع مواعيد القطارات التي كانت لحسن الحظ متوافقة مع مواعيد الحفلات والعروض في البداية . لكن الأمور لم تسر منضبطة فيما بعد ولكني لم أغير عادتي .. وكم كنت أتحايل لأعود من المنزلة تارة في عربة من عربات نقل السمك أو عربة كارو شاردة . وكثيرًا ما اضطررت في أحيان عدة أن أعود ماشيًا على قدمي حتى في الليالي التي لا يطلع لها قمر ..

• • •

ليس للإنسان إلا ما سعى

○ ها أنت تعود لارتكاب نفس الخطأ الفني وتنأى عن أصول السرد إلى نقاط باهتة مبهمة لتبرر خلطك بين الأحداث . تشكك القارئ في منطقية توالى الأزمان . وتراكم الخبرة ونمو الدراما .. لأنك مصر على أن تضع نفسك في مركزها وكأن كل شيء يدور حول ذاتك .. فتغرقنا معك في تفاصيل عارضة وتافهة وتصنع من الحبة قبة. وتحكي عن أمور عادية مر بها معظم من كانوا في سنك . ولكنهم لم يدعوا أن فشل (بعضهم) في رؤية فيلم غير مجرى حياتهم .. ولا أن (انبهارهم) بعيون برسيمية لفتاة تراحيل مغبرة بتراب الطرقات وقشر الأرز ستصبح قصة كونية تحدد لهم مسار التاريخ وتدفعهم لكتابة الشعر في المستقبل !. وليس أدل

على ذلك أنك هربت من تسجيل خطب النخبة الوفدية في حفل جرن (عبد ربه) لأنك أصلاً لم تكن تدري أيامها ما حدث للوفد في سنواته الأخيرة ومحاولاته التقرب للسراي وتقبيل زعيمه ليد الملك وحرصه على التمسك بالسلطة حتى لو خضع (لسراج الدين وزينب !) وتخلى عن شبابه في (الطليعة الوفدية) وعن أمل الناس فيه لتحقيق الحرية وإنصاف الفقراء . وانعكاس ذلك كله على خطب المنتصرين !!

اتحداك أن تنكر أن ما سمعته في ليلة الاحتفال تلك وما وصل إليك من حديث جمع عمال التراحيل من عزبة الغجر الذين أكلوا حتى بشموا ليلتها أرزًا ولحمًا شهيًا وهم متكئين على أرائك مصفوفة .. ثم عادوا يفترشون بعدها التراب الرطب الناعم بجوار سور المستشفى حيث لا تصل إليهم إلا خيالات الإنارة الباهرة في السرادق ! ولا تميز آذانهم إلا أصداء موج الكلام العارم من مكبر الصوت الزاعق ! وهم يثرثرون في سعادة شبع نادراً ما يحسون بها وهو يعلقون ساخرين :

– يا عم أهه كلام ابن عم حديت ، هو احنا ح نشوف حد منهم .
– هو الكلام عليه جمرك .. يا عم صلي وانسى . !
– يا عجْل دانت لسه مالي (بحولتك) هبر محمرة من خيراتهم..
– من حقهم يدوشونا يا سيدي وآدينا بنتسلى ..
– على قولك يا ريتهم يدوشونا كل ليلة بس يعشونا ..

لم تكن ضحكاتهم الساخرة هي التي خلطت الأمر عليك ولكن الذي خلط الأمر على سمعك وبصرك هو دورانك حول ذاتك .. لأن جمعهم ذكرك بجمع آخر من رجال وبنات تراحيل (العزبة) ينتظرون من يأتي إليهم ليدفع يومياتهم ، في ليلة أخرى ، من زمن لاحق ، في نفس

المكان .. وانت تدور حولهم وتقترب منهم متسللاً .. كطائر مفترس تحاول جذب أنظار فريستك (مديحة) التي خطفت فؤادك كي تستجيب لنداء عشقك الساذج وتلحق بك بعيدًا تحت ظلال الياسمينة ذاتها والتي تغطي السور ذاته ، ذات ليلة من زمن آخر ، لتسلم شفتيها البكر لشفتيك المتعطشتين لتحقق ذاتك وتطفئ غليل نزاوتك !.

أنت تمضى في تفاصيل ما يجري عندما يكون ما حدث له صلة مباشرة بالصورة التي ترسمها لنفسك ولن تسمح بذكر أي شيء يخدش حياءك من تلك الصورة ..

لقد كتبت في بداية ذلك اللغو أنك ولدت والدنيا على موعد مع مأساة الحرب العالمية الثانية بل وذكرت اجتياح (هتلر) لأوروبا وأنه تنبؤ بما سيحدث لك أو ما سيحدث للعالم بسببك .. وظننت معها أنك ستربط بين سيرتك المأساوية (كما أوحت بها كلماتك) وبين ما مر بالعالم من مآسي كبرى فإذا بك تذكر مذبحة (الكوليرا) فقط عندما توهم أبوك أنها ستلحق به .. وكيف أنقذته بإحضارك عدة حبات ليمون من جنينة (عبد ربه) .. لم تذكر كم من البيوت رأيتها وقد أصبحت خاوية على عروشها، إذ خلت من سكانها بكاملهم و لم تذكر منظر جنازات دفن الضحايا الجماعية .. ولا حال من كانت تداهمهم الإصابة أثناءها فيتحولون من مشيعيين إلى مشيعين ببساطة الفرق بين الكسرة والفتحة !.

و لم تهز (حرب كوربا) شعرة (أقصد رعشة) من قلمك . رغم ما راح ضحيتها من فيالق جيش الجاموس (ذا بفلو آرمي) وأنت الذي كنت تقرأ الصحيفة مع جماعة (دكان محمود شطا) الوفدية وتدخل بيتكم مجلات

(المصور) و(الاثنين والدنيا) ثم دخلت (الكواكب) بعد ما ضخمت من إصابتك بإدمان السينما .. لا .. لا ..

لابد أن هذا له أسباب تخشى أن تذكرها فتثبت جهلك بما يجري في الدنيا أو يثبت وعدم إدراكك للعلاقة بين تأثيرات ما جرى للعالم عبر نصف قرن أو يزيد وبين تناقضات ذاتك !؟ أو خشية أن تظهر قدراتك المتواضعة على الحكي وأصول السرد الروائي فتكتفى أن تعلق عجزك أن تكون روائيًا مشهورًا على الحصار المزعوم حولك والحرب المشرعة ضدك ولاتعترف بقلة وتواضع موهبتك !؟

هل لديك أقوال أخرى – أقصد تبريرات أخرى ؟!

ما أشد سعادتي بغضبتك هذه يا صديقي وما أجمل جرأتك وصراحتك ! واعترف أنها جاءت في الوقت المناسب .. تمامًا وأنا في هذه الحالة من التشفف والمراجعة . ولا أقول الإحباط بعد مرور عام على (ثورة ٢٥ يناير) والتي فاجأتني بالضبط مثلما فاجأتك بل وكما فاجأت من دعوا إليها وكل من بشر بها لكن .. ليس هذا موضوعنا .. ففرحتي الكبرى تعود لسبب آخر .. لقد أعطتني غضبتك دوافعا أكثر جدية لكي أستمر في إكمال هذه الراوية .. بعد تلبك بكرة الخيوط الدرامية في يدي!! وعجز ذاكرتي عن استيعاب المقولة التي تؤكد أن من ينشد (الحقيقة) فليبحث عنها في الذاكرة .. هذا لو كانت هناك حقيقة (حقيقية) يمكن أن تستوعبها أية ذاكرة !

– حلمك علي ، فأنا كنت أنتظر صوتك ليشحذ ذاكرتي ويعينني على الاختيار الأجدع والأنفع للاستمرار .

وغضبتك هذه يا صديقي ، فيما يبدو سوف تساعدني على فك وتسليك خيوط بكرة الدراما .. التي تعقدت بين أصابعي. لأسباب لا أستطيع حصرها .. فيها ما يتعلق بما جرى للدنا بسبب انفراط عقد الاتحاد السوفيتي بفضل أجهزته وأجهزة أعدائه الأمنية ..

أو بسبب جهل أو انتهازية أو حتى خيانة أصدقائنا المشتركين التي أوصلتهم إلى قرارهم بذبحك في (العام الخامس والستين!) أو تسليمك على طبق من عبوديتهم التاريخية كأبناء شبه شرعيين للزواج غير الشرعي بين اليمين اليساري والأمن التقدمي !

في البداية لو تذكر .. أعني في بداية هذه الراوية .. كدت أسميك بأسماء أصدقائي .. أصدقاء الحارة والشارع والحقول في ميت سلسيل الذين علموني العوم في البحر الصغير وكيفية صيد طائر الخضير .. والسهر في مقابر (أبو خشبة) في ليالي القرية المظلمة أو تحت ضوء القمر والذين شاركتهم صيد السمك أو قتل الوطاويط .. وسرقة الجنين المسيجة بالأشواك أو اقتحام مخادع البائسات من الحريم . وملاعبة العفاريت .

ثم أيضًا لو تذكر (أو أعدت قراءة الصفحات الأولى) فضلت أن أقدمك لقرائي المظاليم على أنك كنت دائمًا (جبريلي) وأنا (أحمدك) أو (خضرك) . وكنت (فرجيلي) وأنا (دانتيك) .. أو (ابن عبد ربه) وأنا (سميرك) .. أو أنك (ابن عبد الباقي) وأنا (توأمك) .. أو أننا كما أعتقد جدودك وأجدادي مثل (الكا – والبا) ولكن لأنك تقليدي الذكاء والموهبة أو لأنك لا تثق في ذكاء قرائي ومريديك فضلت أن تغضب فتفسد الفكرة.. يا صديقي ..

الشاهد أو الخلاصة أو حاصل الكلام .. كما يقولون في الحواديت الأكثر صدقًا وبساطة والأعمق حكمة وأقل تعقيدًا . فقد أرحت ضميري كي استكمل حكايتي وأن أللم الخيوط الملبكة المعقدة كما هي لأستجدي الذاكرة المرهقة . واحايل القلم المرتعش . وأقاوم كل ما يحيط بي من إحباط وارتباك . واتبع حكمة السحرة القدامى وخبرتهم .. لأذكر ما أكرهه لكي أحبه .. وأنادي النائي فأقربه .. وأسمّى المتمرد لأسيطر عليه.!

فاغضب وارفض وتمرد .. فأنت مني أقرب من حبل الوريد . وانت على لساني وتحت سن قلمي ، رهن إشارتي وبك قد تكتمل روايتي !!

• • •

ما هي إلا أسماء سميتموها . . .

○ أفحمتني يا ابن عبد الباقي ..؟ أغلقت سبل الدفاع أمامي يا للهول !!.. ها أنذا أقف عاجزًا عن الرد .. (واحسرتاه على يوسف) .. هل ارتحت الأن وأرحت ضميرك الثوري .. أم تراك أوغلت في التمادي كعادتك .. وباعترافك وإقرارك أنك تهدم ما تبنيه وتحمل غيرك – أيا كان – مسئولية ما هدمت !

تهول وتبالغ في أخطاء غيرك وتنسى خطاياك..

تتنصل من مسئولياتك – حتى البسيطة منها – وتنكش بأبرة للعثور علي من يتحمل عبء ذلك – عداك.. لن أدخل معك في جدل صبياني فقد كنت مشاركًا في تلك الواقعة الجريمة .. رغم عدم

دعوتك لذلك الاجتماع الذي لم يحضره كثرون أهم منك وأكثر مكانة في التنظيم منك .. فلم يعرف عنك سوى الصمت عل الأقل عما حدث بل والإيحاء بالموافقة بعد أن بلغك موافقة لجنة الدقهلية أصدقائك ومطالبتهم به . قلت للبعض بعد أن انضم مسئولي لجنة القاهرة واحدًا بعد الآخر إلى التنظيم الطليعي .. وبعد سلسلة من الاجتماعات التي لا قيمة لها – أنك اكتشفت أن نشاطنا في الجامعة يصب فقط في صالح تنظيم الشباب الذي يقوده زكريا محيي الدين .. حتى من نجندهم للاشتراكية يذهبون إليه بسبب منهجنا الدعائي المكبل بمحظورات ازعاج الحليف وترهلنا التنظيمي بل وأعلنت اقتناعك بعبث استمرار تنظيمنا بلا استراتيجية متمايزه وبلا رؤية مستقلة وتنبأت بأن مصيرنا هو التلاشي .. لأن رؤانا على ما يبدو توافقت مع النوايا الخفية للذوبان في نسيج وأحضان الحليف الذي يبدو كأنه يفرد جناحيه لنا ملوحًا بريشة إغواء . وشوكة تهديد ناعم .

كان هذا موقفك يومها . فلم تبالغ الآن في الهرب من تحمل المسؤولية التي تلقيها على عاتقي وحدي دون رحمة !!

يا أيها الكاتب الجهبذ ألا ترى في ذلك تناقضًا مع ما رسمته لشخصيتك طوال عمرك.. ألم تتخذ مني (بردعة) تحملها كل نواقص شخصيتك وخطاياك ونوازعك السرية والشريرة !!

أنا لا أريد أن (أشخصن) – (حلو التعبير ده .؟ حداثي مش كده؟) – لا أريد أن أفعل ذلك ولكني مضطر أن أذكرك بقولك ردًا على بعض من سألوك من الصحفيين أو مقدمي البرامج التليفزيونية – عن السر وراء حصارك وتجاهلك كشاعر وكاتب أطفال ومسرحي !! (وهل تشعر أن هناك من يضطهدك .؟) – فأخذتك العزة بنفسك وصرخت فيهم – من

الذي يستطيع أن يضطهدني ؟ أنا أضطهد بلد ! – وأضفت مفاخرًا أن أكثر من حارب وحاصر واضطهد ابن عبد الباقي هو ابن عبد الباقي نفسه!

ياللهول والحق أقول أنني يومها أكبرت فيك هذا . فقد بدا لي اعترافا قريبًا من الحقيقة .. ظننت أنه سيقودك إلى تصور أقرب للواقع وللحقيقة وللصدق عن نفسك ولكني اكتشفت أن به شوائب من التمادي ومن الغرور !

وبدت فيه قدرتك على كتمان ما تعانيه حتى عن أقرب الناس إليك وانفلات لسانك الجارح . الذي لا يبصر عيبة في سلوك قريب أو بعيد . عدو أو صديق – إلا وفضحها – عيني عينك ووجهًا لوجه حتى صرت ما أنت عليه . حتى عند أكثر مريديك وأصدقائك .. قنفذًا بريًا شرسًا لا يمكن لمن يألفه أن يداعبه تقربًا إليه أو يربت عليه تشجعيًا له دون أن يتحمل وخز أشواكه .. وربما أنيابه أيضا !!

سامحني يا توأم روحي واغفر لي . فأنا لا أريد أن يصل بنا هذا الجدل إلى حد الخصام أو القطيعة فأفقدك بعد هذا العمر الطويل من الأحداث والشخصيات وأجد نفسي وحيدًا مرة أخرى كما حدث في مرات كيثرة من قبل– إفتقدتك إلى جانبي فلم أجدك.. واضطررت إلى اختراعك وخلق وشائج وعلاقات بك تعيد إلى ثقتي بنفسي وأشعر معها بإنسانيتي وأشم عطر موهبتي التي لا تتفتح أزهارها إلا وسط الآخرين وتحت دفء شمس الصداقة..

نعم يا صديقي لا أريد ان افقدك .. فأنت أكبر أن تكون شخصًا بعينه بشريًا تنطبق عليه القوانين التي تحكم مصائر البشر العاديين .. أو كيانا

يصلح أن يقوم أعضاؤه مرغمين أو حتي بمحض إرادتهم بإعلان وفاته وانتهاء شكله التنظيمي المستقل من أجل عيون عدوهم الطبقي أو لأجل خاطر أصدقائهم الإشتراكيين في قمة السلطة أو في خدمتها وعلي جلدها كالحراشف طافحين..

لست واهما كذلك الذي يتصوره الذين بمن في السماء يؤمنون في أي ملة أو دين .. لا يا توأم روحي ، فأنا حين طلبت منك – حين بدأت كتابة هذه الرواية – أن تسمح لي بالحديث عنك كنت (فكرة) نعم فكرة .. لجأت اليها كحيلة درامية أو حيلة فنية لتعميق الصراع وتجسيد الأحداث التي تهرب من الذاكرة ولتكون (معادلاً موضوعيًا) يساعدني على مد خطوط الدراما وحائطا أستند إليه كلما إدلهمت الخطوب أو تاهت الخطى لا أستطيع أن أنهي هذه الرواية التي لا تبدو لها نهاية واضحة . وقد طالت الحقب واختلطت المصائر .. وضعفت القدرة على التذكر .. فلا تغضب مني وتهجرني وأنا في أشد حالات الحاجة إليك بجانبي والموت يقترب لامني وحدي ولكن من الوطن نفسه – حبنا المشترك . ولكني أرجوك ألا تفهمني خطأ .. فأنا لا أريد بهذا الإيضاح الذي يكشف خططى الفنية أن أتنصل من مسئوليتي عن كل كلمة ذكرتها في حقك أو في صفك – ضدك أو معك – لا فهذا أمر آخر . ففي كل المواقف الذي تجسدت فيها علي أي صورة أبدعتك ستظل أنت (جبربلي وفيرجليي وخضري وتوأمي) كنت ومازلت وأرجو أن تظل ، لنخوض سويًا ما بقى لي من أيام ولنحاول سويًا أن نفهم ما أحاط بي وبك من بلايا و ما كدر حياتك وحياتي من أوهام ونكشف معا ما ظل غامضًا من خفايا .!

فأنت أول من كدر براءة طفولتي حين قرأت عليّ كتاب الأساطير فألقيت بي كرخ (السندباد) فوق جبل (الأوليمب).. لأصاحب – أنا التلميذ الصغير الريفي – (زيوس وابولو وبوسيدون وهيرا وأفروديت وعوليس وأخيل) وكل شعبهم من السّاتير وعرائس الماء .. وأنت هو نفسه الذي وضعني علي خشبة المسرح مشمولاً بقدسية (الأمين) لأصيح بصوتي الضعيف أهز جبال (مكة) وبيوت قرية (الجمالية) وكفار (قريش) وتجار سوق الثلاثاء .

– إيتوني بثوب ..

فتسيل دموع النساء وترتجف أطراف الآباء .. وأنت من دفعني لسرقة مفتاح دولاب خالي المشلول الشيخ لأسير وحدي في غابات وممالك (ابن المقفع وبيدبا) وأخوض بحار (القزويني) وأطير فوق بساط الريح إلى جزر المرجان وجبل المغنطيس وأدخل كهف (ملكة الحيات) مع (حاسب كريم الدين) ولأسرق ثياب الجنيات الطيور وأنزل مع (جودر) تحت طبقات الأرض لأحضر الخاتم ..

وأنت من دفع إبن عبد ربه أن يعطينى كتاب (المعذبون في الأرض) فاكتشفت جهلي بمن هم حولي وأفسدت علي كوني الابن الأكبر أو البكر لأب مهتم . ودفعت بي إلى عوالم (ارسكين كالدويل) و(وموم) و(جوركي) و(رايت) و(شكسبير) و(جراهام جرين) و(فروست) .. وفتحت عيني وقلبي (لنجيب محفوظ) و(إدريس) و(ديماس) و(طاغور) .

أغويتني في المدينة بأضواء السينما فأدمنت وهج (السابحات الفاتنات) وفروسية العصور الوسطى .. ورعاة البقر وقطعت سهول آسيا خلف (حاجي بابا) وغابات فرنسا وراء (دارتنبان) و(آتوس) لأتسلق الباستيل وأحرر دكتور (مانيت) وأضيع في حواري وحانات (سان

انطوان) أنت ؟ ومن غيرك ؟..

قد تكون (صلاح أبو العز) الذي شاركني في مداعبة (عزيزة) وقد تكون (حسن العربي) الذي صاحبني في ظلام القرية نطارد العفاريت . أو تكون (مأمون الزفتاوي) أو (ياسين عابدين) أو (فاروق النملة) أو حتى (حسين عبد ربه) الذين فتح كل منهم بابا الي خبْرة أوطاقة لمعرفة ... ولكنهم جميعًا مهدوا لي الطريق إلى (ماركس) والمادية الجدلية . فصنعوا مني ذلك البائس الذي اعتنق الماركسية وآمن بأن (ماركس) ترك للبشرية منهجًا لو أحسنوا فهمه وتفعيله لما ضل ثوار أبدًا !!

ولذلك تجدني تماديت في تأنيبك لأنني واصلت عمري واجترار ذكرياتي إلى ذلك التاريخ المشئوم الذي أغراك فيه أصدقاؤك الاشتراكيون (!!) وحاصروك مع الظروف لكي تنهي وجودك . ظنًا منهم أو وهمًا منك أنكم معا بذلك ستبنون مصر وستخرجون بها من هوة الاستبداد والتخلف فضعتم معًا وضيعتمونا .. وبددتم طاقات الوطن لخمسين عامًا .. وانفجرت أمامي مأساتك ومأساة الوطن بشكل فاضح واضح .. عندما نضج الصراع الطبقي الذي تجاهلوه .. وتنامى الوعي العام بفعل قوة الدفع الذاتي لظروف العالم وتوحش الرأسمالية .. وخضوع الوطن الذي قاوم الاستعمار طويلا وتصدى لإملاءات الإمبريالية الجديدة التي أسقطت التجربة السوفيتية .. وتعرض شعبنا لأبشع صور القهر والفقر والإذلال .. فكانت ثورة (٢٥) يناير التي طالت أكفها السماء وأسقطت الطاغية ولكنها عجزت عن قطف ثمار انتصارها لأن الجماهير تلفتت تبحث عنك قلم تجدك . لأنك رضيت أن تنتحر ذات يوم .. متخليا عن مسئوليتك التاريخية يا صديقي .

أعرف .. ستعاود غضبك مني ولكني لا أريد .!

فقط أريد أن أذكرك بأنني لم أعقد ذراعي علي صدري وجلست أبكيك وأنوح على حالي يوم رحلت .. نعم حدث ولكن لأيام – ولكني لم أكف أبدًا عن التغني بمآثرك والدعوة إلى جمع أشلائك والدعاء من أجل إعادة نفخ الروح فيك ولكني رغم هذه الدواوين الشعرية والإبداعات التي دارت كالشهب في فلكك تناديك وتبشر بقيامك... كنت وحيدا . حتى في الفترة التي عرفت فيها تلك الفتاة التي سأحكي لك عنها والتي تعرفت عليها إبان فترة الحداد التي أعقبت إنتحارك ..

فاسمح لي في محاولة للتخفيف من التوتر بيننا والواقع المعاش يكئبني ويضخ اليأس والإحباط في عروقي لأنني أرى الثورة المضادة تعاود جمع قواها وتعيد ترتيب علاقاتها التابعة لقوى السيطرة في العالم .. ويدخل الثوار في متاهات التخبط لغياب قيادة الكيان الواعي والمنظم الذي كان يمكن أن يجنبها الكثير من التعثر .. ويجمعها في مواجهة أعدائها ويصنع معها وبها الانتصار .. الحديث يجرني إلى المزيد من الحسرة علي غيابك فدعني أقص عليك ما منعني يومها من الانتحار لألحق بك ...

• • •

وأشرقت الأرض . . .

○ قفزت – هي – في خفة إلى عربة الأوتوبيس بعد تحركها ، فاختل توازنها .. شهق هو – واندفع من فوق كرسيه إليها .. لكنها كانت قد استعادت توازنها وصعدت منحنية لتتجنب ذراعه الممدود. وان قالت دون أن تلتفت إليه متجهة إلي (كرسي خمسة) في آخر العربة ..

– مرسيه ..

تملى بعيونه الوجه الجميل الدقيق التقاطيع ، غرق في العينين الواسعتين ، وهو يعود شبه محبط إلى مقعده – دون كلمة . خطف قلبه النمش الخفيف على الوجه النظيف النضر ، ذكره بنمش ريفي سحره في صباه .

بعد قليل لسعتها حرارة الموتور ، فانتفضت،

وقامت لتقف أمامه ممسكة بالعمود الرأسي القائم بجوار الكرسي المستعرض الذي يجلس عليه ، بجوار رجل عجوز محنيّ الظهر، ظل يراقب الفتاة منذ صعودها الخطر بعينين ميتتين من تحت حاجبين أشيبين كثيفين .

انتفض – هو – قائمًا بدعوها للجلوس مكانه ..

استفزها عرضه – قالت باعتذار رافضة دعوته :

– ليه ؟.. مرسيه ..

بلع ريقه وابتسم مندهشًا، ومد يده في إصرار ، تناول الكتب من يدها دون أن يترك لها فرصة للرفض . تركتها له دون أي اهتمام ..

وضع الكتب فوق حقيبة اليد السوداء الكلاسيكية التي يحملها .. قرأ عناوين الكتب ، فهزّ رأسه وهو يرفع عينيه نحو الوجه الجميل الجاد ..

– ياستي اتفضي اقعدي .. داحنا زمايل ..

رفعت حاجبيها في دهشة حقيقية ؟..

– زمايل ؟.. إزاي يعني ؟

– أيوة .. إنتي مش طالبة في كلية الزراعة .. أنا كمان في كلية الزراعة.. يبقي عيب – تعالي اتفضلي . احنا فلاحين برضه .. و .. زمايل..

– مش ممكن .. الأدعى ما دمنا زمايل إني ما اخدش مكانك ...

لم يجد ما يقوله .. استطردت . بعد أن تأملت ملامحه واستنتجت سنه .

– لكن أنا عمري ما شفتك في الكلية ..

– لا .. ما هو أصل دي أول مرة أروح الكلية بعد ما اتنقلت شبرا ..

– غريبة .! الكلية بقى لها كذا سنة في شبرا .. إنت معيد ؟

– يعني .! كان من مدة مفروض أبقى معيد .. لكن ظروفي بقى ، أنا طالب في البكالوريس لسه ..

– أنا بقى لي سنتين في الكلية واعرف كل الطلبة تقريبًا .. لكن حضرتك ؟!

– لا والله .. صدقيني .. أنا طالب في بكالوريوس زراعة عين شمس فعلاً .

كان الرجل العجوز يمد رأسه لدرجة تكاد تنحشر بينهما وهو يتابع الحديث دون أي رد فعل . قالت :

– مش محتاجة تحلف .. لكن ليه ماكنتش بتظهر في الكلية .. ظروف إيه اللي منعتك؟..

قال وهو يبتسم في سعادة لأن الحوار لم يبتر حتى الآن :

– أصلي كنت في (بعثة) !

– بعثة ؟! بعثة قبل التخرج ؟ آاه .. تكون ؟

ضحكت في براءة رائعة ضحكة رائقة جعلت أكثر ركاب الأوتوبيس يلوون رقابهم يتابعون الموقف في فضول ..

فوجيء بكل هذه العيون فأحس ببعض الحرج .. لكنها لم تهتم بل أكملت ضحكتها بطبقة أقل ارتفاعًا .. وهي تقترب منه برأسها الجميل . فانسدل شعرها ولامس جبهته .. سحرته رائحتها وأسكرته ، والبريق الذي لمع في عينيها دوّخه وهو يتابعها بحبتي عينيه – وهي تهمس :

– أوعي تكون في (بعثة) الواحات !!

فوجئ . وارتج عليه وآفاق . و لم ينتبه إلى أن العجوز الذي بجانبه قد قام متثاقلاً يتكي بيد خشبية على كتفه مبتعدًا. دارت هي وجلست

بسرعة إلى جواره في فرح . إبتسامتها الغامرة احتوته وأعادته إلى حالة الخدر فلم يشعر بالوجوه التي مازلت تتابع الموقف في فضول . والأجساد التي صعدت وتزاحمت حولهما من المحطة التي نزل فيها العجوز ، بينما واصلت الحديث ملتفته إليه من مكانها في حب استطلاع طفولي ، وهي تحْرُك في مرح وتشده من كمّه تستحثه أن يجيب .

– هيّه الواحات ؟! أكيد انت م اللي كانوا في الواحات .!

تنبه من غيبوبة السحر التي استولت على مشاعره .. وحينها استطاع أن يتمتم في دهشة حقيقية :

– انتي تعرفي الواحات ؟ منين ؟

وكأنها تعرفه من سنين دفعته في صدره في حركة طفولية شقية وقالت :

– طبعًا ! إيه ؟ ابن خالتي كان معاكم ، ولازم تعرفه ؟

– اسمه إيه ؟

– الدكتور (ف . ف) .

قالتها ببساطة وضحكت .

– مش ممكن ..

رد غير مصدق . وابتسم محرجًا . فلعلعت ضحكتها .

و لم يكن هناك من بُد أن يشاركها بقهقة أعلي من شقشقتها الضاحكة وهو يتركها تأخذ يده وتسحبه وراءها في اتجاه الباب :

– محطتنا جت .. وصلنا ! ياللاّ .

قفزت في خفة ريم بري . ووجد نفسه يقفز خلفها كالوعل الجبلي دون أن يلحظ نظرات العيون التي تابعت المشهد ، بعضها محتجا في تأفف

وبعضها الآخر مندهشًا في فضول . وحدها عيون طفلة كانت تلصق وجهها بالزجاج الخلفي للسيارة . ظلت تبتسم وهي تتابع قفزاتهما المرحة – يبدو أنها كانت الوحيدة التي لم تلاحظ فارق السّن بينهما – فلوحت لهما بكفّها الصغير سعيدة . توقف مندهشًا مرحًا ولفت نظرها للطفلة فصاحت في فرح أكثر منه غير مصدقة وقفزت وراء العربة تلوح لها وتشده معها في قمة السعادة ..

منذ دخلا معًا باب (قصر محمد علي) الذي نقلت الكلية إليه من (قصر القبة) أثناء غيابه في (البعثة) .. لم يفترقا إلا ليلتقيا – طوال عشرين شهرًا كاملة اعتبرت نفسها مسئولة عنه .. ناقشت حرس الكلية محتجة في حدة ، عندما سألوه عن الكارنيه الذي لم يكن قد استخرجه بعد ، وعلى الفور صحبته إلى شئون الطلبة وجعلتهم بكل اهتمام يبحثون عن خطاب الأمن الخاص بإعادة قيده وانحنت له في حركة مسرحية وهي تتعمد الجدية الباسمة وهي تسلمه الكارنيه بعد إعتماده بخاتم الكلية وتوقيع العميد .

– الآن .. قم ، فأنت طالب !

كانت معروفة لكل الطلبة في الكلية تقريبًا .. تحيي هذا وتشير إلى تلك . وتعلق ضاحكة على أخرى وتداعب ثالثة ، كانت رائعة ، أسلم لها قياده كطفل فأخذته لجولة سياحية إلى المعامل والمدرجات والأقسام والمزرعة .. ثم صحبته إلى البوفيه .. وهناك جلست معه في أحد الأركان . لاحظ احترام الجميع لسلوكها .

– أنا (جوزفين) . إسمي (جوزفين) .

– وإيه يعني .. وأنا (سمير) بس كانوا ح يسموني (محمد سمير) .

سألته عن حياته وكيف يتعامل مع الدينا والناس بعد سنين المعتقل ؟ وكيف يدبر أمره ؟ وأين يسكن ؟ ومع من ؟ وما عمل والده ؟

اندفع يحكي مسحورًا بشخصيتها القوية المرحة المستقلة الودودة .

كانت تعرف معظم الطلبة بالاسم ، تجامل وتأمر وتنهر عند اللزوم من يقترب منهما ويقطع حديثه ، أعطته بكل إرادتها كل مشاعرها ووقتها واهتمامها حتى غمرته واحتوته .

يومها .. لم تذهب – هي – إلى أي من محاضرات السنه الثانية .. و لم يسجل – هو – اسمه في قسم الاقتصاد الزراعي ، كان يحكي مسحورًا وكانت تسمع في شغف .. تنعكس كل المشاعر على صفحة وجهها . وفي عينيها تتزاحم ردود الفعل ، تتوالي الفصول .. تصفو السماء وتغيم ويغيب القمر .. ويصير بدرًا .. تثور أمواج البحر وتهدأ وتصفوا مياه النهر وتتكدر . تسقط الأمطار وتندفع جماهير في شوراع المواجهات الدامية ، ترق الكلمات لتتقطر شعرًا مليئًا بعذابات الوحدة والغربة . فتكاد تبكي.. ثم تصفوا في غنائية تفيض بشجن العشق وعذابات الشوق والحنين فتحملها عل جناجين من نور إلى شواطئ حلم غامض .

مرت ساعات لم يعودا يلتفتان لندائات زملاء لها يتعجبون لحالها ، أو زملاء له يرحبون بعودته .

حل الليل وأضيئت أنوار الكافتريا .. كان لابد من مغادرة الكلية .. كان لابد من الفراق .. حين خرجا لم يتفقا على لقاء آخر .. كان اليوم نهار السبت يوم راحة الرب ، فقال لها أنه سيزور أخته عصر الثلاثاء في كلية البنات .. وكانت قد أخبرته أن عندها في الغد محاضرة هامة في مدرج أربعة .. وكانت تعرف أنه قد يحضر صباح الثلاثاء قبل الذهاب

لزيارة أخته إلي قسم الاقتصاد للحصول على جدول المحاضرات كي ينتظم في الدارسة – أول الأسبوع القادم ..

ركبا الأوتوبيس ، نزلا معًا في (القللي) . عرف أنها تسكن في شارع (السبتيه) ، ودعها وهو يقول عندما لم يجد ما يقول أنه يعيش في حي (حدائق القبه) مع اتنين أحدهما كان في البعثة .. لوحت له ، لوح لها ، لم يشبع بعد من ابتسامتها .. ظل واقفًا يتابعها وهي تشق طريقها طائرة لا تكاد تمس الأرض في رشاقة دون أن تلتفت إليه . حتى اختفت فجأة وراء سور (نفق شبرا) ..

أحس كأن الدنيا انخطفت منه فجأة . بالضبط مثلما حدث عندما دفع به إلى الزنزانة (٣٩) الدور الثان (سجن المنصورة) لأول مرة من (٥ سنوات) بالتمام والكمال ، فداهمته نفس الرغبة العارمة في البكاء !..

لم ينتظر حتى يأتي على العالم يوم الثلاثاء .. وجد نفسه – تاني يوم – واقفًا أمام مدرج أربعة في انتظار انتهاء محاضرة السنة الثانية الهامة التي قالت أنها ستحضرها صباح الأحد .

كان منظره ملفتًا ، شاب يبدو أكبر سنًا من كل الطلبة يقف بلا سبب فيما بين المدرجات . وشعر بهمسات تدور عنه بين بعض الطلبة ولاحظ إبتسامات ماكرة على وجوه بعض الفتيات من اللائي رأينه بالأمس معها. ولمح نظرات استنكار على وجوه بعض الفتيان..

كان يبدو كتلميذ غر يقف أمم باب مدرسة للبنات حيث لا يجب أن يتلكأ الصبيان .. ثم هلت – هي – فأشرقت .. بدت وسط زحام الطالبات والطلبة الهابطين على السلم العريض .. مختلفة ، مميزة واضحة.. ومرحة..

كانت تتلفت – خمّن أنها تبحث – هي – أيضًا عنه ، صدق حدسه .. قالت له وهي تعطيه يدها كأنهما على موعد ..

– كنت متأكدة إنك جاي .. وعشان كده النهاردة عزمتك على الغدا يا غلبان !

ورفعت لفة مستديرة في كيس من البلاستيك أمام وجهه ، دون تكليف . قائلة في اعتزاز ودلال :

– صنْعة إيديه ، حتاكل صوابعك وراها . صحيح انت قلت لي أنك طباخ ممتاز .. لكن يا إبني هناك فرق .. ده من إيد (جوزفين) ..!

استطعمت إذنيه كلمة (يا إبني) التي خرجت من بين شفتيها حنونة ببساطة مذهلة – أخذت قلبه .. سارت به في حدائق الكلية . ومشاتلها كانها تقدم له حديقة قصرها الخاص الذي تعرف وتعشق كل شبر فيه .. يرحب بها كل من يراها من الجناينية وعمال المزرعة والمعيدين ثم ذهبا للكافتريا .. كان ركنهم خاليًا فجلست في مرح وقالت وكأنها تحتضنه بعيونها :

– ياللا احكي انت بقى ..

وعاد يحكي وهو لا يتصور – للحظة – أنه سيكف عن الحكي .. إلا بالموت . أكلا ما أحضرت من طعام . حلقات من البيض المسلوق مؤطرة باللحم المتبّل المفروم ، لم يهتم بمعرفة اسمه ولا طريقة صنعه مع إنها المرة الأولى في حياته التي يذوقه أو يراه فيها . دعاها كي تأكل من صنع يديه – هو ، فصحبته إلى شقته بكل بساطة .

ظلا – ولعشرين شهرًا يقطعان شوارع القاهة سيرًا على الأقدام لا يكلان ولا يتعبان من المشي ولا من الكلام .. كأنما خمس سنوات من

الصمت والموت تجاهد كي تعود إلى الحياة . صحبته إلى (إيزافيتش) حيث عرفت أصدقاءه وتعرفت بزملائه . إصطحبها لبيت (نذير وشلبية) وإلى حجرة (محمد جاد) وعبرا معًا دهاليز التاريخ القديم وسراديب العصور الوسيطة، طاردهما المماليك في حواري الأزهر وحاصرهما (الرومان) في الكنيسة المعلقة . وصلت معه خلف (إخناتون) للشمس وغنت ورقصت مع فتيات التراحيل عندما زارت معه بيوت أقاربه وحين تعرفت إلى أمه وأخوته وعندما حكى لها عن أهل قريته فردًا فردًا .

ركبا معًا سفن السندباد وهربا من الأسر يوم هاجم التتار دمشق . وطافت متأبطة ذراعه حواري قريته ليلاً ونهارًا لا ملل . فرحت من القلب وبكت بحرقة وهي تحاول زيارته مع أخته في سجن (المنصورة) .. امتلأت بالغضب لاستسلام زملائه للتعذيب في (أبي زعبل) دون مقاومة ، ضحكت من القلب لحكاياته عن الشاويش (بولجانين) وعم (حسن عطية) ، دق قلبه في صدرها مع إيقاعات أناشيد وقصص ثوار الغابات في (فنزويلا) و(البرازيل) و(فيتنام) ، هتفت من القلب مع عمال التعدين في شيلي . ذابت من الوجد والحزن وهي تقرأ له أشعار (لوركا) بعد أن قدمها إليه على ضوء قمر جريح ، صعدت جبال (إسبانيا) مع الأنصار وهي تبكي .. اصطحبها وأخته لمشاهدة فيلم (الحياة اللذيذة) (لفليني) وأعاد عليهما قراءة السيناريو أكثر من مرة ، فتاقت لرؤية البحر .. أنفقا عمرًا على رمال الشاطئ في (الإسكندرية) وسارا حافيين على الكورنيش من (الأنفوشي للمنتزه) .. صفقت وهي تقفز فرحة لسعادته يوم قبل عضوًا في (الحزب) لأول مرة .. وتفتت قلبها حزنًا عندما جاءهًا باكيًا يغرق نفسه في أحضانها لأنهم (حلّوا) نفس (الحزب) وبقلوب باردة .

كنّت وديعة في حجره وهو يقص عليها حكايات سجنه ومغامرات صباه وحياته في الزنزانة (٣٦) في سجن (المنصورة) ورحلته إلى (الواحات) .. وليالي معتقل (القلعة)

وغنت له أغنية (أم كلثوم) (سهران لوحدي) التي كانت تتسرب إليه خلال جدران القلعة القاسية من المقاهي الباهتة الملامح في (الخليفة) .. وساندته بكل قوتها وشجعته على الإضراب من أجل الجرائد والإذاعة .. والخطابات وفتح الزنزانة ، إحتضنته وهو وحيد في عربة التراحيل يرتجف من البرد منكمشًا تحت لسع رياح الشتاء دون ملابس حقيقية .. وأيدت موقفه من طلاق أخته ، لكنها لم تسامحه أبدًا .. لأنه ظل رافضًا الغوص خلف لآلئ بحرها حفاظًا على بكارتها .. و لم يفهم سر نظرتها القاسية الغاضبة كلما كبلته سلاسل قيوده الأخلاقية. تمنعه من الوصول معها إلى سدرة المنتهى .. مدعيًا أنها ليست كالأخريات وأنه لايرفض اتهامها له أنه أسير ماض لا وجود له أمام ما جرى للدنيا وللناس خلال خمس سنوات نفيه.

• • •

وغرتكم الأماني . . .

○ كنت في هذا الأمر – أتحداك أنت – نعم أنت بالذات . لأنك لم تكن تريد لهذه العلاقة أن تكتمل ، كنت تريدها كغيرها.. عابرة لا عمق لها .. غرت من إمكانية وصولي إلى قمة لا تعرفها .. نعم هل تذكر يوم جاءت إلي فجأة دون موعد ، قلت أنها جاءت كي تنام معي وأنني لم أفهم .. صرخت فيك لأنك تريد تلويث كل شيء تركتني غاضبًا مؤكدً على غبائي .. وعدم فهمي رغم كل هذه السنين والتجارب لعواطف المرأة .. و سطوة رغبتها .. لمحت في عينيك اشتهاءها . يومها كان الأفضل لك أن تنصرف .. حتى لا أقتلك .. طبعًا تذكر !؟ لأنك لا تصدق أن لعلاقة كهذه صلة بحل (الحزب).. كنت تريد أن أقتل الحلم عمدًا ، وكنت

أريد أن أثبت أن شيئًا مقدسًا يجب أن يبقى بعيدًا عن خسة السياسة ودناءة الوصول على جثث الآخرين ، كنت أموت شوقًا للإكتمال معها وفيها .. كنت عمدًا أقاوم نفسي لأثبت أن شيئًا جميلاً يمكن أن يبقى في حياتي دون أن تدنسه خطيئة المساومة أو يكون رخيصًا معرضًا للبيع والشراء.. و لم تفهم أنت مشاعري لأنك تحسب كل شيء بحسابات عملية وواقعية وتقيس العواطف بشريط المصالح المقسم لوحدات قياس التكتيك والاستراتيجية .

إسمع .. لا أريد أن تشوه ما أتصوره عن ذكرياتي معها .. أترك لي شيئًا أعيشه كما أردت وكما عشت قبل أن تفسد كعادتك كل شيء . نعم كم كان هذا جميلاً ورائعًا .. أنت لم تعره اهتمامًا في البداية واعتبرته عطشًا لممارسة مشاعر (الميلودراما) بسبب سنوات الحرمان الطويلة خلف القضبان .. تحديتك في البداية ثم رجوتك أن تفهم وأن تعطينا فرصة .. أن تحس بي وتشعر بحاجتي إليها . لكن برودك حيال علاقتي بها كان يخيفني . وكنت أقسمت أنى سأحمي هذه العلاقة منك ومن منطقك العقلي المادي العملي السخيف ، الذي حاصرتني به . كنت تقول بخفة وأنت تقيم جدرانًا من الغل .

– لن يقبلك القبط فارفع علمك فوق قلعتها . ولن يسامحها المسلمون فلا تتركها تتباهي بضعفك وتزهو بك عليهم . أمك نفسها قالتها لك – نكتة ظريفة أي نعم – لكن قاسية وواضحة تفهم واقع الحياة .

– لن أشرب من إيدها كوبّاية ميه ..

– ليه يا أمي ؟.. انتي كنت صديقة لمدام (إيزيس) التي كانت تسكن بيننا وفي بيتنا لسنوات . وأرضعت ابنتها وكنت تؤاكلينها وتشاربينها .

عاشت وسطكم هي وأولادها سنين .. إيه الحكاية .. إيه الفرق ؟

– دي حاجة ودي حاجة . عايز تجيب منها أولاد ..؟!

– سيدنا (محمد) جاب (إبراهيم) من (ماريا) ..

– أنت مش نبي ..!

وهي نفسها قالت لك تحت تأثير لحظة نشوة خفية – كيف تحلم بيوم تخرج من الكنيسة وسط الورد والزغاريد وأنت تحملها إلى البيت أو إلى السيارة .. ولما انتهت من حلمها قالت لك كأنها تعتذر عن تماديها بعيدًا إنها مستعدة أن تتزوجك في الحال وبالطريقة التي تريدها ..

وأنت ؟.. ماذا فعلت ؟..

رفضت طبعًا .. سقطت في بؤرة ضعفك القاتل ، وفتحت أبواب جحيم التبريرات – صحيحة وزائفة ، حقيقية ومفتعلة – بحجة أبيها المريض بالقلب مرة .. ومراعاة لأخوتها الذين هاجروا واحدًا بعد الآخر .. وخوفًا من تلك النظرة القلقة في عينيها – من احتمالات سجنك التي يمكن أن تحدث في أي وقت.

لا تتستر خلف ذلك الطموح الخفي الذي كان يبرق في عينيها أحيانًا والذي كانت تفشل في دفنه تحت ركام أخلاقي مفتعل . ولا تبرر خيبة أملك بأحاديثك الرائعة وأحلامك الممتدة من (بكين) حتى (هافانا) .. والتي تحمل الفقراء على جناحين من شعر وحكايا ، حلم تظن أنه لن يموت – فليكن ما تريد .. خلّك غارقًا في غيامة وهمك لأنها لن تحتمل . سحرك لم يفعل مفعوله، و لم ينجح في شق صدرها لانتزاع بذرة الشيطان ، فأنت لم تسمح لي بانتزاعها من صدرك – أنت أو علاقتك .

– أنت الذي لم تدرك كم تغيرت الدنيا خلال (٥) سنوات قضيتها في (البعثة) يا زميل.

لم تعرف أن الفتيات يحملن الآن في حقائبهن المدرسية شرائط تنظيم

الأسرة .

لم تكن حريصًا على عذريتها حفاظًا على شرفها المزعوم . بل كان حرصك على ما تظنه عذريتك أنت .

كانت بينكما (٥) سنوات فقط لكنها كانت بمثابة حقب طويلة جدًا . تكاد تبلغ في طولها قرنًا من الزمان .. قدر المسافة التى تفصل ما بين (لفيشاوي) وديسكو (المريديان) .. ما بين حكايات (أم يوسف) و(ساتيروكون فليني) .. ما بين خطابات (جيفارا) .. وقرارا (حل الحزب) ، و لم تفهم .. تركتك عامًا ونصف . بل أكثر تمارس حالة المراهقة التي حرمك السجن منها قبل أن أظهر في الصورة لأضع مرآة أمام وجهك . أنت تمنيت ظهوري وكان لابد أن أظهر ولو رغمًا عن أنفك ، فمازلت لا تفهم ولن تفهم إنني توأم روحك (.. كالكا .. والبا ..)

إذا كنت مازالت تعتقد في أصولك الروحية .. على كل حال أنا لست عدوك .. أنا صديقك وقرينك .. قرين المرء لا يعاديه ..

وتوأمه .. لا يؤذيه ..

على كل حال . كي تكتمل لديك الصورة وتظهر لك براءتي.. إذهب في الثالثة بعد الظهر غدًا إلى (جروبي) .. لن يحتاج الأمر لقرنفلة تشبكها في عروتك ولا لمجلة (روزاليوسف) هو سوف يتعرف عليك لأنه يبحث عنك .. وطلب مني أن أدبر له لقاء معك .. وسوف يعطيك دليل براءتي من دمها .. وبراءتك أنت أيضًا .. لو كنت ماتزال مهتما . أن تعرف لماذا تسربت من بين يديك شيئًا فشيئًا .. وتبخرت أمام عينيك .. حملها (عفريت) الواقع بعيدًا عن أشواك زهر أحلامك المهزومة ..

• • •

فبصرك اليوم حديد . . .

○ ليست هذه مذكرات يا سمير .. ولا خطابات .. فأنا لم أكن أجرؤ على كتابة مذكراتي بانتظام بسبب اضطراب حياتي .. و لم أكن أفكر في مراسلتك بعد وداعنا الدامي .. أعترف .. أنك الوحيد الذي أحبني ممن عرفتهم من الرجال .. لا تغضب .. ولا تنفعل تقبل الأمر كظاهرة للفحص والتحليل كما علمتني دائمًا وحسب ما تقول أفكارك وكنت أصدقها وأصدقك ..

(من الضروري استبعاد عواطفنا إذا كنا نريد الوصول إلى قرار سليم..) وعمرك ما فعلتها .. كانت عواطفك دائمًا هي عينك التي ترى بها كل شيء ..

ولو كنت تدرى أنني عرفت كثيرين غيرك ..

لقتلتني .. نعم يا حبيب القلب عرفت آخرين حتى وأنا أعبر معك القرون بحثًا عن ذاتي .. أجاهد لمعرفة هويتي .. وأعرف من أنا .. كان عندي أمل أن تقودني أنت إلى نفسي .. كنت الوحيد الذي أحبني .. كنت الوحيد (الجبان) الذي أصر ألا يفض بكارتي .. رغم كل الإشارات لم تفهم .. وعذرتك لأن المسافات بيننا كانت بطول هذا التاريخ السحيق من القهر والانتهاكات .. وباتساع الهوة بين أحلامك .. وظروف حياتي .. لم أحك لك التفاصيل فبعضها كفيل بتدميرك لو وقعت هذه الأوراق في يدك وكنت لا تزال صامدًا تخوض حربك الشرسة ضد طواحين الهواء وطواغيت مصر ..

كثيرون .. نعم .. عرفت الوغد والندل والطاغية والفسل والأمّعة .. عرفت – الرجل الخرتيت والرجل الخنزير .. والرجل الكذبة .. بعضهم كانوا من أصدقائك .. لا تنفعل .. فكل من قدمتني إليهم من زملائك أصدقاء القهوة راودني عن نفسي .. أكثرهم إلحاحًا كان (القبطي) الذي تصور أن مهمة إبعادي عنك مهمة دينية مقدسة حتى لا أصبح فريسة (الغزو الإسلامي) .. قليلون هم الذين حفظوا غيبتك منهم زوج (شلبية) و(محمد جاد) وبلدياتك الذي فهمني يوم فاجأتك في شقتك بحجة حاجتي لشرح بعض المواد التي سأمتحن فيها في اليوم التالي .. كان ذكيًا فعرف أنني جئت بسبب ملفق .. فاستأذن وتركنا وحدنا.

أنا وصفتك يومها بالجبان ونحن على قمة (الأوليمبْ) لأن ريفيتك غلبتك .. كان يومها يومًا فارقًا في العلاقة بيننا .. فقد رفضت أيضًا أن نتزوج على الفور عند أقرب مأذون .. و لم استسغ فكاهتك عندما قلت

لي (ولماذا لا تكون أقرب كنيسة).. عرفت أن الهوة تزداد بيننا والمسافات الطويلة صارت أطول.. لكني كنت أحبك ومازلت .. كنت أحبك على طريقتي .. أنت الوحيد الذي (قدسني) واتخذ مني ملاكه الحارس .. كنت الوحيد الذي أحبني بحق .. وكنت أتمزق .. وأنت تقدمني لأمك الطيبة .. التي أحسست بمرارة قبلتها رغم ابتسامتها التي ذبت في رقتها وحضنها الدافئ الذي عوضني كثيرًا .

كنت أبكي أحيانًا وأنا في أحضان الآخرين .. وعاقبني الرب .. عقابًا صارمًا ..

هل تذكر يوم التقينا في (باب الحديد) بالصدفة .. وكدت ان تحتضنني وسط زحام الخلق ..

عرفت يومها أنك في أزمة مع زوجتك وأنكما على وشك الطلاق.. هل تعرف إلى أين كنت ذاهبة .. كنت ذاهبة لأكفر عن عقاب الرب .. عند طبيب الأمراض التناسلية . !!

تواعدنا يومها على أن نلتقي ونذهب إلى القناطر .. لكي نستعيد ذكرى أحلى رحلة لنا حين كنا نلتهم العالم كفاكهة محرمة .. وتركتك وأنا متأكدة أنك لن تأتي .. فأنا أعرفك أكثر مما تعرف نفسك ..

لقد حكيت لزوجتك كأحمق عن كل مغامراتك قبل الزواج .. هل هناك من يفعل ذلك ؟ إلا ريفي أحمق .. كنت تريد ان تبدأ معها صفحة جديدة .. كنت تتصور أنك (تطب في بحر النيل لتتطهر من الماضي) . الحياة ليست شعرًا يا شاعر . وهي لم تفهم .. طبعاً .. وجاءت إلي .. تصور جاءت إلى شقتنا ولا أعرف كيف استدلت عليها .. لابد أنك وصفت لها.. حتى أدق التفاصيل .. يا مغفل .. جاءت لتتأكد أنني لم أعد على

علاقة بك.. وحزنت لسذاجتها . لكني حزنت أكثر وأشفقت عليك..!

لم أكن في (بيروت) عندما ذهبت إليها من صديقك المغني الذي لم أتعرف عليه ولكني سمعت الشريط الذي سجلتموه هناك أيامها . ويبدو أن جزءًا من (عقاب الرب) هو ألا أكون في (لبنان) وأنت فيها . فقد كان يمكن أن ينقذني لقاؤنا في تلك الظروف النادرة .. كنت في (البرازيل) مع زوجي (الماروني) .. أنت تعرفه ذلك (اللبناني) زميلنا في الكلية .. كنت تسميه (اليرقة) .. وكنت أضحك من القلب .. وأقول أنك غيران منه لأنه على طرف نقيض معك .. في كل شيء .. ستتعجب لأنني تزوجته هو دون كل الحيوانات والحشرات التي عرفتها .. كنت أمعن في الانتقام من نفسي لأنني ضيعتك ..

لو كنت يومها في (بيروت) لتغير وجه الدنيا .. كنت يومها ستصبح طوق النجاة الأخير .. كنت سأرتمي في حضنك فوق منصة (عروس البحر) .. أو فوق جبل (أميون) أمام تمثال (فرج الله الحلو) وأمام كل تلك الجحافل التي كنت تحتفل معها بإزحة الستار عن التمثال وإغراقه في الورد .. وأصرخ فيهم لأعلن لهم أنك حبيبي .. ولكني لم أعرف – إلا عندما عدت – أنك كنت طائر (العيد الخمسين) المغرد .. وأنك حرثت (لبنان) من (طرابلس) إلى (صيدا) ومن (بيروت) إلى (بعلبك) .. تغني لـ (نيرودا) و(فرج الله) و(شهدي) .. وللعمال .. وللحرية والسلام .. وكل ما شدني إليك وأذابك في دمي الفاسد .. كانت علاقتي باليرقة قد وصلت إلى حد السفالة .. كان (عقاب الرب) شديدًا .. فأنا التي لم أقم علاقة إلا مع من أرغب .. وبإرادتي الحرة .. وكنت أعتبر حريتي الجنسية جزءًا لا يتجزأ من حريتي كإنسانة .. أنا التي لم أحظ بعلاقة معك ، يا من أحببت ، أجبرت

على أن أكون لطيفة مع شركائه .. ومموليه في كل مكان .. كان ثمنًا فادحًا لحياة باذخة .. وكان عقابا شديدًا كعقاب امرأة (لوط) .. لأنني لم أحافظ عليك ، تركتك لضعفك وأوهامك .. كي تدفن نفسك في أحضان جارية أو امرأة ريفية لا تستحقك .. و لم يكن بإمكاني استعادتك حتى في صورة ذكرى .. و لم يعد للحياة طعم .. ولذا سأعود إلى (مصر) .. وأطلب مغفرة (ايزافيتشْ) و(ريش) .. و(الفيشاوي) .. و(أتوبيس ١٣٢) .. و(صوبة الظل) في قصر (محمد علي) .. و(القناطر الخيرية) .. و(كازينو الشجرة) .. (وشارع شبرا) .. و("٨" ش محمد مسعود) و(محطة القللي) و(سينما راديو) .. وإن أمكن سأطلب غفران (الزنزانة "٣٩") الدور الثاني سجن (المنصورة) .. و(زنزانة "٦" بالقلعة) و(مزرعة المحاريق) .. و(عنبر ألف في العزب) . لعل الجميع يغفرون لي خطيئتي ، إنني لم أحاربك من أجل حبي .. وتركتك تنتحر على طريقتك .. وإن لم يغفروا لي .. فسوف أجد لنفسي طريقة أسرع للإنتحار طلبًا للغفران !

كان الذي سلمني الأوراق .. هو نفسه ذلك (القبطي) الذي كان يحارب من أجل انقاذها من الوقوع في حمأة حبي الريفي.. أعطاها لي وفي عيونه نظرة تشف قاسية .. و لم أكن أعرف علاقته بك يا صديقى لأنني فوجئت به يتقدم مني ويسلمني الأوراق .. ويمضي دون كلمة ..

لمحت قسوتك الفجة في نظرة عيونه عندما إلتفت ليتأكد إنني مازلت واقفًا مسمرًا مذهولاً من المفاجأة .. لأنني حتى تلك اللحظة لم استوعب مدى اتساع وتشعب صلاتك وطول ذراعك .. وخيل إلي أنه يقهقه في تشفّ وهو يدور ليختفي عن ناظري .

• • •

إن الإنسان لفي خسر . .

○ أيتها الأسماك الحرة المسكينة .. خذيني صديقًا لك . فقد رحل عني معظم الأصدقاء .. أعاهدك أن أطلق سراح كل من يلقي به سوء الحظ منك في براثن شبكتي ، أو تلتقطه صنارتي .. فأنا أعرف مشاعر من تشق الخطاطيف سقف حلقه . وذقت مرارة السقوط في قبضة الشباك على اختلاف أنواعها .. فكوني صديقة لي ، بعد أن هجرني الأصدقاء الذين يخيل لي أحيانًا – أن معظمهم لم يكونوا أبدًا – كما صورتهم لي أوهامي..

أنا الذي لم أعد نفسي الشخص .. أنا الذي لم يكن ينتابه أي شك فيمن هو – أنا الذي كنته وما سأكونه .. رغم أنني أقنعت نفسي كثيرًا ، وعلى مدد متفاوتة الطول . وبسبب ظروف مختلفة ، أنني ولدت من جديد مرات ومرات .. فلم أصب برصاصة طائشة في حواري الجامعة العربية

(بيروت) ، و لم تنهدم فوق رأسي صدفة إحدى بنايات (الفكهاني) .. أو (كورنيش المزرعة) .. و لم تنفجر في توقيت مضبوط مع خطواتي سيارة مفخخة عند (رأس بيروت) أو عبر (كاركاس) إلى (الحمرا) .. و لم أتعفن في أحد سجون (سوريا البعث).. أو (ليبيا العقيد) .. وأنني نجوت في اللحظة المناسبة و لم يجرفني السيل في (بوخارست) و لم يقتلني على سبيل الخطأ .. العسس الغاضب المتوتر في بحرة (دمشق) أو في حواري المنطقة الصناعية أو (باب توما) ..

كل إنسان يولد مرة .. وقد يموت ألف مرة ، لكنني ولدت مرات كثيرة .. ومازلت حيا في انتظر الموت للمرة الأخيرة ، فوق فراشي .. بعد هذا الرحيل الطويل في المكان والزمان، في الأسر وفي الحرية ..

ومازلت أراقب تحولات نفسي النزقة كسحابة مرحة ، تدفع بها ريح البحر نحو ذراعى طفل مجنون ، طموح ، سريع البكاء، مشحون بالعواطف المشبوبة ، يجلس متطلعًا إلى المجرة على حافة قرية (ميت سلسيل) الغربية قبالة (سيدي مجاهد) بالقرب من (مسرف) البلهارسيا .. المزدحم بالضفادع والذي لم تقصفه الطائرات الإسرائيلية بعد ، وأن وضعته في حسبان خططها للمستقبل – لعجزها عن تفسير ما يزدحم به عقله من أفكار. وهو يجلس ساكنًا يتأمل الشمس الغاربة .. يراقب عفاريت الدنيا وهي تلعب في بحيرات الضوء الذهبية بين ظلال تيجان النخيل حول قبة الشيخ (مجاهد) .. أو حول صخرة (بيروت) . يتابع في انبهار رقص جنيات الماء وعرائس الحواديت ، في غابات (موسكو) و(صوفيا)

و (غوطة دمشق) و(سراديب كريتر) .. قبل أن يغص قلبه بالهم الحقيقي لصراع الطبقات ، وتسلط القوى الغاشمة وسحقها للشعر عبر

الكرة الأرضية ، من حقول الأرز في (فيتنام) حتى منازل الأزهار في (شيلي) و(الأندلس) ..

وقبل أن يجد نفسه عاجزًا تمامًا عن لوم الشمس (الأم الأزلية الأبدية) على ظلم الإنسان. لأخيه الإنسان وكيف كان يستطيع؟، وهي تدفئ في صباحات الشتاء وأمسياته الباردة الإنسان الشقيان وقاهره المرتاح في لحد واحد . تخرج كل يوم وتسطع فوق شق الحارة الغرقانة في برك الفقر . في نفس الوقت الذي تبرق فيه وتلمع وتلعلع فوق جدران القصور البلورية وأشجار السلطان.. دون أن تهتز منها شعرة ضوء ..

ما ذنبها ؟.. إذا كان قد رأى العالم مقلوب الأوضاع . ووجد أن الحلم الإنساني معطوب .. والتاريخ مكتوب بالطريقة التي تجبر الجميع على فهمه بالمقلوب .. القادر قادر – ويلقي التبرير الرسمي الدائم لخطف اللقمة من بق الغلبان .. الشمس ليست (الأمم المتحدة) ولا (الولايات المتحدة) لتوزع ضوءها المقدس بأكثر من ميزان .. أو بطريقة غير عادلة بين العمال وأصحاب الأموال ..

كان سيجد القدرة على لومها بالتأكيد – إن أتيحت له الفرصة – لو أنها طلعت فرحانة تغني طلعت يا محلا نورها وهي توقظ وتفتح شبابيك القصر ثم عادت فانقلبت وضربت بوز وهي تدق أبواب بيوت الفقراء وتوقظ رصفان حارة شق التعبان .

الشمس صريحة وواضحة .. عارفة أن الحق حق . وبتطلع من ملايين الأيام والسنين، توزع ضوءها بالحق وبالعدل .. هو وحده الإنسان من يعطيها المبرر ، ويزودها بالحجج والبراهين ليعدمها روح العدل .. أول ما تطل بوشها في مرايته .. وتدله على منبع قوتها .. فتعطيه فرصة أن يتحكم فيها ..

النيل أيضًا من سالف وقديم الزمان .

بيروي عطش المفتري والكداب وابن الحرام .. ويسقي الطيب والنوري الباشا والوالي .. والفلح الكلح ، المكفى على سن المحرات علشان يتكوم مهدود على عتب الأبواب . ويبل ريق الأغراب اللي سقوه وسقوا بلاده الويل . وسرقوه وسرقوا منه حلاوة الليل .. وخطوات الخيل . بيرويهم همه وجيوشهم وهو يحمد ربه على بق المية اللي بيبقى له .

ماليش أي حق ألومه أو أعاتبه .. لأنه مقدر له يخضر نفس الأرض اللي قادره تشيل أولادها وتشيل اللي دابحهم .. وتحاجي على بناتها .. زي ما بتداري على اللي فضحهم .. وعشان متحملة خطو النكدي الظالم أبو دم تقيل . والعاشق قلب المواويل ..

النيل طول عمره سبيل ، ونبيل .. قبل ما تتفرنج ميت سلسيل .

أنا وأنت اللي رضينا نلهب قلب أولاده في الصحراء تحت نابالم الغدر ، وندوسهم بالدبابات عيني عينك في صهد (بؤونة) .. وسمحنا للقتلة يشربوا منه ، ويقعدوا في ضل شطوطه .. ويقتلوا شبابه ويعروا بناته في سلسلة جهنمية طويلة وممتدة منذ عرف العسكر الطريق إلى العرش واستنشقوا عطر السلطة فقرروا يأكلوا تمر نخيلة ، ويمسحوا أيديهم الغرقانة في دم أولاده – في غض نجيلة ..

تنكر ؟!.. أن أنا وأنت ياما هدينا حيله .. وسممنا – بذُلنا وخيانتنا للعيش والملح – مواويله.!

• • •